

حنين
الصَّائِغ

ميشاق

النَّساء

رواية

دار الآداب

محكومةً بالخوف والعجز، تعيش أمل بونمر حياةً ريفيّةً محافظةً في قريتها الدرزيّة في جبل لبنان، حيث يهرب العديد من أسئلة الحياة إلى التدين والعزلة. يُمسك الأب، الذي ينتمي إلى طبقة المشايخ ويعمل حدّادًا، بمطرقة سلطته على العائلة ليُشكّل مستقبل بناته الأربع بصورة تتناسب مع عالمه المحدود. يقف الالتزام الدينيّ لوالديّ أمل عائقًا في طريق التحاق أمل بالجامعة الأميركيّة في بيروت. وفي هذه الأجواء، تعقد أمل صفقتها الكبيرة للانعتاق من خلال الزواج بسالم، أحد أثرياء الطائفة الدرزيّة. فهل سيفي سالم بوعده؟ أم ستخوض أمل حربًا جديدةً من أجل تحقيق حلمها؟.

هذه الرواية هي محاولةٌ للغوص في المجتمع الدرزيّ المعاصر وتفكيكه اجتماعيًا ودينيًا وأسطوريًا. هي روايةٌ عن الحرّيّة بمعناها الأكبر، وعن الأمومة كورطة وفرصة، وعن الحبّ الذي يتخطّى الحدود الجغرافيّة والدينيّة والثقافيّة.

حنين الصايغ شاعرةٌ لبنانيّةٌ من مواليد ١٩٨٦. صدر لها ثلاثُ مجموعاتٍ شعريّة.

ISBN: 978-9953-89-752-3



9 789953 897523

دار الآداب

حنين الطايغ

ميثاق النساء

رواية

دار الآداب



ميثاق النساء

حنين الصايغ / روائية لبنانية

الطبعة الأولى عام 2023

الطبعة الثانية عام 2024

ISBN 978-9953-89-752-3

دار الآداب للنشر والتوزيع



للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة

موقعنا www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

info@daraladab.net

rana.adab@gmail.com

إلى ابنتي

اعذريني لأنني لم أكن أبدًا بكاملتي معك .
أنا أربّيكِ يا صغيرتي وأرّبيني ،
سامحيني . . .

الجدار

telegram @yasmeeenbook

ربيعٌ جديدٌ يتسلَّل إلى المدن بينما قرى الجبال لا تزال
تشبَّث بما تبَقَّى من الشتاء. وصل الباص في التاسعة صباحًا إلى
الموقف الصغير بجوار سراي مدينة «عاليه». انتابني حالةٌ شديدةٌ
من التوتر وأنا أغادر الحافلة. حُيِّل إليَّ لوهلةٍ أنني نسيت ملفَّ
أوراقي على المقعد المجاور بالباس، ولكنِّي سرعان ما وجدته
بيدي، فأخذت نَفْسًا عميقًا ومشيت بضع خطواتٍ باتِّجاه المكان
الذي يتجمَّع فيه سائقو التاكسي. كان التقاطع مزدحمًا بحكم
وجود السراي الذي يستقطب السكَّان من جميع الضيَع المجاورة
لإنجاز معاملاتهم الرسميَّة. بائعو الكعك وخبز الصاج ينادون على
الزبائن، وعناصر من الدرك ينتشرون هنا وهناك بعيونٍ كسولةٍ
وظهورٍ بدا عليها ثقل السلاح. في موقف سيَّارات الأجرة، كان
هناك بعض الباصات الصغيرة التي تتَّسع لسبعة ركَّاب وبعض
السيَّارات العاديَّة. لم أكن أريد باصًا بل تاكسي خاصًا، لأنَّ

مهمّتي تحتاج إلى سائقٍ مكرّسٍ لي وحدي. مشيت أمامهم بخطواتٍ سريعةٍ ومتوتّرةٍ محاولةً اختيار العربّة المناسبة والسائق المناسب. «تاكسي، تاكسي»، كان يقول كلّ منهم على حدة وأنا أمُرّ بجانبهم كأنّهم مبرمجون على إطلاق هذا الصوت كلّما مرّ أحدهم. كان بعض السائقين من المشايخ الدروز ذوي الشوارب الطويلة والقلنسوات البيضاء والسراويل الفضفاضة السوداء. شيءٌ ما جعلني أبتعد تمامًا عن المشايخ وأقصد سيّارة مرسيدس بيضاء قديمة في نهاية الموقف، يجلس سائقها السّيّني في مقعده ويضع قدميه خارج السيّارة على الأسفلت. كان صوت فيروز يصلني من شبّاك المقعد المفتوح الذي بجانبه، ودخان سيجارته يتصاعد من بابه على الناحية الأخرى. أعجبني جوّه العام ومزاجه، وأحسست أنّني أريد أن أكون بصحبة شخصٍ بهذا الاسترخاء لأتغلّب على تشنّجي.

- صباح الخير عمّو.

- صباح النور يا صبيّة.

- ممكن توصيلة إلى الجامعة الأميركيّة؟

- عالحمرا؟

توقّفت لبرهةٍ وكان عليّ أن أفكّر بجوابٍ سريعٍ وذكّي كيلا يفضحني جهلي. كيف أخبره أنّني لا أعرف أين تقع الجامعة الأميركيّة دون أن أبدو بلهاء؟!

تظاهرت أنّني لم أسمعه بسبب ضوضاء الشارع.

- على المدخل الرئيسي للجامعة الأميركيّة.

- تكرمى، بس رح يكلفك المشوار ثلاثين ألفاً. أوفرلك تروحي بالباص، بيمشي بعد 10 دقائق.

- تكرم عمو. موجودين ما يهّمك.

أنهيت عبارتي مسرعةً وفتحت الباب الخلفي كي لا أسترسل في النقاش. كان القلق يتملّكني ويجعلني لا أثق في أيّ خطوة أقوم بها، ولكنني كنت أظاهر بالقوّة. وهذا التظاهر يحتاج إلى الكثير من الطاقة، الطاقة التي أحتاجها أصلاً لأقوم بكلّ خطوة ولألفظ كلّ كلمة ولأفكر بوضوح.

قال السائق «توكلنا على الله»، وأدار المفتاح فارتفع صوت المحرّك القديم ووصلت رائحة دخان العادم إلى أنفي، فشعرت بدوخة خفيفة، وألقيت برأسي على الزجاج.

مررنا بسوق «عاليه» الرئيسي وأنا أنظر من النافذة. شعرت أنّ المدينة تمرّ من أمامي على شاشة، ولست أنا من يمرّ بها. أعرف هذه المدينة شبراً شبراً؛ معرفةً فيها الكثير من الألفة والأمان، ولكنّها معرفةً تجعل المدينة مملّةً ومتوقّعةً لدرجةٍ تبعث على الموت. فالميت وحده لا يتغيّر. حين وصلنا التقاطع في آخر سوق عاليه وبدأنا انحدارنا نحو الساحل، أخذت معدتي بالانقباض وبدأ الغثيان يزداد. كانت التفافات الطريق كثيرةً وكذلك أفكارى ومخاوفى. عشرات السيناريوهات كانت تدور داخل رأسي «يا إلهي، كم أنا غبيّة! كيف أقدم على خطوة كهذه؟» «لن أجلب لنفسي سوى الشماتة أو التوبيخ»، «الجامعة الأميركية مرّة واحدة؟! على أساس أنا بنت خرّوم بيك رح

يقبلوني! أنا مش عارفي وين موقعها على الخريطة للجامعة!» ثم يأتي صوتي المنطقي ليقول:

«أنت مجرد فتاة عادية، لن يستوقف مظهرك أحد ولن يدرك أحد حجم المخاوف المحشورة داخل هذا الجسد النحيل. لا أحد يدري أنك لا تعلمين شيئاً، وأن هذه هي أول رحلة لك إلى بيروت من غير زوجك المحروس».

كان صوت سائق التاكسي يقطع عليّ أفكارى بين الحين والآخر.

- من وين حضرتك؟ جاء صوته مع خربشات الراديو الذي يذيع نشرة الأخبار.

- من ضيعة عينصورة. أجبتة باقتضاب.

- والنعم. الأرض عندكم كلّها بركة لأنّ معظم أهاليها مشايخ. بنت مين قلتيلي؟

يا إلهي، كم ترعبنى هذه الأسئلة! لا أعرف لماذا ترعبنى. ربّما لأنني أشعر أنّ كلّ حركة أقوم بها قد تجلب الانتقاد لوالدي، وربّما لأنني أخاف من وشاية أحدهم، وربّما لأسبابٍ لا أزال أجهلها!

شعر بأنّي أطلت صمتي.

- ما تواخذيني عم كثر أسئلة بس بدّي إتسلّى، قال معتذراً عن تطفّله.

- بنت الشيخ «علي بو نمر».

- والنعم. كلّنا قرايب. الدروز سلسلة.

لقد سمعت هذه الجملة مئات المرّات في هذا السياق نفسه أي عند التعارف، لكنني لم أفهم يوماً ماذا تعني حرفياً وإلام ترمز!

لم أختبر خوفاً أقسى من ذلك الذي ينتج عن شعوري بالدونية وعدم الاستحقاق. كنت أشعر أنّ ما أصبو إليه أكبر مني ومن قدراتي بكثير، ولكنّ شيئاً ما في داخلي أصرّ على أخذ هذا الطريق. كانت الجامعة الأميركية في نظري أكثر من مجرد مؤسسة تعليمية. كانت عالماً مستقلاً لا تدخله إلّا إن كنت فائق الذكاء. وكنت أتخيّل أنّ جميع من درسوا هناك هم أشخاص استثنائيون في قدراتهم العقلية والمادية وفي علاقاتهم الاجتماعية. لم أكن أملك شيئاً من هذا سوى الاجتهاد، ولكنني برغم كلّ ذلك، تواصلت مع الجامعة وجمعت الأوراق المطلوبة، وعزمت على تقديم طلب لدراسة الليسانس بعد أن منعتني زوجي من الالتحاق بالجامعة لسنوات.

استمرّت السيّارة في انحدارها نحو بيروت، وبدأت زحمة السيّارات والشاحنات تزداد، وكذلك عيون الرّكّاب المحدّقة بي من الباصات إلى داخل السيّارة. شعرت أنّ كلّ العيون تسخر مني وتستهزئ بقدرتي على الحلم والتخيّل. صرت أُسقط موقفي من نفسي على جميع من ألتقي بهم وكأنّ صوتي الداخلي الذي لا يكفّ عن تحطيمي لا يكفي.

يُخيّل إليّ أنّني أرتكب خطأ جسيماً. أحاول أن أضع هذا

الخطأ في كلماتٍ فلا أجده خطأً، ثم أحاول أن أبحث عن جذر الشعور الذي يترجم نفسه إلى كلمة خطأ في رأسي. أفكر في القصة منذ البداية؛ مذ رأيت زوجي لأول مرة على عتبة بيتنا يحمل في يده تمثالاً برونزياً قديماً لمحاربٍ بسيفٍ مكسور. أول ما لفتني إليه - بعد أن رأيت التمثال وعرفت سبب مجيئه - ابتسامته العريضة التي تكشف عن الكثير من أسنانه وكأنه سمع خبراً جميلاً للتو.

- الشيخ علي موجود؟ قال محافظاً على ابتسامته.

- نعم، إنه في ورشته تفضّل.

كان علينا أن نقطع البيت إلى آخره حتى نتمكّن من الوصول إلى ورشة أبي الكائنة خلف المنزل؛ والتي كان يستطيع الشاب الغريب أن يصلها من الفناء الخلفي مباشرةً من غير أن يمرّ بالرواق وغرفة الجلوس والمطبخ. أوصلته إلى أبي الذي هبّ واقفاً ليسلم عليه.

- أهلاً، أهلاً. لقد أخبرني عصمت أنك ستأتي، وطلب منّي أن أهتمّ بك.. تفضّل استرح!

علمت لاحقاً أنّ الشاب يُدعى سالم، وأنّه استدلّ على ورشة أبي من صديقٍ مشتركٍ بينهما؛ وقد أتى ليصلّح تمثاله الذي كان يحمله عند الباب. ما زلت أذكر ذلك النهار، لأنني كنت قد عدت توّاً من المدرسة الثانوية ببطاقة علامات نهاية السنة التي تقول بأنّي اجتزت العام الدراسي الأول برتبة جيّد جداً. كنت سعيدة ومليئةً بالطاقة لدرجة أنني قبلت - رغم تجنّبي الدائم

للضيوف - أن أساعد أمِّي المنهمكة في الطبخ بتقديم الشراب للضيف. حين دخلت الورشة وجدت أبي مسترسلاً في الحديث مع ضيفه عن أنواع التحف وأشكالها وأسعارها. قدّمت للزائر كوب العصير ثم استدرت لأقدّم لأبي شرابه، فوجدت نظرات الضيف تتبعني، وتتحرك فوقِي بدقّةٍ من غير أن تترك بقعةً من جسدي.

كلّ هذه النظرات وقعت في سياقها عندما أخبرني أمِّي بعد أسبوع، وفور عودتي من منزل جدّتي:

- هل تذكرين الشاب الذي زارنا الأسبوع الماضي؟

- لا. أيّ شاب؟ ما به؟ قلت مرتبكة.

- الشاب الذي قدّمت له الشراب صاحب الضحكة العريضة.

- أجل تذكّرت. ما به؟

- لقد خرج للتوّ. كان هنا بصحبة والدته «وقال جايين كرمال

عروس».

- عروس؟! قلت مصدومة.

- ولكنّي لا أعرفه. ولا أزال في الخامسة عشرة من عمري.

كم عمره؟

- شي 25 سنة.

- ماذا قلت لهم؟

جاء صوت أبي من خلفي:

- سالم من عائلةٍ محترمة وسمعتها مثل المسك. أخبرني

عصمت أنَّهُم وجهاء الضيعة، وأنَّ أباه يُكثر من عمل الخير.
صحيح أنَّه ليس شيخًا، ولكنَّه تبرَّع ببناء مجلسٍ لمشايخ الضيعة.
- ولكنِّي لا أعرفه.

- بتعرَّفِي عليه.. قال أبي، ثم أكمل:

«الزواج قسمة ونصيب ولا يجوز الإكراه فيه. أنتِ تعلمين
جيدًا أنَّني سأكون سعيدًا بك لو عشتِ عمرِكِ كلَّه معنا. لكنْ دعي
الشابَّ يأتي مرَّةً أخرى واجلسي معه قليلًا، ويمكنك أن تخبريه
أنَّك لا تودِّين الارتباط الآن، لكنْ لا تصدِّيهِ دون أن تتحدَّثي
معه. هذا مش أصول».

وافقتُ بحسن نيَّةٍ على كلام والدي. انتظرت من أمِّي أن
تقول شيئًا حين ترك الغرفة، لكنَّها قدَّمت لي الصمت التام كي
أطرق كلَّ أبوابه داخل رأسي، وأستنطقه على مهلٍ كما أفعل
دائمًا.

قبل زيارة العريس الثانية بيومين، وجدني والدي أحمل كتابًا
تحت العريشة على السطح. كنت أقضي هناك معظم أوقاتي أقرأ
وأراقب الجبال العالية القريبة من منازلنا حدَّ الدهشة والاختناق.
تلك الجبال نفسها التي تحمي عزلتنا وأسرارنا، كانت تحجب عنَّا
العالم الذي طالما بنيتَه ثم هدمته في مخيلتي. ولكنِّي تعودت على
وجودها القريب الذي يشعُرنا بعظمتها وضالَّتنا، قدَّمتها وعبورنا.
على عكس الأطفال المولودين في القرية، لاحظت هذه الجبال
وارتفاعها منذ سنواتي الأولى. كنت أسأل أمِّي دائمًا «ماذا يوجد
هناك فوق قمَّة الجبل؟ ماذا لو كبرت وتسَلَّقتَه، هل أستطيع لمس

السماء؟» أوهمني صغر قامتي وارتفاع الجبل أنَّ السمااء تقع فوقه مباشرةً، وأنَّه بمجرد تسلُّقي له أستطيع أن أرفع يدي وأمسها أو أخترقها.

- أنتِ تحيِّين القراءة مثل أبيك.

نظرت لأجد أبي ورائي بيديه المعقوفتين خلف ظهره وثيابه السوداء الرسميَّة التي يرتديها حين يذهب إلى الخلوة حيث يجتمع مشايخ الضيعة مساء كلِّ خميس كي يتعبَّدوا.

- لكنِّي لا أراك تقرأ، أجبته.

- حين كنت صغيراً كنت أذهب إلى بيت عمِّك أبو مسعود لأقرأ. ثم تمهَّل قليلاً، وأكمل «توفِّي قبل أن تولدي بكثير. كان رجلاً مثقِّفاً، لكنَّه كان وحيداً. لم يتزوَّج ولم ينجب، وكان الوحيد الذي اقتنى مكتبة. كنت أنظف له بيته وأنفض الغبار عن رفوف الكتب حتى يتركني أقرأ».

كانت المعلومة جديدةً ومدهشةً بالنسبة لي. لم أشأ أن أقاطعه كي لا ينفطر هذا الحديث الجميل. نظرت إليه وكأنَّني أتعرَّف عليه للتوّ، أملَّة أن يمدَّني بالمزيد من التفاصيل. نظر إلى الجبل المرتفع أمامنا نظرة من يحاول أن يتذكَّر شيئاً، ثم أردف:

- قبل أن يموت، قال لأقربائه اعطوا الكتب لـ علي. لا أدري إن كان فعل ذلك لأنَّه يحبُّني أم لأنَّه كان يعرف ألا أحد غيري في الضيعة كان يهَمُّه أمر الكتب، قال بلهجةٍ ساخرة وهو يتسهم.

- وأين صارت الكتب؟ سألته.

- رمتها ستك وعمتك حين كانتا تنظفان البيت.. وجدت مجموعة منها مبهدلة ومبتلة بجانب النهر حين ذهبت للسباحة. ومن ساعتها لم أجد مكتبي.

- شيء محزن جدًا ألا تعرف عائلتك ما هو غالٍ بالنسبة لك، قلت لأبي بصوتٍ مختنق. ثم أضفت:

- ألم تندم لأنك لم تترك الضيعة لتستكمل تعليمك في المدينة؟

سألته محاولة الغوص إلى ما وراء الأحداث، إلى وجدانه؛ ذلك المكان الذي لا يعرف أحد منّا عنه شيئًا.

- لا شيء ينفع الإنسان إلا أن يعمل لآخرته، والعلم بحرٌ لا ينتهي. ثم أضاف:

«نهاية العلم والتعليم هو الرضى والتسليم».

هممت بسؤاله عن مشاعره وليس عمّا يجب وما لا يجب، ولكنه قاطعني وكأنه تذكر السبب الذي جعله يبحث عني ليكلمني:

- أخبرني أمك أنك نجحت وحصلت على تقدير جيد جدًا. تمهّل ونظر تلك النظرة التي تمكّنك من معرفة أنه يفكر ويحاول أن يختار كلماته بعناية:

- أنا أعلم أنك متفوّقة وتحبّين المدرسة، لكن لا بدّ أن تعلمي أيضًا أنني لا أستطيع أن أسجّل في الجامعة. تستطيعين إكمال تعليمك حتى تحصلي على الشهادة الثانوية. ولكن هذه ستكون آخر محطة لك كما حدث مع أخواتك. فالرجل الذي يرتدي زيّ الدين لا بدّ أن يعمل بمشورة المشايخ، وعندنا ممنوع

على البنات أن يدخلن الجامعات ويذهبن وحدهنَّ إلى المدن.
تمهّل محاولاً تخفيف حدة ما قاله :

- أكرّر مرّةً أخرى، أنا لا أقول هذا الكلام لأضغط عليك بشأن الزواج. ليست لديّ مشكلةٌ على الإطلاق أن تقضي عمرك كلّه معنا. هذا بيتك بالنهاية، وتستطيعين أن تعيشي معنا لتساعدني أمّك في شغل البيت وتؤنسينا، ولكنّ عليك أن تنسي أمر التعليم تماماً.

هززت رأسي ليفهم أنّني سمعته، ولم أنفوّه بعدها بكلمة. استدار في غضون ثوانٍ، وغادر إلى خلوة المشايخ كأنّه لم يتوقّع منّي ردّاً أو نقاشاً.

لا أستطيع أن أقول إنّني صُدمت بكلامه، فهو لم يتحفني بجديد. بل كنت في أعماقي ممتنةً لقبوله بإنهاء تعليمي الثانوي؛ وهذا الامتان يعود إلى حادثة قديمة ما زلت أتذكّرها كأنّها حدثت البارحة. تذكّرت حين وصلت إلى المنزل ووجدت شقيقتي الكبرى نرmin تتحب في فناء البيت، وسمعت صراخ أبي من المطبخ:

- خلص بيكفيهن علم من وين بدّي لحق. وراح يشتكي من قلة الشغل في ورشته وعدم وجود صبيّ يحمل معه جزءاً من أعباء العمل والمصاريف. صمت قليلاً، ثم عاد ليصرخ:

- شو بدّو ينفعها العلم! آخرتها عالزواج. كان صوته يرتفع تارةً وينخفض تارةً، وكأنّه يقاوم بغضبه شعوره بالخجل. سمعت أمّي بهدوئها المعهود تقول له:

- البنت سلاحها علمها. مين بيكفل نعيش لبكرا يا علي.

- ما في مصاري. من وين بجيب؟!

- خلص خلّيني أتصرّف. أنت ما تقول لها شي، خلّوها تركّز بدروسها، قالت أمّي وهي تحاول تهدئته.

لم تكن حوادث العنف والصراخ غريبةً على بيتنا، ولكنّها بقيت غريبةً على وجداني. وكنت في كلّ مرّة أسمع أبي يصرخ أو يؤنّب إحدى أخواتي، أصاب بحالة تشبه الخرس ويتصبّب العرق من يديّ اللتين تتحوّلان إلى قبضتين صلبتين، وتدخل جميع أظافري في لحم يدي. فأقف بجانب أقرب حائطٍ محاولةً التماهي معه وكأنّني غير موجودة، ثم لاشعوريًا أتوقّف عن التنفّس حتى أصبح على وشك الإغماء.

كان أبي حدّادًا، وكانت النار والمطرقة هما أهمّ أدواته لإصلاح ما تلف وجبر ما انكسر. راقبت نوبات عنفه من ثقب مفاتيح الأبواب المغلقة. شاهدته مرّة يفقد صوابه ويستخدم حزامه لينهال على نرمين بالضرب. وشاهدتها وهي تتحدّاه بنظراتها وهو يضربها، وكنت أتساءل عن سرّ هذا العداء بينهما. فقد كان يضربنا جميعًا، ولكنّه كان يضرب نرمين بغلّ وتحذّ وكأنّهما غريمان قديمان. كنت أصغر أخواتي وأكثرهنّ خجلًا وهدوءًا. هممت بالتدخّل مرّةً لأنقذ نرمين من حزام أبي، ففتحت فمي لأقول: «أرجوك توقّف»، أو «لم تكن تقصد ذلك»، أو «أعفُ عنها يا صاحب القلب الكبير»، ولكنّ لم تخرج من فمي أيّة كلمة. لقد علّمني الخوف أن أكتّم صوتي. كانت صفقة أبرمتها بمفردي مع الحياة كي أعيش بسلام. وهكذا، تخلّيت عن صوتي على أقساط عراكمًا تلو الآخر، صمتًا تلو الآخر. اخترت السلام

الذي يشبه الموت، كما سيقول لي صديقٌ أميركيٌّ بعد سنواتٍ طويلةٍ *you play dead to stay safe*.

«تظاهرين بالموت من أجل تفادي الألم». ولكن هل حقًا نستطيع أن نتفادى الألم؟

عادت أمِّي إلى المنزل ذلك المساء بالمبلغ المطلوب لتسديد قسط الثانويّة، وأعطت المال لأختي نرمين قائلة:

- مش مطلوب منك غير تنجحي. أنا بوفِّي الدين من خبزاتي.

في كلِّ مرّةٍ، كانت تتشاجر أمِّي مع أبي أو مع إحدانا بشأن المال كانت تشهر كلمة «خبزاتي» كالسلاح في وجوهنا. ورثت أمِّي عن جدّتي مهنة عمل الخبز على الصاج، لأنّها وسيلةٌ تضمن للشيوخات كسب المال الحلال من خلال العمل في المنزل. وهي أيضًا مصدر رزقٍ مضمونٍ لا يتوقّف الطلب عليه. أمضت جدّتي عمرها وراء الموقد والصاج، ولا زالت وهي في السادسة والتسعين من عمرها تفتخر بإنجازها؛ فتشير إلى ركبتيها، وتقول:

- ستّين سنة وأنا راکعة ورا الصاج. الحمد لله ما أكلنا ليرة حرام، تقول ثم تشير إلى سقف المنزل، وتكمل:

«هذا كلُّو من خبزاتي. لقد أنجبت أولادي الخمسة وعشنا في غرفةٍ واحدة قبل أن أجمع النقود لأبني هذا المنزل»، ثم تختم كلامها بقول «الحمد لله ألف ألوف الحمد لله ما بدنا غير نموت مستورين».

وهكذا، كانت النساء يَمكُنَّ أنفسهنَّ من خلال بيع الخبز

بشكلٍ مستقلٍّ تمامًا عن الرجال. بعض النساء يحطّبن ويجمعن إبر الصنوبر بأنفسهنَّ من أجل إشعال النار تحت الصاج، وبعضهنَّ يتفَقن مع الصبية الصغار الذين يبحثون عن أجورٍ سريعة في ضيعةٍ نائية، من أجل إتمام هذه المهمة.

هكذا، اكتسبت أمِّي صوتها وجعلت قراراتها تترجم إلى إنجازات، مثل زيادة غرفةٍ إلى المنزل أو زيارة الطبيب في حالات المرض الشديد. لم تكن أمِّي تصرف مالها على الطبابة، لأنَّ أبي لا يملك المال لذلك، بل لأنَّه لا يؤمن بالطبِّ الحديث ولا بالأطباء الذين كانوا في متناول أهل قرانا. معظم الأطباء القريين من ضيعتنا كانوا من الطوائف المسيحية، وكانت لهم عياداتهم الخاصة في الضيعة المجاورة الموزعة بشكلٍ عشوائيٍّ بين الدروز والمسيحيين. كان من الصعب على أبي أن يصدّق أنَّ طبيباً مسيحياً سيطبِّب ويشفي مريضاً درزياً بأمانة. فذاكرة الحرب وفضاعة الجرائم التي ارتكبت من الطرفين، والتي طالت عائلة والدي وصنعت مأساتها، كانت كفيلةً بغرس الكراهية في قلبه.

لقد تسلَّم أبي جثة أخيه عماد في صندوقٍ بعد أن لقي حتفه في الحرب الأهلية، واضطراً أن يخفي عن أمه أنَّه اكتشف آثار تعذيبٍ قاسيةٍ في كلِّ بقعةٍ من جسد أخيه. لقد كان هذا كفيلاً بجعله يتجنَّب المسيحيين قدر المستطاع، وخاصةً الأطباء. فكان يلجأ إلى اختلاق الحجج، وتقطير النباتات البرية واستخدام الوصفات العربية كي لا نطرح موضوع الأطباء. ولكن حين يشتد مرض إحدانا، كانت أمِّي تقف بحزم وتعِدل منديلها الطويل الذي يكاد يلامس الأرض، وتقول:

- سنذهب إلى الطبيب يا علي، ما بدي أخسر البنت.
وسأدفع أجرته من خبزاتي.

ورث أبي مخاوفه عن أمّه التي كانت تتحدّث عن الحرب بعد سنواتٍ من انتهائها وكأنّها لا تزال قائمة. فكانت كلّما أتى زائرٌ تهبّ من مقعدها وترفع الستحة (وهي الجزء من المنديل الذي يغطّي الفم والذقن والعنق) إلى أنفها، وتقول بتوتّر:

- «قد يكون من المخابرات الإسرائيليّة.. ما حدا يقول شي».

لم أكن أفهم كطفلةٍ ماذا تريد المخابرات الإسرائيليّة من امرأةٍ عجوز تعيش في غرفةٍ مع ابنتها، عمّتي سليمة! وما هي المعلومات التي بحوزتها حتى تحثنا على التكتّم! ولكنني حين كبرت، فهمت أنّ مأساتها مع الخوف لها جذورٌ في الماضي البعيد، ولا تقتصر على فقدان أحد أبنائها أثناء الحرب.

كانت جدّتي تعيش في غرفةٍ في بيت جدّي أبو علي، ثم بنى أبي بيته ملاصقًا لغرفتها بعد أن تزوّج أمّي. كانت غرفتها تُطلّ على فناء البيت الكبير، والذي كان يحيطه سورٌ طويلٌ من الأحواض المليئة بنبات المردكوش والحبّ والخبيزة وغيرها. كنت وأخواتي نحبّ اللعب في فنائها الرحب مقابل تسديد الخدمات: كإطعام الدجاجات أو قطف الثمار أو ملء الجرة من العين. تعلّمنا بدهاء الأطفال كيف نصنع مادّةً مسليّةً من خوف جدّتي المبالغ فيه وغير المبرّر على الإطلاق. وقد سحّرنّا لهذه

الغاية الشريرة الألعاب البلاستيكية التي تُشبه أجهزة التواصل اللاسلكية المستخدمة في الحرب. وحين كانت جدتي تراها، تظنّ أنّ المخابرات تنصّت علينا من خلال ألعاب الأطفال. فكانت تهّم بالحديث (مجاملةً) عن شهامة الإسرائيليين وقوّة جيشهم المغوار، فنكتم ضحكاتنا كي لا تنفجر بوجهها. وتمادينا في الشقاوة أكثر، إذ كنّا نقتطع أخبارًا من الراديو من سياقها، كظهور طبيبٍ يحدّر البشر وينوّمهم مغناطيسيًا ليستأصل أعضاءهم، ونزفها إلى جدتي بنبرة جدّة. وهذا ما كان يجعل جدتي حينها تنهض من مقعدها الخشبي المنخفض فتحمله تحت إبطها وتمشي إلى الداخل بخطواتٍ مسرعةٍ لتعتكف في غرفتها لعدّة أيّام.

وهكذا، أصبح الخوف حقيقةً تكبّل جدتي وتورّق وجودها، بينما كان مجرد نكتةٍ لي ولأخواتي. وهكذا، كنّا نعيش في بيتٍ واحدٍ داخل حقائق منفصلة. كانت الحرب لا تزال هناك في واقع جدتي، وكان العداء مع المسيحيين لا يزال هناك في واقع أبي. وكنّا أنا وأخواتي نسرح كالدجاجات في الجوار، نبني حقائق موازيةً في ظلّ ما نرى وما نسمع، في ظلّ ما سيبقى في غرف لاوعينا المظلمة، وما سستمسك به كتعويذة نجاةٍ مدى الحياة.

لا أذكر أنّي بكيت حين توفيت جدتي. كنت في الثامنة من عمري، ولم يكن لي معها ذكريات جميلة، إذ إنّها لم تكن حنونةً ولم تحبّ البنات.

«البنات همّ يا نبيلة. جبتيلو أربع هموم لـ علي!»، كانت تقول متوجّهةً إلى أمّي قاصدةً إيّاي وأخواتي.

وفي يوم ميلادي، خدعتها أختي الكبرى أسمهان من باب الدعابة، وقالت لها إِنَّ أُمِّي أنجبت ولدًا. فقفزت جدتي من غرفتها وعبرت الفناء الخارجي لتدخل إلى بيتنا، وحين وصلت لاهثة اكتشفت أنني بنت. عادت بعدها خائبة الأمل دون أن تنظر إليّ، ودون أن تبارك لأُمِّي، وراحت تبكي في غرفتها في صمت. لا أظنّ أنّ لهفة جدتي على ميلاد ولدٍ كان لها علاقةٌ بعادات أهل القرى الذين يفضّلون الصبيان على البنات. ولكنّ في مكانٍ عميقٍ في وجدانها، كانت تأمل أن يعود ابنها عماد - الذي قُتل في الحرب - إلى بيتنا متقمّصًا جسد مولودٍ جديد. وبما أنّ العقيدة الدرزيّة ترى أنّ الذكر لا يتقمّص إلّا جسد ذكر، كان ميلادي أنا وأخواتي أربع نكباتٍ في حياة جدتي.

ربّما كانت أكثر اللحظات التي أشعرتني بقربي منها يوم ماتم جدّي أبو علي. كانت تجلس على عتبة بابها الأزرق العتيق بمنديلها الأبيض، والذي أصبح يميل إلى الاصفرار. رأيته تلقي بثقل رأسها فوق راحتَيْها والدموع تموج في عينيها.

- شو بكي ستي؟ ليش ما بتروحي على المأتم؟ سألتها وأشرت بإصبعي إلى الباحة الكبيرة التي تتوسّط البيوت، حيث كانت الخيمة منصوبةً والمأتم قائمًا، والنساء مجتمعات، وصوت أشعار الرثاء صادحًا. «بساعدك تمشي لعندهن؟ قلت ظنًا منّي أنّها غير قادرةٍ على الوقوف.

- لا يا أمل. مش أصول. ممنوع روح ودّعو.

لم أفهم شيئًا من هذا الكلام؛ ولكنّ كان هذا التبادل القصير

للكلمات لحظةً حميمةً جمعتني بهذه المرأة التي أنجبت أبي. كانت في تلك اللحظة بلا مخاوف وبلا توقُّعاتٍ وبلا كبرياء. لم تكن تفكرُ بالبنات والصبيان. كانت فقط حزينة. والحزن غالبًا ما يحوّلنا إلى أشخاصٍ حقيقيين. ابتعدت عنها وراقبتها من بعيد، بدت كأنّها داخل لوحةٍ من بدايات القرن العشرين. كان العالم قد نسيها، وذهب الجميع لتأبين جدّي الرجل التقى الذي سيُقام له ضريحٌ في غرفةٍ ملاصقةٍ لبيتنا، وسيعيش حياةٌ أخرى بيننا. حياةٌ لن تنتهي بموته هذه المرأة.

عاش جدّي حياته في ضيعة «عينصورة» ولم يغادرها إلّا نادرًا، إذ إنّ الطرقات كانت رمليةً ووعرةً والمشاورير فوق ظهر الحمير كانت متعبةً وطويلة. ينحدر جدّي من عائلة مشايخ عريقة، ولم يتجرأ أحد من عائلته الممتدة - لتشمل الجبّ كلّ - على ترك مسلك الدين أو عدم الالتزام بالزيّ الدينيّ التقليديّ ونمط الحياة الذي يرافقه. تزوّج جدّتي في عمرٍ مبكر، وأنجب منها ثلاثة أبناء. أبي وعمّي عماد وعمّتي سليمة. أمضى جدّي عمره متديّنًا، لكنّه لم يصبح متشدّدًا إلّا في الأربعينيات من عمره، فأخذ يتبرّع بالأراضي التي ورثها للخلوة، ويبيع قطعة أرضٍ تلو أخرى، ويوزّع أموالها على المشايخ. ثم توقّف عن الذهاب إلى الحقل للاهتمام برزقه مدّعيًا أنّ ساعة الآخرة اقتربت، وأنّ لا شيء سينفعنا سوى «تخليص أنفسنا».

أراد جدّي أن يخلّص نفسه ويخلّص ولديه معه. كان أبي وعمّي عماد في مقتبل العمر، وكانا قد تخلّيا عن الالتزام الدينيّ بعد أن فقد جدّي حقوله. فاضطرّا للذهاب للعمل في المدن حيث

تكثر الملل وتتنوع الطوائف. نصحبهم أصدقاؤهم بترك زيّ الدين وحلق الشوارب وترك الشعر ليطول، كي لا يعرف أحدٌ مذهبهما في المدينة. كان الدروز يفضلون الاستتار حتى قبل بداية الحرب، والتي كان يُقتل فيها الناس عشوائياً بسبب انتماءاتهم الدينيّة. ولكنّ هذا الأمر لم يعجب جدّي في البداية وطردهما من المنزل. لكنّه سامحهما لاحقاً؛ فعادا للعيش مع أبويهما وأختهما سليمة.

إلا أنّ الحمّى الدينيّة التي أصابت جدّي جعلته يفتح ملفّ العودة للدين من جديد. فعاد ذات خميسٍ من الخلوة، حيث يجتمع المشايخ لقراءة كتب الحكمة والشرح، وكان منتشياً لسماعه العظة عن الآخرة والنعيم الأبديّ، ومتأثراً بقصص الأسلاف الذين عانوا وتعذّبوا واضطهدوا حتى يتخلّوا عن دينهم ولم يفعلوا. ففتح بقوة تشبه المداهمة باب البيت الذي يؤدّي مباشرة إلى غرفة الجلوس الكبيرة. كان ولداه يتحلّقان حول مدفأة الحطب بجوار والدتهما بعد نهارٍ عملٍ طويل. وقف جدّي بمدخل البيت في الضوء الشاحب المتسرّب من قنديل الكاز ككائنٍ أسطوريٍّ بعباءته السوداء ولقّته البيضاء الطويلة. لم يتفوّه أحدٌ بكلمة. خلع جدّي عباءته ومدّ يده في الهواء، فركضت عمّتي سليمة لتأخذها منه وتعلّقها فوق مسمار الحائط. بقي الصمت مخيماً على الغرفة لدقائقٍ قبل أن يفتح جدّي فمه:

– الساكت عن الحقّ شيطانٌ أخرس، قال مزمجرًا. ثم أكمل:

– لن أقبل أن أعيش تحت سقفٍ واحد مع جسمانيّ (غير الملتزم بالدين). لم أربيكم لتركوا دينكم، ولن أقبل أن أصرف

عليكم أو أقبل منكم قرشًا واحدًا إن لم تراجعوا أنفسكم وتطلبوا دينكم من جديد.

نهض عمي عماد من مكانه، ولقح بَطَانِيَّةً فوق كتفه وغادر الغرفة قبل أن يكمل جدِّي حديثه؛ لكنَّ جدِّي أكمل كأنَّ أحدًا لم يترك الغرفة، ثم نظر إلى جدَّتِي ورفع إصبعه قائلاً:

- وأنتِ يا أمّ علي إذا استمررتِ في خدمة أولادك وهم بهذا الزيِّ، فسترتكبين إثماً كبيراً وستخسرين كل حسناتك. اضغطي عليهما ليعودا إلى الصراط المستقيم!

- ولادك عم يشتغلوا بعرق جبينهم وما أكلوا مال حرام، ليش كلّ هالقسوة؟ استهدي بالله، قالت جدَّتِي محاولةً تهدئته.

- لا يكفي أن يعملوا. ولا تدافعي عنهما! اسمعي.. أنت طالق إن لم يغيّرا رأيهما، وأنا بريء منكم كلّكم ومن هذا الإثم، قال غاضباً.

لم يفتح أبي فمه، ربّما لأنّه يعلم (كما سأتعلم أنا لاحقاً) أنَّ النقاش لا جدوى منه في علاقته مع والده.

أنهى جدِّي خطابه وصفق الباب، وذهب ليتعبّد في الحجرة القديمة التي سيبنى أبي بيته ملتصقاً بها، والتي ستصبح ضريح جدِّي ومرقده الأبديّ.

حاول المشايخ التدخّل لإصلاح الوضع، ولكنَّ التزام جدِّي بدينه، الذي يحثُّ عليه عدم التراجع عن قَسَمه، جعله يتمسّك بقرار طلاق زوجته المسكينة. لقد كان ذنبها أنّها تخدم ولديها وتطهو لهما الطعام وترتق ملابسهما. بكت جدَّتِي حتى الفجر،

رَبَّمَا لشعورها بالظلم، أو رَبَّمَا لَأَنَّهَا كانت تحبّه. فقد كان حنونًا قبل أن تصيبه حمّى الدين، وكان يجمع لها حبّات العنب والتوت من الحقل ويطعمها بنفسه. وكان يطلب من أولاده أن يضعوا بَطَانِيَّةً سميكة فوق ظهورهم قبل أن يضربهم، ليجنبهم الشعور بالألم. وفي أَيَّام الشتاء، كان يحبّ الجلوس مع زوجته وأبنائه حول الموقد ليحكي لهم النوادر والنكات. كانت أفكاره وتصرفاته غريبة، فيها من الذكاء والجنون والحذّة والرحمة ما يجعلك تضيع في توقّع ما سيقوله أو يفعله!

لم تنتهِ القصّة، بل كبرت وانتشرت، وأصبحت على لسان كلّ كبيرٍ وصغير. فما كان من أبي وعمّي إِلَّا أن يواجهها جدّي «أبو علي». كان كعاداته جالسًا في الحجرة القديمة بجانب الشبّاك الطويل، يقرأ من كتاب الحكمة الملقى فوق حاملٍ من الخشب القديم. كان جالسًا بوضعيّته المعتادة، بركبةٍ مرتفعة (سيحتاجون إلى كسرّها لغاية تسبيله في النعش حين يموت) وأخرى مطويّة تحته. دخل أبي وعمّي عليه مع مجموعةٍ من المشايخ. وحين رأى جدّي المشايخ حافظ على هدوئه احترامًا لهم. كانت تلك المرّة الأولى التي واجه فيها أبي جدّي بهذا التحدي:

- لن نقبل أن ترحل أمّي وتعود إلى منزل والديها. تنحج قليلًا كي يخفّف من توتره، وأكمل. . أنت اخترت أن تطلّقها، وهذا القرار يخصّك. لكنّ أنا وعماد وسليمة سنرحل جميعًا ونتركك وحدك إذا ما رحلت أمّي. لن تجد بعدها من يطهو لك الطعام، أو يغسل لك ثيابك.

أكمل عمّي عماد ليساعد أبي على إكمال الفكرة:

- ارتأينا أن نبني جدارًا داخل المنزل، فنقسم الغرفة الكبيرة إلى غرفتين. غرفة لك وغرفة لأُمِّي. وسيكون مدخل غرفتك مفتوحًا على الشرق ومدخل غرفة أُمِّي مفتوحًا على الفناء. وسيكون المطبخ الصغير من حصّتك، لأنّ سليمة تقوم بكافّة أعمال المطبخ، وأُمِّي ليست في حاجة له.

مرّر جدّي يده فوق لحيته، وجال بنظره على الموجودين:

- شو بترتاوا علينا يا مشايخ؟ فيه صالح هالشي؟

جاوبه أحد المشايخ الكبار ذو اللحية البيضاء الطويلة والحواجب البيض.

- أنت سيد العارفين يا بو علي، لو طَلَّقْتَها لن تستطيع أن تردّها مرّة أخرى، وسيصبح محرّمًا عليك أن ترى وجهها أو حتى طرف منديلها. وسيكون محرّمًا عليك أن ترى حذاءها مخلوعًا أمام بابها، أو أن تسمع صوتها. هل أنت قادرٌ على الالتزام؟

صمت جدّي مطوّلًا، وأدرك أنّه وقع في مأزقٍ كبير. قبوله بهذه الشروط سيجعل حياته عبارةً عن كتلةٍ من المداراة والتجنّب والترقّب. ولكنّ التراجع عن كلامه سيصيب مصداقيّته ومكانته الدينيّة في مقتل. فما كان منه إلّا أن هزّ رأسه بالموافقة، وقال:

- اتكلوا على الله يا مشايخ.

وأوماً لعمّي وأبي برأسه كي يغادرا الحجرة، لأنّه كما تقضي العادة سيقراً الميثاق مع المشايخ قبل أن يغادروا، ومن المحرّم أن تتم قراءة أيّ كلامٍ من كتاب الحكمة في وجود غير المشايخ والجسمانيّين.

غادر الجميع، وبقي جدِّي أبو علي خلف كتابه وحيدًا كأنَّه لوحَةٌ باهتة من القرون الوسطى. كانت له امرأةٌ فاضلة تحبُّه وتسامره وتضحك على نواذره، وتشوي له حَبَّاتِ البَلُّوط لتخفَّف عنه حرقة المعدة. والآن، سيعود في المساء ليجد الحائط الذي سيتمُّ بناؤه اليوم لتنفيذ الاتِّفاق ولحماية الدين. ارتجف ذقنه لفكرة الجدار المؤلمة، ولكنَّه هزَّ رأسه ليقاوم رغبته في البكاء، ومسح على وجهه بلمسةٍ طويلة تبدأ من فوق عينيه وتنتهي إلى آخر لحيته، ثم أطلال النظر في كتابه الذي سيكون رفيقه الوحيد منذ اليوم.

عاش جدِّي وجدَّتِي ثلاثين عامًا يفصلهما جدارٌ دون أن يراها أو تراه! وحتى حين وافته المنيَّة، لم يكن مسموحًا لها أن تودِّع جثمانه أو تجلس في مأتمه. بكيثُ حين أخبرتني أمِّي لاحقًا أنَّه كان يطرق على الحائط في الليل يناجي جدَّتِي:

— سامحيني يا أمَّ علي. يلعن الشيطان تسرَّعت.

كانت تصمت، لأنَّه ممنوعٌ عليه سماع صوتها. فتكتفي بالطرق على الحائط ثلاث مرَّاتٍ كي يعرف أنَّها تسمعه.

— انتِ ما بتستاهلي هيك يا أمَّ علي. يلعن الشيطان ظلمتك.

ثم يبكي وتبكي هي بصمت. حتى وهو يحتضر كان ينادي اسمها، وكانت تسمعه وتبكي، ولكنَّ الأعراف الدينيَّة حالت بين وداعهما الأخير.

فهمت حينها لماذا لم تذهب جدَّتِي إلى مأتم جدِّي أبو علي وما الذي كانت تعنيه بـ «مش أصول». لقد بكته في حياته وفي مماته، ولم تتمكَّن من وداعه. فهمت لماذا اعتبر المشايخ جدِّي

قدّيسًا وبنوا له ضريحًا في بيتنا. ربّما لو كانا في بلدين مختلفين لكان الأمر أكثر سهولة، ولكن أن يعيش ويموت من نحّبهم مفصولين عنّا بحائطٍ وبقائمةٍ لا تنتهي من القوانين والمحرمات، فهذا أكثر من عذابٍ وأشدّ ألمًا من أيّ فراق.

لا أعرف أيّ دورٍ لعب ذلك الجدار في وجدان أبي؛ وكم من جدارٍ آخر كان عليه أن يبني ليتحمّل كلّ هذه القسوة! كنت أقف مطوّلاً أمام هذا الجدار، وأتساءل: هل أصبح هذا الجدار فردًا من العائلة؟ هل يتكاثر في داخلنا ويعيش حياةً منفصلةً لا نعرف عنها شيئًا؟

وأخيرًا، ظهر البحر. كانت أوّل مرّة أراه وحدي دون أن يكون زوجي بجواري، وينبّهني لقرب وصولنا إلى المدينة. كان نزولي إلى بيروت هذه المرّة أشبه بسقوط براشوت تصاحبه دقّات قلبٍ سريعة وخوف من ارتطام لا تقوى عليه ساقي. كانت بيروت جميلة. أجمل ممّا رأيتهَا في كلّ مرّة. بل كنت أشعر أنّي أراها للمرّة الأولى، وأنا أتأمّل البنايات القديمة التي تركت الحرب آثارها على بعضها بشكل ثقبٍ تدخل إليها طيورٌ وتخرج منها مرارًا وتكرارًا؛ كمن يبحث عن شيءٍ بينما هو يهرب من شيءٍ آخر. قطع صوت سائق التاكسي تأمّلاتي:

— سنصل قريبًا.

سنصل إذًا! حاولت أن أرسم في رأسي ألف شكلٍ وشكلٍ للجامعة الأميركية. ولكن كنت دائمًا حريصةً على ألاّ أسترسل في

خيالي كي لا أشعر بالغرابة حين أراها. توقفت السيّارة أمام بوّابة في وسط سورٍ طويل. سألته بدهشة «وصلنا؟». قال وكأنّه يستعجلني «ترجّلي من ناحية اليمين بعد إذنك، في ورانا سيّارات». لملت أشياءي على عجل، وتركت السيّارة. وقفت أمام البوّابة المفتوحة، وكانت مبنيةً من الحجر الناعم وسط جدارٍ ضخّم من الحجر المدبّب. تنتشر أكثر من عشرة شبابيك مغلقةٍ حول البوّابة ممّا أعطاهها شكل سورٍ قديم. كانت البوّابة تأخذ شكل قنطرةٍ وسط الجدار، وعلى أعلى القنطرة كان هناك شبّاك حديديّ أسود. لا شيء يدلّ على الفخامة من النظرة الأولى. ولكنّ ما زاد من رهبتي، التي اصطحبتها معي من الجبل، كان وجود عناصر من الدرك إلى جانب شابّين أو ثلاثة من حرس الجامعة. استطعت تمييزهم من البادج على الزيّ الكحليّ حيث طرّز اسم الجامعة الأميركيّة بشكل دائريّ حول اللوغو. على يمين البوّابة الحجرية الكبيرة، كانت هناك لوحةً منقوشةً في الحجر كُتبت عليها «لتكون لهم الحياة وتكون لهم حياة أفضل» وكتبت العبارة نفسها على الشمال بالإنكليزيّة That they may have life and . have it more abundantly

تقدّمت بخطّى غير واثقةٍ من المدخل، ولكنّ سدّ طريقي رجل الأمن وقال لي «ID please». فهمت أنّه يسأل عن البطاقة الجامعيّة، ولكنّي ابتلعت ريقِي وقلت له «مكتب القبول». فهم أنّي لست من طلاب الجامعة، وأشار لي بيده إلى الباب الصغير على يمينه. في الغرفة الصغيرة، وبعد أن سألتني الموظّفون عن سبب الزيارة، أخذوا منّي بطاقة هويّتي وأعطوني ورقةً عليها رقم، ثم

أرشدوني إلى الطريق. حين خرجت من هذه الغرفة إلى باحة الجامعة الرئيسيّة انتابني الدهشة. كانت المساحة شاسعة ومضاءً بلون الشمس التي تنعكس بشدّة على المباني الحجرية الصفراء والسلالم العريضة التي تؤدّي إلى الباحة. شعرت كأنّي في موقع أثريّ قديم يشبه مدينة بعلبك. هبطت السلالم وشعور السقوط ما زال ينتابني. جلست على مقعدٍ خشبيّ أخضر إلى جانب قطّة تنعم بأشعة الشمس فوق بطنها. كلّ هذا الجمال لم يساعدي على التخلص من خوفي، بل زاده حدّة. شعرت أنّي بضاعة مهترّبة، أنّي أخذع الجميع بوجودي هنا، وأنّ عليّ الخروج فوراً. هزّزت رأسي كأنّي شخصٌ آخر لا يوافق على السيناريو الداخليّ، وقاومت رغبتني بالهروب.

في مكتب القبول والتسجيل، كنّا نقف في طابور. ننقل من شبّاكٍ إلى آخر نتواصل عبر فتحةٍ في الزجاج. يطلبون منّا بعض الأوراق، ينظّمونها، يختمونها ثم يرسلوننا إلى مكاتب أخرى. كان هناك موظّفون غاضبون وفوقيّون وموظّفون أكثر صبراً وتفهمًا. فتحو لي الباب الفاصل بين مكتب القبول الخارجي والمكاتب الداخليّة التي تتولّى إنهاء التسجيل وإقفال الملفّ. في الداخل، كانت الممرّات ضيّقةً والمكاتب صغيرة؛ فكان علينا أن نقف في الممرّ بانتظار أدوارنا. أخذ خوفي يشتدّ كلّما تقدّمت في الطابور. شعرت أنّي معلّقة بين رغبتني الشديدة بالحصول على القبول ورغبةٍ دفينّة بأن يتمّ رفضي، بأن ينتهي المشهد برّمته، بأن أتخلّص من الضيق، وأركض خارج المبنى وأعود إلى حالة اليأس القديمة.

هناك أمانٌ خطيرٌ في أن نستكين لليأس، بأن نكون بلا أملٍ ونتمسك بهذه الحالة، لأنَّ كلَّ أملٍ جديدٍ يحمل احتمال انكساره.. لكنني تماسكت، ورحت أتفحص ختم الموظف فوق الأوراق وأنا أستند إلى الجدار أمام المكتب غارقةً في أفكاري. وإذا بصوتٍ يقول «next please»، وحين لكزني الطالب الذي يقف خلفي، عرفت أنَّ دوري قد حان. في المكتب، كان جميع الموظَّفين منهكين بالملفَّات والأوراق. وضعت الملفَّ أمام الموظَّفة، فأخذت تقلِّب أوراقه بعصبيةٍ جعلت الثقل في معدتي يزداد:

- لا أحد ينهي عمله في هذا القسم. أوراقك ناقصة دوموزيل. كيف سمحوا لك بالدخول؟

تلعثمت، فأنا لا أعرف شيئاً.

- أنا فقط جمعت الأوراق المطلوبة. أخبريني ماذا أفعل الآن رجاءً، قلت بصوتٍ خافت.

وقبل أن أكمل جملتي، صرخت «next» كي يتقدَّم الطالب التالي. سمعت موظِّفاً مسنّاً يقول لي:

- تفضلي لهون يا صبيّة.

لا أعرف إن كان قد شعر بمدى إحباطي، لكنّه أخذ الملفَّ وأخذ يتمتم لنفسه بتأفُّفٍ «بحبُّو ينكلوا بالطلاب». ثم كتب ملاحظةً على ورقةٍ صغيرةٍ وألصقها بالملفَّ، وطلب منِّي أن أتسلَّق السلم في آخر الرواق المؤدِّي إلى الطابق الأوَّل لأبحث عن مكتب «محمود ناصر». صرت أكرّر الاسم في نفسي وكأنّه تعويذة

نجاة. خرجت من المكتب بشيءٍ من الارتياح، ثم توجَّهت إلى آخر الرواق وأنا أهمس لنفسي «محمود ناصر، محمود ناصر، محمود ناصر». وقفت في نهاية طابورٍ طويلٍ من الشبان والفتيات أمام مكتب محمود ناصر، ورحت أراقب أزياءهم وطريقة كلامهم. كانت هناك صفةٌ واحدة تكاد تنطبق على الجميع، وهي التلقائية. طريقة لبسهم وتصفيف شعرهم، والطريقة التي يتكئون بها على الحائط أو يفترشون الأرض وسماعات الموسيقى الكبيرة فوق آذان بعضهم، كانت كلها تدلّ على العفوية والارتياح. كنت وحدي غريبةً ومنكمشةً كدجاجةٍ أُخرجت للتوّ من الفريزر. وكان البرد الشديد الذي يأتي من المكيفات المركزية يجعل يدي زرقاء، ويعزّز صورة الدجاجة المجمّدة في رأسي أكثر. لماذا لا أسترخي مثلهم؟ رحت أفكّر «لماذا أشعر أنني على أرض معركة؟»

أمامي مباشرةً، رأيت شاباً يُلقي بظهره على الحائط ويضع ذراعه خلف فتاةٍ يبدو عليها التذمّر. كان هناك الكثير من الحميمية في وقفتهما وتآلف جسديهما. كانت يده التي تلتفت حول كتفيها تداعب شعرها، وسمعته يهمس لها بالإنكليزية، وبلهجةٍ مطمئنة «لا تقلقي. كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام. أعدك أنك ستحصلين على القبول لأنك تستحقين ذلك».

فكّرت بنفسي وباليد الغائبة. اليد التي لا تربت على كتفي ولا على ضعفي. فكّرت بخوفي الذي لم يعرف يداً ولا صوتاً مطمئناً. أصبح الطابور يتحرّك بسرعةٍ أكبر حين اقتربت أكثر من الباب المؤدّي إلى المكتب. لمحت على يمين الباب لوحةً نحاسيةً نُقش عليها اسم «محمود ناصر» بحروفٍ إنكليزيةٍ سوداء. وعندما

أمعنت النظر، لاحظت أنَّ أحدهم كتب بقلم تصحيح الحبر كلمة God. فأصبحت كلمة الله تفصل بين اسم محمود ناصر ومركزه الرسمي الذي نُقش تحت الإسم بحروفٍ سوداءٍ أصغر قليلاً. لم أشغل نفسي كثيرًا بهذا اللقب، ووقفت هناك أنتظر دوري.

سمعت أحدهم ينادي اسمي من الداخل:

- أمل بونمر.

انتابني رعبٌ مفاجئٌ حين سمعت اسمي، وهي عادةٌ ترافقني منذ طفولتي. لم أتوقع أن أسمع اسمي في هذا المكان. دخلت إلى المكتب الفسيح المنظم بعناية. يتصدّره مكتبٌ كبير، وخلف المكتب كان يجلس رجلٌ أربعينيٌّ وسيمٌ ذو ابتسامةٍ عريضةٍ ونظّارةٍ فضيّةٍ تناسب لون بشرته. كان أنيقاً يرتدي قميصاً أبيض وربطة عنقٍ رماديّة، وتجلس إلى جانبه مساعدةٌ شابّةٌ لا يزيد عمرها عن العشرين. نظر إليّ باستخفاف:

- ارتاحي! تفضّلي مش رح ناخذ منك أجرة المقعد!

ابتسمت من باب المجاملة لنكتته، وجلست على طرف الكرسيّ.

- أخبريني ما المشكلة؟

جلست هناك متلعثمةً، فأنا لا أعرف من أين أبدأ. وإن كانت هناك مشكلةٌ، لا أعرف ما هي. وضعت الملفّ على الطاولة، ودفعته نحوه.

- أخبروني أنّ أوراقٍ ناقصة.

تناول منّي الملفّ، وأخذ يقلّب أوراقه بينما يتبادل النكات

مع مساعدته. كان خفيفاً، وبالخفيف أعني أن لا شيء يقبض عليه من الداخل مثلي. كان كثير المزاح والضحك والتنمر بطريقة ذكية، ولم يكن ضغط العمل والاتصالات التي لا تتوقف والطاير الذي يطول أمام بابه يؤثر على مزاجه. كان ساحراً بحق، وكانت شخصيته طاغية وشاغلة للجميع. أخذ يسألني عن الاختصاص الذي أنوي دراسته والمدرسة التي أنهيت فيها شهادتي الثانوية، ويخبرني عن مواعيد التسجيل. ثم قام ببضعة اتصالات واستخدم مصطلحات تقنية لا أعرفها، وكان ينظر إليّ بين الحين والآخر ويبتسم أو يقطب جبينه... ثم ما لبث أن وضع ملفي جانباً، وطلب منّي أن أخلي المقعد للطالب القادم، وأشار بيده إلى المقاعد الفارغة على يمين مكتبه حيث يجلس طالبان آخران. تركت المقعد وجلست حيث أخبرني.

طال انتظاري في ذلك المقعد؛ وخلا لي الجو لأعود لأفكاري القاتمة. أودّ من كلّ قلبي أن أدرس هنا. نظرت للجدران والوجوه، وشعرت برغبة في البكاء. الرغبة في البكاء كانت تأتي من كوني أريد شيئاً. يا لعذوبة أن نريد شيئاً بقوة وتهبنا الحياة فرصة لنخطو ولو خطوات صغيرة في اتجاهه! فأنا لم يكن لي خيارٌ في شيء قبل اليوم. لم اختر مدرستي ولا اخترت زوجي، ولا حتى هنا أختار الاختصاص الذي سأدرسه. أنا فقط اخترت الجامعة الأميركية. وكانت هذه مخاطرة كبيرة، لأنني حين قرّرت أن أختار اخترت ما هو صعب المنال، ما هو شبه مستحيل بالنسبة لفتاة متواضعة مثلي.

أخذت أعداد الطلاب بالتناقص أمام الباب. كان محمود

براغماتياً يُنهي الملفّات بسرعةٍ ويقوم باتّصالاتٍ خاطفة، ويرمي النكات يميناً ويساراً فيضحك الطّلاب المنهكين من شدّة الانتظار وتعقيد المعاملات. وقد رأيت فتاةً تجلس على الكرسيّ الذي جلست فيه مسبقاً تنهار باكيةً، وإذا بمحمود ناصر يترك مقعده ويأتي إلى جانبها ويربّت على كتفيها: «شو بنا؟ هيك رح نبدأ السنة الدراسيّة؟ هذه الجامعة ليست للضعفاء»، ثم عاد إلى مقعده خلف المكتب وقام ببعض الاتّصالات، وأنهى الملفّ وسلّمه للفتاة التي خرجت راضية.

بدأت أفهم رمزيّة كلمة «الله» التي كُتبت تحت اسمه. كنت أنظر إلى الساعة التي شارفت على الرابعة بقلق. لقد أمضيت في هذا المكتب حوالى أربع ساعات، وانحلتّ قضايا الجميع وما زالت قضيتي عالقة. أشار لي أخيراً أن أعود إلى المقعد المواجه لمكتبه. نظر إلى مساعدته وأخبرها أنّ ملفّي هو الأخير، وأنّ بإمكانها الذهاب. تناولت معطفها من خلف الكرسيّ وصافحته مصافحةً خاطفة، ثم خرجت بخفّة وفرح. جلست أمامه منهكةً بعد نهارٍ مكتظّ بالانتظار والوقوف، ومشاعر التوتّر، والتلعثم، والخوف. لقد مضت ساعات على آخر كوب ماءٍ شربته، وأيّام على آخر فكرةٍ إيجابيّة. شبك يديه خلف رأسه وألقاه على مسند الكرسيّ الأسود الكبير. كلّ هذا التعب لم يأخذ شيئاً من سحره. أخذ ينظر إليّ ويتسم. كانت كلّ تفاصيل حياتي بين يديه:

— سامع دقّات قلبك لهون يا بنت عينصورة، قال وراح يضحك.

رحت أبتسم معه كالبلهاء، لأنني سأبدو غير مؤدّبة إذا لم

أفعل. ولكنه كان يسخر من خوفي. من الخوف السحيق الذي لا يعرف عنه شيئاً، من الضعف الذي يلفّ عظامي من الداخل كما يلفني برد المكيفات من الخارج.

- أتعرفين أنني أُميّز أبناء القرية فوراً؟ قال بلهجة واثقة، وأكمل:

أنا ابن قرية، ولذلك أفهمهم أيضاً.

لم أقل شيئاً، واكتفيت بتصنُّع الاهتمام بما يقوله. فأكمل بتحدّ:

- لا أظنّ أنّه من السهل عليكِ ارتياد هذه الجامعة. الثانويات الرسميّة أشبه بالدكاكين، ودخول الجامعة الأميركيّة يحتاج إلى لغة إنكليزيّة ممتازة ومعدّلاتٍ خياليّة.

لا أعرف كيف استجمعت قوّتي ومن أين أتيت بالكلمات:

- أنا لست هنا لأتسوّّل الدخول إلى الجامعة، وحضرتك لست هنا إلّا لتقول لي ما هي الأوراق والمعدّلات المطلوبة، وقوانين القبول التي تسري على الآخرين سوف تسري عليّ!

ابتسم قائلاً:

- منك هينه! بتعرفي تجاوبي. تنشوف! وأنهى جملته: «رح يكونوا عيوني عليك. فرجينا شطارتك»!

رغم الغطرسة والأسلوب الفوقيّ، كانت خفّته مريحة وثقته بنفسه ملهمة. نظر إلى ساعته ثم نظر إليّ، وقال:

- عازمك على الغدا يلاً!

ذهلت وتلعثمت واتسعت عيناى، فأكمل:

- يلاً شو.. أنا عم إعزمك على أوتيل؟ قال وأخذ يقهقه.

بدأت الصورة تتضح في رأسي. لا بدّ أنّه ترك ملفّي لنهاية الدوام كي يخلو له الجوّ، ويدعوني إلى الغداء. كنت أكثر جنباً من أن أخبره أنّي لا أستطيع أن أقبل دعوته. نظرت إلى ساعتى، وقلت «لقد داهمني الوقت وهناك من ينتظرني في الخارج. أعذرني لا أستطيع الذهاب»، فابتسم بمكرٍ وقال وهو يصافحني من مسافةٍ قريبةٍ جدّاً: «خيرها بغيرها». وترك لي كارت العمل الذي يحمل رقم هاتفه وبريده الإلكترونيّ فوق الملفّ.

خرجت مبتسمةً. رغم كلّ ما حدث، شعرت أنّ هناك كائناً يهتمّ لأمرى في هذه المؤسسة الضخمة. ربّما كان اهتماماً عابراً أو ماكرًا وموقّفاً، ولكنّي شعرت أنّي غرست بذرة.

الصفقة

رأيت سالم للمرّة الثانية بعد مرور يومين على حديثي مع أبي فوق سطح المنزل. كنت كعادتي أجلس تحت العريشة على السطح حين سمعت خطوات أمّي مسرعة.

- أمل.. عجلي عندنا ضيوف!

استدرت محاولةً فهم ضرورة إسراعي لمقابلة الضيوف، فعادةً ما نفرّ أنا وأخواتي كالفران حين نسمع طرقةً على الباب. وأحياناً، نتعثّر ببعضنا ونسقط على شكل كتلةٍ بشريّةٍ مثيرةٍ للشفقة. ولكنّ أمّي استدركت:

- سالم، العريس يلّي قدّمتيلو عصير.

وقفتُ مرتبكةً، ونظرت إلى ملابسي المتواضعة:

- ليش ما ترك خبر إنو جايي؟ قلت متوتّرة.

- يلاً بلا مضیعة وقت، قالت أمّي واستدارت، فتبعتها.

كان سالم يجلس وحده هذه المرّة في غرفة الضيوف التي نستقبل فيها الغرباء والزوّار. هبّ واقفاً حين رأي متّجهةً نحوه، ومدّ يده كي أصافحها. سلّمت عليه وجلست قبالة على المقعد الضخم الذي جعل جسدي النحيل يبدو أكثر نحالةً. سادت لحظات من الصمت قبل أن يعتذر عن عدم قدرة أمّه على المجيء هذه المرّة.. «إن شاء الله المرّة الجاي بتتعرّفني عليها». فهمت من كلامه أنّه ينوي تكرار الزيارة، وأنّه يتأمّل خيراً من هذا اللقاء.

تحدّثنا في أمورٍ غير مهمّة، وكانت لحظات طويلة من الصمت ترخي بثقلها بيننا. جاء بحسب قوله «ليتعرّف عليّ أكثر». ماذا سيعرف عن فتاة أتمّت للتوّ السنة الخامسة عشرة من عمرها؟! هل أتى ليسألني عن تجاربي؟ عن قصصي الشيّقة؟ ضحكت في سرّي، وسألته:

– هل لديك أيّ هوايات؟

فكّر قليلاً وفرك جبينه بيده «أحبّ جمع التحف الأثريّة والأسلحة، لكنني لست صيّاداً».

ثم استطرد «أستطيع أن أقول إنّ عملي هو هوايتي».

ثم أخذ يتكلّم عن عمله وعن شركة الاستيراد والتصدير التي أسّسها والده، وكانت سبباً في توظيف نصف شباب الضيعة. وكيف أنّه تسلّم عربيّة لتوزيع البضائع وهو في الرابعة عشرة من عمره، وكيف كان يجلس فوق وسادة ليتمكّن من رؤية الطريق من فوق عجلة القيادة. كان يتكلّم بحماسة، وكنت أراقب بتمعّن حركات وجهه وطريقة كلامه وأسأل نفسي «يُعقل أن يصبح هذا الغريب زوجي؟!»

خطفني من أفكاري التغيّر الذي طرأ على نبرة صوته :

- عذرًا ، ماذا قلت؟ سألت مستوضحة .

- سألتك عن هواياتك أنت؟ قال مبتسمًا .

فكّرت قليلًا . ما الهواية التي يمكن أن تملكها فتاة تعيش في ضيعة كهذه؟ أجبت بعد فترة :

- أحبّ العلم!

- تقصدين المدرسة؟ قال وهو يضحك كأنني أخبرته بنكتة للتوّ .

عدّلت جلستي ، وأجبته :

- نعم . أنا متفوّقة في دراستي ، وأحبّ أن أكمل تعليمي وأحصل على شهادة جامعيّة .

ضحك مجدّدًا ، وقال :

- أنا لا أفهم . . أتعرفين لماذا أنا هنا؟

جعلني سؤاله أحسّ بشعورٍ أقرب إلى الخزي منه إلى الخجل؛ فنظرت مطوّلًا نحو الأرض . عدّلت جلسته ليصبح أقرب منّي .

- لم أقصد إحراجك ، ولكنك تعرفين أنني هنا لأجل الزواج . . صحّ؟

أومأت برأسي وعيناي ما زالتا تبحثان في سجّادة غرفة الضيوف عن إجابة مناسبة . هو لا يعرف ماذا يدور في رأسي ، ولا يعرف أنّه فرصتي الوحيدة لتحصيل تلك الشهادة بعد أن جعل

أبي كلّ أمل بارتياح الجامعة يتبَخَّر. كنت أبحث عن صوتي وأستجديه ألاّ يخذلني هذه المرّة. شعرت بفطرتي أنّ هذه لحظة فارقة، وأنّ استراتيجيّة الاختفاء والصمت لا تصلح لهذا الموقف بالذات. نفضت عن نفسي خجل ابنة الخامسة عشرة ورفعت عينيّ، ونظرت إليه بشيءٍ من التحديّ.

- لا أرى أيّ مشكلةٍ في أن تكمل المرأة تعليمها وهي متزوّجة، قلت وأنا أفعل الثقة بالنفس.

ضحك ضحكةً متوتّرة، وقبل أن يكمل كلامه دخل أبي مرحّبًا بالضيف سائلًا إيّاه عن أحواله وأهله وأعماله، فوجدتها فرصةً لأغادر الغرفة.

في المطبخ، كانت أمّي تزيّن أطباق المهلّبيّة. سألتني حين دخلت «منعرض عليه متّي؟» أجبت بانفعال «متّي مرّة وحدة!! شو كلّ عمرو عايش بيناتنا؟»

المتّة هو المشروب الرسميّ للدروز في كافّة الدول التي ينتشرون فيها؛ وعادةً ما نشربها مع الأصدقاء والمقرّبين، وليس مع الزوّار الجدد أو الغرباء. كان انفعالي نابعًا من المعتقد السائد أنّ العريس الذي يشرب المتّة في أوّل زيارةٍ يُعتبر كأنّه أخذ الضوء الأخضر. أذاحتني أمّي بكوعها برفقٍ كي ت طال الإبريق الفضيّ من فوق الرفّ.

عدت إلى غرفة الضيوف لأجد أبي مسترسلًا في الحديث، مستمتعًا بصحبة الضيف. وحين رأيّني عدت، وقف أبي وقال:

- سأترككما لتحدّثا.

كان هذا التصرف من أبي يعتبر تقدماً. لقد أتى نتيجةً لفشل خطبة أختي الكبرى من ابن صديقه، والتي حدثت «طمة غمة» من غير تعارفٍ لائق. وهكذا، أصبح يقبل بإفساح المجال للعريس ليتحدث على أفرادٍ مع الصبيّة التي ينوي خطبتها. كان أبي وأمّي يتناوبان الزيارات القصيرة إلى الغرفة كي لا يظنّ العريس أنّهم «غير سألانين عن بناتهم».

بدا على سالم الارتياح في جلسته، وكان قد عاد الهدوء إلى ملامح وجهه بعد الانقباض الذي طرأ عليها حين أخبرته بنيتي في استكمال تعليمي. نظر إليّ، وقال بصوتٍ رقيقٍ «من زمان بحلم أتزوِّج بنت مشايخ»، وأكمل «أهلك ناس طيّبين حاسس إنّي بعرفكن من زمان». فلزمت الصمت.

لم يكن سالم العريس الأوّل الذي تقدّم لي في تلك الفترة، ولكنه كان الأصغر سنّاً، وكانت ملامحه مريحةً وضحكته مشرقةً بشكلٍ لا يتناسب مع بقيّة ملامح وجهه. كان حين يضحك يُخيّل إليّ أنّه استبدل وجهه بالكامل. أحببت ضحكته، فقد كانت كلحظات الشمس الخاطفة التي تتسرّب من بين الغيوم الراكضة في خريف ضيعتنا، لكنّ سرعان ما تنتهي ويعود الخريف خريفاً. كما أنّ أمّي أحبّته، وأبي كان يشعر بفخرٍ كبير أنّ ابن «أبو سالم» الرجل المعروف وفاعل الخير يريد القرب منه. كلّ هذه الأمور جعلت فكرة ارتباطي به مقبولة. لم يبقَ سوى موافقته على خطّتي.

دخلت أمّي علينا مجدّداً بعدة المّة الفضيّة الفاخرة التي نوّقرها للمناسبات العائليّة المميّزة.

- مش رح نعاملك مثل الغرباء. يلي بيقعد عندنا أكثر من ساعة بيحقلو يشرب مّتي، قالت ضاحكة، فضحك سالم؛ وقال:
- أوووه ما في أحلى من المّتي.

أردت أن أكمل الحديث عن دراستي لأفهم شيئاً ولأعرف ما إذا كنت سأوافق على زيارته مرّة ثانية. ولكنّ الحديث أخذنا إلى مناطق أخرى بعد انضمام أمّي إلينا. وقف سالم عند نهاية الزيارة، ونظر إليّ بالكثير من اللطف قائلاً:

- نوريني. هل أعود؟

تلعثمت وصمتُ لدقائق، فأنا لم أحصل منه بعد على إجابة ترضيني.

- حسناً. يجب أن نتكلّم أكثر. خرجت منّي الجملة وكأنّي منومة، وكأنّ أحداً آخر قالها بالنيابة عني. الحدث الذي ستصفه أمّي بـ «القسمّة ونصيب» للخمسة عشر عاماً القادمة.

تأكّد معتقد أمّي بالقسمّة والنصيب حين عاد سالم بعد أسبوع، ووافق على استكمال تعليمي بشرط أن أصبح مدرّسة، لأنّ «العمل في التدريس هو الوظيفة الوحيدة التي تسمح للمرأة بالاحتفاظ بكرامتها». فما كان منّي إلّا أن وافقت. اغتبرت الأمر صفقة ناجحة، فهو يريد الزواج من بنت مشايخ صغيرة في السنّ وعلى قدرٍ وافرٍ من الجمال، وأنا أردت رجلاً ذا ملامح مقبولة ويوافق على مساعدتي في إتمام تعليمي. كانت المعادلة سهلة، لأنّه تاجرٌ ويفهم بالصفقات، ولأنّني كنت في الخامسة عشرة وأمامي طريقٌ مسدودٌ وجبالٌ مرتفعةٌ بشكلٍ خانق، وورائي أبٌ

يهدّدني أنني سأمضي كلّ حياتي هنا ما لم أخرج من جدران هذا البيت عن طريق الزواج.

استمرّت الخطبة سنةً كاملة، كنت خلالها تلميذة في الصفّ الثاني ثانويّ في ثانويّة مارون عبّود الرسميّة. شكّل خاتم الخطبة في إصبع يدي اليمنى علامةً فارقةً بين صبايا الثانويّة، فكُنّ يتهاMSN ويشرن بأصابعهنّ ناحيتي. لكنّني اعتدت كلّ هذا، وكنت أردّ لهم نظرات الازدراء حين يأتي خطيبي في سيّارته الـ BMW الفخمة ذات الدفع الرباعيّ ليقلّني وأختي طبعًا، لأنّ العادة كانت تقضي بأن ترافق العروس إحدى أخواتها، أو أيّ شخصٍ يشكّل وجوده مانعًا للاحتكاك الجسديّ والتفاعلات الهرمونيّة.

كان سالم بريثًا كالأطفال يخطف قبلًا من هنا ولمسةً من هناك، ولكّنه لم يحاول أن يسرّع الأمور ويتنعم بقرب الفتاة التي يشتهيها كما يفعل غيره من أبناء جيله. وقد أكّد لي ذلك تلك الحادثة قبل زواجنا بأشهرٍ قليلة، حين ثارت شقيقتي سناء التي أصبحت المرافقة الرسميّة لنا، وعبرت عن استيائها من مرافقتها الدائمة لنا للتحضير للزفاف.

– كلّ ما اشتريته بلاطة بدّي روح معكن؟! صرخت بوجهيها، وغادرت الغرفة منفعة.

ثم عادت:

– أنتما مملّان لدرجة تبعثني على التصرّف كالكلاب وأنا معكما. وكانت ترمز إلى الطريقة التي تمدّ بها رأسها من نافذة السيّارة وتغنّي بصوتٍ مرتفع، فيما يحاول سالم إسكاتها وإقناعها

بإدخال رأسها «لأنّو عيب البنت تتصرّف هيك». ثم قالت:

- اسمع... سأذهب معكما من هنا، ولكن حين نصل إلى مدينة «عاليه» ستركانني عند رفيقتي، وتذهبان لتسوّقكما المملّ وحكما!

أعجبتنا الفكرة كثيرًا. وحين ترجّلت أختي من السيّارة في عاليه، نظر لي سالم وكأنّه طفلٌ دخل لتوّه إلى مدينة الملاهي، وقال «لنتسوّق!» توقّعت أن يغيّر خطّته ويأخذني إلى قهوة جانب البحر، أو إلى صالة السينما حتى ينعم بالقليل من السريّة ويلفّ ذراعه حول ظهري.

بقيت هذه المشاريع والخيالات داخل رأسي فيما تابعت السيّارة انحدارها إلى بيروت. تناولنا الإفطار في مقهى صغير يُدعى «المخبز» في سوق مار الياس. لم أكن قد ذهبت إلى هناك من قبل، ولم أرَ هذا الكمّ من المحالّ التجاريّة في مكانٍ واحد. كانت المحلّات التجاريّة تصطفّ بجانب بعضها بعضًا بواجهاتٍ كبيرةٍ تعرض ثيابًا أخّاذة. وساهمت الأضواء المسلّطة عليها بتحويل المنظر إلى مشهدٍ خياليّ، وكأنّ تلك الثياب وُجدت هناك فقط للنظر إليها، وليس لشرائها ولبسها وتحويلها إلى جزءٍ من كومة ملابسنا العاديّة. جلست هناك خلف الزجاج أشرب القهوة، وأراقب إشارة المرور والباعة المتجوّلين والنساء الجميلات بأزيائهنّ المميّزة، بينما تتسرّب رائحة الخبز الطازج والكرواسون والمناقيش إلى أنفي وتُصبيني بالنعاس. اقترب سالم منّي هامسًا:

- هل تريدني أن أساعدك في اختيار اللانجري؟

نظرت إلى وجهه الأحمر وملامحه المرتبكة، وقلت:

- نعم، لا بدّ من شراء هذه الأشياء.

دفع الحساب وغادرنا. وحين وجدنا محلّ لانجري للعرائس، أوقفني سالم أمامه، وطلب منّي أن أنزع خاتم الخطوبة من يدي اليمنى وأضعه في يدي اليسرى، وفعل هو الشيء نفسه. فهمت أنّه يريد أن يُعطي الانطباع أنّنا متزوّجان ولسنا مخطوبين فقط. لم أناقشه في تلك اللحظة، ولكنّ هذه الفكرة ظلّت تشغل تفكيري طوال النهار. ما الذي جعل سالم يطلب هذا الطلب الغريب؟ لماذا يهتمّ كيف يرانا أصحاب محلّ لانجري في آخر الدنيا؟ فهم لا يعرفون من نكون ولن نراهم بعد اليوم أبدًا. هذا خوفٌ غير مبرّرٍ كخوف جدّتي من المخابرات.

لم أكن أنتظر ليلة زواجي بشوقٍ أو ترقّبٍ، بل كنت متحمّسةً من أجل سالم. فقد علمت من تلميحاته أنّه كمعظم شباب الدروز لم تكن له أيّ تجارب حتى إنّهُ لم يلمس امرأةً من ذي قبل. سأعلم لاحقًا أنّه لم يمارس العادة السريّة حتى سنّ التاسعة عشرة، وأنّه عرف بأمرها عن طريق الصدفة حين جاء لأخيه الأكبر شاكيًا من آلام في الخصيتين راجيًا إيّاه أن يأخذه إلى الطبيب فورًا. سأله أخوه ما إذا كان يمارس العادة السريّة بانتظام. وكانت تلك اللحظة بالنسبة إلى سالم كسقوط تفّاحة نيوتن.

كان على جميع العرائس القاطنات في الضيع البعيدة أن يستيقظن بعد الفجر بقليل، كي يصلن إلى المصفّف ويعدن إلى البيت قبل وصول معازيم الضيعة ولاحقًا أهل العريس. لم تكن

أعوامي الستّة عشر وعظمي الذي لا يزال في طور النموّ ليساعداني على انتعال الحذاء العرايسي الفضّي ذي الكعب العالي، ولا جسدي النحيل أسعفني لحمل فستان الزفاف المحشوّ بأسلاك معدنيّة تبقّيه منتفخًا كالفقاعة. شعرت أنّي متفرّجة منذ ساعات الزفاف الأولى. جلست هناك بفستاني المنفوش وشعري المرفوع إلى أعلى، والذي ساهم في زيادة طولي بحوالي عشرة سنتيمترات، ووجهي المصبوغ بألوانٍ ومساحيقٍ لم تندمج مع ملامح وجهي الناعمة. كنت بطبيعة الحال الأبرز حضورًا وأنا مرفوعة فوق مرتبة العروس التي هي عبارة عن درجتين مصنوعتين من الأحجار الإسمنتيّة تغطّيها سجّادة، ومقعدين فاخرين - بمعايير القرى - والكثير من الورود الاصطناعيّة المنسّقة وراء مقعدي العروسين.

لم يكن العريس قد وصل بعد، وكانت فتيات الضيعة المقرّبات يتناوبن الجلوس في المقعد الفارغ المخصّص للعريس بجانبني، من أجل التقاط بعض الصور، بينما تزيحهنّ أخواتي أسمهان وسناء من وقتٍ لآخر ليقدّمن لي النصائح هامساتٍ «شيلي العلكة من تمّك»، أو «جلّسي قعدتك» أو «ابتسمي شوي!». فكّرت بأختي نرمين، وافتقدت وجودها معي في هذه الليلة. فقد كانت أقرب أخواتي إليّ، ولكنها تزوّجت وغادرت مع زوجها إلى أميركا قبل عرسي بسنتين. وفي آخر محادثة لها مع أمّي، تشاجرت معها وبكت حين علمت بموافقتهما على زواجي في هذا السنّ الصغير، وتوقّفت عن التواصل مع العائلة.

رحت أراقب من فوق مرتبة العرسان النساء الشيوخات

بملا بسهنّ الطويلة السوداء ومناديلهنّ البيضاء التي تغطّي الرأس والصدر والذقن، بحيث تبقى عيونهنّ وحدها بارزة، وهذا ما ساعدنا نحن أبناء القرى الدرزيّة، على اكتساب مهارة التعرف على أمّهاتنا من عيونهنّ فقط. لاحظت أنّ عيونهنّ جميعًا تتّجه نحوي، بحثت عن عينيّ أمّي بين كلّ تلك المناديل لأنعم بشيء من الألفة، لكنّي لم أجدها. ربّما كانت تقوم بتوزيع حلوى الزفاف على المشايخ الذين لا بدّ أن يغادروا قبل قدوم الزفّة والعريس. انكملت في مقعدي كأنني أحاول أن أصبح لامرئيّة من جديد. كيف حدث كلّ هذا في ليلة وضحاها؟ فأنا لا أعرف معظم هؤلاء الناس؛ والبارحة كنت لا أحد، أمّا اليوم فقد وضعني هذا العرس على مرتبة تُشبه المسرح وجعلني محطّ أنظار الجميع، فتنبّهت أنّي لا أحبّ هذا الشعور مطلقًا. رغم كلّ هذا، لم يبارحني ذلك الشعور بأنني متفرّجة وأنّ الأمور تحدث أمامي ولا تحدث لي.

لم يمضِ وقت طويلٌ حتى سمعنا صوت المزامير والطبول من مسافة بالقرب من البيت. فركض صبيّ من المشايخ باتجاه القسم الذي تجلس فيه النساء، وصرخ «الزفّة وصلت». دبّت حالة من الذعر بين الشيوخات فنهضن من مقاعدهنّ واتّجهن ناحيتي بسرعة، كي يودّعني مصافحاتٍ، ثم يخرجن من الصالة قبل وصول العريس والزفّة، ولكنّ كان ذلك بعد فوات الأوان! كان أبي في هذه الأثناء عند الباب منهمكًا في توزيع حلوى الزفاف على المشايخ المغادرين أفواجًا كأنّهم يفرّون من طاعونٍ قادم، ولكنّ أبي كان حريصًا على ألاّ يرحل أحدٌ من غير حلوى. لم

يستطع المشايخ والشيخات وأطفالهم الخروج من باب دار المناسبات وسط الضيعة حتى لا يواجهوا الزقة، فاضطروا للمغادرة من الباب الخلفي المفتوح إلى الحقول. أخفت بعض النساء غير الشيخات ضحكاتهن خلف كفوفهن من مشهد الهروب العبي، ثم تعالت ضحكاتهن حين غاصت ساق أحد المشايخ في طين الحقل، بينما حاول باقي المشايخ انتشاله.

لم يستطع أبي المغادرة، لأن لا أخا لي وكل أقربائي مشايخ، ولا يوجد أحد غيره ليسلمني للعريس لحظة خروجي من بيت والدي. مع ذلك، فالقانون قانون ولا توجد استثناءات. دفع أبي وأمي الثمن هذه المرة أيضًا مثلما دفعاه بعد كل عرس من أعراس أخواتي. تعامل المشايخ الذين أكلوا بقلادة العرس للتو، معهما كجسمانيّن لأنهما شاركا في الزقة مع من لا يرتدون زي الدين. فقرروا إبعادهما عن الخلوة لمدة 40 يومًا وحرّموا عليهما ارتياد الخلوة أو قراءة الحكمة في بيتهم طوال تلك المدة. يُسمّى هذا النظام بـ «البعدة» بحيث يتم إبعاد الشيخ/ة الذي يخالف أحد القوانين أو الأعراف. يُطلب من الشيخ المُبعد أن يعاود زيارته إلى شيخ الخلوة ليطلب دينه من جديد كل خميس حتى انقضاء مدة البعدة.

أنا التي لم أشعر يومًا بقرب أبي مني، شعرت لحظتها وأنا أراقبه منهمكًا بتوزيع الحلوى بحاجتي إلى النزول عن المرتبة والذهاب إليه للاعتذار. وددت لو أقول:

— عذرًا يا أبي.. أنا اللعنة الرابعة في حياتك، حتى في آخر نهارٍ لي هنا سأتسبّب بفصلك من الخلوة.

أو ربّما كنت سأقول:

- يؤسفني أنّك لا ترى كلّ هذا التعسّف في قوانين ديننا .
سأترك كلّ هذه القسوة ورائي ولن أعود أبدًا .

لكنّي لم أبارح مقعدي ولم أقل شيئًا . كان بإمكانني تسلية نفسي لوقتٍ طويل بالأمور التي يمكن أو لا يمكن أن أقولها لوالدي . ولكن حين كنت أفكر بأُمّي كان ينقصد لساني وتطفح الدموع من عينيّ . كان أبي هو الآخر . الآخر - الذي نخافه ، نُعجب بصلابته ، نشعر اتّجاهه بالغضب أو بالشفقة أو... أو... ولكن لأُمّي قصّةٌ مختلفة . فأنا منذ طفولتي ، لم أفلح بفصل نفسي عنها . تقمّصت مأساتها بكلّ ما فيها من تفاصيل ، وتماهيت معها إلى حدّ يصعب معه التوجّه لها من غير أن أُصيب نفسي ، ولا أظنّني كنت في ذاك اليوم بالذات قادرةً على تلك المواجهة .

لم يلبث أن وصل العريس مع فرقة الدبكة المؤلّفة من عشرة أشخاص ؛ أخذوا يتشقلبون في الهواء ويطبّلون ويرقصون . ثم قدّموا عرض سيفٍ وترس وسط تصفيق الحاضرين . ارتفعت الزغاريد ، ووقفت أمّ سالم جهة اليمين وقرينة أُمّي من جهة اليسار وشرعن بالتحدي في إطلاق الزغاريد والتباهي بالأنساب . لم أعد أذكر حرفًا ممّا قيل ؛ لكنّ كان كلّ طرفٍ يحاول أن يقول للآخر أنتم محظوظون لأنكم نلتم عريسنا أو عروستنا ! فرحت لأُمّي لأنّ زيّها الدينيّ كان يمنعها أن تأخذ دورًا في هذه التقاليد العبيّثة .

ترك أبي موقعه بين الرجال وتوجّه إلى المرتبة . اقترب منّي ووضع يديه حول وجنتي وربّت على وجهي ، قائلاً « انتبهي

لحالك»، بطريقة ميكانيكيّة ومن غير أن تلتقي أعيننا. ثم تأبّط ذراعي ونزلنا أوّل درجة من المرتبة. كانت مزامير الفرقة تلعب لحناً حزيناً في الخارج. جالت عينا في الصالة باحثَةً عن أمّي مجدّداً. رأيته واقفةً بجانب العمود الضخم مكتوفة الأيدي وعيناها طافحتان بالدموع. ابتسمت لي، وارتفع خدّها الجميلان فوق الستحة. أومأت برأسي وكأنّني أقول لها لا تقلقي. لم تكن المسافة طويلةً بين المرتبة والباب الخارجيّ، ولكنّ خطواتي كانت ثقيلاً، وشعرت أنّني في حلم. عند الباب، لعب الدهاء النسائيّ دوره فأخذت امرأةً من أقرباء العريس تنشد بصوتٍ يشبه الندب «بخاطرك يا بيّي وما تنسوا تبقو تطلّو عليّ...» فبكيت، وكرهت نفسي لذلك. ودّعني أهلي عند الباب بالأحضان والوصايا والقبلات، وركبت السيّارة المزيّنة، وانطلقت وسط الزغاريد والطبول والزمامير إلى المجهول.

سبع سنواتٍ داخل الرحم

انتهى الزفاف في وقتٍ متأخر، فانسحبنا أنا وسالم من بين آخر مجموعةٍ من العائلة والأصحاب في منزل والديهِ، وتوجَّهنا إلى بيروت. لم نبادل سوى جملٍ بسيطةٍ في طريقنا إلى الفندق. سألتني إن كنت متعبة؛ وأخبرني كيف أُرَجِع ظهر كرسيِّ السيَّارة إلى الوراء كي أنام قليلاً خلال الساعة التي ستستغرقها الرحلة إلى الفندق. أُرَجعت الكرسيَّ إلى الوراء بحيث أصبحت بوضعيةٍ شبه أفقيَّة، واختفى كلُّ شيءٍ من أمامي ما عدا أضواء الشارع التي بدت لي وكأنَّها أقمارٌ معلَّقةٌ في الهواء. فكَّرت بأهلي قليلاً، ولكنِّي لم أشعر بشيء، ثم فكَّرت في الأيام القادمة، ولكنَّ صوت سالم أعادني إلى السيَّارة:

- هل أنتِ متوتِّرة؟

- لا عادي. أجبتُه باقتضاب.

أخذني سؤاله إلى داخلي. لا لست متوتِّرة ولا قلقة. حتى

إنني لا أشعر بشيءٍ من الشهوة تجاهه أو الفضول حيال العملية كلها؛ ولا حتى أظنني كنت خائفةً ممّا سيحدث. ولكنّ كان هناك في مكانٍ ما في رأسي ما هو أشدّ خطورةً من ذلك كلّهُ. كان هناك توقُّع.

وصلنا إلى فندق «اللانكاستر» في شارع الروشة حوالى الساعة الثانية فجرًا. رحت أراقب الأبنية المرتفعة المُضاءة مقابل البحر الممتدّ تحت غطاء العتمة، والذي لا نرى منه سوى تكسُّر بعض الأمواج تحت أضواء الشارع. هبَّ بواب الفندق ليفتح لي الباب حين توقَّفت السيَّارة المزيَّنة أمامه. كنت ما زلت مكبَّلةً بالفستان الأبيض الثقيل، وحين اقتربت من الباب وحاولت الدخول إلى الفندق، علق فستان الزفاف في الباب الدوّار المؤدّي إلى ردهة الاستقبال. لم أعد أذكر إذا ما كان حَرَجِي أقوى من تعبي أو العكس، ولكنني سحبتُه باتجاهي بكلِّ قوَّتي، وأخذ سالم يدفع الباب حتى تحرَّرت ونفذت من الجهة الأخرى. لم أكن أريد شيئًا أكثر من نزع الدبابيس التي تثبَّت شعري إلى أعلى وتغزَّ برؤوسها المعدنيَّة فروة رأسي. كان رأسي خدرًا وقدماي تؤلمانني بشدَّة.

في زاوية الغرفة، كانت هناك قنينة مشروبٍ لم أميّز نوعها وقتها، وكأسان زجاجيان بعنقَيْن طويلَيْن وبجانبهما بطاقة مطبوعٌ عليها «تهانينا» بالإنكليزيَّة واسم الفندق. أمام المرأة، جلست أنزع الدبابيس، بينما وقف سالم ورائي محاولًا مساعدتي. أحببت قربهِ في تلك اللحظة. شعرت به قريبًا وليس مقتحمًا. شعرت أنني لعبته، وأنّه يعدّني بعناية ليلته المميَّزة التي انتظرها لسنواتٍ

طويلة. حين خلّصني من الجزء الأكبر من الدبابيس، داعبت أصابعه خصلات شعري برفق، ثم انسحب إلى الحّمّام كي يغتسل. خطفني منظر فستاني الأبيض القادم من عالم قصص الأطفال وأنا أراقب سالم خلفي يمشّط شعري ببطء، وأعادني إلى طفولتي والعناية التي كنت أوليها لألعابي. غالبًا ما تكرّر أمّي قصّة من طفولتي، كنت حينها في السابعة وكنت أمرّ في طريق عودتي من المدرسة من أمام دكّان مختار الضيعة والذي يبيع الأدوات المنزليّة والألعاب. كنت أراقب تلك اللعبة في واجهة العرض طوال السنة المدرسيّة، وحين جاء عيد ميلادي، اشترت لي أمّي اللعبة ووضعتها فوق رأسي. في الصباح، وجدتُها بعلبتها الكرتونيّة الملوّنة ذات الجزء الأماميّ الشفّاف الذي سمح لي برؤية الباربي شعرها الأشقر الطويل وعينيها الزرقاوين الكبيرتين. اتّسعت عياني من الدهشة والفرح حين رأيت اللعبة وغمرتها في علبتها، ثم وضعتها في خزانتي واستعددت للذهاب إلى المدرسة.

- ما بدّك تفتحها؟! سألتني أمّي مستغربة.

- لاحقًا، أجبته بفرح وغادرت.

لم أفتح تلك اللعبة إلّا بعد شهور. أصررت أن أستمتع بها في كافّة مراحلها، وأن أقرب من متعة اللعب بها بالصبر نفسه الذي ربّيته طوال سنة وأنا أراقبها خلف زجاج دكّان المختار. ربّما كان هذا هو التوقّع الذي سكن رأسي وأسقطته على سالم! تخيلت أنّه سيتسلّق سلّم المتعة ببطء، وأنّه سيكتشف كلّ سنتيمتر من جسدي على حدة كما يعاين كلّ شيءٍ آخر يشتريه. تخيلت أنّه سيحدّق بأصابعي لوقتٍ طويلٍ، ويولي أهميّة كبيرة لعنقي ويركّز

على انحناء أردافي ويكرّس وقتًا طويلًا لصدري، وأني قد أحتاج «بودرة» كي أغطي آثار التقبيل عليه. تخيلت كلّ هذا بنوع من فرح العطاء بشكلٍ منزوع الشهوة.

عاد سالم ليجدني قد خلعت فستان العرس وسرّحت شعري وأزلت الرموش وطبقات المكياج الكثيفة، ابتسم قائلاً «شكلك أجمل بكثير هيك». اغتسلت وعدت إلى الفراش بهدوءٍ ظناً منّي أنّه قد نام، ولكنّ سالم غمرني وقبّلني قبلهً واحدة على شفتيّ، ثم طلب منّي أن أدير له ظهري، وحين استدرت شدّني إليه بقوةٍ واخترقني. حصل كلّ شيءٍ في ثوانٍ؛ ولكنّها بدت لي كجزءٍ من الثانية. إيلاجٌ وقذفٌ في أقلّ من ثانية. ثم قال وقد بدا على عينيه التعب والنعاس:

- مع الوقت، أكيد سيصبح أدائي أفضل وستستمتعين معي لكنّها المرّة الأولى. وما لبث أن أكمل جملته حتى غطّ في نومٍ عميق.

كانت بيروت لا تزال غارقةً بأنوارها خارج النافذة. وكنت - لسببٍ أجهله - لا أشعر بشيءٍ على الإطلاق. ربّما كان الخيار الأسهل بالنسبة لي أن ألعب لعبتي المفضّلة وأتظاهر بالموت ثم أكمل موتي نومًا، لكنّ شيئًا ما بداخلي كان يبحث عن بعض حياة. تسلّلت من السرير ببطءٍ كي لا أوقظ سالم، وتوجّهت إلى الركن حيث رأيت قنيّة الشمبانيا حين دخلت الغرفة. تناولت القنيّة وكأسًا واحدًا وجلست على الأرض مقابل النافذة الزجاجيّة الكبيرة المطلّة على شارع الروشة. سكبت الكأس الأولى ورحت أرشفها بشفتيّ مغلقتيّ، بينما أصابع يدي الأخرى تضغط على

أنفي بشدّة، لمنع حاسّة التذوّق من القيام بعملها. اجتماع المذاق المرّ مع اللذعة الغازيّة للمشروب جعل الطعم مقرّفاً، ولكنّه لم يجعلني أتوقّف عن شربه.

رحت أراقب الطرقات المضاءة الملتوية وحركة السير البطيئة وبعض الأمواج التي يلتقطها الضوء المتسرّب من عمود الإنارة. «ما أجمل هذا المنظر!» فكّرت، ثم أمسكت نفسي محاولةً تجاهل الكثير من الأسئلة. حاولت أن أسحبها إلى داخلي برشفة من الشراب المرّ، ولكنني لم أنجح في ذلك.

ما الأشياء التي أعرفها أو اختبرتها خلال الستّ عشرة سنة التي عشتها؟ ماذا لو فقدت اهتمامي بالتعليم؟ على أيّة محطة سيرسو قطار زواجي؟ ثم تساءلت من أين أتيت بفكرة التعليم هذه ولم يلتحق أحدٌ من عائلتنا قبلي بالجامعة؟ هكذا، أدركت مرّةً واحدة أنني لا أعرف شيئاً ولم أختبر شيئاً، وأنّ كلّ ما سوف أعيشه وأختبره من الآن فصاعداً سيكون سالم جزءاً منه وحارساً عليه. سأكون امرأةً متزوّجة في كلّ أوجه الحياة وأدوارها. أشعرتني هذه الأفكار بالبرودة والوحدة والقليل من الغثيان... فكّرت بأُمّي، وأنّي سأكون سعيدةً لو استطعت أن أنام بجانبها الآن على فراشها الأرضيّ ومخدّتها الجصّة التي تفوح برائحة اللافندر البريّ. دمعت عيناوي، رفعت يدي وشفعت نفسي بأقوى ما يمكن حتى أستفيق من هذه الدراما التي لست مستعدةً لها إطلاقاً.

لقد استغرق الأمر سنواتٍ حتى تخلّصت من تعلّقي بأُمّي. لم يكن تعلّقاً يشبه تعلّق الأطفال بأُمّهاتهم، وإنّما كان أقرب إلى

التماهي والهوس وكأَنَّني كنت امتدادًا لجسدها. أينما حلَّت
حللت؛ ومعظم ما وقعت عليه عينا في طفولتي كان من خلف
ثوبها الذي لم أرخ قبضتي عنه، حتى وأنا جالسةً بجانبها. كان
هذا التعلُّق مادةً دسمةً للنكات، فارتأت خيَّاطة أمِّي أن تحيك
مسكةً على جانب ثورتها الطويلة حتى أستطيع التمسُّك بها جيِّدًا.
ووجدت صديقةً أخرى أنَّ سبب الالتهابات في كلية أمِّي تعود إلى
الحرارة الناجمة عن التصاقها بها. ثم أصبحت خالاتي يقلن إنِّي
مسبِّبة التهابات، ويقهقهن! كلَّ هذا لم يكن يعنيني طالما لن
يمنعني من أن أبقى ملتصقةً بأمِّي.

أمسكت بثورتها وهي تعجن، وجلست خلفها وهي تخبز،
وحين كانت سحبات الدخان تهاجمنا من تحت الصاج كان
الدخان يحرق عينيَّ وعينيها معًا، فتنتابني موجة سعالٍ تصرخ أمِّي
بي على إثرها:

- «اطلعي عالييت. رح تختنقي. أنا مش رح أهرب لمحلّ».
فأتجاهلها وأنتظر.

وفي المشاور، حفظ لي عدد أفراد أسرتنا مكانًا بجانب أمِّي
في المقعد الأمامي لسيَّارة أبي القديمة لأنَّ أخواتي الثلاث كنَّ
يحتلِّلن المقعد الخلفيَّ، ولأنَّ جسدي النحيل كان من السهل
حشره في أيِّ مكان.

قبل المشوار الشهريَّ إلى قصر بيت الدين في الشوف، كانت
أمِّي تدور على أرامل الحيِّ والقطايع (اللواتي لم يتزوَّجن ويعلنَ
أنفسهنَّ)، تأخذ أشغالهنَّ اليدويَّة من الكروشيه والشراشف

المطرزة وقبّعات الأطفال الصوفيّة، وتأخذ أيضًا لائحةً بالأدوية والأغراض التي يحتاجها، وفي حال وُفّقت في بيع البضاعة كانت تشتري الأغراض. كان مشوار بيت الدين الشهريّ من أحبّ المشاوير إلى قلوبنا. في الصيف، كان أبي يشتري رأس بطّيح في طريقنا إلى هناك ويضعه في ساقية من سواقي نبع الصفا التي تشبه الأنهار بغزارتها وصفاء مائها. وفي طريق العودة، كنّا نتوقّف عند الساقية نفسها، فينتشل أبي رأس البطّيح وهو على وشك الانفجار من شدّة برودة المياه، ثم نفرش الحصر ونجلس جنب الساقية نأكل البطّيح، ونشرب المتّة، ونكسر الجوز البلدي.

كانت أخواتي ينتظرن في السيّارة حين تغادرها أمّي لشراء أيّ شيء، ولكنّ هذا القانون لم يكن يسري عليّ. ما زلت لا أفهم لهذا اليوم تعاطف أمّي معي وتحملها لي! الآن، أرى أنّي كنت الخشبة الثقيلة في طائرتها الورقيّة، وكنت أكثر ما يُعيقها وسط زحمة أيّامها وأعمالها التي لا تنتهي.

في قصر بيت الدين، كان أبي يحاول إقناعي بالبقاء في السيّارة:

- «خليكي معنا بجبلك شي طيّب!»

ولكنّي لم أكن أستجيب، فيصبح أكثر عصيّة ويصرخ بي:

- أمّك عندا مهمّة مش فاضيتلك هلق.

فتنظر أمّي لي بقلة حيلة، ولتتجنّب أن يخرّب بكائي بقيّة المشوار كانت تأخذني معها.

- عليك المشي بسرعة؛ علينا أن نلحق بالمعرض قبل أن

يقفل أو يأخذ حاجته من شغل الصنارة.

كنت أمسك ثوبها وأحاول بخطواتي الصغيرة أن ألحق بها، فأحدّق بالأرض كي لا أتعثر، وأترك خطوات أمّي تقودني. حين عبرنا القنطرة الكبيرة التي تؤدّي إلى القصر، شعرت أنّ الأرض أصبحت وعرة تحت قدميّ، وكان كاحلاي الهشّان على وشك الالتواء. فنظرت بإمعان؛ وهناك وجدت أحجاراً ملوّنة مستديرة استخدمت لرصف الأرض. لم أكن قد رأيت شيئاً يُشبه هذه الأحجار من قبل، ولم يكن هناك وقت للسؤال. رحت أهرول؛ ثوب أمّي بيدي والشمس في وجهي وعيناي مسمرتان بدهشة على أحجار الأرض. كانت إحدى قدميّ أمّي تدخل إلى الصورة ثم تختفي مع كلّ خطوة. أظنّ أنّ هذه الأحجار هي كلّ ما رأيته من قصر بيت الدين طيلة فترة طفولتي، لأنّ سرعة أمّي في المشي لم تكن تسمح لي بالنظر لأعلى. ظننت لفترةٍ طويلةٍ جدّاً أنّ تلك الأحجار أوّل ما وُجدت؛ وُجدت هناك على مدخل القصر. وحين كبرت وعلمت أنّها تأتي من البحر، فهمت أنّ الصور والأفكار التي جمعتها من خلف ثوب أمّي كانت وهميّة، ولا تصلح سوى لتأثيث عالم لطفلٍ كان - لسببٍ ما - عاجزاً عن الوقوف بنفسه، حتى حين خرج من الرحم وتعلّم المشي.

حين توقّفت سيّارة أبي في المساء في ساحة الحيّ، كانت النساء المنتظرات يزحن الستائر عن الشبابيك ليختلسن النظر وليتأكّدن أنّ أمّي عادت. ينزل الجميع من السيّارة مترنّحين من النعاس وطول الطريق، فتلفت أمّي لأبي وتقول:

- علي.. ما رح أطلع على البيت ومعّي أمانات، تقول هذا

ليفهم أنها ستقوم بجولتها على نساء الضيعة.

كالعادة، كنت أطوف معها من بابٍ إلى باب لنوزع الأموال والأغراض، فتبكي أمّ جهاد «الله يوقّك يا نبيلة، لولاكي كانت حالتنا بالويل. الله يوفيك عناً»، وتحلف أمّ وجدي يميناً أن تأخذ أمّي نصيباً من الربح؛ فلولاها، لم يكن أحد لبيع شيئاً في ضيعتنا النائية.. ولكنّ أمّي كانت تنزعج حين تسمع هذه الكلمات «عيب هالحكي، هي واجباتي»، وتحثهنّ على حياكة المزيد من المغزولات لمشوار بيت الدين القادم.

لم يبقَ عالمي المعلق على حافة ثوب أمّي آمناً، إذ إنّ المرض جاء وأبعدها عناً. كنت في الخامسة حين اكتشف الطبيب الدرزيّ اللامع زهير العماد أنّ كليتها تضخّمت على مدى السنوات؛ وأنها في حاجةٍ إلى الاستئصال فوراً، قبل أن تنفجر وتسمّم دمها. كانت العملية في غاية الخطورة، فنصحها الطبيب بعدم إجرائها في مستشفى «عين وزين» في الجبل، بل في مستشفى الجامعة الأميركية. وقد اضطرّ أبي أيضاً للتوقيع على أوراق تفيد بأنّه «سيتمّ إجراء العملية على مسؤوليته الشخصية». كانت مصاريف العملية في مستشفى الجامعة الأميركية باهظةً جداً، فاجتمعت شيخات الحيّ من نساءٍ متزوّجاتٍ وقطائع وجمعن كلّ ما يملكن من مدّخرات وبواقي ذهب، ووضعنّها في منديلٍ صغيرٍ وسلّمنها لأبي:

– نبيلة مفضّلة على الكلّ. بحياتنا ما نقدر نوفيها.

قالت أمّ جهاد بصوتٍ يتخلّله بكاءٌ وهي تمدّ يدها لأبي.

فأخذ أبي المال بيدين مرتجفتين ودمعة تآبى السقوط . وقام أحد المشايخ بجمع مبلغ لا بأس به من المشايخ الرجال في ليلة الجمعة في الخلوة، ثم أوصلوه إلى أبي عن طريق شيخ الضيعة .

جاءت خالتي نجاة، وهي شيخة أيضًا - ما يجعلها تبدو وكأنها توأم أمي مع الستحة على الوجه - كي تحلّ محلّها وتهتمّ بنا نحن البنات الأربع . فأصبح أبي ينام عند أمّه لعدم وجود محرم في المنزل . بكيت كثيرًا في الأيام الأولى، وبكت خالتي إلى جانبي؛ لأنها كانت تشعر بالإحباط، ولأنّها لا تعرف ما إذا كانت أختها ستنجو أم لا . ربّما ولد في هذا النهار شعوري الشديد بالذنب تجاه أمي . سألتُ خالتي نجاة إذا ما كان التصاقي بأمي حقًا هو سبب مرضها، فغمرتني باكيةً، وقالت «شو هذا الحكي الفاضي»، ولكنّ في مكانٍ ما في داخلي وجد هذا الشعور ركنًا دافئًا واستقرّ .

دخلت الشوكولاتة المستوردة عالمي مع مرض أمي، إذ إنّها كانت ترسل لنا أصابع شوكولاتة «كيندر» من المستشفى مع الأقارب الذين يذهبون لزيارتها . طمأننتني حلاوة الشوكولاتة وسلاسة مذاقها أنّ أمي لا تزال موجودةً في مكانٍ ما، وأنّ هذا الطعم دليلٌ على وجودها . لا أعرف كيف توصّلت إلى هذا التصوّر الغريب؛ ولكنّ هذه الحقيقة كانت صلبةً جدًا داخل رأسي .

حين عادت أمي، كانت قد خسرت نصف وزنها ومعظم نشاطها وكلّ فرحتها . أعادوها لنا بجرح يبدأ بمنتصف البطن وينتهي وسط الظهر . أخبرونا أنّهم نشروا اثنتين من ضلوعها حتى

استأصلوا الكلية. لم أعد قادرةً على النوم بجانبها ولا الجلوس في حجرها، وكنت حين أحاول أن أقرب منها يصرخ بي الجميع «أوعا!!». كانت أمِّي ترى الذعر على وجهي، فتمدّ يدها إلى الكيس بجانب المخدّة وتعطيني إصبع شوكلاتة كي تراضيني. ولكنّ طعم الشوكلاتة تغيّر؛ ولم تعد حلاوته تدلّ على وجود شيء مقدّس. الحقيقة الصلبة داخل رأسي تهشّمت، وأمّي لم تعد كما كانت وكما عرفتُها طوال سنيني الأولى.

استيقظت على صوت سالم وهو يهزّ كتفي وأنا ممدّدة على الأرض جانب النافذة.

- ما هذا يا أمل؟ أيعقل أن تمضي الليلة على الأرض؟

كنت أخبئ عينيّ براحتي من شدة الضوء. أكمل وهو يمسك القنينة شبه الفارغة:

- ثم ما هذا الذي شربته؟! منذ متى وأنت تشربين هذا القرف؟

لم أجبه، بل ركضت إلى الحمام وتقيأت ما شربته حتى لم يعد هناك شيء في معدتي، ولكنّ رغبتني في التقيؤ رافقتني لأيام.

حين دخلت مع سالم بيته للمرة الأولى، لفت انتباهي اتساعه الكبير وعلوّ أسقفه، وقوّة الضوء الذي يتدفّق من خلال الشرفات الزجاجيّة الكبيرة المطلّة على الجبل نفسه الذي يبتلع ضيعتنا. ولكنّ من مكانٍ أبعد وأعلى. شعرت أنّي بدخولي إلى هذا البيت قد اشتريت مسافةً تبعدني قليلاً عن هذا الجبل، لكنّها لم تكن كافيةً لأتجاوزه. مضت الأسابيع الأولى من الزواج بهدوء تامّ.

تكرّرت محاولات سالم في إمتاعي وتكرّر قذفه السريع، الأمر الذي كان يدفعه للقيام بالمحاولة ثلاث مرّات في النهار ليقبل أخيراً بالنتيجة ذاتها، والتي كانت على ما يبدو تعود عليه بشيء من المتعة.

حين شارف العام الدراسي على بدايته، ذكّرت سالم باتّفاقنا. كان قد وعدني بتسجيلي في ثانويّة «كفر رملا» الرسميّة لقربها من ضيعته، بناءً على الصفقة التي أبرمناها حين قبلت الزواج منه. لكنّ الأيّام كانت تمرّ وموعد بداية الدوام يقترب، وسالم يأتي بالحجج فيؤجّل للغد وبعد غد يؤجّل للأسبوع القادم، ثم يحلف لي أنّه انشغل وأننا سنذهب غدًا. وذات مساء، سمعته يتفاوض مع أحد التجّار عبر الهاتف ويتحدّث معه بنفس أسلوب المماطلة والتسويق الذي يعاملني به. فشعرت برغبةٍ وانسحبت إلى غرفة النوم لأصارع الشياطين التي توسوس لي بأنني لا أمتلك ما يكفي من القوّة والقدرة على التفاوض لأقنعه بتنفيذ بنود الصفقة. عاد سالم إلى المنزل في اليوم التالي ووجدني غارقةً في دموعي في غرفة الغسيل (وهي غرفةٌ صغيرةٌ منفصلة، ندخل إليها من شرفة المطبخ، تحتوي على غسّالةٍ ونشّافةٍ والكثير من الرفوف). كان منزل سالم كبيرًا جدًّا وفخمًا؛ له سقفٌ مرتفعٌ وثرّيّات كبيرة من الكريستال تتدلّى منه. كان المنزل يشبه البيوت في الأفلام ولا يشبه منزل أهلي العادي ولا بقيّة منازل ضيعتنا. غالبًا ما كنت أشعر بالوحدة والبرد حين أكون وحدي في المنزل، وكنت أتخيّل أشياء غير موجودة رأيتها في أفلام الرعب؛ كالوحوش والأشباح والخفافيش، فيتملّكني الرعب وأهرب إلى غرفة الغسيل الصغيرة

ذات السقف المنخفض والشبّاك الكبير الذي يتلقّف الضوء مثل
جرّة أسفل النبع. وهناك، كنت أنام أو أقرأ أو أبكي.

وحين رآني هناك ظهر القلق على ملامحه:

- ماذا هنالك؟ هل أنت بخير؟ قال بصوتٍ يغلب عليه
الحزن، ثم أمسكني من كتفي وساعدني على الوقوف.

أجبتّه بعد فترةٍ أنّ الدوام المدرسيّ سيبدأ الأسبوع القادم،
وأنه لم يسجّلني، وأظنّ أنّه لن يفعل. قلت هذه الكلمات ولم
أنظر إلى وجهه.. فشدّني إليه، وقال إنّنا سنذهب صباح الغد إلى
المدرسة وسنجلب الكتب وحقيبةً جديدةً أيضًا. قال تلك الكلمات
وأضاءت ابتسامته الجميلة وجهه، فمسحت دموعي وابتسمت له.

في غرفة مدير المدرسة، كنت أقف وراء سالم محاولةً فهم
الحديث الذي يدور بينهما.

- «عليك أن توقّع على أوراقٍ تضمن لنا حقّ فصلها من
المدرسة إذا حصل حمل خلال العام الدراسي!» قال المدير
بلامبالاة.

- تريدني أنا أن أوقّع؟ حاول سالم الاستفسار.

- نعم، أنت وليّ أمرها. هي قاصر وتوقيعها لا يقدّم ولا
يؤخّر، ردّ المدير باقتضاب.

ظهرت علامات الامتعاض على ملامح سالم، ثم هزّ رأسه
قائلًا:

- حسنًا، أعطني لأقرأ.

كنت واقفةً خلفه بيديّن باردتين من شدّة التوتّر ورأسٍ مطأطيّ

حين دخلت الناظرة ذات الشعر القصير والنظرات الحادة.
- سيكون بين تلميذاتنا امرأة متزوجة هذه السنة! قالت بنبرة
ساخرة.

وقبل أن يردّ عليها أحد، أكملت:
- نادرًا ما تكمل المتزوجات العام الدراسيّ عندنا إذ غالبًا ما
يصبحن أمّهات.. ونقرت بأصابعها على الأوراق التي كان سالم
يهمّ بتوقيعها، والتي تقضي بفصلي إذا حملت.
لم أقل شيئًا، ولكنّها تقدّمت نحوي بخطواتٍ وثيقة،
وأمسكت بخصلةٍ من شعري المصبوغ - والذي صبغه لي المزيّن
يوم زفافي منذ أسابيع قليلة - ونظرت إلى سالم قائلةً:
- هذا غير مقبول هنا. عليك أن تُعيد شعرها للونه
الأساسيّ. هذا المظهر لا يليق بتلميذة!
ردّ سالم بصوتٍ منخفض:

- نعم، طبعًا.. نحن نحترم قوانين المدرسة.
لم أنبس بحرف. كانوا يتكلّمون عنيّ بصيغة الغائب وكأنني
حيوانٌ أليف. لا أعرف إن كنت حينها أرغب في أن أقول شيئًا،
وصوتي الغائب منذ سنواتٍ لم يسعفني؛ أم أنّني اكتفيت بالصمت
لحظتها، لأنّ وضعي كلّه كان يضعني في مرتبةٍ متدنّية، ويجعل أيّ
شيءٍ أقوله عرضةً للهجوم أو للسخرية. وزاد شعوري بالكدر حين
ناولتني الناظرة مريولًا أزرق طويلًا يصل لمنتصف الركبة؛ قائلة إنَّ
هذا هو الزيّ المدرسيّ الموحد، وأصرّت أنّه من غير المسموح
تقصيره بتاتًا. كان الأمر في غاية الغرابة بالنسبة لي، لأنّ المريول
كان قد انقرض في كافّة المدارس والثانويّات في منطقة «عاليه»،

وتَمَّ تعويضه بقميصٍ أبيض وكنزٍ كحليَّةٍ تحمل لوغو المدرسة على
الجهة اليسرى من الصدر. كلَّ هذا جعل الأمر صعبًا، وجعلني
أفهم أنني لم أنتقل مسافة نصف ساعةٍ من منطقةٍ إلى أخرى، إنّما
عدت للوراء حوالى عقدٍ من الزمن.

في المكتبة، أخرج سالم لائحة الكتب، وراحت الموظفة
تجمعها من فوق الرفوف. ورحت أنا أتفحص الشنط.

- «أتعجبك هذه؟» قال سالم وهو يراقبني وأنا منشغلةً بشنطةٍ
واحدة، وكانت من نوع «إيستباك» التي يحملها أبناء الأثرياء في
مدرستي القديمة والتي لم أجرؤ يومًا على التفكير باقتنائها.

- «نعم إنّها الأفضل، ولكن ثمنها باهظ»، أجبته.

أنزلها سالم من فوق الرف وتوجّه إلى طاولة المحاسبة وأنا
أتبعه لائحةً:

- «سالم لا، أرجوك. لا أريدها».

ولكنّه تجاهل كلامي واشتراها لي، فشكرته وفرحت بها
كثيرًا. حين هممنا بالعودة إلى المنزل، ذكّرت سالم بأنّه نسي أن
يشترى لي حبوب منع الحمل، فتنهّد وقال «حسنًا» بصوتٍ فيه
الكثير من الامتناع، ثم ركن سيّارته عند أوّل صيدليّةٍ وذهب
لإحضار الحبوب.

مرّت الشهور الأولى من العام الدراسي ببطء، كنت أرتدي
المريول في الصباح وأنتظر سائق الحافلة العجوز «عمّي بو أنور»
أمام المنزل. كان بو أنور شيخًا مثل أبي، وكانت ملامحه رقيقة.
ارتأى أن أجلس في المقعد الأمامي كوني امرأةً متزوجةً ولي

احترامي، ولكنه كان يضع بيننا صبيًا في المرحلة الابتدائية اسمه مازن من أجل الحلال. فأصبحت رفيقي الصباحيين طيلة العام الدراسي. في المدرسة، تهامس الطلبة في الأسابيع الأولى حول وضعي الخاص؛ إذ كنت التلميذة المتزوجة الوحيدة في الثانوية. لم أستطع أن أكون صداقاتٍ لأنني جديدة في المدرسة، بينما كان معظم التلامذة يأتون من الضيع المجاورة ويعرفون بعضهم بعضًا خارج الثانوية. أمّا أنا، فكانت ضيعتي بعيدة في قضاء آخر؛ ولم أكن قد أمضيت في تلك البقعة الجغرافية سوى بضعة أشهر.

كان الوجه المشرق الوحيد لهذه الثانوية الكثيبة هو الأستاذ خلدون عبد الخالق. خلدون شابٌ عشرينيٌ خجول، تستطيع أن تقرأ الكثير عن طبعه في ملامح وجهه ولغة جسده التي تدلّ على الانطواء واصطناع الثقة بالنفس في كثيرٍ من الأحيان. درّس خلدون اللغة العربية في عددٍ من الثانويات في الشوف منذ تخرّجه بتفوّقٍ من كلّية الآداب في الجامعة اللبنانية. ولكنّ عدم ثقته بنفسه وقرب عمره من أعمار التلاميذ - خاصّة الشبّان منهم - جعل رحلته في التعليم مرهقة. فكثرت الشكاوى بحقه لعدم قدرته على ضبط السلوك في الصفّ وتساهله في التعامل مع الطلّاب.

نشأت صداقةً جميلةً بيننا. بدأت نتيجة دفاعي عنه في مكتب المدير، حين طلبوا من بعض الطلّاب الإدلاء بشهاداتهم. فقلت إنّهُ مدرّسٌ محترمٌ ويساعد طُلابه ويشجّعهم على القراءة. أصبح الأستاذ خلدون يقدّم لي النصائح بشأن اختيار اختصاصي الجامعي، ويرشّح لي أفضل الجامعات. ثم بدأ يقرضني كتبه، فعرفّني على جان بول سارتر وليو تولستوي، ونصحني بالقراءة

لأدباء عرب مثل ميخائيل نعيمة ونجيب محفوظ ومحمود درويش .
كما طلب مني أن أقرأ مختارات وأقرّر من هو كاتب المفضّل،
حتى إذا سألني أحدهم أكون قادرةً على الإجابة .

في المنزل، وجدت صعوبةً في إشعال موقد الحطب الحجريّ
«الشميني»، ولم أفلح في تحضير أيّ وجبةٍ تصلح للأكل .
فأكثر من أكل البطاطا المسلوقة وخبز الصاج بالزعر وزيت
الزيتون . حرصت على أن أجلب معي مؤونةً كافيةً من زعر أمّي .
كانت لي علاقةٌ وجدائيّةٌ طويلة مع زعر أمّي . رافقتها وهي تصنعه
على مدى سنوات . راقبتها تقطفه من أعالي الجبال، وجلست
بجانبها وهي تفتّته بيديها بعد أن يصبح يابسًا وخشنًا، ثم تدقّ
السّمّاق وتحمّص السمسم فتفوح رائحة الزعر في الحيّ كلّهُ .
وحين تنشغل عنيّ، كنت أبلّل أصبعي الصغير بريقي وأغرقه في
تلّة الزعر الساخنة وأذوقها . هناك شيءٌ ما في مرارة الزعر وحِدّته
يريحني من الغثيان . رافقني الغثيان منذ الصغر، وأصرتُ أمّي على
فكرة أنّ الزعر يحميني منه؛ فصدّقتها وأكلت الزعر في كلّ يومٍ
لسنواتٍ طويلة .

كان سالم يصل إلى البيت متأخرًا ليجد منزله باردًا ويجدني
متكورّة تحت البطانيّة أصرّ على أسناني من البرد، فيقوم بإشعال
النار مستخدمًا كروز الصنوبر اليابسة والكرتون والخشب الرفيع .
لم يتدبّر سالم من غياب رائحة الطعام والدفء من منزله . ربّما
فهم، في مكانٍ ما في داخله، محدوديّة ما يمكن توقّعه من ابنة
السادسة عشرة، فأصبح يأكل كلّ يومٍ عند أمّه بعد العمل، ويأتي
إلى البيت للمتعة والنوم فقط .

وافقت طبيعتي الانطوائية طبيعة سالم. لاحظت أنه لا يحب العلاقات الاجتماعية ولا يدعو أحدًا من أصحابه لزيارتنا. ولم أكن أحب زيارة أقاربه، لأنّ الجلوس مع الكبار والتجّار كان يُشعرني بالملل، واكتشفت أنّه ليس هناك أيّ موضوع مشترك يمكن أن أتكلّم به مع من هم حولي في هذا المجتمع الجديد. كانت حماتي في البداية تنجح أحيانًا بجريّ معها في بعض الزيارات للتهنئة بمولودٍ أو للمباركة بزواج، وتوصيني بآلا أقول شيئًا عن ذهابي إلى المدرسة، قائلةً:

– إذا ابني ما يفهمش مش ضروري كلّ الناس تعرف إنّو ما يفهمش.

وحين ألتقي بالأقارب أو المعارف كانوا يشيدون بجمالي بطريقة تجعلني أشعر بالخجل، وتجعل حماتي تشعر بالإحراج! «ليش مخبين هالجمال؟!» تقول امرأة، «أكيد خيفانين من الحسد»، تردّ أخرى. ثم يطول الحديث عن أمورٍ تافهة، وينتهي عند ضرورة إنجابي أكبر عددٍ من الأطفال لأنّ «الجميل لازم يكثر خلفتو».

عندما غادرت بيت أبي بعد زواجي من سالم، لم أكن أظنّ أنّي سأفتقده أبدًا، ولكنّي حين كنت أراقب وجوه عائلة سالم وأقاربهم وأسمع ضحكاتهم، كنت أحنّ لجلساتنا حول موقد بيتنا البسيط، نأكل البطاطا المشويّة ونضحك على نكات أختي أسمهان التي كانت تستمتع بلعب دور كراكوز البيت. ولكنّي صرت أتنجّب هذه الزيارات لأقارب سالم أو لبيت أهلي، ومع الوقت، صرت أفضّل الجلوس في المنزل وحدي لقراءة الكتب التي أقرضني إياها الأستاذ خلدون.

استمررت حياتي على هذه الوتيرة حتى عاد سالم في يومٍ
ورآني سعيدة. فسألني بحماسة:

- ماذا هنالك؟ فرّحيني معك!

فأريتة نتيجة امتحانات نصف السنة بالثانويّة، وأخبرته أنّي
من بين الأوائل في الصفّ. أخذ يتصفّح البطاقة ثم أعادها لي،
قائلاً مبروك. حملني حماسي إلى مشاركة أفكاره معه.

- أتعرف ماذا يعني أن أنجح بدرجة جيّد جدّاً؟

- لا. قال وانتظر كي أكمل.

- يعني أنّ هناك فرصة كبيرة لقبولي في الجامعة الأميركيّة!

هزّ رأسه ولم يبدُ لي أنّه يشاركني الحماس نفسه. لاحظت
أنّ سالم لم يكن على طبيعته بقيّة السهرة ولا في اليوم الثاني ولا
الثالث. وبعد عدّة أيّام، طلب منّي أن نذهب للتسوّق، فقبلت.
تجوّلنا أنا وسالم بين المحالّ التجاريّة في الـ «سيتي مول»،
فشجّعني على شراء كلّ ما أحبه قائلاً:

- أنا لست خبيراً بشراء الهدايا، وهناك مناسبات كثيرة
قادمة. اشتري كلّ ما يحلو لك، ولا تقلقي بشأن الأسعار.

ابتعت حاجتي من الملابس، ولم أفكرّ بالحقائب والعطور
لأنّها كانت من الكماليّات بالنسبة لي. وكنت لسببٍ أجهله، ما
زلت أحتفظ بأسلوب الحياة نفسه الذي كنت أعيشه في بيت
والدي، فأشتري ما هو ضروريّ فقط.

حين عدنا إلى المنزل، طلب منّي سالم أن أعطيه علبة حبوب
منع الحمل، ففعلت. أخذها منّي وذهب بها إلى الحَمّام فتبعته،

ووقفت على الباب أراقبه وهو ينزع الحبوب من ورقتها ويرميها في كرسيّ الحمام. لم أوقفه، لم أعترض، ولم أسأله لماذا. شعرت أنّ صوتي يخونني مجدّداً، وأنّني لن أتمكّن من الصراخ أبداً. تمنّيت لو أستطيع أن أخبر أحداً كي أتخلّص من حزني، وأبكي. ولكننا تظاهرنّا معاً بأنّ شيئاً لم يحدث وأكملنا سهرتنا كالمعتاد، وأخذ حاجته منّي في آخر الليل كالمعتاد أيضاً.

ربّما لا نخسر أصواتنا دفعةً واحدة عند حدثٍ كبيرٍ أو حادثةٍ مأساويّةٍ! ربّما نخسرها بالتدريج وبالتواطؤ الصامت؛ في كلّ مرّةٍ نتظاهر أنّ شيئاً لم يحدث لتجنّب المواجهة... وكأنّ أحداً ألقى بنا فوق لغم تمّ تفعيله للتوّ، فنأبى النهوض بعدها ونلتصق باللغم حتى لا ينفجر تحتنا. ربّما كانت هذه الحادثة هي حجر الأساس في علاقة التواطؤ بيني وبين سالم. اللغم الأوّل الذي قرّرت أن أحرسه بالانكران!

امراة الأنبوب

لاحظت أنني أحاول الحفاظ على علاقتي بسالم، أن أحميها من خيبتني حيال ما حصل، لأنه إن حدث وخسرت كلّ أملٍ في إكمال دراستي لن يكون من الذكاء أن أخسر ما تبقي من علاقتي بزوجي. قبل عيد القالنتين الأول لنا كزوجين، رافقت أبي وأمّي إلى مدينة «عاليه»، ودخلت مع أمّي إلى السوق فيما جلس أبي في متجرٍ للخردوات والخرطوش يملكه صديقٌ له. تسلّلت من أمّي إلى محلّ بيع المشروبات الروحيّة واشترت قنّيتي بيرة، وطلبت من البائع أن يضعهما في كيسٍ أسود دسسته في حقيبتي. ثم قصدت المحمصة، واشترت المكسّرات والبسكويت المالح.. بعدها ذهبت إلى محلّ لبيع ثياب العرائس، واخترت فستاناً أحمر قصيراً ذا صدرٍ مفتوح وبنودٍ رفيعة. في المكتبة، التحقت بأُمّي من جديد، ووقفت أتفرّج على البطاقات التي تغطّي جميع المناسبات من أعياد ميلاد، وتهانٍ، ومباركات، وغيرها. توقّفت عند بطاقةٍ

جميلة مغلّفة بالمخمل الأسود تتوسّطها رسمٌ محفورة لرجل وامرأة يرقصان من غير وجوه. كانا أبيضين وسط سوادٍ أنيق. تناولت البطاقة وفتحتها فوجدتها بيضاء لم تُخط في قلبها أيّة كلمات. تناولت بطاقةً أخرى بعبارّة جميلة، ونسخت منها الكلمات نفسها على بطاقتي الفارغة. بدأت بِ «زوجي الحبيب»، وأكملت بالعبارّة المكرّرة التي قد تناسب أيّ شخصين انتهى بهما الأمر سوياً وليس عندهما ما يقولانه لبعضهما... وعندما انتهيت، أصبحت جاهزة للعودة إلى المنزل.

في المنزل، حضّرت الطاولة وأضأت الشموع واهتممت بديكور المازة. قبل أن يصل سالم تحمّمت وارتديت الفستان وانتظرته. فرح جداً عندما عاد للبيت ورآني بانتظاره، ولكن كانت له طريقته في اختصار الاحتفال في خمس دقائق عن طريق القفز إلى الخطوة الأخيرة؛ وهي نزع الفستان الأحمر عني. عندما انتهى من مهمّته، أطفأ الشموع وأنار البيت بالكهرباء، فانسحبت ولبست بيجامتي الشتويّة السميكة. لم نشرب البيرة تلك الليلة لأنني كنت أكره طعمها، وكان هو يفضل شرب المّة. فجلسنا هناك نشرب المّة ونأكل المكسّرات على مرأى من قنّيتي البيرة المفتوحتين والممتلئتين. في نهاية السهرة، التقط سالم بطاقة التهئة وقرأ محتواها مبتسماً، ثم قال:

– نسيت أن أشتري لك هديّة؛ لكن غداً سأصحبك لشراء ثياب جديدة. أومأت برأسي، وبقيت مستيقظة بينما ذهب هو لينام.

مضى الجزء الثاني من العام الدراسي دون أن تنتفخ بطني.

فبدأ سالم يشعر بالقلق، وكذلك أمّه وأبوه. قادهم القلق إلى اصطحابي إلى عددٍ من الأطباء الذين قادتهم مهنيّتهم إلى رَحْمِي؛ وبدأت رحلة الفحوصات وسحب الدم وصور الـ «إيكو». كانت زيارة الطبيب النسائيّ من أصعب المواقف التي عشتها في سنواتي السبع عشرة. في مكتب الطبيب، أخذتني مساعدته المسنّة إلى غرفة الفحص الجانيّة وأعطتني شرشفاً أبيض، وطلبت مِنِّي أن أنزع كامل ملابسي عن الجزء الأسفل من جسدي، وأتمدّد على السرير. كانت رائحة الغرفة تفوح بالمعقّطات والأدوية والعقاقير. انتظرت وحدي، ورحت أجول بنظري على المعدّات والشاشات الموجودة حولي. تضاعف توتُّري، وتمدّدت رائحة المعقّطات إلى رتنيّ. مضت خمس دقائق وأنا مستلقيةٌ أحدّق في السقف، بينما يتناهى إلى مسمعي صوت الطبيب مجبولاً بصوت سالم وهما يتحدثان. سمعت طريقةً على الباب يليها دخول الطبيب ومساعدته يتبعهما سالم. وقف سالم بجانب رأسي، أمسك يدي ومسدّد على شعري، فيما طلب مِنِّي الطبيب أن أفتح ساقيّ وأضعهما على دوّاستين شبيهتين بدوّاستي الدّراجة الهوائية - واحدة منهما موجودة إلى أقصى اليمين والأخرى إلى أقصى الشمال. لم أتجاوب. حاول الطبيب القيام بالأمر بنفسه بالضغط على ركبتيّ ليفصلهما، ولكنني قاومت، فقال بحزم:

- افتحي رجلّيك إذا بتريدي.

لم أصدّق ما أسمع. . حاولت النهوض.

- رجاء، ابقِي في الوضعيّة نفسها، جاء صوت الطبيب

صارماً.

شعرت برغبة في الصراخ؛ فسحبت يدي من يد سالم، ووضعت راحتي على وجهي وكأنني أحاول أن أمحوه، وأخذت أظافري تغرز في لحم وجهي لاشعوريًا وكأنني قرّرت اقتلاعه. كان ضوء السقف الكبير الأبيض لا يزال يتسرّب إلى عيني من الفتحات بين أصابعي، وكان هناك ضوء آخر على مستوى عيون الطبيب مسلّطًا على أسفلي. كتمت أنفاسي كليًا، ربّما كنت آمل أن يتوقّف نبضي وأموت، أو ربّما كنت أحاول أن أظهار بأنّي ميّتة، كما تفعل الحيوانات عندما تتعرّض للهجوم ليتركوها وشأنها. لم تنفع أيّ من تلك الحيل، ولا استطعت أن أتخطّي الصدمة والمذلة التي شعرت بها في عيادة الطبيب بعد ظهر ذلك اليوم.

بعد معاينة رَحْمي وإجراء الكثير من فحوصات الدم، لم يجد الطبيب سببًا يمنعني من الحمل. فكتب على ورقةٍ تحمل اسمه بعض الفيتامينات والمقويّات، ثم ختمها وأعطاه لسالم طالبًا منه أن يكون صبورًا لأنني ما زلت صغيرة في السنّ، وذكّره بأنّه ما زال أماننا الكثير من الوقت لنكوّن عائلة.

تزامنت هذه الأحداث مع اقتراب موعد امتحان الشهادة الثانوية الذي يجري عادةً في مراكز موزّعة على كافّة المحافظات والأقضية. ساعدني ما حدث على التركيز على الدراسة، لأنّه صرف تفكيري عمّا حدث وما سيحدث. هذا التفكير الذي كان يغدّي كتلة المشاعر السلبية التي بدأت تنمو في داخلي والتي أصابت صورتي عن نفسي في مقتل. درست طيلة الشهر المخصّص لهذه الشهادة باجتهادٍ وتفانٍ، وكأنّني عن طريق الدرس

كنت أحاول أن أهرب من المجهول الذي ينتظرني . في آخر يوم لي في المدرسة، لم أشعر برغبة في توديع أحد، فقط بحثت عن الأستاذ خلدون لأودّعه وأشكره على كلّ ما فعله من أجلي، ولكنّي لم أجده.

لم أتحدّث إلى أحدٍ قطّ عن الأمومة، لم يسألني سالم ولا مرّة عن آمالي بشأن الإنجاب، وما إذا كنت متشوّقة لأرى أطفالي. في الحقيقة، كانت هناك أكثر من هوّة بيني وبين الأمومة، لقد ساعدتني السنوات التي سأقضيها في عزلةٍ على فكّ طلاس شعوري حيال الأمر كلّ. كانت الأمومة بحكم الطبيعة تأخذني أوّلاً إلى أمّي. أمّي التي لم أجروّ حتى اليوم على مواجهة نفسي بألمها وتقبّل تلك الحياة التي لم تعيشها، ولا بمباركة ما فعلته بها الأمومة. رأيت أمّي تطعم روحها للأمومة على مرّ السنوات، ولكنّ الأمومة لم تكتفِ بروحها، بل نالت من صحتّها أيضاً ومن بريق عينيّها ومن حبّها للحياة. كنت أكره نفسي حين أرى أمّي تبكي، وأشعر بعجزّي أمام حزنها. وحين يصرخ أبي في وجهها أو يعاملها بقسوة، كنت أشعر بالمرارة وأرجوها أن تتركه. ولكنّها كانت دائماً تقول «مستحيل أترك أولادي، حتى لو ضربني». كلّ الأمّهات الأخريات في محيطنا كنّ متعبات مثلها، يقضين أعمارهنّ في العمل والصمت وتقبّل الإهانة دون أن ينلن أيّ تقدير. ولكنّ ما زاد آلام أمّي هو وعيها بمأساتها وعلمها أنّها لا تستطيع تغيير هذه المأساة، ولا تستطيع القبول بالأمر الواقع في الوقت ذاته.

لم أصرّح سالم بهذه الأفكار، ولا أخبرت أمّي عمّا حلّ بي

في عيادة الطبيب النسائي؛ لأنني كنت أريد أن أجنبها الألم. قبل عيد ميلادي ببضعة أسابيع، تلقّيت خبر نجاحي في الشهادة الثانوية. لم يحدث خبر نجاحي بتفوّق الصدى الذي توقّعت. تلقّيت الخبر في ليلة صيفيّة عبر هاتف سالم عندما ناولني إيّاه قائلاً «صديقتك على الهاتف». كانت زميلة لي تنقل الخبر بحماسة، وتُخبرني أنّها تبارك لجميع زملائها عن طريق الاتصال بهم. فشكرتها وباركت لها أيضًا. أخبرت سالم أنّني نجحت في الثانوية، وحصلت على تقدير جيّد جدًا، فتغيّر لون وجهه، وقال بصوتٍ خافتٍ «مبروك»، دون أن تلتقي نظراتنا، ثم انسحب إلى غرفةٍ أخرى.

مرّت أيام الصيف ببطءٍ شديد، وفي عيد ميلادي تفاجأت بزيارة أمّي وأبي. لقد أتيا محمّلين بالهدايا وبالفاكهة الصيفيّة من تينٍ وعنبٍ وصبير. لم تبخل أمّي يومًا بإقامة عيد ميلاد صغيرٍ لكلّ من بناتها كلّ سنة. فكانت تملأ الطاولة بالفاكهة من حقولنا، وتخبز قالب الحلوى وتزيّنه وترصفه بالشموع. لم ترد أمّي أن تكون السنة الأولى بعد مغادرتي المنزل استثناءً. فرحت بحضورهما كثيرًا، وتلذّذت بالمذاق الحلو لفاكهة حقولنا التي تربّيت على طعمها. عندما انتهت الزيارة، وقبل مغادرتهما بقليل، قدّمت لي أمّي هاتفًا محمولًا قائلةً:

– كان هذا هديّةً لأبيك من صهرك حسام؛ ولكنّه لا يحتاجه، وأريد أن أهديك إيّاه لنطمئنّ عليك ونسمع صوتك. أخذت الهاتف وشكرتها.

وعندما غادرا، بدا التجهّم واضحًا على ملامح سالم.

- ما بك؟ سألته. وبتلقائتيه المعهودة، أخذ يتذمّر من هديّة أمّي:

- هاتفك لك وحدك! ماذا يعني هذا الشيء؟ ماذا تحاول أمك أن تقول؟

- لا أرى ما يدعو للغضب. أنت تذهب للعمل طوال النهار، بينما أظلّ وحدي في هذا البيت المعزول عن البشر. من الطبيعي أن تقلق أمّي وتهديني هاتفاً من أجل الاطمئنان عليّ، أجبته ببرود.

- اليوم سيكون لك هاتف منفصل عن هاتفي، وغداً ستكون مشاويرك منفصلة عن مشاويري، وبعدها ستكون لك حياة كاملة منفصلة عن حياتي! أهذا ما تريده أمك؟ ردّ بانفعال.

لم أفهم عصبتيه ولم أطل في الجدل معه؛ لأنني لم أكن يوماً من محبّي الجدل، وكان الكلام بشكل عام يرهقني ويجعل نفسي يضيق. وعدته أن أعيد الهاتف إلى أبي، وانتهى الأمر.

لم أجرؤ على فتح موضوع الجامعة مجدّداً بعد أن عرفت نيّة سالم بخصوص الإنجاب، وبعد تهنئته الفاترة لي على نجاحي في المدرسة. كنت ألوذ بالصمت خشية أن أسمع مخاوفي تُترجم إلى كلمات، ولكي لا يصبح هناك قرارٌ صلبٌ كامل المعالم بخصوص مستقبلتي كلّ. كنت أغرس آمالي في الصمت وفي عشوائية الحياة التي ألقت بي في هذا المصير، وفي مزاجيّة سالم وتذبذبه بين القسوة والحنان.

تكرّرت زياراتنا إلى الطبيب، وازداد صمتي وانسحابي مع كلّ

اختراقٍ لخصوصية جسدي. لم أعد أرافق سالم إلى أيّ مكانٍ آخر، وكنت عند كلّ فرصة أجد عذرًا لعدم مرافقته للأفراح أو لزيارة أمّه وإخوته. لا أذكر متى بدأت مشكلتي مع ضوء النهار، ولا متى بدأت أسدل ستائر المنزل على نوافذه الكبيرة طول النهار وطيلة السنة. وعندما أخرج إلى الشمس لسببٍ أو لآخر، كنت أخجل من وجهي وأتخيّل أنّ كلّ عيوبه أصبحت مفضوحة الآن. الخجل ليس بجديدٍ عليّ، ولكنّ هذا الشعور الذي تسرّب إلى روحي أشدّ قسوةً من الخجل بكثير. شعورٌ جعلني أقتنع أنّي قبيحة، وأنّني أريد أن أحمي الناس من قبح وجهي. شعر سالم أنّ حالتي تزداد سوءًا، وخاف أن يطول موضوع الحمل وأشعر بالملل «وأوجع له رأسه»، كما كان يقول. فاشترى لنا جهاز كمبيوتر ضخّم لنشاهد الأفلام ونفتّش عن معدّاتٍ تناسب عمله، ولأستخدامه كوسيلةٍ للتسلية حين يذهب إلى العمل. ها هو الرجل ذاته الذي رفض أن يكون لي هاتفٍ الخاصّ يأتيني بجهاز كمبيوتر وخطّ إنترنت أيضًا. ها هي عشوائية الحياة تُنصفني قليلًا، وتأتيني بنافذةٍ جديدةٍ على العالم عوضًا عن كلّ النوافذ التي أغلقتها أنا أو أغلقها الآخرون في وجهي.

في عزلتي، تعاملت مع الكمبيوتر - الذي اخترت له ركنًا مظلمًا في غرفة الجلوس - وكأنّني طفلٌ يكتشف لعبته. دخلت إليه وخرجت منه دون أن أفهم شيئًا، أدّرتّه وأطفأته عشرات المرّات دون درايةٍ بما أفعل. وجدت صعوبةً في تحريك فأرته بتناغم مع ظهور إشارة السهم على الشاشة، وأصبت بالإحباط وركّلت الأرض وشتمت ولعنت. ولكنّ بعد أسابيع من «التخبيص»،

تعلمت ما كنت في حاجة لمعرفة في تلك الفترة على الأقل.

استعنت بالإنترنت للبحث عن مشاكل النفسية. نتائج البحث أظهرت أن هذه الأعراض تُسمى «الوعي بالنفس» Self-conscious. وحين تستمرّ هذه الأعراض في أجواء غير صحيّة تأخذ شكلاً أكثر حدّة، وهو ما يُسمى «بصورة الذات المشوّهة» Distorted self-image، وتكرّرت هذه العبارة عشرات المرّات في المقالات العلميّة وفي شهادات الأشخاص الذين يرون عيوبهم - التي قد تكون أو لا تكون موجودة - ويركّزون عليها ويضخّمونها حتى ينعدم تقبّلهم لأنفسهم. هؤلاء إذن، بحسب علم النفس، هم أشخاص واعون بذواتهم. حاولت أن أفهم: إذا كان الوعي بالذات هو الخلل، هل هذا يعني أن عدم الوعي بالذات هو الحالة الطبيعيّة؟

اتّسمت هذه الفترة بالكثير من التفكير والقراءة والبحث، وأخذني فضولي إلى القراءة عن الأديان. فقرأت عن السومريّة والبوذيّة والزرادشتيّة وغيرها، مروراً بالديانات الإبراهيميّة وصولاً إلى الديانة الدرزيّة التي انبثقت من الفرقة الإسماعيليّة الشيعيّة. بدأت القراءة عن ديانتني وكأنيّ أتعرفّ عليها للمرّة الأولى. فمن المعروف أن من يطلبون دينهم ويصبحون شيوخاً هم فقط من يُسمح لهم بقراءة كتب الحكمة وشروحها، أمّا «الجسمانيّون» أمثالي فلا يحقّ لهم ذلك. لم يسبق أن أعرت ديني اهتماماً من قبل، ولا أبديت فضولاً معرفيّاً تجاه أصله على الرّغم من وجودي في محيط متديّن وولادتي في بيت مشايخ. ربّما في مكان ما في رأسي كنت أعتبر أن الدين هو سبب ما حدث لي. لم أواجه

نفسي بهذه الشكوك في تلك الأثناء، ولا أخبرت أحدًا برحلة البحث التي أقوم بها.

بدأ اسم الحاكم بأمر الله يتكرّر في أكثر من مصدر. لم يرقني الأمر، لأنّه بحسب معلوماتي المتواضعة، فإنّنا موحدون نؤمن بالله وحده لا شريك له، وليس عندنا أنبياء ولا رسل. وظهور اسم الحاكم بأمر الله طرح علامات استفهام كبيرة في رأسي. كنت أتجنّب الحديث عن الدين مع أبي، لأحظت أنّ ملامحه تتغيّر عندما يشرع في الحديث عن الدين، وتصبح أكثر جدّيّة، ويصبح أكثر بُعْدًا عنيّ. حتى صوته يصبح عميقًا وكأنّه يرتدي عباءة أيضًا. قصدت أمّي لأوفّر على نفسي عدم الارتياح، وسألته عن الحاكم بأمر الله وعن حقيقة ما إذا كان الله قد تجلّى في جسده. بدت على أمّي الدهشة:

– ماذا؟ الله في جسم رجل؟ وأكملت: من وين جبتي هذا الحكي؟

استغربت أنّ أمّي لا تعرف هذه القصّة مع أنّها شيخة، ومن المفروض أنّها تقرأ كتاب الحكمة باستمرار. أخبرتها أنّي بحثت وقرأت عنه في أكثر من مصدر، وأنّ هناك دراسات أكاديميّة عنه، فهزّت رأسها مستنكرة وحائرة:

– اسمعي. أنا لا أستطيع أن أقول هذا الكلام بوجود أحد. لكنّ أنا لا أعرف الكثير عن الدين، ثم صمتت قليلًا وأكملت: لا أحبّ أن أعرف أكثر، لأنّي إذا عرفت سأفكّر؛ وإذا فكّرت سأطرح الأسئلة، وإذا سألت سوف أعرض نفسي للانتقاد.

ثم ختمت حديثها بنصيحة :

- أسألي والدك .

لم أعرف أمِّي سوى في زيِّ الدين ، لم تكن هي وأبي مشايخ في بداية زواجهما ، ولكنَّ مقتل عمِّي عماد في الحرب أعاد أبي إلى دينه عودة جنديٍّ مهزومٍ إلى داره . شغلتنِي العلاقة بين اختبار الفاجعة والعودة إلى الدين لفترةٍ طويلة . لاحظت أنَّ من يفقد عزيزًا ، أو يُبتلى بخسارةٍ كبيرة ، يرمي بثقله على فراش الإيمان الوثير . لربَّما تعود هذه النزعة إلى الشعور بالخواء بعد امتلاء ! لربَّما ينسى الإنسان حاجته إلى الإيمان حين يكون قويًا ، ولكن لا يلبث الألم أن يُنزلهُ على ركبتيه حيث يتذكَّر أنَّه أضعف من أن يقف وحيدًا ، وأنَّه لا بدَّ من كتفٍ حنونٍ يحمل معه وجع عشوائية هذه الحياة ، واحتمال سقوطنا في أيِّ لحظةٍ من قمم الفرح أو حتى الرتابة . فالرتابة تصبح قَمَّةً أيضًا حين نسقط منها إلى حضيض الخسائر .

حين طرح أبي فكرة الالتزام الدينيِّ على أمِّي العشرينيَّة تردَّدت قليلًا ، لكنَّ أبي ذكَّرها أنَّها لو رفضت فسيمهلها عامًا واحدًا ، ثم يطلِّقها كما تقتضي تعاليم الدين . لم تنتظر أمِّي انقضاء الشهر الأوَّل ، ووافقت أن تصبح شيخَةً حتى لا تفتح على نفسها خراطيم النار من أفواه كلِّ من حولها . لا تختلف قصَّة زواج أمِّي عن قصَّتي كثيرًا . كانت في السادسة عشرة من عمرها عندما أتت جارتهم محاولةً جسَّ نبض جدَّتي بخصوص تزويج أمِّي . أخذت الجارة تشكر في سيرة جدِّي أبو علي الذي كان حينها سايس مجلس المشايخ ، وتشيد بسمعته وورعه وحسن خُلُق أبنائه علي

وعماد. فاتحت جدتي أمي في الموضوع، وأطلعتها على عرض الزواج، فلم تقل أمي شيئاً. وعندما غادرت الجارة، أخذت جدتي تلح على أمي بشأن قبول العرض، وكان الوقت قد تأخر وشعرت أمي بالنعس، فقالت لجدتي:

- إذا قبلت بتسمحي لي روح نام؟

- طبعاً، قالت جدتي.

وهكذا، قايضت أمي حياتها مقابل ليلة نوم هادئة. هكذا، عاشت بقية حياتها في حالة لا تختلف عن حالة الأحلام في اللزوجة وعدم اليقين وتسارع الأحداث.

لم تكن أمي شيخخة حين تزوجت، ولكن كانت العادات تقضي بأن تضع الشابات غير الشيوخات طرحة على الرأس - وهي قطعة قماش رقيقة وطويلة توضع على الرأس، وتنسدل على الجانبين من غير أن تغطي الوجه والعنق والظهر. في اليوم الثالث بعد عرسها، قصدها أبوها ليطمئن عليها، وكان شيخاً ورعاً أيضاً، فوجدتها في الخارج تغسل وجهها بطاسة جانب برميل الماء، ورأسها مكشوف بينما طرحتها معلقة على حبل الغسيل منعاً للبلل. رأت أمي من وراء جفنيها شبه المقفلين أباهما مقبلاً، وفيما هي ترفع يدها لتضغط على عينيها وتشطف الماء عنهما، كان والدها قد استدار وبدأ بالابتعاد.

- أبي... أبي بترجأك سامحني. تبعته وكانت تحاول أن تمسك بيده؛ لكنه رفض يدها بعيداً.

- «أبي، بدّي رضاك. ما تفلّ زعلان. رح حظّ طرحتي على راسي على طول».

فأجابها بلهجته القاسية :

- بذكّ تجلبي لي العار وحكي العالم حتى بعد ما تزوّجتي!

فتوقّفت عن محاولة اللحاق به، وراقبته يبتعد من خلف دموعها. عادت أمّي إلى فناء بيتها المتواضع الذي لم تصله إمدادات المياه بعد، وقالت لنفسها «أنت وحدك، منذ الآن فصاعدًا، عيشي حياتك على هذا الأساس!»

شغلت أمّي نفسها بالعمل، وكانت تتجنّب تضييع الوقت في جلسات النساء المخصّصة للمتّة والتي تكثر فيها النسيمة. لكنّها بقيت على مسافة آمنة من أهل الضيعة؛ فكانت تساهم في أفراحهم وأتراحهم وتقوم بإعطاء الحقن للنساء المسنّات. لقد تعلّمت أمّي ضرب الحقن عن طريق المراقبة وهي في العاشرة من عمرها، وكانت تطوف على الضيّع المجاورة مشيًا على الأقدام كي تقوم بإعطاء الحقن للأرامل والعجزة دون مقابل. كان عمل أمّي هو عبادتها، ولكنّها لم تتعمّق في الدين يومًا. كما كان لها الكثير من الآراء النقدية التي طالما تصدّى أبي لها بالمقولة التي لا يكفّ عن تكرارها:

«أول من عمل برأيه وقاس الأمور بمقاسه كان إبليس، ولهذا سقط».

وبهذا، كان يوجّه رسالة واضحة لها بأنّ تمشي على نهج القدماء دون تفكير أو اعتراض، على الرّغم من أنّ الفكرة الأساسية للدين الدرزيّ هي استخدام العقل، بل تمجيده.

تعلّمت أمّي أن تنأى بنفسها عن كلّ ما حولها، فكرّست

الكثير من وقتها لعمل الخير. في ليالي العشور، وهي الليالي العشر التي تسبق عيد الأضحى، كانت الشيوخات يجتمعن في الخلوة فيخبزن الحلوى ويقشّرن الفواكه ويمددن الموائد المليئة بكميّاتٍ من المأكولات تكفي لإطعام مئات الأشخاص. اعتادت أمّي أن تكون من أوّل الواصلين للخلوة وآخر المغادرين لها، فتنتظر مغادرة آخر المشايخ الذين كانوا يأتون وفودًا من كافّة الضيعة والبلدات حتى تساعد في الجلي والتنظيف والتوضيب. فعلت أمّي كلّ هذا من غير أن تتعمّق في فهم الدين، واعترفت لي مرّة أنّها ترى أنّ هناك إهانةً للمرأة في كثير من المواضع والتعاليم الدينيّة. وكانت عبارة «لا يجب على المرأة أن تذهب أبعد من مسرح دجاجة بلا محرم» تُشعرها بالامتناع. وحين قرأت ميثاق النساء - إحدى رسائل كتاب الحكمة - شعرت بانزعاج شديد من اللغة التي تكتنفها نظرةً دنيّةً تفرض الوصاية على المرأة، ولكنّي كنت حين أستفّزها بأسئلةٍ عن قضايا دينيّة تُجيب:

- «خلّيني عالوسط. هيك أحسن بلا ما اتعمّق».

بقيت أمّي معلّقةً بين عالمين طوال حياتها. تعيش وفقًا لتعاليم دين لا تريد التعمّق فيه، وتسرح في ملكوتٍ منفصلٍ خلّقه في وجدانها، وأثّته بأصوات أمّ كلثوم وفايزة أحمد ونجاة الصغيرة. لم يكن في بيتنا مكتبة، لكنّ الكتاب الأوّل الذي وقع تحت يدي كان لأُمّي. وجدته وأنا في الحادية عشرة من عمري، وقرأته ذات مساءٍ في جلسةٍ واحدة. كانت رواية لـ بيار روفال بعنوان «ماذا فعلت بقلبي». فتح لي هذا الكتاب عالمًا لم أكن أعرف بوجوده، ووجدت فيه أداةً لتبرير وجعي. وعندما انتهيت

منه أجهشت بالبكاء على أرض الحمّام الباردة لأكثر من ساعة. كانت لأُمِّي كتبٌ قليلةٌ أخرى، كلّها لجبران خليل جبران. وكنت حين أقرأها أرى جانبًا من أُمِّي لا يراه غيري.

حين عجزت عن التوصل لإجاباتٍ من أُمِّي، لم يكن مِنِّي إلّا أن أُلجأ إلى أبي للاستعلام عن حقيقة ما قرأته عن الحاكم بأمر الله. بحثت عنه ووجدته في ورشته بين المعدّات، وصوت آلة الجلخ المرتفع يطغى على كلّ الأصوات المحيطة، وحتى على صوت خطواتي. عندما رأيته مقبلاً أطفأ الماكينة ونزع القناع الشفّاف الواقى عن وجهه وابتسم: «جايي تعملي زيارة؟» ابتسمتُ وطرحت الموضوع بكثيرٍ من التأنّي، فاخترت كلماتي بحذرٍ تامٍّ وكأَنني أمشي فوق حقلٍ أُلغام. وعندما سمع أبي اسم الحاكم بأمر الله ابتسم وأشرق وجهه، وقال:

- الحاكم بأمر الله هو نفسه الله جلّ جلاله.

- ولكنّكم أخبرتمونا ونحن صغار أن الله لا جسد ولا شكل له!

- هذا صحيح، ولكن آخر تجلٍّ لله على الأرض كان بجسد الحاكم بأمر الله. كان عليه أن يظهر لمحاسبة الكفّار عندما كثر الشرّ والفسق ولم يعد الأمر يُحتمل.

- وكيف انتهى أمر الحاكم؟ هل يوجد مزار لجثمانه؟

- الحاكم بأمر الله اختفى ولم يمت، لقد احتجب. قال بنبرة حادّة وكأنّه متعجّبٌ من سؤالي.

- ولكنني قرأت أن شقيقته هي من دبّرت قتله، لتستولي على حكم مصر.

- هذا كلام المغرضين والجاهلين. لا تصدّقي أيّا من هذا.
ثم أضاف بامتعاض:

- كنت دائماً أنبه أخواتك ألاّ يُصدّقن شيئاً ممّا يدرسونه في الكتب في الثانويّة، وأن يدرسوا فقط من أجل الدرجات.

كان في رأسي الكثير من الأسئلة عن تصرّفات الحاكم بأمر الله المريبة، وكيف ذهب بعض المؤرّخين لاتّهامه بالجنون بسبب قراراته المتطرّفة التي كان ما يلبث أن يتّخذ عكسها، وكيف حرم النساء من التنقّل عن طريق منع السكّافين من تفصيل أحذية لهنّ. كما كان يعاقب النساء اللاتي يتجوّلن في الشوارع بإغراقهنّ في النيل. ولكنّي بعد أن قوبلت بهذا الجواب الذي يشبه الحائط، لم أجروّ على طرح المزيد من الأسئلة على أبي.

ظلّت شخصيّة الحاكم بأمر الله موضوعاً محيّراً ومشوّقاً بالنسبة لي. كنت أضحك عندما أقرأ عنه، وأتذكّر «نهفات» جدّي أبو علي. تتقاطع قصّة منع النساء من التجوّل بحرمانهنّ من الأحذية مع قصّة جدّي ودجاجاته. كان جدّي يرّبي الدجاج في قنّ مصنوع من الطين والقليل من الحديد المسبّك، تظلّله شجرة توت صغيرة وشهيّة الثمار. وجدت دجاجات جدّي طريقة لتسلّق سطح القنّ الطينيّ المائل ليتّجهن إلى التوت الصغيرة ويأكلن كلّ ما بها من ثمار. لم يعجب جدّي هذا الأمر، وحاول بكافّة الطرق طرد الدجاجات، لكنّ طعم التوت العذب كان يجذبهنّ. وفي يوم من الأيام، خطرت لجدّي أبو علي فكرة ذكيّة، فأتى بقشر البطيخ الأحمر السميك وفصل منه مربّعات بحجم أقدام الدجاجات، ثم قام بثبيت القشور عليهم بأسلاك حديدية سهلة الليّ. وهكذا،

أصبحت الدجاجات تنزلق ساقطةً كلّما همّت بتسلُّق سطح القنّ،
فيما يجلس جدّي تحت العريشة يراقب المنظر ويقهقه حتى تنزل
دموعه .

وفي مناسبةٍ أخرى، أكلت دجاجة جدّي بذور الخضراوات
التي كان قد خزّنها من الموسم الفائت ليزرعها في موسم جديد،
وحين علم بالأمر أتى بالدجاجة وشقّ حوصلتها، واستخرج بذوره
منها، ثم أعاد خياطة الحوصلة وضمّد الجرح بورق نبات الطيُّون .
وفي مناسبةٍ ثالثة، أخذ جدّي إحدى دجاجاته إلى حقل القمح بعد
الحصاد، وربط قدمها بحبل وربط الطرف الآخر من الحبل بشجرة
الزيتون كي لا تهرب . قرّر أن يتركها هناك حتى تأكل بقايا
الحبوب على أرض الحقل تجنُّبا للهدر . وحين عاد بعد ساعاتٍ
ليأخذ دجاجته التي تخيلها ممتلئةً وسعيدة، وجد قدمها فقط معلقًا
بطرف الحبل والكثير من ريشها فوق الأرض، فعلم أنّه قدّم لابن
أوى وجبةً مجّانيّةً .

وجدتُ تشابهاً كبيراً بين جدّي والحاكم بأمر الله . كان
يميّزهما ذلك الخليط من الحكمة والتهوُّر، والخيُّط الرفيع الذي
يفصل بين الرحمة والقسوة، والقرارات التي يطغى عليها شيء من
الذكاء وينفّذها الجنون . كنت أشعر أنّ الجدار الذي بناه جدّي
بينه وبين جدّتي قادمٌ من عالم الحاكم بأمر الله، وكنت أعلم بما
يشبه اليقين أنّ التحوُّل الذي طرأ على أبي هو تتمةٌ لسلسلةٍ من
الأفكار والأفعال الغريبة التي بدأها الحاكم بأمر الله . حتى مزاجيّة
سالم وعدم قدرتي على توقُّع أفعاله، ظننتها امتداداً لغرائبيّة
الحاكم ومزاجيّةته . توصّلت إلى نتيجةٍ أنّ المشكلة لا تكمن في

الدين بحدّ ذاته، بل في الرجال الذين يتقمّصون دور الله، ويحكمون بالنيابة عنه، وفي النساء اللاتي يقبلن بالمنطقة الرماديّة بين المعرفة والخرافة، ويقبلن بمسرح الدجاجة كبراح آمن يقيهنّ مخاطرة التخطيط لحيواتهنّ بأنفسهنّ. احتفظت بهذه التأمّلات نفسي، وأكملت بحثي في أمر الدين.

«نهاية العلم والتعليم هو الرضى والتسليم»، قلت هذه الكلمات لسالم حين رأيته يدمع أمام فكرة عدم إنجاب طفل. لم أكن قد حسمت أمري مع الإيمان بعد، ولكنّي لاحظت أنّ سالم مؤمن، وأنّه لا يتوانى عن ذكر الله عدّة مرّاتٍ في النهار والليل. «يا ربّ يا كريم يا أرحم الراحمين» يكرّرها حين يتقلّب، ويقول «الحمد لله على النعمة» حين يتكلّم عن عمله، ويوزّع النذور على المقامات بنيّة أن يرزقه الله بمولود. ولكنّ كلماتي عن الرضى والتسليم لم تجعل إيمان سالم برّبّه يوقفه عن طلب المساعدة من الطبّ الحديث.

كنت في الثامنة عشرة من عمري حين سمعت كلمة «تلقيح» للمرّة الأولى. كنت جالسةً بجانب سالم أمام مكتب طبيب العقم الأكثر شهرةً في بيروت. على الحائط وراءنا، كان هناك لوحٌ كبيرٌ علّق عليه صور مئات الأطفال الذين ساهم الدكتور رسم خطّار بوجودهم عن طريق غرسهم عنوةً في أرحام أمّهاتهم ثم بتوليدهم. خلف مكتبه الخشبيّ الفخم، علّق عشرات الشهادات والأوسمة التي تُطلّ علينا كمبرّرٍ منطقيٍّ لخطرسته. وإلى يمينه توجد أرفف خشبيّةٌ صُمّمت بعناية، ورُصفت فوقها تحفٌ تذكاريّةٌ أتى بها أهالي أطفال التلقيح من كافّة الدول العربيّة، كقرايين شكرٍ للطبيب

العظيم. كان الدكتور رستم من أكثر الشخصيات التي قابلتها فظاظَةً. يبدأ حديثه باستعلاءٍ واستعجالٍ غير عاديّين، فيما يستخدم الكثير من المصطلحات الأجنبية. كلّ هذا جعل سالم يرتبك ويتلعثم في الأجوبة، ولكنني سارعت باستلام دفّة الحوار، لأنني أجد الإنجليزية.

- سأتلو عليكم الخيارات، قال دكتور رستم بلهجةٍ تنمّ عن نفاد الصبر، وأردف:

التحليل المبدئية تدلّ على ضعفٍ كبيرٍ في الحيوانات المنوية عند سالم، وهذا يتركنا أمام خيارين. إمّا القيام بتلقيح اصطناعيّ وهو الإجراء الذي يُسمّى بطفل الأنبوب، أو نُعطي سالم الحقن وننتظر أن يتحسن وضعه، ولكنّ هذا الخيار الثاني غير مضمونٍ بنسبةٍ كبيرة.

وفيما هممت بسؤال الطبيب عمّا تعنيه كلمة «طفل الأنبوب»، قاطعني سالم موجّهاً كلامه إلى الطبيب:

- سنلجأ للتلقيح الاصطناعيّ طبعاً.

- حسناً، سنقوم بالتلقيح، وهي الطريقة الأضمن حالياً. قال الدكتور رستم وهو يكتب قائمةً من الأدوية على دفتره، ثم أعطى الورقة لسالم، وأكمل: ستشتري هذه الأدوية والحقن اليوم، وستبدأ أمل بالحقن في أوّل يومٍ في دورتها الشهرية.

سمعت اسمي مع كلمة حقن في الجملة نفسها. «هل قال أمل؟ ما دخلي أنا؟ لماذا لا تعطوه هو الحقن»، أردت أن أقول. «ثم لماذا لا تشرحون لي ماذا سيحلّ بجسدي»، أردت أن أقول.

«ثم إنني أخاف من الحقن»، أردت أن أقول. «ثم إنني أخاف من الأمومة»، أردت أن أقول.. ولكنني تعثرت كالعادة فوق صمتي، ولم أقل شيئاً. رنَّ الطبيب على الجرس إلى جانبه، فدخلت مساعدته. «خديها علميها كيف تضرب الحقن بنفسها»، قال الطبيب موجّهاً كلامه إلى مساعدته. نظرت إلى سالم وكأني أرجوه أن يقول شيئاً - وهو الذي يعلم كم أخاف من الحقن! ففهم نظرتي، وقال للطبيب «ستأخذ الحقن في الصيدليّة.. قلبها ضعيف» وابتسم. رفع الطبيب كتفيه بحركة تنم عن عدم لامبالاة «الأمر يعود لكما، ولكن عليكما أن تعرفا أنّ الموضوع ليس بسيطاً».

كانت تعليمات الطبيب تقتضي بأن آخذ حقنتين يوميّاً لمدة عشرين يوم. واحدة تحت الجلد في بطني، والأخرى في العضل في المؤخّرة. اختار سالم صيدليّة تُديرها امرأة في محيط ضيعته. أخذتني الصيدلانيّة الثلاثينيّة إلى الغرفة الخلفيّة الضيّقة، حيث تتكدّس أكياس الحفّازات على شكل أعمدة، وتقابلها صناديق الدواء، وحيث تفوح رائحة المعقّمات. وقفت جانب الحوض الصغير حيث غسلت الصيدلانيّة يديها وجفّفتهما، ثم أخذت الحقنة الزجاجيّة وطرقت عليها بظفرها مرّتين حتى تجمع السائل في قعر الزجاجيّة، ثم كسرت رأسها بعد أن لفّته بشاشة وسحبت السائل، وأنا أراقبها بعينين متّسعتين وأنفاسٍ متسارعة.

- استديري وأنزلي سروالك، سمعت صوتها وكأنه يأتي من مكانٍ آخر، وكأني في حلم!

كان رخام الحوض تحت يديّ يسرّب البرودة إلى جسدي.

- استديري من بعد إذك، قالت بحزم.

وحين استدرت، ضغطتُ على الحوض بكلتا يديَّ كأني أحاول سحقه، لكنَّ السائل الناريَّ الذي اخترق مؤخرتي وبدأ انحداره باتَّجاه وركي جعل مفاصلي كلّها ترتخي. كان الشعور يشبه إقحام سيخٍ حديدٍ ساخنٍ في ساقي. بكيت بصمتٍ وأنا أرفع سروالي بيد، وأمسح دموعي بكمّ يدي الأخرى. لكنَّ صوت الصيدلانيَّة الذي بدأ يتَّخذ نغمة تعاطفٍ أجبرني على التماسك:

- اكشفي بطنك يا حلوة، باقي حقنةٌ واحدةٌ ومنخلص. نبَّهتني أنَّ المحنة لم تنتهِ بعد، فأشحت بوجهي عنها كي لا أرى الحقنة تخترق بطني.

كان هذا التعرِّي العشوائيَّ أمام الغرباء أشدَّ أَلَمًا من الحِقْن نفسها. لقد كنت منذ الصغر واعيةً بجسدي لدرجة أنني أشعر بثقله وكأنَّني أحمله على أكتافي ولا أعيش بداخله. أعرف حدوده كسائقٍ ماهر، يعرف أبعاد سيَّارته بدقة، فأدرس المسافة التي تفصلني عن الآخرين بعناية. وكان الأشخاص الذين يتحدَّثون من مسافةٍ قريبةٍ يسبِّون لي الإزعاج الشديد، لدرجة أنني أفقد التركيز على كلامهم وأحبس أنفاسي حتى يُخيَّل لي أنَّ المتكلِّم يقف على صدري. وغالبًا ما كنت أتجنَّب الأحضان والتحيَّة بالقبلات، ولكنَّ حين أُرْجُ في موقفٍ كهذا أحبس أنفاسي أيضًا، حتى ينقضي الحَضَن، وأعاود استرجاع المسافة بيني وبين الآخرين مجددًا. كلَّ هذه الخصوصية التي أحطت بها جسدي جعلت «الشلح» أمام الآخرين مذلَّة، وجعلت زياراتي لعيادات الطبِّ النسائيَّ أشبه بالاغتصاب.

لاحظ سالم آثار الدموع في عينيّ، وحين عدنا إلى السيّارة،
قال:

- ابتداءً من الغدّ، سنذهب لمنزل والديك يوميّاً وستُعطيك
أُمك الحِقْنَ. ما رأيك؟

كان في صوته نبرةُ حماسٍ مفتعل، هدفها تلطيف الأجواء.
فهزّزت رأسي موافقة. وهكذا، أصبحت أزور أُمّي يوميّاً فأنام
على جنبي، وتقوم أُمّي بإعدادي لأموّتي عن طريق الحِقْنَ. كنت
أنتظر خروجها من الغرفة لأبكي. لم أشأ أن ترى دموعي ولا أن
تشعر بألمي، لأنّها تحمل بداخلها ما يكفي من الهموم. كنت
أبكي لأنّي موجوعة، ولأنّي لا أريد أن أكون أُمّاً، ولأنّ الأقدار
شاءت أن تكون لأُمّي علاقةٌ بهذا الألم، وكأنّ علاقتي بها ليست
على قدرٍ كافٍ من التعقيد.

أخذت الأيام تتوالى وجسدي ينحل وخوفي يزيد من الموعد
المرتقب. كانت الحِقْنَ عبارةً عن هرمونات خصوبةٍ تسرّع عمل
المبيضين، فيقوم المبيض بإنتاج عددٍ كبيرٍ من البويضات عوضاً
عن البويضة الواحدة التي ينتجها المبيض في الدورة الطبيعيّة.
وعند اكتمال العلاج، يقتطع الطبيب البويضات عن طريق عمليّةٍ
جراحيةٍ يُجريها في الرحم، ويقوم بزرع نطف الأب داخلها، ثم
يضعها في أنبوبٍ حاضنٍ لخمسة أيّام. وبعد انقضاء الأيام
الخمسة، يُعيد الطبيب الأجنّة إلى رَحِم الأمّ آملاً أن يعيش على
الأقلّ واحدٌ منها. وفي حالاتٍ كثيرةٍ، تتمسّك كلّ الأجنّة
بالرحم، وتلد الأمّ عدّة أطفالٍ مرّةً واحدة.

بعد آخر حقنة، طلبوا منّي عبر الهاتف أن أحضر الساعة الثامنة صباحًا إلى مركز الخصوبة الواقع في مبنى راقٍ في شارع عبد العزيز في الحمراء. شعرت بالدوار وأنا أهبط السلالم للطابق الأوّل تحت الأرض. كان الرواق مظلمًا والأضواء الصفراء خافتة، ولكنّ حين انفتح باب المركز بدا لي وكأنّ هناك عالمًا منفصلًا في الداخل. الجدران شديدة البياض والأضواء فلوريسنتية ساطعة وكأنّني في ضوء النهار، والممرّضات والمساعدات يشغلن الممرّات والغرف. استقبلتنا إحدى المساعدات؛ وبدأت الحديث معنا بالتعريف عن نفسها، ثم شرحت لنا بإيجازٍ ما سيحدث. وبعد أن طلبت منّي مرافقتها كي تجهّزي للعمليّة، قالت وكأنّها تذكّرت شيئًا:

– انتظري! علينا أن نأخذ عيّنةً من زوجك أولاً.

عادت بكوبٍ من الأكواب البلاستيكيّة التي نستخدمها لفحص البول، وأعطت الكوب لسالم، وطلبت منّا أن نرافقها. مشينا خلفها في الممرّ الأبيض الطويل المزيّن بالنباتات ذات الأوراق السميكة والتي تعيش من دون ضوء الشمس. فتحت باب الغرفة وأومات بيدها لي ولسالم كي ندخل: «تفضّلًا»، ثم أشارت إلى العلة البلاستيكيّة في يد سالم قائلةً:

– نريد عيّنة المنّي حتى نقوم بغسلها وتجهيزها للتلقيح... حاول ألا تتأخّر.

كنت لا أزال تحت وقع الصدمة وأنا أتفحص الغرفة الواسعة بمقعديها الكبيرين الوثيرين. على الطاولة في منتصف الغرفة،

كانت هناك مجلّات إباحيّة وشاشة لأفلام الـ «بورنو»، فشعرت بالغثيان. وحين حاول سالم لمس صدري صرخت «أرجوك لا»، وركضت ودسست وجهي في الزاوية بين الباب والحائط، وأغمضت عينيّ وأقفلت أذنيّ بسبّابتي كي أتجنّب أن أرى أو أسمع شيئاً ممّا يحدث حولي.

شعرت برغبة في البكاء وأنا في طريقي إلى غرفة العمليّات. كلّ شيءٍ حولي يبدو وكأنّه في فيلم أو في حلم أودّ الاستيقاظ منه بأسرع وقتٍ ممكن. فكّرت في أمّي... تمنّيت من قلبي لو أنّها معي، واستغربت أنّني لم أطلب منها المجيء. فكّرت في أختي نرمين وطريقتهما في الشتم واللعن حين تتعرّض لمضايقة. فوق سريرٍ ضيّقٍ في غرفة العمليّات، كنت عاريةً إلّا من روب أبيض يغطّي صدري ويكشف ظهري. بجانب قدميّ كانت الممرضة تبعد ركبتيّ وتثبتهما على جانبي الطاولة، عند رأسي ممرضة أخرى تجمع خصلات شعري وتحاول دسّها تحت قبعةٍ جراحيةٍ رقيقة. كنت أشعر بوجودهما فيما تصطكّ أسناني من البرد وتتقلّص معدتي من الخوف. حدّقت في الضوء الكبير في السقف فوق رأسي وشعرتُ كما لو أنّني في حلم أو في حالة تأملٍ عميقة. فكّرت في الله، في لحظةٍ فيها الكثير من الحميميّة... شعرت بقناع الأكسجين فوق أنفي؛ بدأت عيوني تنغلق. الضوء يغيب... الله يغيب... البرد يغيب...

استيقظت في غرفةٍ رماديّة فارغة إلّا من سريرٍ واحد كنت مستلقيةً عليه. سمعت أنيناً قبل أن أفتح عينيّ، وحين استيقظت أدركت أنّني كنت مصدر الأنين. كلّ شيءٍ فيّ كان خديراً. نظرت

حولي فلم أجد أحدًا. رفعت رأسي قليلًا، ألقيت بوزني فوق كوعي وجلت بنظري على الغرفة الفارغة، فبدت لي وكأنها مشهد آخر من فيلم صامت. لم أُميّز المكان لدقائق ولا ما أتى بي إلى هنا! استجمعت قوّتي وجلست فوق السرير بساقين متدلّيتين في الهواء. ثم دفعت جسدي إلى حافة السرير حتى لمست قدمي الأرض. وحين وقفت، انساب خيط من الدماء من بين ساقِيّ، وترك فوق الأرض بقعًا حمراء بأحجام مختلفة. نظرت إليها مطوّلًا وحاولت أن أصرخ، ولكنني لم أعرف اسم من أنادي ولا إن كان صوتي سيعينني؛ فصمت.

لم أغادر المنزل في الأيام الخمسة التي تلت هذا الحدث، والتي تفصلني عن عمليّة إعادة الأجنّة المخصّبة إلى رحمي. لم أتمكّن من مغادرة السرير أيضًا، أو ربّما لم أشعر برغبة في ذلك. كان الألم ينبع من كلّ مكانٍ في داخلي من غير أن أتمكّن من تحديد موضعه، مثل الرطوبة التي تتغلغل في الأسقف وتقرشها وتشوّه شكلها من غير أن نعلم مكان الشقّ الذي يسمح للماء بالتسرّب. شعرت أنّي السقف أحيانًا، وأنّني لا أصلح لإيواء أحد، وأحيانًا أخرى شعرت أنّي الماء الذي سيخرّب مشروع هذه العائلة التي لم تكتمل بعد. كيف يمكن أن نكون المشوّه والمشوّه معًا؟ وفي هذه التلايف التي أعيشها، من يحدّد من يشوّه من ومن ينزف إلى داخل من؟ فكّرت في أبي ثم أبيه. . ثم في أمّي وأمّه. . فكّرت باحتمال الطفل الذي سيغرسونه في أحشائي. الطفل الذي بدأت علاقتي معه على شكل انتهاكٍ وحقنٍ وألم. من يرمّم كلّ هذا أيّها الاحتمال الصغير الراقد في أنبوبٍ في عيادة

فخمة في الحمرا وأُمَّك هنا تُحدِّق في السقف؟ كيف أبني جسرًا فوق نهر الألم لأعبر إليك سالمة؟ وأنت؟ هل ستكون الماء؟ أم السقف؟ أم الشق؟ هل حقًا تريد أن تأتي لتكون جزءًا من هذه المسرحية الهزلية؟

أمضى سالم الأيام التي تلت نقل الأجنة إلى رَحمي محاولاً أن يؤمِّن لي كافَّة وسائل الراحة مدفوعاً بأمل الأبوة، آملاً أن أحد الأجنة المزروعة في رَحمي سيتمسك بي ويُبصر النور بعد تسعة أشهر. لكنَّ شيئاً من هذا لم يحدث! والفحص الذي أجريناه بعد عشرة أيَّام من إعادة البويضات إلى رَحمي جاء سلبياً. «لا وجود لهرمونات الحمل في تحليل الدم»، قال الدكتور بصوتٍ تقريرِيٍّ من غير أن يُبدي أيَّ تعاطفٍ مع سالم الذي دفع مبالغ طائلة، واستعدَّ بكلِّ وجدانه لخبر الأبوة؛ ولا أبدى تعاطفاً معي أنا الفتاة المراهقة التي تحوَّلت إلى فأر مختبرٍ من أجل الحصول على طفلٍ لم أرغب في إنجابه أصلاً!

لم أكن يوماً تلك الإنسانة المرححة التي تنقل الفرح والفكاهة أينما حلَّت. كنت دائماً صامتةً، منسحبةً، ولا أتكلَّم إلَّا عند الضرورة. من يلتقيني للمرَّة الأولى يلاحظ أنني هادئةٌ وجدِّيَّة، ولكنِّي لم أكن كئيبة. أملك ضحكةً مجلجلة كان يسمعها الجيران في الحيِّ كلَّه وتسمِّيها أمِّي «فضيحة»، ولكنَّ بعيداً عن جلساتي أنا وأخواتي وبعد أن غادرت بيت أهلي، نادراً ما أصبح يستفزُّ تلك الضحكة المجلجلة شيءٌ، خاصَّةً أنَّ سالم كان ينزعج حين أطلقها في الأماكن العامَّة ويجافيني لساعات، بعد أن حذرنِي أكثر من مرَّة أنَّ ضحكتي هذه تخرجه وتلفت النظر إلينا. أمَّا بعد عمليَّة

التلقيح والشهور التي عشتها في عزلة تامّة في بيتي البارد الكبير متفرّغةً للتفكير والتأمل والقراءة، فقد صرت إنسانةً لها أبعادٌ أخرى. أصغيت لألمي كثيرًا في تلك الفترة وحاولت أن أفهم ماهيّته، وأن أضع أصبعي على مواطنه، وأن أفهم ما يستفزّه وما يوقظه. ولكنّه راح يتّخذ أشكالًا مختلفةً ويختبئ خلف مشاعر أخرى، فتحوّل مرّةً إلى كراهيةٍ صامتةٍ تجاه كلّ شيء. لم أعد قادرةً على مجاراة الآخرين في علاقاتهم الاجتماعية وأعراسهم وأفراحهم وولاداتهم وحتى زياراتهم العائليّة. توقّفت عن الخروج من المنزل كليًّا، وحين كان يأتي أحدهم لزيارتي كنت أتجاهل صوت الجرس، ولا أكلف نفسي محاولة التلصّص على الزائر عبر العين السحريّة لمعرفة هويّته. وفي أحيانٍ أخرى، كان ألمي يتّخذ شكل الغضب؛ فأفكّر في أبي كثيرًا، وأشعر برغبةٍ في الصراخ وصفع الأبواب الجميلة وتكسير التحف الغالية، ولكنّي بدلًا من ذلك كنت أركض إلى الحّمّام، وأفتح المياه الباردة فوق رأسي وأقف في الحوض بكامل ملابسني وأنا أبكي وأكرّر: «إنّي أسامحك يا أبي، إنّي أسامحك يا أبي، إنّي أسامحك يا أبي» عشرات المرّات حتى يخدر رأسي، ويخلصني بكائي من الغضب. إلّا أنّ الشكل الأقسى لهذا الألم كان الشعور بالخزي. هذا الألم الذي ترك الجميع وهاجمني أنا فقط، فنال من صورتي عن نفسي، وجعلني أفكّر بأنني قليلةٌ جدًّا لا أستحقّ شيئًا، وأنّي قبيحةٌ وغير صالحةٍ لشيءٍ حتى إنّي لا أعرف كيف أطهو الطعام ولا كيف «أفتح بيت زوجي» كالنساء القديرات.

نجحت في الاختباء من الأقارب والأهل، وحتى من ضوء

الشمس. كنت حين يأتي سالم محاولاً رفع الستائر أصرخ كي ينزلها، فيضحك ويقول إنني أتحوّل إلى «زومبي». كان يحاول أن يُضفي شيئاً من البهجة على جوّ البيت الكئيب. وحين كان يسألني عن سبب عدم فتحي الباب لأحد أفراد عائلته، كنت أقول له إنني كنت نائمة، وكان يتظاهر بأنه يصدّقني. حتى جسدي بدأ يضعف نتيجةً لهرمونات الخصوبة التي حُقت فيه؛ ففقدت الكثير من وزني، وصارت قطع من أضراسي تتكسر حين أمضغ المأكولات القاسية، خاصّةً أنّ طعامي اقتصر في تلك المدة على خبز الصاج والزعتر اللذين كانا وحدهما يساعدانني في معركتي ضدّ الشعور الدائم بالغثيان. أمضيت العام التالي في القراءة، ووجدت في تدوين أفكارٍ وملاحظاتٍ حول ما أقرأ شيئاً من المتعة. ولم أكن قد اختبرت المتعة من قبل... المتعة التي اكتشفتها لم تكن تشبه كلمة متعة التي يعنيها أحدهم حين يستمتع بوجبة طعام أو بالجنس أو بمشوارٍ لطيف. بل كانت متعتي حين أقرأ أو أكتب تشبه رفّة جناح طائرٍ عالٍ في بركة زيت؛ وتُشبه حالةً موقّنة من الخفّة وكأنّ الحجر الراقِد في معدتي منذ سنواتٍ قرّر أن يتنحّى للحظات؛ وتُشبه الوجد الذي يتحسّن حين نضغط عليه، كوجع الأسنان أحياناً.

استيقظت ذات صباح ورغبةً غامضةً تداهمني في تدخين سيجارة، أو قيادة سيّارةٍ بسرعةٍ فائقة حتى أصل إلى قمّة الجبل الذي كنت أحلم في طفولتي أن أتسلّقه لألمس السماء. ولكنّ كان التدخين ممنوعاً عليّ، وكنت لا أعرف كيف أقود سيّارة! سألت سالم أن يعلمني القيادة، فتردّد قليلاً وماطل كثيراً، ولكنّه وجدها فرصةً لأخرج من عتمة عزلتي وأشمّ بعض الهواء الطلق.

كان يقطع من وقته ساعة كل يوم ليعلمني القيادة في بعض طرقات الضيعة الفرعية. لم يمض شهر حتى كنت جالسة وراء عجلة القيادة بكل ثقة، ألفت تعرجات الطريق الجبلية وسالم جالس إلى جانبي يحاول أن يخفي توتره، فيما يحافظ على يده فوق مسكة فرامل اليد بين المقعدين.

وجدت في القيادة متنفساً جديداً لي. كنت أشعر بشيء من الحرية حين أقود السيارة وأفتح النوافذ وأشغل الموسيقى. فتدخل الريح إلى شعري ملوحة به في كافة الاتجاهات، فيما تتصاعد بعض الخصلات من النافذة كدخان المدافئ. ولكن كان على قمة الجبل أن تنتظر قليلاً، فقد حدّد لي سالم الأماكن التي أستطيع القيادة فيها وإليها. فسمح لي بزيارة أمي في ضيعتي «عينصورة»، وسمح لي بالتنقل لبيت أهله في «كفر رملا». وفي حال أردت الذهاب إلى مدينة عاليه، كان عليّ أن أصطحب أمي أو أمه. فهمت أيضاً أنه لا يريدني أن أقود السيارة في ضيعة الشوف المحيطة خوفاً عليّ من «تلطيش» شباب المنطقة وتفتيح العيون عليّ! وهكذا، قبلت بشروطه شاكراً. وشكرته أكثر حين تابع «لا تستطيعين التنقل بلا هاتف، علينا أن نشترى لك هاتفاً قبل أن تخرجي وحدك». كان عليّ أن أرنّ له حين أُغادر المنزل، وكذلك حين أصل إلى المقصد حتى ولو كان هذا المكان دكانة في الضيعة أو منزل والدته. قبلت من دون أيّ اعتراض، رغم أن الحدود التي رسمها لتنقلاتي ذكّرني بجدي أبو علي حين ربط دجاجته بحبل طويلٍ يمكنها من الوصول إلى الطعام والتجوّل في الحقل دون أن تغادره.

فشلت القيادة ومحاولات سالم في إبهاجي، كما فشلت القراءة وكتابة الخواطر في إعادتي إلى المرأة التي كنتها قبل عملية التلقيح. شيء ما غير صورتي عن نفسي إلى الأبد. شيء ما جعلني أشعر أنّ جسدي صار سجنًا، وأنّ عليّ أن أعيش فيه إلى الأبد. صرت أتوجّس من شكل جسدي، وحين أرى نفسي في الصور أو المرأة كنت أراقبه باشمئزاز. وحين ينظر الآخرون إليّ بإعجاب أو بشهوة، كنت أعتبر أنّ الإثارة التي يرونها في جسدي هي ما جعلته بضاعةً صالحةً للزواج، ووجودي داخل جسدٍ فيه رَحْمٌ هو ما جعلني عرضةً لهذا الإجراء الطويل الذي سحل روحي وتركني ذليلةً وهزيلة. كان من المفترض أن أنجب طفل أنبوب، فأصبحت أنا امرأة الأنبوب.

الدروز سلسلة

عادت شقيقتي نيرمين بعد خمسة أعوام من الغياب. كانت قد تزوّجت قبلي بسنتين وهي في العشرين من عمرها، وغادرت مع زوجها إلى الولايات المتحدة. لم تكن شخصية نيرمين تقليديةً، وكذلك زواجها وحياتها وعلاقتها بكلّ شيء. منذ الصغر، كانت نيرمين الأقرب إليّ بين أخواتي على الرغم من الأعوام الستة التي فصلنا والتناقض الواضح في شخصيتينا. كانت صاحبة شخصية فذة، وصوت مرتفع ونبرة واثقة، ووقفة شامخة، وكنت أنا قليلة الكلام ذات صوتٍ منخفضٍ وهادئٍ، وكتفين تميلان إلى الأمام وتنبئان بحدبة غير مطمئنة. وفيما كانت نيرمين تنتهز كلّ فرصة لتصعد إلى مسرح المدرسة وتُلقي قصائدَ عن عيد الأم والطفل والمعلّم بنبرتها الواثقة وحركات يديها التي تشبه الموج، كنت أنا برغم اجتهادي أختبئ خلف رؤوس التلاميذ من عيون المعلّمة مخافة أن توجّه لي أيّ سؤال. وحين يأتي السؤال، كنت أقف

كالتمثال وتقف الكلمات في حلقي حتى ينفد صبر المعلّمة وتبدأ في توبيخي والسخرية منّي!

كنت مع أخواتي جميعاً في مدرسة واحدة، وكنت حينها في الصفّ الثالث ونرمين في الصفّ الثامن. لا أنسى هذا اليوم حين رأنتي نيرمين أبكي وقت الاستراحة - حيث يجتمع التلاميذ من كلّ الصفوف في ملعب واحد - وبدأت تستنطقني. وحين أخبرتها بأنّ المعلّمة هزأتني، تطاير الشرر من عينيها. «إسا برّبّيها» قالت، وسحبني من يدي إلى غرفة المعلّمين. دخلت الغرفة من غير أن تطرق الباب: «وين مس هيام؟» وجّهت الكلام للجميع وكأنّها شرطي تحقيقات. وحين وجّدتها، توجّهت إليها قائلة:

- «إذا أبي عرف شو عملتي ما بتضلك نهار بالمدرسة. أختي غالية علينا. هاي آخر مرّة بقبل تحكيها هيك».

ومن غير أن تنتظر الردّ، استدارت وغادرت وهي تسحبني وراءها وقدماي تحاولان اللحاق بخطواتها الغاضبة، وقلبي يغني من الفرح لأنّ المعلّمة لن تسخر منّي مجدّداً. حين عدنا إلى المنزل، سألتها ما إذا كان أبي قادراً على طرد المعلّمة! فضحكت نرمين، وقالت:

- «بيك ما بيطلع من أمرو شي، بس الناس كلّها ما بتمشي إلاّ بالتخويف».

تظاهرت أنّي فهمت، ولكنّي كنت في الثامنة، وكانت تلك الألاعيب لا تزال غريبة عليّ. توّطدت علاقتي بنيرمين أكثر بعد مرض أمّي وعمليتها الجراحية. صارت أختي تصطحبني معها

للعب مع رفاقها من أولاد الحيّ. كانوا كلّهم صبيانًا، ولعبهم يقتصر على القفز من حيطان الحقول العالية والتسلُّق على الأشجار الناعمة كنوع من التحديّ. وكانت حين تتخاصم مع أحد الصبية ترميه على الأرض وتجلس فوقه وتبرحه ضربًا، فيهرب منها شاتمًا باكيًا؛ ثم تسحبني من يدي وكأني أحد أغراضها، وتعود بي إلى المنزل. عشرتي مع نيرمين ومرافقتي لها لم تجعلاني أقوى، بل جعلتا مقامها كبيرًا جدًّا في نظري. أصبحت أستشيرها في كلّ شيء، من أصغر الأمور ك شراء حذاء أو قطعة ثياب حتى أكبرها مثل سؤالها عمّا إذا كان الله موجودًا حقًّا، أو ما إذا كان النذر للمقام الذي في بيتنا - والذي يقصده الزوّار ويضيئون الشمع في شبائكه - حقًّا يُستجاب. وحين سألتها عن جهنّم، أعطتني إجابة غامضة لكنّ شافية:

- بعدك صغيرة على هذا الحكي. لا تخليّ حدا يخوّفك!

ولكنّ هذه الشخصية القويّة كلّفت أختي الكثير. حاول أبي ترويضها منذ الصغر، إلّا أنّ نيرمين كانت تأبى أن تُروّض، فكانت تكسر كلمته وترتكب ما يعدّه أبي إحدى الكبائر - وهي أنّها كانت تناطحه وتجادله حين يؤنّبها. وحين كان يضربها، لم يكن الضرب يكسر نظرتها المتحدّية إليه، ولم تكن تصمت ممّا يجعل ضربه لها أقسى وأشدّ. كنت أشاهده يضربها وأبكي بحرقه من وراء الأبواب. وهكذا، تعلّمت بالمراقبة والدموع أن أتمسّك بالصمت كي أحمي نفسي.

لم تكن نيرمين قويّةً وذكيّةً فقط، بل كانت جميلةً أيضًا، بوجهها المستدير وعينيها الخضراوين الكبيرتين وفمها الصغير

وشعرها الذي يلامس خصرها. سَبَّبَ جمالها حالةً من البلبلة في الوسط الدرزيّ، فتوافد العرسان من كافّة الضيّع لطلب يدها. وجلس أبي ذات ليلةٍ يعدّ العرسان الذين تقدّموا لنيرمين، وكأنّه يعدّ نقودًا في حصّالةٍ فتحها للتوّ. فاكتشف أنّهم سيتخطّون الخمسين عريسًا عن قريب! وعلى الرّغم من العداء القائم بين أبي ونيرمين، فقد كانت أختي مصدر فخرٍ له، وكان يفضّلها علينا جميعًا ويضربها أكثر ممّا يضربنا جميعًا، ربّما لأنّ تمرّدّها كان يذكّره بتمرّده في صباه، أو ربّما لأنّ تصرّفاتها كانت أقرب لتصرّفات الصبيّ الذي لم ينجبه! وقد كتب أبي فيها شعرا يتباهى بجمالها وكثرة حُطّابها قائلاً:

«نرمين عيونك حلوين، والقامة سحبة شربين

من مدّة ذايب قلبو ليشمّك ورد وياسمين».

فهمت نيرمين لعبة العرسان في وقتٍ مبكّرٍ، وكان لها أسلوبها في السخرية من جميع من يتقدّم لها، فتضحك على أحدهم لأنّ خدوده شديدة الاحمرار، وعلى آخر لأنّ قميصه مشجّرٌ بطريقةٍ تزغلل العيون، وعلى ثالثٍ لأنّه أتى برطل حليبٍ كهديّة! لم تكن الأسباب التي تأتي بها نيرمين لرفض العرسان تنتهي، ولا خلق النكات في هذا الإطار.

تحوّلت علاقة الحماية والوصاية التي كانت تجمعنا إلى علاقة صداقةٍ في بداية مراهقتي. كنّا نجلس على سطح المنزل تحت النجوم، نتحدّث حتى ساعات الفجر الأولى. تحدّثنا عن الحبّ والإيمان والحياة، التي بالكاد تُسمّى حياة، تلك التي عشناها في هذه الضيعة النائية المحصورة في نقطةٍ منخفضةٍ خلف

الجبال. ذات مساء، ابتسمتُ وقلتُ لها «أشعر أنَّ قرينتنا هي جرحٌ في قدم الجبل كالشقوق التي نراها أسفل أقدام النساء هنا»، فضحكت، وقالت لي ممازحةً «رح تصيري شاعرة». اعترفت لي نرمين أنَّها لا تريد أن تنتقل من ضيعةٍ إلى ضيعةٍ أخرى كما تفعل النساء الدرزيَّات، خاصَّةً أنَّ العادات والأفكار وأسلوب الحياة هي نفسها تسيطر على كلِّ الضيَّع الدرزيَّة بحكم الانغلاق على الذات ورفض التغيير. وأردفت:

- أنتقل من عينصورة إلى الجاهليَّة؟ أو المشرفة؟ أو بعذران؟.. هل هذه نقلةٌ حقًّا؟!

- هل عندك فكرة عمَّا تريدين؟ سألتها بفضول.

- أجل، أريد أن أغادر الضيعة والجبل ولبنان، وإذا أمكن الشرق الأوسط بكامله! قالت بنبوةٍ فيها الكثير من الثقة.

- من أين ستأتين بعريسٍ درزيٍّ مغترب؟

- سأنتظر... تزوّجت خالتي سمر قبل عشرين سنة، وسافرت إلى أستراليا، يعني مش مستحيل! لقد أنهيت الثانويَّة العامَّة منذ سنتين، يلِّي نظر سنتين بينظر أربعة! شعرت أنَّ في كلامها الكثير من المجازفة.

- وماذا لو لم يأتِ العريس، سألتها.

- على الأقلّ، أكون قد حاولت. ثم تابعت:

- ألا ترين كيف يعاملون النساء هنا؟ انظري إلى أمِّي التي أفنت جسدها وحياتها في خدمتنا، ولا أجد أنَّ أبي يُقدِّرها أو يُظهر لها أيّ لطف!

ثم راحت تسرد عليّ مواصفات العريس الذي تحلم به، وكيف تريده أن يفتح لها باب السيّارة ويحرّك كرسيّ المطعم لها كي تجلس ثم يطعمها بيديه، ويأخذها في رحلاتٍ سنويّةٍ يفاجئها بها في عيد ميلادها. كنت أصغي إليها باهتمام، وأستمع بهذه الأفكار وكأنّي أشاهد فيلمًا رومنتيًا.

لم تمضِ سنةٌ على هذا الكلام حتى جاءت خالتي المغتربة من أستراليا، ووجدت أنّ نيرمين كبرت وأصبحت من أجمل وأقوى الفتيات اللاتي التقتهنّ في حياتها. قالت موجّهةً كلامها إلى أُمّي:

- بنتك يا نبيلة حرام تضلّ هون، مش رح يعرفوا قيمتها.

- نيرمين رح توقع شكّ على راسها لأنّ مش عاجبها العجب. أكثر من خمسين عريس ما عبّوا عينها.

- اتركها عليّ أنا يا نبيلة.

- عندك شي عريس يعجبها؟

- عندي عرسان مش بس عريس..

وشرعت خالتي تتكلّم عن الـ «دروز كونفنشن Druze Convention»، وهو عبارةٌ عن ملتقى للشبّان والشابّات الدروز يتمّ على شكل حفلٍ عشاءٍ كبيرٍ هدفه تأمين طرقٍ مقبولةٍ اجتماعيًا للتعارف بين الدروز الراغبين في الزواج. حيث يأتي الأهالي ببناتهم وأبنائهم من دول الاغتراب في أميركا وأستراليا والبرازيل وغيرها من الدول، ويقيمون عشاءً كبيرًا في أحد الأوتيلات الفخمة في بيروت، وينضمّ إليهم شبّانٌ وشابّاتٌ من الضيّع اللبنانية

الدرزيّة فيأكلون ويشربون ويتعارفون ويتبادلون أرقام الهواتف آملين أن يتمّ النصيب. ثم يعود الأهالي إلى بلاد الاغتراب وهم مطمئنون على مصير أبنائهم ومتأكّدون أنّ الأسوأ - وهو خروج أبنائهم من الملة وزواجهم من غير الدروز - لن يحدث. لم تُعجب الفكرة أمّي مطلقًا:

- مش عيب نعرض بناتنا على العالم به الطريقة؟
- يا نبيلة.. ما تكوني رجعية بأفكارك! بنتك قويّة ورح تتعبك بالبيت.

- بس علي مستحيل يقبل! من غير شي هي ويّاه مثل الديوك بضلّهم يتخانقوا.

- مش ضروري يعرف علي. باخذها تنام عندي ليلة، وأنا بلبّسها وباخذها للسهرة.. ولا مين شاف ولا مين دري.

وافقت أمّي بعد إلحاح خالتي وتوسّلات شقيقتي، وبعد أن أقنعناها أنّ نيرمين ستتعجبها أكثر إن بقيت في البيت، وأنّها قد تصبح عانسًا «ويروح جمالها ضيعان». كنت متحمّسة جدًّا للفكرة. وحين جاء موعد الحفل حضنًا بعضنا بعضًا، أنا وأختي، ورحنا نقفز بفرح، ثم ساعدتها في توضيب حقيبتها لتذهب لقضاء الليلة في بيت خالتي. لم يمانع أبي في ذهابها، لأنّ زوج خالتي لم يرافقها في هذه الزيارة، ولأنّه ليس هناك رجال في بيتها.

حين عادت نرمين من الحفل كانت تتصرّف وكأنّها سندريلا. راحت تتحرّك وتحدّث ببطء بخلاف طبيعتها المتعجّلة في كلّ شيء، والتي تجعل كلماتها متّصلة وصعبة الفهم على من لا

يتحدّث لهجتنا الضيعاويّة. وعندما صحنا بها طالبين منها معلومات، تجاوزت تألّقها المصطنع. فجلّسنا حولها في دائرة، وراحت تُخبرنا عمّا رأت وما سمعت. راحت تُخبرنا عن الفندق الكبير والسجّاد الذي يغلّف الأرض والسلالم، وعن الأضواء والفساتين الطويلة الفخمة، والطاولات المنظّمة والمأكولات الشهية، والفتيات الجميلات...

- إنتي شو لبستي؟ قاطعتها بفضول.

- فستان زيتيّ طويل بدون أكمام، أعارتني إيّاه خالتي.

- وشعرك كيف عملتيه؟

- تركتو على كتافي وخالتي مشطّتي وعملتلي سشوار.

- حطّيتي مكياج؟

- خفيف.

لكزتني أختي سناء بكوعها.

- مش مهمّ شو لبست وشو أكلت، خلّينا نعرف إذا في

عريس.

كنت أحاول أن أراها بعين خيالي، أردت أن أتخيّلها وسط الأجواء والتفاصيل التي تتحدّث عنها، وكان منظرها في بنطال الجينز وتيشرت النصّ كم يخرّب عليّ متعة التخيل والحلم. أكملت أختي حديثها عن الشابّ الأوّل الذي لم يكن عمره مناسباً وبدأ شعره يتّشحّ بالبياض، ثم انتقلت إلى الشابّ الثاني الذي لم يكن وسيماً على الإطلاق، ثم وصلت إلى «جاد» وأضاء وجهها. شعرت أنّ الاسم يملأ فمها، ويجعل عينيها تتّسعان. أخذت

تتكلم على جاد بحماسٍ شديد.. وهو شابٌ لبنانيّ الأصل أميركيّ
الجنسيّة عمره خمسة وعشرون عامًا، ويعيش في ولاية ميشيغان.
أصبحت مقاطعتنا لها تزيد:

- حلو؟ سألتها أختي سناء.

- شو دارس؟ سألتها أنا.

- من وين أصلو من لبنان؟ سألتها أمّي.

انتفضت نيرمين.

- روقو شوي! أخذتُ رقمه! وعطيتو رقم بيّي. رح يحكي
ويجي لعندنا هذا الأسبوع. وقفت أمّي معترضة:

- يحكي بيّك بالتليفون! كيف بدّي برّر لبيّك وين تعرّفتي
على الشاب؟

وأخذت تتمم وتنعي حظّها، ثم طلبت من نيرمين رقم جاد
وأخبرتنا أنّها تنوي مهاافته كي تتّفق معه على صيغة مقبولة
لتعارفهما، من دون أن يعرف أبي كيف تمّ التعارف في الحقيقة.
ولكنّ نيرمين قاطعتها وهي تصرخ «طار العريس»، وأخذت تولول
وتقول إنّ هذا تصرّف غير لائق، وإنّه من الأفضل أن تكلمه
خالتي لأنّها تعرّفت عليه في الحفل وتحدّثت معه، ممّا يجعل هذا
الطلب الغريب أقلّ غرابة! وهذا ما حصل. اتّصلت خالتي بجاد،
وشرحت له بالإنكليزيّة دقّة الأمر وحساسيّة الوضع في القرية،
وطلبت منه أن يقول إنّهُ رأى نيرمين عندها في البيت حين أتى
لاستلام إحدى الأمانات المبعوثة معها من أستراليا للبنان. عرفنا
لاحقًا أنّ جاد اعترض، ولم يعجبه أن يبدأ قصّته مع فتاة أحلامه

بالكذب، حتى لو كانت كذبةً بسيطة! ولكنَّ خالتي عادت وأقنعتَه أنَّ هذه ليست كذبة، لأنَّها ستحمي الآخرين ولن تؤذيهم، ولأنَّ لكلِّ مجتمعٍ خصائصٍ علينا أن نحترمها. وإن لم يفعل ذلك لن يرى نيرمين بعد اليوم.

ما زلت أذكر بوضوح المرَّة الأولى التي رأيت فيها جاد. لم يكن يشبه أيًّا من الشبَّان الذين نعرفهم في الضيعة وخارجها. كان متوسط الطول قويَّ البنية، شعره ناعمٌ وفاتح اللون، وعيناه لوزيَّتان تميلان للون العسليّ. لاحظت الشنطة السوداء التي كان يضعها حول خصره، ولم أكن قد رأيت مثلها على رجلٍ من قبل، وثيابه المرتبة التي لا تُشبه ثياب شبَّان القرية. بدا الخجل على وجهه في كلِّ مرَّة كان عليه أن يقف ليصافح أحدنا، خاصَّةً وأنَّ لغته العربيَّة لم تكن تسعفه. فكان يتلعثم ويرتكب الكثير من الأخطاء، وكنا نضحك من باب إعجابنا بهذا المخلوق الغريب الذي حلَّ بيننا، ويضحك هو ليخفي ارتبাকে وإحراجَه.

لم يأخذ أبي راحته بالحديث مع جاد، ولم أشعر أنَّه أخذه على محمل الجدّ. وهذا شعورٌ مفهومٌ أمام رجلٍ لا يستطيع أن يردَّ عليه عبارات الترحيب بمثلها، ولا تسعفه لغته بإخباره عن أصله وفصله وعمله وحياته الكاملة التي نتوقَّع منه أن يدلِّقها لنا على الطاولة بجانب فناجين القهوة في غضون ساعةٍ أو اثنتين. استنطق أبي جاد قدر المستطاع، وفهم منه أنَّ والد جدّه انتقل مع عائلته إلى أميركا سنة 1920، وهناك كبر جدّه وأسس عائلةً، وأنجب إبراهيم جابر والد جاد. انتسب والد جاد إلى الجيش الأميركيّ، وعاد إلى لبنان في بداية السبعينيَّات عندما تمَّ تعيينه

لحماية سفير أميركي. وهنا تعرّف على والدته جاد السيّدة منى أبو جمعة، وهي فتاة جميلة من دروز بيروت. كانت تعيش مع أمّها وأخواتها في شارع «كر كول الدروز»، وتدرس الإعلام في الجامعة الأميركية في بيروت. وجد إبراهيم في منى شيئاً ما كان يفتقده طوال حياته في أميركا، وأخذ يطارد من خلالها أشباح الحنين لماضي لا يعرف عنه شيئاً وجذور لم يسمع عنها إلا من والده. وهكذا، تحابّا وتزوّجا وسافرا عند بداية الحرب الأهلية في لبنان على متن باخرة تابعة للحكومة الأميركية؛ وهناك استقرا في بيتهما الجميل في ميشيغان حيث وُلد جاد سنة 1977.

راح أبي يستنطق جاد، ويسأله عن المرأة التي تزوّجها جدّه وإن كانت أيضاً درزيّة، فأجابه ببراءة أنّها كانت أميركيّة. «مسيحيّة يعني؟» سأل أبي وقد تغيّرت تعبيرات وجهه. «نعم عمّي مسيحيّة»، أجاب جاد مستغرباً. فساد الصمت في الغرفة لثوانٍ حتى قطعته أمّي وهي تقدّم طبق فواكه لجاد وتستحلفه أن يتذوّقها.

بعد أن غادر جاد، اجتمعنا وأخواتي لنعطي آراءنا في العريس الجديد، وكانت نيرمين متحمّسة لمعرفة رأيي فيه. وفيما كنّا نضحك ونتحدّث عن ارتباك جاد أمام الاستجواب، دخل أبي الغرفة فصمّتنا جميعاً. نظر إلى نيرمين مطوّلاً، ثم جلس وتنحنح موجّهاً كلامه إلى نيرمين:

– من بين كلّ العرسان الذين تقدّموا لك والذين نعرف أصلهم وفصلهم، لم يعجبك سوى هذا الشاب الذي من الصعب أن نعرف أصل عائلته؟

وأردف بنبرةٍ ساخرة:

- لست متفاجئًا على كلِّ حال، أنتِ لا يأتيني منك سوى
وجع الرأس والمشاكل!

حبست أنفاسي، وكأَنَّني في رأسي أحاول أن أسيطر على
لسان نيرمين، ولكنَّ الصمت والرضوخ كانا غريبين على طبيعتها.
نظرت إليه نظرة تحدُّ، وقالت:

- يمكن هذا نصيبي. أَلستم تؤمنون بالقسمة والنصيب؟ أم أنَّ
الأمر اختياريَّ بالنسبة لكم؟ ساعةٌ تؤمنون وساعةٌ تعطلون
الإيمان.

استفزَّه جوابها كالعادة، فوقف وصاح في وجهها:

- لن نقبل به إلَّا بعد سَلْسَلته إلى جدِّ الجدِّ. إذا كانت جدُّته
مسيحيَّة، هذا يعني أنَّ النسب غير نقِّي.

صمت لثوانٍ، ثم اشتدَّت نبرته وارتفع صوته أكثر:

- بدِّك تنكَّسي لي راسي إنتي؟ ما ضلَّ غيرو بالشباب
الدروز؟! وخرج صافقًا الباب وراءه، فيما جلست نيرمين تبكي
وأنا أحاول مواساتها.

أمضت نيرمين الأيام التي تلت زيارة جاد وهي تتأرجح بين
الحزن والغضب. تارةً تبكي، وأخرى تشم وتوعَّد وتلعن الضَّيع
والعقليَّات الرجعيَّة والسلطة الأبويَّة. وبما أنَّني من أشدِّ مناصري
الحبِّ، اقترحت عليها بسذاجةٍ أن تتزوَّجه خفيفة، وأن تهرب معه
من غير زفافٍ في باخرةٍ تابعة للحكومة الأميركيَّة مثل والديهِ.
ضحكت على النكتة، ولكنَّها رفضت الفكرة بشدَّة، وقالت:

- ما بتعرفي شو بقولوا بالدين عن يَلِّي بيتزوّجوا خطيفة؟

اتّسعت عيناى، وأجبتها:

- لا.. شو بيقولوا؟

- يلي بيتزوّجوا خطيفة ما بِحِلُّوا ولادهم على سبعة أجيال.

سألتها أن تشرح لي هذه الكلمات، فأجابت:

- يعني بيصيروا هَنِّي وولادهم كَفَّار، وولاد ولادهم لسبعة أجيال.

فكّرت في تلك الجملة، ولم أعرف كيف تترجم على أرض الواقع، ولكنّه يتمّ تداولها ببغائياً كالكثير من الأقوال، كعبارة «الدروز سلسلة» التي سمعتها مئات المرّات. في كلّ مرّة، يلتقي فيها شخصان درزيّان في مكانٍ ما، ويكتشفان أنّهما يعرفان أشخاصاً مشتركين يقول أحدهم «يا لطيف! الدروز سلسلة»، وكأنّه اكتشف الذرّة للتوّ! وأين الغرابة في ذلك والدروز عددهم قليل، ويعيشون في بقعةٍ جغرافيّةٍ واحدة، ولا يتزوّجون من خارج المِلّة؟ وحين يقدّم أحدُ نفسه ويكتشف الآخر أنّه لا يعرف أحداً من هذه العائلة، يقول «تشرّفنا! على كلّ حال الدروز سلسلة». وكأنّ الجملة اعتذارٌ أنّه لم يتعرّف على أحد أقربائه، وتذكيرٌ بأننا ننتمي إلى المِلّة نفسها. لم أفهم قطّ ما أهميّة هذه العبارة. عملياً، كلّ البشر سلسلة وليس الدروز فقط، ولكنّ عبارة «الدروز سلسلة» تصنع للدروز عالماً خاصّاً بهم، لا يوجد فيه غيرهم ولا ينحدر منه إلّا هم. هذه السلسلة نفسها التي قد يصبح جاد حلقةً من حلقاتها، أو يتمّ رفضه ويعود إلى أميركا خفيفاً حرّاً من السلاسل.

لم أشارك أختي بكلّ تلك المتاهات الفكرية، بل واسيتها وذكرتها
أنّها تؤمن بالنصيب، وإن كان هذا الشاب من قسمتها، فلن تتزوج
سواه مهما حصل من تعقيدات وعراقيل.

تسلّلت نيرمين من المنزل، وقصّدت بيت جارتنا كي تتّصل
بجّاد من غير علم أبي. راقبتُ لها الباب وهي تخرج، وأنفقنا
على سيناريو يقول إنّها ذهبت للدّكان إذا ما سأل والدي عنها،
وهو نادرًا ما يسأل عن إحداها خلال النهار، ولكنّ الخوف جعلنا
نخطّط بدقّة وحريّة. حين عادت، أخبرتني أنّها تكلمت مع جاد
وأخبرته عن شكوك أبي وامتناعه من وجود مسيحيين في
أسرتهم، وطلبت منه ألاّ يأتي وحده في المرّة القادمة، بل
يصطحب معه أحدًا يستطيع أن يتكلّم مع والدي ويناقشه.

في الزيارة الثانية، تفاجأنا بجاد ووالدته السيّدة منى وقريبها
العميد وئام أبو جمعة. كانوا قد أبلغونا على الهاتف أنّه
سيصطحب والدته وقريبها، ولكنّنا لم نتوقّع مفاجأة بهذا الحجم.
العميد أبو جمعة كان رجلًا رفيع المقام ذائع الصيت، وقد تلقّى
عدداً من الأوسمة خلال مسيرته في المؤسّسة العسكرية، وتصدّى
لأكثر من عصيانٍ في بيروت وطرابلس، وأصبح نجمًا ومصدرًا
للفخر بين الدروز. لم يصدّق أبي عينه عندما رأى العميد أبو
جمعة في غرفة الضيوف. فسارع للترحيب به بكثيرٍ من عبارات
المديح والامتنان حتى كاد ينسى أمر أمّ جاد، ثم استدار إليها
وسلّم عليها من غير مصافحةٍ طبعًا - وهي كونها ابنة الطائفة تعرف
أنّ المشايخ لا يصادفون النساء.

انقسمت القعدة إلى قعدتين في الغرفة نفسها، بحكم اختلاف

الاهتمامات والمهارات اللغوية والفئات العمرية. راح أبي والعميد يتحدثان في السياسة والحروب الماضية والمخاوف المستقبلية، فتشاركهما السيدة منى من وقتٍ لآخر بالحديث. ورحنا أنا ونيرمين وجاد نتحدّث عن حياة الضيعة والأماكن التي نودّ أن نأخذها إليها. وكان صوت الصراخير يتسرّب من الشبابيك المفتوحة ويشوّش على الجميع، فتساءل جاد كيف بإمكاننا تحمّل هذا الصوت المزعج طوال الوقت، ورحنا نضحك كأننا مجموعة أطفال يلعبون بجانب أهلهم.

قبل المغادرة، طلب العميد أبو جمعة من أبي أن يتحدّث معه على انفراد، وعلمنا لاحقاً أنّ العميد أبدى تفهمه لتساؤلات أبي، وقال له:

- نحن ما منرضى يا شيخ علي إلّا نمشي بالأصول، خاصّة إنك شيخ، والمشايخ زينة الطائفة واحترامهم على راسنا.

نقل أبي هذه الجملة لأُمّي وهو يشعر بالاعتداد حيال إشادة العميد بالمشايخ وقوله إنهم فخر الطائفة. ووعده أن يطمئنه قريباً بخصوص أصل العائلة عن طريق تحصيله لمستند شجرة عائلة والد جاد التي تعود لعام 1920. اطمأنّ أبي وخفّف من مضايقته لنيرمين التي كانت سبب هذه الزيارة المشرّفة، التي قد تتحوّل إلى صداقة إذا ما حصل النصيب.

تكرّرت زيارات جاد، وفي كلّ مرّة كان يسلم فيها على أبي يُخبره بلغته العربية الهجينة الأقرب إلى كلام الأطفال أنّ العميد يسلم عليه ويعمل على المستند الذي طلبه منه؛ ولكن الأمر

سيستغرق وقتًا. فيهرّز أبي رأسه، ويوصي أمي أن تبقى معنا ثم يوصيني أن أبقى مع جاد ونيرمين، ويذهب هو إلى ورشته في فناء المنزل الخلفي. ومع الوقت، نشأت بيننا نحن الثلاثة علاقةً متينة. وقد أحببني جاد كثيرًا، وقال لنيرمين إنني ذكيّة وحكيمة رغم صغر سنّي، وتمنّى لو استطاع أن يأخذني معهم إلى أميركا. فضحكنا أنا ونيرمين على براءة هذا الشابّ وتفاؤله الشديد. وحين سألنا عن طموحاتنا وأحلامنا، التقت عيناوي بعيني نيرمين في لحظة فهم عميق، وكأنا نقول لبعضنا «إنّ هذه المصطلحات لم تدخل حياتنا من قبل، وإنّا لا نعرف كيف نُجيب على هذا السؤال. فنحن ببساطة نريد أن نهرب من هنا. هذا كلّ شيء». ولكنّا طبعًا لم نقل هذا الكلام، وأخبرت جاد كم أحبّ أن أكمل تعليمي وأصبح محامية، فأكد لي أنّه واثق من قدرتي على تحقيق حلمي. وأخبرته نيرمين أنّها تريد أن تصبح سيّدة أعمال قادرة على جني الكثير من المال بنفسها، فأعجب بأفكارها وقال لها بالإنكليزيّة I will be the wind beneath your wings أي «سأكون الريح تحت جناحيك». وعند سماع هذه الكلمات، ضغطتُ على خصر نيرمين الجالسة إلى جانبي، وأعادت هي اللكزة في القوّة نفسها في لحظة ذاب فيها قلبانا معًا. يا إلهي.. ما أجمله! لم نكن نُصدّق أنّ القدر ساقه إلى بيتنا، وأنّ شقيقتي التي «كعّت نصف شباب الطايفة» أخيرًا ستزوّج فتى أحلامها!

وجدنا في جاد صفاتٍ لم نكن نعلم أنّها قد تكون موجودةً في جسد رجل. كان منفتحًا ومرحًا وصادقًا، يحبّ الضحك والجري واللعب والذهاب إلى النهر مشيًا، ثم يسابقنا في الصعود

من الوادي إلى المنزل جرياً. وفي طريقنا، كان يتوقّف جنب البساتين فيحيّي الفلاحين بلغته الهجينة، ويسألهم ما إذا كان بإمكانه تناول ثمرة من شجرتهم فيرحّبون به بدهشة، ويعاملونه كأنّه في الثالثة من عمره. فيملأون له أكياساً من الفواكه، فيما نقف - أنا ونيرمين - وراءه بمسافة كبيرة نضحك بخجل وارتباك. عشنا في ذلك الشهر أياماً لم نكن قد خبرنا مثلها، وازدادت الثقة بيننا، فأخبرنا جاد عن حياته في أميركا، وكيف أنّ هذه هي زيارته الثانية للبنان، وأنّه في الزيارة الأولى كان في السابعة من عمره، وأنّه حين كان يأكل تفاحة على شرفة جدّته في بيروت رأى رصاصةً تخترق رأس جارهم على الشرفة المقابلة، ورآه يسقط في أرضه. سبّبت هذه الحادثة صدمةً لجاد أخذته بعدها أمّه - التي كانت في زيارةٍ هنا - إلى أميركا، وأقسمت أنّها لن تُعيده إلى لبنان إلّا حين تنتهي الحرب، وحين يكبر ويحجز هو البطاقة بنفسه. وهذا ما حصل.

عاد العميد بعد حوالى شهر بمستندٍ موقّع ومختوم من الدوائر المعنية يُفيد بأنّ جدود جاد ينحدرون من عائلةٍ درزيّة من قضاء الشوف. وبعد أن أطلع أبي عليه، قال العميد:

- أظنّ أنّ الشكوك قد تبخّرت الآن. عندنا هنا والد الجدّ والجدّ والأب في الشجرة.

وأكمل مشيراً إلى اسم جدّة جاد، والدّة والده.

- هي وحدها مسيحيّة. والذي يحدّد دين المولود عندنا هو نسل الأب وليس الأمّ، قال العميد بثقة.

هزَّ أبي رأسه موافقًا على المعلومة، وقال:

- نعم، لكنَّ الأمر ليس مستحبًّا عند المشايخ. لن يرتاح قلبي إلَّا إذا استشرتهم وعملت بمشورتهم.

وافق العميد على الفور، وقال لأبي:

- لنذهب الآن. سأرافقك!

فرح أبي عند سماعه هذه الكلمات، فمرافقة العميد إلى شيخ الضيعة هو شيءٌ يدعو للفخر، وكان قد أصبح هدف أبي في الحياة أن يبدو بصورةٍ جيِّدة أمام المشايخ! وهكذا، لبس أبي ثيابه الرسميَّة ووضع اللقَّة البيضاء على رأسه، وتوجَّه مع العميد إلى شيخ الضيعة، فيما انتظرنا أنا وجاد ونيرمين ووالدة جاد في المنزل. كان التوترُ يعمُّ الغرفة. تهامست أمِّي ووالدة جاد وهما تنظران إلى نيرمين وجاد بقلقٍ واضحٍ في عيونهما. قد يعود أبي في أيِّ لحظةٍ ويقول «لا تواخذونا يا جماعة ما في نصيب». وحينها، سيرحل جاد إلى الأبد وكأنَّه لم يكن يومًا! الاحتمال الآخر كان قائمًا طبعًا، ولكن في لحظات كهذه يفرض احتمال الفراق نفسه ويرخي بثقله فوق آمال الجميع. بدا الصمت ثقيلًا ومُمرًا، فاقترحت نرمين أن ندخل إلى المقام من أجل الدعاء، ورحبت أم جاد بالفكرة. توجَّهنا إلى مقام جدِّي أبو علي الموجود في الطابق نفسه في بيتنا، ويقع مدخله في الناحية الأخرى. وعند المدخل الحجريِّ القديم، قدَّمت أمِّي لي ولنرمين ولأم جاد مناديلَ صغيرةً معلَّقةً جانب الباب حتى نضعها على رؤوسنا من باب الاحترام والخشوع في الدعاء. فأخذ جاد أيضًا منديلًا من

على الحائط ووضع على رأسه فانفجرنا كلنا ضاحكين. وانقلب بعدها ضحك نيرمين إلى بكاء، فجلست في المقام على الإسفنجة بجانب الضريح، تضم ركبتيها واضعةً رأسها فوقهما، وأخذت تبكي بصمت. أراد جاد أن يواسيها وهم بوضع يده على كتفها، ولكنني رفعت يدي طالبةً منه إنكليزيّتي المحدودة ألاّ يلمسها في هذا المكان المقدّس، وأنّ يكفي بالدعاء. كان الضياع جليّاً في عينيه، ولكنّه تظاهر أنّه فهمني، وجلس في الزاوية يُحدّق في كلّ شيءٍ حوله بتعجّبٍ محاولاً أن يفهم ماذا يحدث!

تأخّر أبي والعميد في عودتهما، وفهمنا منهما أنّهما كانا يحاولان جمع عددٍ كبيرٍ من المشايخ من أجل المشورة. كنّا نسمع هذه التفاصيل من غير تركيز بأيادينا على قلوبنا منتظرين القرار الفاصل. فنظر أبي إلى أمّ جاد قائلاً:

– ما تؤاخذينا هذه الإجراءات كان لا بدّ منها. عندنا مرجعيّة دينيّة لا نستطيع أن نتصرّف بمعزلٍ عنها.

أومأت السيّدة منى برأسها. ثم نظر أبي إلى جاد واضعاً يده على كتفه مرّبتاً:

– مبروك.. رح تصير صهرنا.

اتّسعت عينّا جاد، وقال ولكنّه الغريبة:

– يعني أنا دروز؟ وكأنّه لا يصدّق ما يسمعه.

– أجل أنت درزيّ، ردّ أبي.

فأخذنا نقفز أنا وهو ونيرمين من شدّة فرحتنا، وكأنّ عالمًا جديدًا قد انفتح أمامنا للتوّ!

كان وداع نيرمين من أصعب الأمور التي خبرتها في ذلك السنّ.. كنت في الرابعة عشرة حين ودّعتنا، وغادرت مع جاد إلى أميركا. شعرت أنّ عالمي قد أصبح فجأةً فارغاً، وحاولت أن أسلّي نفسي بأيّ شيء، ولكنّ مكانها بقي فارغاً في المنزل وثقيلًا على قلبي. لم تكن تهاتفنا سوى مرّة كلّ أسبوعين، تسلّم على أمّي سريعاً، وتساءل عن حال الجميع، وتغيب مجدّداً. لم نجد الأمر غريباً إذ إنّ خالتي التي تزوّجت منذ عشرين سنة وسافرت إلى أستراليا، غابت أوّل خمس سنواتٍ من غير أن نعرف عنها شيئاً. وهكذا، كان السفر أشبه بالموت، وكان أهل القرى يودّعون المسافرين بكثيرٍ من الدموع والدعاء.

الشرنقة

لم أرَ نيرمين منذ خمسة أعوام. خمسة أعوام كانت كفيلةً بتحويللي من فتاةٍ تعيش في قريةٍ وتختنق من منظر الجبل إلى امرأةٍ تعيش في قريةٍ أخرى، وتحمل ثقل جبالٍ أخرى فوق صدرها. نظرت في المرأة أكثر من مرّةٍ قبل أن أغادر المنزل رفقة سالم، للذهاب لرؤية نيرمين التي وصلت مع جاد من أميركا مساء أمس. لبست أكثر من ثوب، جرّبت أكثر من تسريحة، ولكنّ ملامحي التي أراها مشوّهة كانت أقوى من أيّ رداءٍ، وأكثر عنادًا من أيّ تسريحة. استقرّ اختياري أخيرًا على فستانٍ أسود ضيّقٍ ذي كمّين طويلين ويصل طوله لتحت الركبة، مراعيةً بذلك حبّي للأسود الذي يساعدني على الاختباء وقواعد اللبس في بيت أبي. فبدوت نحيلةً وطويلةً، وتركت شعري الطويل ينساب حول وجهي الشاحب.

لم تتحقّق مخاوفي بشأن اللقاء الذي ظننت أنّه سيكون غريبًا

أو غير مريح؛ إذ إنَّ نيرمين، بعفويَّتها المعهودة، ركضت تجاهي حين رأَنتني مقبلةً وحملتني من خصري، وأخذت تدور بي وتقبِّلني، وحين هدأت قدَّمتُ لها سالم، ففاجأته بعناقٍ وطبعت قبلتين على خديَّه.

- صار عَنَّا صهر جديد، قالت بحماس. بينما ينظر سالم إليَّ مستهجنًا ما فعلته نرمين.

كان جاد قد لبس جزمة أبي الكاوتشوك منذ الصباح وتبعه إلى الورشة، وراح يساعده ويرتَّب له الأرفف وينظِّم المعدات. لاحظت ونيرمين أنَّ سالم وجاد لم ينسجما، وأنَّ تعارفهما كان باردًا، فلم يتبادلا الأحاديث كما يفعل الشَّبَّان حين يلتقون. ولم يمضِ جاد الكثير من الوقت معنا، فاعتذر بعد أقلِّ من ساعة وعاد إلى ورشة أبي. وانضمَّ سالم إلى أُمِّي في المطبخ. فانتهزنا أنا ونيرمين الفرصة وذهبنا في نزهةٍ على القدمين إلى البساتين بجانب البيت. كان هناك الكثير لتحدَّث عنه، ولكنَّ لم نكن نعلم من أين نبدأ.

- لم أهنِّئك في عرسكٍ لأَنتني لم أكن موافقةً على هذه الخطوة، أتمنَّى ألا يكون في قلبك عتب.

- لا، لا عتب... كان عليَّ أن أغادر من أجل حياةٍ أفضل.

- هل وجدت حياةً أفضل؟ إن وجدتِها سأكون سعيدةً لأجلك!

ساد صمتٌ طويلٌ بيننا، كسرتِه نيرمين بملاحظتها عن شكلي:

- ليس على الإنسان أن يكون ذكيًا ليرى أنَّك لست سعيدة!
تفاجأت حين لاحظت كم خسرت من وزنك وكم تبدين شاحبة!
توقَّعت لك مستقبلًا زاهرًا، لطالما كنت الأكثر اجتهادًا بيننا؛ لهذا
ألمني زواجك في السادسة عشرة من عمرك. أنا تزوّجت في
العشرين، وبرغم ذلك، شعرت بوحدةٍ قاتلة، واستغرق الأمر
شهورًا حتى توقَّفت عن البكاء، وسنواتٍ كي أشغل نفسي بشيءٍ
كي لا أجنّ.

- ماذا عن جاد؟ كنتما تبدوان كعصافير الحبّ قبل الزواج.
ماذا حصل ومن أين أتاك الشعور بالوحدة؟

- حياة جاد في أميركا تختلف عن حياته في زيارته للبنان.
هناك هو إنسانٌ كثير الانشغال قليل الكلام، لا أراه كثيرًا. وحين
يأتي إلى البيت في المساء، ينزعج من فكرة أنني أمضيت النهار
بطوله أنتظره، ويقول إنَّ هذا يضعه تحت ضغط، ويُسعره أنَّ عليه
تسليتي، بينما يكون متعبًا ولا طاقة له.

- ماذا كنتِ تفعلين خلال النهار؟

- في البداية، كنت أشتري بطاقة باصّ تصلح للنهار كلّ
وأقضي نهارى على متنه، فأترجّل منه في المكان الذي يعجبني،
ثم أصعد إلى باصٍ آخر حتى أنتقل إلى مكانٍ جديد، وهكذا..
حتى ينتهي النهار.

- هل أزعج هذا الأمر جاد؟

- مطلقًا! شجّعني على تكوين صداقاتٍ مع الأشخاص الذين
التقيهم. فتعرّفت على صديقاتٍ وأصدقاءٍ من السود، وصرت

أرافقهم إلى مظاهراتهم واجتماعاتهم وأسمع موسيقاهم. أتعرفين كم اضطهدوا وتعذبوا؟

وراحت تحكي لي عن حركة الحقوق المدنية ومارتن لوتر كينغ، و«روزا باركس» المرأة التي بدأت ثورةً من مقعد الباص حين رفضت أن تتخلّى عن مقعدها لرجل أبيض، و«روبي بريدجر» أوّل فتاة سوداء تتراد مدرسةً للبيض، وتكسر قواعد الفصل بين التلاميذ بحسب لون بشرتهم. ثم أضافت:

– هم لا يستترون مثلنا ولا ينكرون هويّتهم خوفًا من الاضطهاد. لقد سئمت من الضعف والاختباء.

كانت تتكلّم بحماس أشبه بالغضب، وكنت أصغي إليها باهتمام محاولةً الاحتفاظ لنفسني بالكثير من الأسئلة حول اهتمامات نيرمين الجديدة وانفعالاتها. وبعد أن استفاقت من خطابها، سألتني:

– ماذا عنك؟ كيف تمضين أيّامك.

– اسمعي، أريد أن أخبرك بأمر، ولكنّ عديني أن يبقى سرًّا بيننا.

– يا إلهي.. أنتِ حامل! قالت متفاجئةً وهي تضع يدها على فمها.

– لا لا، لست حاملًا، ولا أريد أن أكون حاملًا. عندي موضوعٌ أهمّ.

شعرت أنّي استحوذت على اهتمامها، فأكملت:

– لقد قدّمت طلب دراسةٍ للجامعة الأميركية في بيروت منذ

أكثر من شهرين. أتوقع أن يأتيني الرد في الأسبوع القادم، ولكنني مرعوبة لأنَّ سالم لا يعرف بالأمر.

- لا أصدق!! كم هذا رائع، أشعر برغبة في الصراخ!

- حسناً، ولكن ماذا أفعل؟!

- إن لم تحسلي على القبول لن يعرف سالم بشيء، وإن حصلت عليه سيكون عليك مواجهته!

توقفت قليلاً عن الكلام، ثم أكملت:

- ولكن تكاليف الجامعة الأميركية باهظة! كيف ستقنعينه بدفع هذا الكمّ من المال؟

- قمت بتعبئة طلب على مساعدة ماديّة، ولكن المساعدة الماديّة تغطّي فقط 20% في السنة الأولى، ولا أعرف كيف أحصل على المبلغ المتبقّي.

اتّسعت عينا نيرمين، وصاحت:

- أنا سأقرضك المال.

- ماذا؟! كدت أبكي من شدة تأثري. ستفعلين هذا حقاً؟

- أجل، لقد حصلت على شهادة ترجمة منذ سنتين، وأعمل بدوام جزئي مع المحكمة في ميشيغان، وادّخرت مبلغاً لا بأس به من عملي.

عدت إلى بيت أهلي لأجد سالم في مزاج سيّء، ومستعجلاً على المغادرة:

- لا أحبّ حين تتركيني وحدي هنا، قال متأفّفاً.

- لم أرَ شقيقتي منذ خمس سنوات! أجبته بتعجب.

ولكنه أصرَّ على الذهاب، فوافقت بعد أن وعدتني نيرمين بأن تزورني في منزلي حين أكون وحدي، ويكون سالم في العمل.

فكرت بنيرمين كثيرًا حين عدت إلى براح أفكاري في المنزل. كان هناك الكثير لأخبرها به، لكنني شعرت بميلها إلى الكلام والتعبير وليس إلى التلقّي. لطالما شعرت بهذه الأشياء بفطرتي، فلم أزعج أحدًا بكلام لا يهمّه، ولم أسكت أحدًا يحتاج إلى البوح بشكل متواصل، وكأنّ الكلام هو الطريقة الوحيدة لدخول الأكسيجين إلى رئتيه. قرأت مرّة على الإنترنت أنّ الذين يتكلّمون كثيرًا يحاولون الهروب من أفكارهم ومشاعرهم، وشعرت أنّ هذا لا ينطبق عليّ، فحين أتكلّم تتجسّد أفكاري في بُعد محسوس، وتصبح أكثر واقعيّة فأخاف منها أكثر. ربّما لهذا أثرت الصمت طوال تلك السنوات لأنّ أفكاري غريبة، ولأنّني طالما ظننت أنّها ستؤلم من حولي.

فرحي بوعد نيرمين لي بمساعدتي في القسط الجامعيّ كان ما زال مستمرًا في داخلي. كان الشعور يُشبه رفرقة حشرة مضيئة داخل برطمانٍ في ليلٍ دامس. وحين ضبطت نفسي متلبّسة بالأمل، بدأ القلق يعبث بأحشائي مجدّدًا «على أساس جاء القبول ولم تبَق سوى مشكلة المال!» فكرت بسخرية، ثم توجّهت إلى الركن حيث الكمبيوتر، وتفقّدت بريدي الإلكترونيّ آملّة أن أجد رسالةً من مكتب القبول والتسجيل. بعد البحث المطوّل في الصندوق الرئيسيّ وفي بريد الدعايات، لم أجد شيئًا. رحت إلى محرّك البحث، وبحثت عن الوقت الذي تُرسل فيه الجامعة

الأميركيّة رسائل القبول. كان الجواب «شهرين قبل بدء الفصل». فزاد توتّري، لأنّني كنت فعلاً على مسافة شهرين من بداية فصل الخريف، ولم أستلم شيئاً بعد.

كان الصباح هادئاً ودافئاً مثل صباحات الأرياف في صيف الجبال. تناوبت الصراصير والضفادع على تأثيث الصمت الريفّي، وكانت الشمس تجعل الفرش فوق أرجوحة الشرفة دافئاً وشهيّاً للاسترخاء. أعددت ركوة قهوة، ووضعت نظّارتي الشمسيّة لأنّ نور النهار كان يزعجني، وجلست على الأرجوحة أراقب الجبال الراقدة كالقطط تحت دفء الشمس. سمعت هاتفني يرنّ داخل المنزل. هممت بالنهوض لأذهب وأردّ، لكنّه سرعان ما توقّف عن الرنين. «لا بدّ أنّه سالم» قلت لنفسيّ، واسترخيت. عندما عدت إلى الداخل وتناولت الهاتف من فوق الشاحن. وجدت رقمًا غريبًا ومميّزًا يبدأ بـ 01، وهو الرمز الذي تبدأ به أرقام الهواتف في بيروت. سرت قشعيرةً في جسدي واستقرّت في عمودي الفقريّ. وبعد عدّة دقائق من التأويل، خطر لي أن أعاود الاتّصال بالرقم نفسه - «أهلاً بكم في الجامعة الأميركيّة في بيروت. إذا كنت تعرف الرقم الداخلي للشخص المطلوب أطلبه الآن»، جاء صوت جهاز الردّ الآليّ. أغلقت السّماعة بذعر.

من أطلب؟ ماذا أقول؟ من أنا بالنسبة لهم؟ اسم؟ رقم؟ ماذا لو أنّهم اتّصلوا ليُخبروني أنّه تمّ رفضي؟ أو أنّ نتائج امتحانات الدخول التي أرسلتها ليست بالمعدّل المطلوب! نبحت الأسئلة في رأسي على بعضها بعضًا وتصارعت، وفي النهاية، اتّفقت على أنّ هذا تبليغ بالرفض.

حاولت أن أتقبَّل الفكرة. نظرت حولي بتأنٍ. توقَّفت بنظري عند كلِّ قطعة أثاثٍ على حدة، المقاعد المحفورة الفخمة، الثريّا الكبيرة، الأسلحة المعلّقة على الحائط، الطاولة الخشبيّة المحفورة في منتصف الغرفة التي تظهر ثلاث بجعاتٍ يرفعن رؤوسهنَّ إلى أعلى ويحملن لوح الزجاج المستدير فوق مناقيرهنَّ. . وأخيرًا، نظرت إلى التحف المرصوفة في الواجهة. تذكّرت تحف أمِّي المتواضعة التي كانت ترصفها فوق أرفف المطبخ، وأراقبها وأنا طفلةٌ يدحرجها النعاس نحو الغفوة. لقد كنت أراقب التحف طوال تلك السنوات، ولكنّ من الآن فصاعدًا، سأتحوّل إلى واحدةٍ منها، سأصبح قطعةً أخرى من أثاث هذا المنزل! شعرت بالأسى يأكل قلبي.

فكّرت «أهكذا تكون حياتي قد انتهت وأنا في العشرين؟ هكذا يكون وجع نهاية الحلم إذن؟»

استفتت من أفكاري على رنة الهاتف. تناولته بيدٍ مرتجفة، ونظرت إلى الشاشة بعيونٍ تحجبها الدموع:

- ألو.

- صباح الخير، أتكلّم معكم من الجامعة الأميركيّة في بيروت. هل أمل أبو نمر موجودة؟

- نعم. تفضّل. . أنا أمل.

- أتّصل لأعلمك أنّه تمّ قبولك في الجامعة الأميركيّة في بيروت لفصل الخريف القادم، مبروك! عليك التوجّه لاستلام طرد القبول من أقرب مركزٍ بريديّ.

- شكرًا لك .

وضعت الهاتف من يدي، ورحت أقفز وأصرخ والدموع تنهمر من عيني، وكأنني اكتشفت صوتي للتو. وأثناء القفز، انقصف الخف الذي كنت أنتعله، فتعثرتُ ووقعتُ على الأرض وقعةً مؤلمة جعلتني أنفجر ضاحكة. لقد كنت سعيدةً كما لم أعرف السعادة من قبل، ولم يكن يهمني، في تلك اللحظة، أي شيءٍ آخر.

حين عاد سالم إلى المنزل كنت منتشية من فرحة الخبر، ممًا ساعدني على مفاتحته بالأمر من غير ضعفي وترددي المعهودين. وبعد أن أحضرت عدّة الممتّة وجلست بجانبه على الشرفة وسألته عن نهاره، بدأت بالموضوع:

- أتذكر اتّفاقنا قبل الزواج يا سالم؟

- لقد أنهيت تعليمك الثانوي. ألا يكفي هذا؟

- لا، لم يكن هذا اتّفاقنا. أنت وعدتني أنني سأكمل تحصيلي العلمي، وأذهب إلى الجامعة.

- وعدتك ثم غيّرت رأيي، أنا لست «مولاي العقل»، أنا بشرٌ وأغيّر رأيي.

- لقد قدّمت طلبًا للدراسة في الجامعة الأميركية، وحصلت على القبول اليوم.

- نعم؟! ماذا قلت؟ لا بدّ أنك تمزحين، قال ثم أخذ يضحك.

- أنا لا أمزح يا سالم، وسأدرس هناك مهما كان الثمن.

- متى ذهبتِ؟ وكيف؟ ثم ماذا عن الطفل؟ لقد مضت سنوات على زواجنا ولم نرزق بطفل! هذا الموضوع ينغص حياتي، ولا يغيب عني يوماً واحداً. قال هذا وعيناه قد امتلأتا بالدموع.

- ما ذنبي يا سالم؟ لقد حاولت مساعدتك وتألمت مثلك، ولكن هذه مشيئة الله.

- لا تقولي إنك تألمت مثلي! لم تُبدي أيّ حزنٍ حين أخبرنا الطبيب أنّ التلقيح لم ينجح.

- هذا ليس نقاشنا يا سالم. لا تبتعد عن الموضوع الذي أفتحك فيه. سألتحق بالجامعة، قلت محاولةً أن أبقى قويّة.

- لن تلتحيي بأيّ مكانٍ قبل أن أحصل على طفل.

- «أنا مش الله»، انتفضت واقفة، وصرخت بأعلى صوتي. أنت والدكتور رستم تلعبان دور الله، وتريدانني أن أحمل وألد بالغضب!

- هذا آخر كلام لي. لن تذهبي إلى أيّ مكانٍ قبل أن نحصل على طفل. يمكننا أن نبدأ بالتلقيح الثاني على الفور. أنا جاهز.

- تلقيح مجدداً؟! بعد كلّ ما حل بي بسبب التلقيح؟ جسدي لم يتعاف بعد. أنظر كم أنا هزيلة! لن أعيد تجربة التلقيح أبداً، قلت بتصميم.

- يعني ما في نصيب، قال سالم ببرود من غير أن ينظر إليّ فيما بقيت عيناه مثبّتين على الجبل.

سمعت ما قاله، ولم أشأ أن أستوضح ولا أن أضع نفسي

في موقفٍ مهينٍ كهذا. دخلت إلى المنزل ونقلت وسادتي من غرفتنا إلى غرفة نوم الضيوف، وأمضيت السهرة هناك. في مكانٍ بعيدٍ في داخلي، توقّعت أن يأتي سالم ويصالحني. كنت أراهن على تعلّقه بي وإدمانه الجنسي الذي يدفعه لمعاشرتي كلّ ليلةٍ قبل النوم. أو ربّما كان في قلبي رجاءٌ بأن يأتي ليعتذر عمّا قاله! «ما في نصيب»، تعني أنّي لم أعد أريدك أن تكوني زوجتي! وهذا كلامٌ كبيرٌ وخطير، ولا أعرف ما إذا كان يعنيه، ولا أعرف كيف سأردّ عليه. فإذا طُلّقت منه سيحتّم عليّ أن أعود لبيت أبي، وأنسى موضوع التعليم إلى الأبد. وكان سالم يعرف ذلك جيّدًا، ويراهن عليه في كلّ مساوماته معي.

جاء الصباح وذهب سالم إلى العمل من غير أن نتبادل أيّ كلماتٍ إضافية. لم أفرح باتّصال شقيقتي نيرمين حين هاتفني في الصباح، وأخبرتني أنّها ستأتي لزيارتي رفقة جاد بعد الظهر. كانت الأوضاع ما زالت متوتّرةً بيني وبين سالم، ولم أرد أن يؤثّر ذلك على استقباله لهما، خاصّةً وأنّ هذه هي زيارتهما الأولى لبيتنا. ولكنّ من ناحيةٍ أخرى، تمنّيت أن تساعد هذه الزيارة على تحسين الأجواء بيننا إذا ما حاولنا أن نكسر الشرّ ونبدو كزوجين عاديّين أمام ضيفينا.

عاد سالم إلى البيت باكراً ككلّ يوم سبت، وتحدّث معي بتلقائيّة تامّة كأنّ شيئاً لم يكن، وجعلني أتساءل ما إذا كان كلّ ما حدث البارحة حلماً بما في ذلك قبولي في الجامعة الأميركيّة. ساعدني سالم في توضيب الطاولة استعداداً لاستقبال الضيوف، وسألني ما إذا كانت فكرةٌ جيّدة أن يأخذ جاد في جولةٍ حول

الشركة التي يديرها والده والتي تقع في الضيعة نفسها. أخبرته أنها فكرة جيّدة، ولربّما تساعد على تقريبهما، وفرحت أنّي هكذا سأربح بعض الوقت مع أختي وحدنا لأخبرها عن آخر التطوّرات.

وصل جاد ونيرمين. وحين فتحنا الباب، رأينا نيرمين تحمل صندوق بيرة باردة، وتركض به فوق السلالم المؤدّية إلى بيتنا ويتبعها جاد حاملاً أكياساً فيها أشياء أخرى. مدّتنا نيرمين بصندوق البيرة ضاحكةً:

- محرومين من المشروب عند أهلي. خلّينا نعوّض نحنا ويّاكم هون.

ضحك جاد لكلامها، وقَدّم لي الأكياس التي تحتوي على الحلويّات والمكسّرات. كان الطقس جميلاً، فاخترنا أن نجلس على الشرفة حيث شربنا البيرة وضحكنا، ولم تتوقّف نيرمين عن إطلاق النكات عن المجتمع القرويّ وكثرة الأسرار التي تضطرّنا إلى الكذب، وكيف نصدّق كذباتنا في نهاية الأمر ونتحوّل إلى منافقين.. ثم ترفع كأسها من حينٍ لآخر، وتقول:

- بصحّة النفاق الذي سمح لنا بتناول البيرة الباردة في هذا النهار الصيفيّ الحارّ. وتضحك بصوتٍ عالٍ، وكأنّ المكان كلّها لها.

فرحتُ بطاقة نيرمين واندفاعها، شعرت أنّها أتت بالكثير من الحياة والفرح إلى بيتي الكئيب، وتمنّيت لو أنّها تبقى ولا تسافر مجدّداً. تمنّيت لو أنّها تستطيع أن تكون جزءاً من حياتي لعلّي أتعلم شيئاً من قوّتها ولا مبالاتها تجاه الآخرين وما يفكّرون

بشأنها. لاحظت أنَّ سالم لم يكن على طبيعته أثناء الزيارة؛ ورجَّحت أنَّ الأمر يعود لما حصل بيننا البارحة. بعد مرور ساعة، سأل جاد ما إذا كان يودّ مرافقته إلى الشركة، فوافق جاد على الفور، وخلت الساحة لي ولنيرمين. أخبرت نيرمين بكلّ التطوّرات بدءًا بالقبول وصولًا إلى شجاري مع سالم ومطالبته بالطفل.

- لماذا لا تنجبين طفلًا؟ أين المشكلة في هذا؟ قالت مستفسرةً.

- كيف سأتمكّن من ارتياد الجامعة والاهتمام بطفلٍ في الوقت عينه؟ أتدركين مدى صعوبة أن أنجح في الجامعة الأميركية؟

- بيت حماتك بجانبك، وأمّي تسكن على بعد ثلاثين دقيقة من هنا.. فليساعدونك على تربية الطفل. إذا كان هذا هو المخرج الوحيد، نفّذي رغبته. قالت وهي تأخذ رشفةً كبيرةً من زجاجة البيرة.

- لا أصدّق أنّك تقفين إلى جانبه! قلت لها بخيبة أمل.

- لا أقف إلى جانبه يا غبيّة. أنا أساوم. أحاول أن أوصل الفأرة إلى قطعة الجبن، حتى لو كان هناك بعض الحواجز بينهما - كالطفل مثلاً!

فهمت أنّي الفأرة والجامعة هي قطعة الجبن في هذه المعادلة، ولكنّ الأمر لم يرق لي فلزمت الصمت. وأكملت نيرمين:

- أحبّ أن أنجب طفلًا، ولكنّ في أميركا لا شيء يشجّع

على ذلك. أشعر كأنني أعيش مع صديقي وليس زوجي. فهو دائم الانشغال ووالدته كذلك، لا أعلم كيف ربّته! والده جنديّ متقاعدٌ يمضي نهاره في العمل في الحديقة؛ وحين أذهب إليه لأتسلّى وأسليه أشعر كأنّه إنسانٌ غريب، حتى إنّّه لا يجيد كلمةً عربيّةً واحدة!

- هذا يجعل علاقتك بطفلك أجمل، لأنّه ليس هناك عناصر خارجيّة تؤثّر على تربيته. سيكون كلّ شيءٍ تحت سيطرتك، قلت لها مشجّعة.

- ربّما من أسوأ الأشياء أن تكون الأمور تحت سيطرة شخصٍ أو اثنين حين نتكلّم عن تربية طفل! أتعلمين أنّي أوم حمائي وحماتي على طبع جاد الانطوائيّ؟
رأيتني أصغي باهتمام، فأكملت:

- من الخطأ ألا يكون هناك مجتمعٌ حاضنٌ للطفل كما هو الحال عندنا. أمضى جاد طفولته في القبو تحت الأرض يرَبّي الزواحف والضفادع والحشرات الغريبة في أحواضٍ زجاجيّةٍ وأقفاص. لم يرَ أهله أيّ شيءٍ يدعو للقلق في ذلك، وكرّسوا أموالهم لمشاريعه الغريبة وتفقيس الثعابين والضفادع من غير أن يطرحوا أيّ أسئلةٍ عن سبب عزله وانطوائيّته.

- أتظنّين أنّه كان يفتقر للحبّ في صِغره؟

- طبعًا. عاد والد جاد من الحرب في فيتنام مضطربًا، وظلّ كذلك حتى تزوّج، وكان عنيفًا في تربيته لجاد؛ فراح يبرّحه ضربًا بسببٍ وبلا سبب، ويقسو عليه كثيرًا، ظنًّا منه أنّ هذا سيصنع منه

- ولكن كيف يؤثر هذا على علاقتك به؟

- جاد لطيف، ولكنه يعيش في عالم منفصل داخل رأسه. لم يتربّ على الإيمان بأيّ شيء كما تربّينا نحن. الوجه الوحيد للإيمان الذي رآه في حياته هو غرفة صغيرة في البيت حولتها والدته إلى صومعة، حيث علّقت السجاجيد فوق الحيطان وفرشتها بالإسفنج، وخصّصت مكاناً لكتاب الحكمة وآخر لإضاءة الشموع؛ ووضعت علم الخمس حدود في إطار فضيّ كبير على أحد جدران الغرفة، فأصبحت تشبه مقاماً درزيّاً. رأى جاد أمّه تدخل إلى هناك منذ الصغر تضع منديلاً على رأسها وتتصرّع وتبكي حين تكون في حالة ضيق، ولكنها لم تعلّمه أيّ شيء عن ديننا.

- تلوّمين الأجانب لأنّهم لا يعرفون شيئاً عن الدين؟ وماذا نعرف نحن عن الدين؟ سألتها بلهجةٍ ساخرة.

- نعرف الكثير بالطبع، وتربّينا في بيت مشايخ. لا تقارنينا بهم! قالت بعصبيةٍ محاولةً إثبات وجهة نظرها.

- أتعرفين أنّه محرّم علينا أن نعرف أموراً جوهريةً عن الدين لأنّنا جسمانيّون؟ أتعرفين أنّ المشايخ يعتبروننا فريقاً آخر مختلفاً عنهم وأدنى منهم، وأنّهم لا يقرأون كتاب الحكمة في وجودنا لأنّ هذا يضعهم في خانة الآثمين.

- «بلا دراما» أجابت بقلّة صبر. أنا حفظت الميثاق من غير إذن أحد. ومن واجبك كدرزيّة أن تحفظيه أيضاً. نحن كتبنا هذا

الميثاق على أنفسنا منذ مئات السنين عندما استجبنا للدعوة وأصبحنا دروزًا، وليس من حقّ أحد أن يمنعني من قراءته .

- أتعرفين كم شهرًا عليك أن تطلبي دينك من الشيخ قبل أن يأذن لك بالقراءة في كتاب الحكمة؟ أنتِ بقراءتك للميثاق كسرتِ القاعدة، وهم لا يحبّذون أن يكسر القاعدة أحد. قلت هذه الكلمات بلهجةٍ مازحةٍ محاولةً أن أخفّف التوتر الذي سبّبه هذا الحديث .

كانت لي مآخذ لا تنتهي على الدين، ولكنني فهمت بفطرتي أيضًا أنّ نيرمين ليست الإنسان المناسب لأناقشه في هذا الأمر. كانت تُجيب بانفعال، وجاءت أفكارها على شكل ردود فعلٍ على غربتها وخيبتها، بعد أن رصّت كمّيّة من التوقّعات والآمال في حقيبتها وراحت تطارد الحلم والسعادة في بلادٍ بعيدة .

عاد جاد وسالم من الشركة بعد حوالي ساعتين. كان التجهّم يبدو واضحًا على وجه جاد. فسألت نيرمين سالم بلهجةٍ مازحة «شو عملتلو لزوجي؟» وضحكنا كلّنا ما عدا جاد. غادرا بعد ذلك بقليل بعد أن شكرانا على الاستضافة. كان هذا اللقاء الثاني الذي جمع سالم ونيرمين، ولكنّ هذه المرّة لم يكن اللقاء مقتضبًا، بل استطاع سالم أن يتعرّف عليها عن كثب، ويسمع آراءها ويمضي وقتًا معها .

عندما انتهيت من توضيب المنزل وإعادة كلّ شيءٍ إلى مكانه، تناولت كتابًا وجلست لأقرأ، ولكنّ صوت سالم جاء مباغتًا :

- أختك آكلة رأس جوزها .

- نعم؟! ما بها أختي؟ استدرت مستفسرةً.

- تتكلّم عن نفسها وعنه، وتُبدي رأيها بكلّ شيءٍ وهو صامت، وكأنّه هو المرأة وهي الرجل!

- هل هذه نظريّتك عن توزيع الأدوار في العلاقة؟ إنّ المرأة هي الشريك الصامت الذي لا رأي له؟

- الآن، ستجعلين الأمر عنيّ وعنك، وستبدئين في النقاش مجدّدًا! أنت تُجيدين استخدام الكلمات، ولكنّ الكلمات مجرد حروفٍ لا قيمة لها. لن ألعب معكِ لعبتك.

- اسمع... الأمور تزداد توتّرًا بيننا. أودّ أن أذهب إلى منزل والدي لقضاء يومين، ربّما يساعدنا هذا على كسر جوّ التوتّر بيننا، ثم إنني أودّ أن أمضي وقتًا مع نيرمين قبل أن تسافر مجدّدًا. - لم تكن تنقصنا سوى نيرمين، قال بانفعال وغادر الغرفة.

فهمت ما أزعجه من نيرمين. كانت تمثّل كلّ شيءٍ لا يريدني أن أكونه. خاف أن يتسرّب لي شيءٌ من تلقائيتها، لامبالاتها، وقوّتها، وحبّها للشرب، والتدخين. خاف أن يصبح لي صوتٌ لا يعرف كيف يتعامل معه، وشخصيّةٌ لا يعرف كيف يُديرها. لكنّ رغم كلّ تلك المخاوف وعدني أن يوصلني إلى منزل والدي في الصباح لأمضي يومين برفقة أختي. وحين وصلنا إلى منزل أبي نزلت من السيّارة، لكنّه رفض النزول، وقال لي ببرودٍ عبر شبّاك السيّارة:

- من الأفضل ألاّ تعودني للبيت إلّا بعد أن تتّخذي قرارًا نهائيًا بشأن موضوع التلقيح! قال ثم انطلق بسيّارته قبل أن يسمع

بعد أن سألاني عن سالم وتعجُّبا من عدم نزوله إلى الدار ليسلم عليهما، تهاست أمِّي مع أبي بشأن زيارتي المفاجئة بدون زوجي. اكتفيت بالقول إنَّه مشغولٌ رغم يقيني أنَّهما لن يصدِّقا ذلك. أمضيت الليل في التفكير بمصيري، وماذا سيحلُّ بي إذا رفضت التلقيح وعدت إلى هذه القرية وجراحها مجدِّداً.

في الصباح، وبعد الفطور، تنزَّهت مع جاد ونيرمين في الحقول، وأكلنا الفاكهة. حدَّثنا جاد عن أنواع الفراشات والحشرات بحماسٍ وكأنَّه خبيرٌ محترف، فأصغينا إليه باهتمام. ثم هدأت نبرته وبدأ يُخبرنا عن قصَّة رجلٍ أمضى ساعاتٍ يراقب فراشةً تكافح للخروج من شرنقتها. صنعت الفراشة ثقباً صغيراً في الشرنقة، لكنَّ جسدها كان أكبر من أن يمرَّ عبره. وبعد أن كافحت الفراشة مطوّلاً، رقدت وبدت له كأنَّها ماتت. قرَّر عندها الرجل أن يساعد الفراشة، فأحضر مقصّاً وفتح فتحةً صغيرةً في الشرنقة ليطلق سراحها، ولكنَّه اكتشف بعدها أنَّ جسد الفراشة بدأ ينكمش ويتجعد، وأصبح جناحاها مترهّلين. جلس الرجل يراقبها بصمتٍ آملاً أن تفتح جناحيها لتطير بعيداً، لكنَّها لم تتمكَّن من الطيران، وأمضت الساعات الأخيرة من حياتها في الارتجاف بجانب شرنقتها. حاول الرجل مساعدتها مدفوعاً بالتعاطف والرغبة في إنقاذها، ولكنَّه لم يفهم أنَّ ثقب الشرنقة الضيق والمجهود الذي تبذله الفراشة لتخرج من الشرنقة هي حيلة الطبيعة لتقوية جناحي الفراشة اللذين سيؤهلانها للطيران بعد الخروج. هذه الصراعات هي التي تخلصنا من سجوننا، والمساعدة التي

تأتي من الخارج ليست فعلاً مساعدة. هي فقط حلٌ مؤقتٌ وتأجيلٌ للمعركة الحقيقيّة. توقّف ثم أضاف:

- أنا لست ذلك الرجل، سمعت هذه القصّة في صفّ يوغا في أميركا. أنهى كلامه ونظر مباشرةً في عينيّ، ثم وضع يديه على كتفيّ، وقال بالإنكليزيّة:

- نحن نحبّك كثيراً، ولكن لا يستطيع أحدنا مساعدتك. عليك أن تخرجي بنفسك. استأذن بعدها وعاد إلى البيت. نظرت إلى نيرمين بتعجّب:

- ما به؟ هل أخبرته شيئاً عن المال الذي سأقترضه منك؟
- لا لا. المال لي، لا علاقة له بالموضوع ولم أخبره بالأمر أصلاً!

- ماذا إذا؟

- البارحة حين كان في الشركة، نصحه سالم بأن يُسرع بالإنجاب منّي، لأنّ الإنجاب هو الطريقة الوحيدة التي ستمكّنه من الاحتفاظ بي.

- يا إلهي! وماذا قال له جاد؟ قلت بحرج.

- قال جاد «أنا لا أريد لزوجتي أن تبقى معي من أجل طفل»، وأخبره أنّه لا يحبّ فكرة أنّه يحرضه على زوجته.

- لهذا عاد جاد متجهّماً إذا؟ سألت مستفسرةً.

- نعم، الآن جاد لا يطيق سالم، ويقول إنك لن تتمكّني من إكمال حياتك معه. ولكنّه يظنّ أنّ عليك الخروج من هذا الزواج

بنفسك .

ضحكتُ مطوَّلاً .

- الخروج من الزواج؟ أنت تعرفين أنَّ الطلاق غير مطروح في قاموس أبي! ثم إنني لا أملك سبباً مقنعاً لأطلب الطلاق .

- كم هي مثيرة للشفقة هذه الجملة . أتعرفين أنَّ معظم حالات الطلاق في أميركا تحصل حين يتوقَّف الأزواج عن حبِّ بعضهم بعضاً؟ حتى إنَّ هناك مصطلحاً لذلك they fall out of love وهي تعني حرفياً الوقوع إلى خارج الحبِّ . تماماً كما سبق ووقعوا به .

- على هذا الأساس ، لن تبقى امرأة عند زوجها ، قلت بنبوة ساخرة .

كان النهار قد شارف على النهاية حين عدت ونيرمين إلى الفناء الكبير . كانت عمّتي سليمة ، وهي آخر من تبقى من عائلة أبي ، تستعدّ للدخول إلى فرشتها التي تأوي إليها في تمام السابعة والنصف مساءً . تسكن عمّتي سليمة في الجانب الغربي من منزلنا في الجزء الذي ورثته عن جدّي «أبو علي» . لقد كان وجودها رحمةً لأبويها ، إذ إنَّها عاملتهما في كبرهما وأطعمتهما وحمّمتهما كما تُحمِّم الأم أطفالها حتى توفياً . كما كانت ساعي بريد بينهما ، فتخبرهما عن صحّة الآخر وأخباره . لهذا يُسمّيها أبي «بركة بيتنا» . ولكنَّ الجيران والأطفال ينظرون إلى عمّتي سليمة نظرة أخرى ، فبالنسبة إليهم هي إنسانة غريبة الأطوار أو «عقلاتا قلال» . لم تؤذ عمّتي سليمة أحداً ، ولكنَّ الخوف خرَّب عليها حياتها .

بعد أن توفيَّ جدِّي وجدَّتي أصبحت عمَّتي تنام وحدها في الغرفة الكبيرة التي أقيم في وسطها الحائط. في الليل، كانت ترى الحائط يتأرجح وكأنَّه على وشك أن يقع فوق رأسها فتنهض وترفعه بكامل قوَّتها، وتصيح:

- الجدار عم يوقع يا أخي علي، الجدار عم يوقع فوقي.

ولكنَّ أبي تعود على كوابيسها ولم يعد يعيرها أيَّ اهتمام. وفي أحيانٍ أخرى، كانت تستيقظ في الليل وتسمع جدِّي يناديها من خلف الجدار فتقوم من فرشتها وتلبس طبقاتٍ من الثياب بعشوائية، وتلف منديلاً حول رأسها وتصيح «أنا جايي يا بِّي». وتركض إلى المدخل الآخر حيث كان جدِّي يعيش منفصلاً عن جدَّتي، فلا تجد سوى أثاث قديم. وحين كانت تنام في غرفة جدِّي، كان النداء يأتي من غرفة جدَّتي.. وهكذا، أمضت عمرها بجوار الحائط غير متأكِّدة على أيِّ جهةٍ يجب أن تكون، وهكذا عاش الحائط بجانبها حتى مماتها، ولم تنتهِ قصَّته مع موت والديها.

كانت لعمَّتي سليمة مكانةٌ خاصَّة في قلب نيرمين. فكان من الصعب أن نتحدَّث عنها من غير أن تبكي. وحين كانت نيرمين صغيرة كانت عمَّتي تسألها أن تأتي وتنام عندها. وفي كلِّ ليلة، كانت نيرمين تساعد عمَّتي في دعم الجدار بجسدها ورصف الأثاث خلفه كي تمنعاه من السقوط. أدركت نيرمين الصغيرة أنَّ الجدار لا يسقط، ولكنَّها كانت تفهم خوف عمَّتي فتجاريها من غير نقاش.

حين كبرت عمّتي، وتزوّجنا جميعنا وغادرنا، اتّسعت رقعة مخاوفها التي ورثتها عن جدّتي لتشمل رجالاً مجهولين ومخابرات دولٍ أجنبيّة. فعزّزت خطّتها الأمنيّة المؤلّفة من خشبةٍ عريضةٍ تُعلّقها بالعرض على بوّابة فناء المدخل الغربيّ المتهالكة، وجزّمة كاوتشوك قديمةٍ لأبي تضعها أمام بابها كي توهم القادم أنّ هناك رجالاً في المنزل. وكانت تعلّق مجموعة من غالونات المياه البلاستيكيّة الفارغة بربطهٍ على الباب من الخارج حتى تهتزّ وتُصدر أصواتاً في حال لمسها أحد. وأخيراً مجموعة معلّبات معدنيّة فارغة راحت ترصفها على شكل عمود داخل بابها، حتى إذا حدث وفتح أحدهم الباب تنهار العلب وتفرقع وتنبئها باجتياح العدو.

أحبّتنا عمّتي كثيراً، ولكنّها لم تكن تترتاح لزيارة أحد. وحين تدعوها أمّي لزيارتنا كانت تأتي بحجج لا تنتهي: سأطعم الدجاجات، سوف أسقي النباتات، سأملأ الجرّة من العين، أشعر بالنعاس. وفي المرّات التي تكرّمت علينا بزيارة، كانت تسحب كرسيّها معها من أمام بابها في أوّل الفناء لأمام بابنا في آخر الفناء نفسه، وتجلس فوقه على مسافةٍ من الجميع، ولا تتخطّى زيارتها مدّة الربع ساعة. بعدها، تجرّ كرسيّها وتعود إلى عالمها ذي الخطّة الأمنيّة المحكمة، وجدارها الذي لم يتوقّف عن الانهيار طيلة خمسة عشر عاماً.

حين رأتنا قادمتين باتّجاهها، ضحكت عمّتي ضحكةً أظهرت ما تبقي من أسنانها، وهمت واقفة:

– كنت بحبّ شوفكن بس إجا وقت نومي.

- بكرا، أمل عندنا تعالي اعملي صبحيّة، قالت نيرمين، ثم غمرتها وقبّلتها قبل أن نتابع طريقنا إلى باب بيتنا، وأكملت «هي الإنسانية بتحرقلي قلبي! تخيلي تعيشي كلّ عمرك مرعوبة ومش عارفة من شو!» وطفحت الدموع إلى عينيها.

في المنزل، استقبلنا أبي بحفاوة، ثم سألني عن سالم:

- ألن يأتي سالم للعشاء؟

- لا أعرف.

بعد العشاء، طلب منّي والدي أن أحدثه على انفراد. شعرت أنّ جدارًا من التراب قد انهار في داخلي، وأخذ قلبي يخفق بشدّة. حاولت لسنوات أن أفهم هذا الخوف التي يتملّكني حين يطلب والدي التحدّث إلَيّ. بدأ الأمر في المنزل ورافقني إلى المدرسة، وبقي معي حتى أصبحت في العشرين. كنت حين أسمع كلمة «أمل» أشعر أنّ أحدهم يوجّه لي اتّهامًا ما. تنحّج وبدأ يتكلّم على مهلٍ منتقيًا الكلمات بعناية:

- لقد مضى على زواجي أنا ووالدتك أكثر من ثلاثين عامًا.

لقد واجهنا الكثير من الصعاب، ولكنّا تخطّيناها بالتفاوض والتنازل. لا أعرف طبيعة المشكلة بينك وبين سالم، ولا أريد أن أعرف، ولكنني واثق أنّك تستطيعين تخطّيها.

- لا أستطيع العودة يا أبي. أرجوك أمهلني بضعة أيّام.

- من الخطأ أن يُترك الرجل وحده مع «زعله» بضعة أيّام. قد يؤثر من حوله عليه، وتصبح مشكلتك أكبر.

- لكنّ يا أبي الموضوع له علاقة بكرامتي، وأنا...

قاطعني قائلاً :

- كرامة المرأة في بيتها عند زوجها . مهما سمعت من كلام
عن أنّ كرامة المرأة تأتي بالعناد والسيطرة وتسجيل المواقف ،
فهذا كلامٌ باطل «شغلّو يخرّب بيوت» .

- أنا لست عنيدةً ، وأنت تعرف ذلك .

- أعرف . أنتِ الأكثر سلاسةً وهدوءًا بين أخواتك جميعًا ،
لهذا ستذهبين معي إلى بيتكِ الآن .

- ولكنْ يا أبي . . .

قاطعني مجددًا :

- والدكِ يريد أن يزوركِ وأنتِ ترفضين الأمر؟ هيّا سأذهب
لزيارتكِ ، وستذهبين معي لتفتحي بيتكِ .

قال هذه الكلمات ، وانسحب من الغرفة .

راح رأسي يعمل بسرعةٍ لم أختبرها من قبل ، كنت أستنتج
وأأخذ قراراتٍ وأتعامل مع استنتاجاتي في آنٍ واحد . لقد تخلّى
عني والدي إذًا ، يا للخيبة! كيف ظننت أنّ من سلّمني للمجهول
في عمر السادسة عشرة سيفشق عليّ وأنا في العشرين؟! يا
لغبائي! ماذا سأقول لسالم وكيف سينظر لي بعد اليوم؟ يا للحرَج!
كيف سأنظر إلى نفسي بعدما أعادت الحياة تدويرها لحقيقةٍ أحاول
تخطّيها كلّ يوم: لا أحد يهتمّ بشأنكِ . لستِ سوى عبء ، أو
بأفضل الأحوال سلعة! كان بي ما يدعوني للحزن والبكاء ، ما
يدعوني للغضب والشتم والتكسير ، وما يدعوني لأن أبقى أنا .
أمل التي تختنق بصوتها ولا تقول شيئًا . لم أقل شيئًا ، وانتصرت

غريزة الحيوان بداخلي، ذلك الذي ينقلب على ظهره مدّعياً الموت حتى يغادر مهاجموه.

رأيت الدموع متجمّدة في عيني نيرمين وهي تودّعني أمام البيت. شدّت بيدها الباردة على أصابعي وأنا أصدد إلى السيّارة، وهزّت رأسها كأنّها تقول لي «كوني قويّة». تذكّرت كلام جاد عن الفراشة التي يجب أن تخرج بنفسها من الشرنقة. ولكنّ ماذا عن الفراشة التي لم يؤمن أحد بحقّها في الطيران، فأعادوها مرّة أخرى لظلمة شرنقتها وقالوا لها «هنا كرامتك»؟ ساد صمتٌ ثقيلٌ بيني وبين أبي في السيّارة القديمة ونحن في طريقنا إلى المنزل. حاولت بكلّ قوّتي ألا أبكي. عضضت على لساني كي أشتّت نفسي عن آلامي الأخرى، وأمنع دموعي من الانهمار. ثم فكّرت بخطةٍ محكمة تُنقذني من هذا الموقف المحرج، وتمنّيت أن تنجح.

استقبلنا سالم بالترحيب «أهلاً عمّي شرفتنا»، ولم يبدُ متفاجئاً من وجودي مع والدي. شرب أبي القهوة، وتحدّث مع سالم بشأن عمله وصفقاته وسأله عن والديه، ولكنّهما لم يتطرّقا أبداً لموضوعي. وكأنّي البضاعة الممنوعة التي تُمرّر من تحت الطاولة، فيما يتحدّث طرفا الصفقة فوق الطاولة عن أشياء أخرى من باب التمويه.

كانت السنوات التي قضيتها مع سالم، وقدرتي العالية على المراقبة وميلّي إلى التحليل، قد جعلتني قادرةً على فهم كيف يرى سالم العالم وكيف يتعامل معه. لم تكن صفة التاجر محصورةً في حياته العمليّة فقط، بل كانت تمتدّ لتشمل علاقاته مع الآخرين ومعّي تحديداً. فغالباً ما كان يلجأ إلى إبرام الصفقات الصغيرة

معي: «إذا أعطيتني كلّ ما أريده في السرير ستذهبين مع أخواتك في هذا المشوار»، أو «إذا ذهبتِ معي في تلك الزيارة سأسمح لك بالنوم عند أمك». وكان يحترف التسويف والمماطلة كما يفعل مع زبائنه. فيؤجّل وعده لي ويحلف كلّ يوم أنّه سيقوم بالأمر في الغد، وحين يأتي الغد يؤجّل مجدّدًا. وقدّ عشت هذا معه في عدّة مناسبات: عند تسجيلي في الثانوية العامّة، وعند تعليمي قيادة السيّارة، وعند استخراج دفتر القيادة حين بلغت العمر القانوني وغيرها... ومن باب معرفتي بكلّ هذا، فكّرت أن أفتح سالم بصفقة جديدة تنصّ على قبولي بالتلقيح في حال سمح لي بارتياح الجامعة. هذه الخطة قد تضمن لي تحقيق حلمي، وتنقذني من إحراج «إعادتي إلى البيت» من قبل والدي.

صمت سالم مطوّلًا حين عرضت عليه الفكرة، وكأنّه يحاول أن يبحث عن علة في الصفقة. وبعد أكثر من عشر دقائق، قال لي: - أقساط الجامعة الأميركية باهظة! أتوقعين منّي - حتى لو كنت أملك المبلغ - أن أنفقه على مشروع لست مقتنعًا به أصلًا؟ - بالطبع لا. لقد حصلت على منحة كاملة بسبب معدّلي المرتفع في شهادة الثانوية العامّة.

قلت بلهجة واثقة محاولة تمرير الكذبة، وإبقاء نيرمين بعيدة عن المشاكل.

هرش في رأسه قليلًا ثم مسح يده على فمه، وقال:

- حسنًا... سننصّل بالطبيب غدًا.

لم يمنع التوتر القائم بيننا سالم من أخذ «حقّه» منّي وممارسة

«واجباته الزوجية». وحين نام، انسحبت على مهلٍ وخرجت إلى الشرفة. كان الظلام يغطي الجبال والوديان وضوء القمر يجعل لون السماء نيلياً. جلست هناك وبكيت كما لم أبك منذ سنوات. لقد كانت هذه الليلة قاسيةً عليّ بكلّ المعايير. قسوة الأب وقسوة الزوج وقسوة الصوت الذي يأتي من داخلي ولا يتوقّف عن تحقيري. أن أمارس الجنس مع شخصٍ انتهيت للتوّ من إبرام صفقةٍ معه، ماذا يجعلني هذا؟ أن يرفض أبي حمايتي، ألاّ يسألني ما بي؟ ألاّ يسألني ما الذي جرحني؟ ماذا يجعل هذا منّي؟ أن تقف أمّي ونيرمين بانكسارٍ وهما تراقباني أبتعد عنهما في سيّارة أبي وكأني بقرّة يقتادونها إلى المسلخ، وتجبران رغم قوّة شخصيّتهما على الصمت. ماذا يجعلنا هذا كنساء؟

كان شعوري بالذلّ أقوى من أن أشعر بفرحة ارتيادي للجامعة. لقد حصل الكثير في تلك المسافة التي تفصل الفتاة التي استأجرت سيّارة تاكسي وقصّدت الجامعة عن الإنسانة التي صرّتها اليوم. ولكن أيّ خيارٍ لديّ؟ عليّ أن أستمّر رغم كلّ شيءٍ في حفر طريقي لخارج الشرنقة بأظافري، أو أن أَرْضُخ وأتصالح مع هذه الحياة بكلّ مكوّناتها وتعقيداتها تماماً كما فعلت أمّي.

سلّمت جسدي لمختبرات التلقيح مجدّداً. حقنّتان في النهار: واحدة في البطن وأخرى في العضل لمُدّة عشرين يوماً. «افتحي ركبتيك» مجدّداً. نوبات بكاءٍ فوق طاوولات المعاينة مجدّداً. سالم يقذف في فنجانٍ بلاستيكيٍّ في العيادة، وأنا أسدّ أذنيّ وأدير وجهي إلى الحائط. غرفة العمليّات مجدّداً. برودة قاتلة، رائحة معقّمات، يد ممرّضةٍ على رأسي... يطلّ الله من الضوء الكبير

فوق سرير العمليّات مجدّدًا. أهُمُّ أن أسأله «لماذا؟ أو إلى متى يا الله؟» ولكنّ طبيب التخدير يأتي. يسقط قناع الأكسجين فوق وجهي، يثقل جفنيّ ويختفي الله مجدّدًا.

بعد ثلاثة أسابيع، أجرينا فحص الدم. «نحن آسفون» مجدّدًا! لا حمل. هل تودّون المحاولة مرّةً ثالثة؟ لم أشعر بشيءٍ حيال الخبر وحيال السؤال، وحيال كلّ ما سوف يكون. ما عاد يهمّني ما سيحلّ بجسدي. لا أعرف أين اختفى الخوف من الحقن، وشعور الذلّ من فتح ساقيّ أمام أعين الأطباء والممرّضات. لقد تقمّصت دور فأر المختبر، واقتنعت بطريقةٍ - ما زلت أجهل كيفيّة حدوثها - أنّ هذا الأمر طبيعيّ، وأنّني أنا من يضخّم الأمور، وأنّ عليّ أن أستمّرّ في المحاولة حتى يحقّق زوجي حلمه.

الحيوان في داخلي، ذاك الذي يختار التظاهر بالموت عند كلّ هجوم، أصبح يستمتع بهذه اللعبة. لقد تماهى معها ولم يعد يلعبها. لقد أغلقت نوافذي على أيّ أملٍ بالنجاة، وأصبح موت المشاعر والمخاوف والرغبات أسهل الطرق لمقاومة الألم.

طلب الطبيب رستم من زوجي أن ينتظر ستّة أشهرٍ على الأقلّ قبل التخطيط لتلقيح جديد كي يسمح لجسدي أن يتعافى من حقن الخصوبة، ويُعيد تعديل هرموناته بشكلٍ طبيعيّ من أجل زيادة احتمال نجاح عمليّة التلقيح القادمة. ووصف لسالم حقنًا تساعد على تحسين نوعيّة بذرته على أمل أن نتج أجنّة أقوى في المرّة القادمة. كما طلب منه أن يداوم عليها لعدّة شهور.

الجامعة الأميركية

«لتكون لهم الحياة وتكون لهم حياة أفضل!» نظرت إلى هذه الكلمات بعينين مختلفتين. كان خوفي أقل، لأنَّ سالم قد أوصلني بنفسه هذه المرّة، ولم يعد الأمر سرّاً أخفيه عن الجميع، ولأنّني الآن أصبحت في عداد طلبة الجامعة الأميركية، ولم أعد مجرد فتاةٍ جبليّةٍ متطفّلةٍ تحلم بما هو أكبر منها. على المدخل، أظهرت للحارس ورقةً مطبوعٌ عليها رقمي الجامعيّ 20101590 نظر إليها بتقطيعةٍ بين حاجبيه:

– عليك أن تصدري بطاقةً حقيقةً. هذه مجرد ورقة مطبوعة.

قال وأوماً لي بيده حتى أدخل من جهة اليمين إلى الغرفة نفسها التي يأخذون فيها هويّتي، ويمدّونني بطاقةً عليها رقم زائر. أعاد هذا التفصيل التوتّر إلى كياني، وأيقظ شعوري بالدونيّة. ولكنّ حين وصلت إلى أعلى السلالم العريضة، ونظرت إلى المبنى الرئيسيّ في الجامعة (الكوليدج هول) الذي تتوسّطه ساعة

كبيرة، وتلمع أعمدته الكثيرة تحت أشعة الشمس فتبدو كأنها رواق معبدٍ إغريقيٍّ قديم، انتابتنى قشعريرةٌ وشعرت برغبةٍ في البكاء؛ لكنني قاومتها ورحت أمشي كأنني أهرب من دموعي. كم كلّفني الوصول إلى هذا المكان! غلبتنى المشاعر من جديد، أردت أن أنزل على ركبتيّ لأقبل الأرض، ولكنني أثرت التصرّف بتحضّرٍ، وكأنني مجرد فتاةٍ عاديةٍ. حاولت أن أنسى أنني لست فتاةً عاديةً، وأني ساومت على جسدي مرّةً أخرى حتى أصل إلى هنا، وأنّ ما ينتظرني قد يكون أقسى من أيّ شعورٍ بالانتصار والنشوة.

مشيت إلى حيث قادتنى قدماي. فاتّجهت ناحية الـ «أسمبلي هول» وهو مبنى أثريّ على شكل كنيسةٍ صغيرةٍ يجمع بين الطابع المعماريّ الشرقيّ والغربيّ، وقد شُيّد عام 1891. يعلو المبنى سقفٌ قرميديّ ويزيّن واجهته شبّاكٌ دائريّ كبيرٌ مصنوعٌ من زجاج ملوّن، وتحيط به أنواعٌ كثيرة من الأشجار والزهور بالإضافة إلى شجرةٍ عملاقة، سأكتشف لاحقاً أنّ اسمها شجرة البانيان. مررت أمام الـ «أسمبلي هول» والتفتت حول الـ «كولدج هول»، هناك رأيت مدخل المكتبة الرئيسيّة في الجامعة الأميركيّة، مكتبة «جافيت» الشهيرة المؤسّسة عام 1866، والتي لن أتحلّى بالشجاعة للدخول إليها إلّا بعد انقضاء العام الأوّل من دراستي. تخطّيت المكتبة ولاح لي من بعيدٍ طريقٌ من الأسفلت مُحاطٌ بأشجار السنديان والبلوط الشاهقة، وتنتشر على جانبيه مقاعد خشبيّةٌ خضراء وكأنّه حديقةٌ خياليّةٌ في قصّةٍ من قصص الأطفال. حين وصلت إلى تلك البقعة، كان على شمالي كافتيريا الجامعة ذات المبنى الحجريّ الأبيض القديم، وحين نظرت إلى يميني

رأيت البحر بامتداده وزرقته! شهقت من هول الصدمة. كان البحر قريباً لدرجة جعلت أنفاسي تتوقّف ودموعي تنهمر. جلست على المقعد الخشبيّ ورحت أتأمل زرقته، كانت عيناى تسرحان إلى أبعد نقطة في البحر، والحمامات ترفرف في الأعلى من غير أن أراها وتُصدر أصواتاً تُشبه النواح، خُيّل لي أنني أسمعها للمرّة الأولى. شعرت أنني قد وجدت ضالّتي في هذا المكان، وعرفت أنني سأعود إليه كثيراً.

كانت الساعة تُشير إلى الحادية عشرة حين نهضت وذهبت إلى الكوليدج هول، لأكمل عمليّة التسجيل ولأسدّد جزءاً من القسط. بعد أن أنهيت معاملاتي في مكتب القبول والتسجيل، أرسلتني الموظّفة إلى مكتب المسؤول في الطابق العلويّ من أجل إمضاءٍ أخير، قائلةً «إسألني عن مكتب محمود ناصر». حضر وجه محمود وضحكته المتهكّمة مع اسمه في رأسي، وعرفت أنني سألتقي بالمتنمّر الساخر مجدّداً. ووددت لو تعفيني الموظّفة من هذا الإمضاء، ولكنّي طبعاً لم أطلب منها ذلك، بل أخذت الأوراق وشكرتها وتوجّهت إلى الطابق العلويّ بخطواتٍ ثقيلة.

كان باب المكتب مفتوحاً ومحمود جالساً وراء مكتبه غارقاً بعمله على الحاسوب. رفع نظره حين سمع طرقتي على الباب. وحين وقعت عيناه عليّ، ابتسم ابتسامةً عريضةً «أهلاً بك مجدّداً، لم أتوقّع أن تعودني!». مددته بالورقة من غير أن أُجيب، فختم عليها ثم نظر لي قائلاً:

- اسمعي.. أعرف أنك لاحظت إصراري على مضايقتك في المرّة السابقة، ولكنّي أشعر أنّ لك قصّة، وخطّتي هي أن أستفرك

حتى تقولي شيئًا، ولكنك تلتزمين الصمت في كلِّ مرّة. ما سرُّك؟
- كلُّ إنسانٍ لديه قصّة، وإلّا ستكون حياته بسيطةً مثل حياة
الأطفال.

- يا سلام! كلامٌ جميل. تعالي نكمله ونحن نشرب القهوة
في الكافيتريا. لن أسمح لك برفض دعوتي هذه المرّة.
- حسناً، قلت ببرود.

كان الوقت لا يزال مبكرًا، ولن يعود سالم ليقبّلني قبل
الساعة الثالثة. ووجدت أنّ دعوة محمود لي أيقظت شعورًا بعيدًا
داخل نفسي بالرضى أو ربّما بالحماية، وكأنّ شخصًا ما يعترف
بوجودي أخيرًا في هذه الجامعة. في طريقنا إلى الكافيتريا القريبة
من الكوليدج هول، توقّف محمود عدّة مرّاتٍ ليسلم على رجالٍ
كبارٍ في السنّ، بعضهم من الأجانب وجميعهم ذوو مناصب
عالية. كانوا يتبادلون التحيّة، ويقول محمود «أهلاً بالعميد» أو
«مرحبًا بروفسور». مشيت بجانبه مطرقة الرأس وشاردةً حتى
وصلنا إلى الكافيتريا. صعدنا الدرج الذي يوصلنا إلى صالة
الطعام الكبيرة، وتوجّهنا إلى ركن القهوة حيث المقاعد الجلديّة
الضخمة والطاولات المخصّصة لاجتماعات الطلبة. اتّخذنا هناك
ركنًا جانب الشبّاك، ثم سألني محمود كيف أحبّ قهوتي، وذهب
لإحضار كوبين من القهوة الأميركيّة السوداء، ووضع أحدهما
أمامي قائلاً:

- سأتوقّف عن المزاح لأقول لك إنّني فخورٌ بك إلى أبعد
حدودٍ يا أمل. لقد تعقّبت ملفّك شخصيًا، ولم أكن أصدّق عينيّ

حين رأيت اسمك في لائحة المقبولين لهذا العام. من كان يظنُّ أنَّك ستجتازين امتحان الدخول بمعدَّلاتٍ جيِّدة بعد سنواتٍ من توقُّفك عن الدراسة؟! لا بدَّ أنَّك صاحبة عزيمة.

- فعلت ما باستطاعتي.

- أخبرتك أنَّي مثلك ابن ضيعة، وأنِّي أُميِّز أولاد القرى حين أراهم. ليس لأنَّهم يختلفون عن الآخرين بطريقة شكلهم أو لباسهم، بل للثقل الذين يحملونه فوق أكتافهم وفي عيونهم. أريد أن أعرف عنك المزيد.

ثم توقَّف عن الكلام منتظرًا منِّي أن أقول شيئًا. وحين لزمتم الصمت، أكمل:

- أظنِّين أنَّني وصلت إلى هذا المنصب بسهولة؟ أنا يتيم يا أمل. مات والدي وأنا في الخامسة من عمري، وتركني أنا وأمِّي وأخي الذي يكبرني بعامين بلا أموالٍ ولا ممتلكات. عملت أمِّي كخادمة في البيوت حتى أكملنا تعليمنا في مدرسة ضيعتنا النائية في قضاء البترون. تشاركنا أنا وأخي حذاء واحدًا كان يلبسه في الصباح ويذهب إلى الصفوف الصباحية، وألبسه بعد الظهر وأحضر صفوف المساء. وكانت أكبر طموحاتنا أن نشترى حذاءً آخر لنذهب إلى المدرسة في الوقت نفسه.

صمت قليلًا، ثم أضاف:

- أنا مهتمُّ بك، وأعرف معنى أن يكون الإنسان وحيدًا.

قدَّرت صدق محمود وصدَّقت اهتمامه بي، ولكنِّي صارحته:

- اسمع أستاذ محمود، عليك أن تعرف أولًا أنَّي متزوَّجة.

- أنتِ تمزحين. صحّ؟

- لا. لا أمزح.

صمت للحظات، ثم هزّ رأسه شمالاً ويميناً بسرعة وكأنّه يحاول أن يستفيق من المفاجأة، ثم قال:

- حسناً وإن يكن. هذا لا يمنع أن نكون أصدقاء، وأن أعرف المزيد عنك.

نظر بعدها إلى ساعته وفهمت أنّ ساعة الغداء قد انتهت، وأنّ عليه أن يعود إلى المكتب. تبادلنا أرقام الهواتف هذه المرّة ووعدته أن أراسله حين يكون عندي وقتٌ لنشرب القهوة. ثم تمنّى لي الحظّ وتركني في الكافيتريا، وعاد إلى مكتبه.

في طريقنا إلى المنزل، أخبرت سالم بحماسٍ عن حرم الجامعة ومساحته وجماله. كان يُصغي باهتمام من دون أن يطرح الأسئلة، ثم أخبرني أنّه خصّص لي سائقاً خاصّاً من ضيعته لتوصيلي إلى الجامعة ثم إعادتي إلى البيت. فوافقت على الفور. فأنا لا يهمني كيف ومع من آتي إلى الجامعة ما دمت سأصل.

مرّت الأسابيع الأولى بسرعة، إذ كان عليّ أن أتعلّم الكثير ليس فقط عن المنهج لكن أيضاً عن حياة الجامعة، وكيف يتعامل الناس مع بعضهم بعضاً في هذا المحيط الغريب. فأنا امرأة لم تغادر القرى؛ وقد فاتتني ليونة شخصيّة المراهقة التي تساعد التلاميذ على الاندماج في الجامعات تلقائياً، دون المبالغة في حساب الخطوات والتفكير. كنت قد أصبحت مثل الخبز اليابس أخفي نفسي بين المواقف، لأنني أقرّر سلفاً أنّي لن أستطيع

التعامل معها من غير أن ينكسر في شيء. لهذا تجنّبت طرح الأسئلة وزيارة الأساتذة في المكتب في الساعات المخصّصة لاستشارات الطلبة. لهذا، أصغيت في الصفّ كثيرًا وكتبت الملاحظات باهتمام شديد، ودرست في البيت كما لم أدرس في حياتي. لقد كنت مُحظوظة في المدرسة الثانوية إذ كنت أحصل على درجاتٍ عاليةٍ بجهدٍ قليل، ولكنّ الجميع يعلم أنّ الحفاظ على مقعد أيّ طالبٍ في الجامعة الأميركية يتطلّب معدّلاتٍ عاليةً جدًّا، وإلاّ يتمّ فصله في نصف السنة. حين وصلت إلى هنا عرفت أنّني لن أتخلّى عن هذه الفرصة مهما كانت التضحيات. وهكذا، بدأت أدرس وكأنّ حياتي كلّها تعتمد على النجاح. سهرت في الليل لأدرس للامتحانات الشهرية. وفي الخامسة صباحًا، كنت أستيقظ لأراجع ما درسته خوفًا من النسيان.

في الصفّ، كنت أراقب الطلّاب بإعجاب. أبهرتني الثقة التي يتكلّمون بها، ولكنّاتهم الجميلة التي أكاد لا أميّزها عن لكمة الأميركيّين، وفهمت أنّ معظمهم يأتي من أهمّ وأعرق مدارس لبنان مثل الـ IC و ACS و SABIS. وهي مدارس ذات سمعة عالميّة يرتادها أولاد السفراء والدبلوماسيّين اللبنانيين والأجانب. لاحظت أيضًا أنّهم يجلسون بظهورٍ مستقيمةٍ ويرفع بعضهم رأسه قليلًا وهو يمشي أو يتحدّث. فأخذت أتمرّن على وضعيّة الجسد تلك التي جعلتني أشعر أنّني أنظر إلى العالم من فوق أنفي. لكنّ كتفيّ اللتين تميلان إلى الأمام كانتا تقاومان استقامة ظهري، فشعرت بالإحباط وبأنّني لا أصلح حتى لأتبنّى وضعيّة جسدٍ صحيّة.

أخافتني المقارنة بيني وبين الآخرين في كل شيء، وعزّزت شعوري بعدم استحقاق النجاح، وشكّيت في قدرتي على المتابعة وسط تلك المجموعة اللامعة. كان أمامي خياران: إمّا أن أبكي وأكره نفسي، أو أن أدرس وأبذل أضعاف الجهد الذي يبذله زملائي. فاخترت الجهد، ونجحت في الامتحانات الأوليّة نجاحًا فاجأني وفاجأ البروفسور العجوز سمير بشور المعروف بقسوته وميله لتجنّب إعطاء الدرجات العالية، والذي يذكّرني بقدمه وأصالته بأشجار الجامعة المعمّرة. أثنى عليّ الدكتور بشور واقترب منّي بعد الحصّة، ورحنا نتحدّث. أخبرني أنّه يدرّس في الجامعة منذ ثلاثين عامًا، ولقد لفته سنّي ولاحظ أنّي أكبر التلاميذ ببضعة أعوام، وأنّه لم يتوقّع أن يحصل أحد تلاميذه على معدّل عالٍ في أوّل اختبار في أوّل الفصل الدراسي. أحببت الدكتور بشور، وتوسّمت فيه خيرًا.

كانت الأمور قد أصبحت هادئةً وروتينيّةً في البيت. أدرس أنا في المساء ويشاهد سالم التلفاز. لم نكن يومًا نتشارك الاهتمامات نفسها ولا استطعنا أن نجد ما يجمعنا، فاقترضت علاقتنا على العيش سويًا وممارسة الجنس. حاول سالم أن يظهر أمام أهله وأقاربي أنّه يشجّع تعليمي، وأنّ هذا الأمر سيعود بالنفع على أولادنا في المستقبل. فهمت بحكم تمرّسي على تمييز دهاء تصدير الصورة في مجتمعنا أنّه لا يريد أن يبدو «بلا شخصيّة» أو مسيطرٌ عليه من قبل زوجته. ففضّل أن يضمّ صوته لصوتي، ويتكلّم عن أهميّة العلم للفتيات والأمّهات، فلعبنا هذا الدور سويًا وجعلته يصدّق أنّي أصدّقه.

حاولت من شدة قلقي أن أتمرّن على عيش كلّ يوم بيومه،
ألا أفكّر باختصاصي الذي سيتمدّد على ثلاث سنوات، ولا بكيفيّة
الحصول على المال لدفع قسط السنة الجديدة، ولا بامتحانات
نهاية السنة. بل قرّرت أن أتعامل مع كلّ يوم كأنّه التحدّي الوحيد
في حياتي. لم أكن أعرف بالمفاجأة التي تخبّئها لي الأشهر
القادمة، والتي ستجعلني أدرك أن لا نوع من أنواع التخطيط ولا
القلق الموجّه يجدي. فالحياة مليئة بالمفاجآت، والإنسان بطبيعته
مغرورٌ ومليءٌ بمواطن ضعفٍ لا يعرف عنها شيئًا. إذا قرّرنا أن
نقلق، ربّما علينا كتابة لائحةٍ لا تنتهي بالأمر التي على الإنسان
أن يقلق حيالها، بدءًا بالأمراض مرورًا بالحوادث وصولًا إلى
الأحداث الاجتماعية والنفسية والاقتصادية... وحينها سيصير
القلق من المجهول قلقًا من الحياة نفسها.

رأيت محمود صدفةً وأنا أتنزّه في حرم الجامعة متّجهةً إلى
البقعة التي أحبّها مقابل البحر، فأوقفني وسلّم عليّ بلهفة:

- لماذا لم تراسليني؟ سأل بعتب.

- اعذرني، وقتي ضيق.

- لقد استرقت النظر إلى درجاتك. أنت تبلين بلاءً حسنًا
جدًّا! لم أتوقّع هذا.

- نعم، لقد فرح الدكتور بشّور بنتائجي.

- الدكتور بشّور صعب الإرضاء، وجميع الطلبة يشكون من
طريقته في التصحيح والتقييم. أيمكنني أن أمشي معك؟

- طبعًا.

مشينا بصمت، ثم التفت محمود إليّ وقال ببرودٍ تامٍّ وكأنّه يسأل عن الطقس:

- أنت درزيّة.. صحّ؟

- نعم. أحبته وأنا متفاجئة من سؤاله، خاصّةً وأنّي أصبحت أعلم كم يتجنّب الأشخاص التحدّث عن الأديان وعن أيّ شيءٍ يدعو للتفرقة في الجامعة الأميركيّة.

- دينكم دين فلسفيّ وعميق. لقد اطلّعت عليه من فترة، وأعجبني تقديسكم للعقل.

- نعم، هذا صحيح.

- بأيّ عمرٍ تزوّجت؟

ارتبكت أمام أسئلة محمود. كان يتنقّل من موضوع حسّاسٍ إلى آخر من غير ترتيبٍ معيّن، ممّا أثر على قدرتي على توقّع أين يأخذني بحديثه.

- كنت في السادسة عشرة حين تزوّجت.

- أكيد، حبّ مراهقين وبعدها خطيفة.

- لا لم أكن أعرفه. ولكنّ أهلي أعجبته الفكرة، وأنا أردت أن أختبر حياةً أخرى.

ضحك محمود مطوّلاً، وتظاهرت أنّ ضحكته لا تؤثرني.

- لقد ذكرنا للتوّ أنّ دينكم دين يقدّس العقل. لكنّ أين العقل في تزويج طفلةٍ في السادسة عشرة من عمرها، حتى لو وافقت على ذلك؟ هل أنتم جادّون بموضوع العقل أم أنّها فكرةٌ جميلة تصدّرونها للآخرين؟

- تقديسنا للعقل يعني إعطاء قيمة للفرد والاعتراف بحقه في التفكير وتحكيم العقل، وهذا مناهض للتبعية العمياء للقدماء أو لرجال الدين.

- يعني مثلاً إن أنت حكمت عقلك وفكرت ووجدت أنّ التقمُّص غير منطقي ولا يوجد أي دليل عليه، هل سيسمحون لك بذلك؟

أصبحت أسئلة محمود تزداد صعوبةً، وتجعلني أكثر حرجاً. فضبطت نفسي أفكر بشيء وأحاول أن أقول شيئاً آخر، أن أصدر له صورةً ملمعةً كما فعل سالم حين أخبر الجميع أنه يشجع تعليمي. فأنا كنت بقلبي أعلم أن الدرزي الذي ينكر التقمُّص يُعتبر كافراً، لأن التقمُّص ركنٌ من الأركان الأساسية لعقيدة الدروز. ولكنني قلت:

- فكرت في التقمُّص كثيراً وأنا مقتنعة به، أجبته باقتضاب.
- هذا أمرٌ طبيعيٌّ، لأنك عشت في بيئة درزيّة طوال عمرك، ولأنه تمّ تلقينك هذه الأفكار منذ طفولتك. ولكن هل فكرت في الأمر بمعزلٍ عمّا قيل لك؟

- اسمع أستاذ محمود، هناك حالات كثيرة من التقمُّص في محيطي، وأشخاصٌ عادوا إلى عائلاتهم وتعرّفوا عليهم بالأسماء.
- لماذا لا يحدث هذا لنا نحن المسلمين أو المسيحيين؟
لماذا يحدث لكم فقط؟ ألا تظنّين أن هذا انحيازكم التأكيديّ؟
لأنكم تعرفون بالأمر وتحاولون تلقينه لأولادكم؟

- أجد أنّ فكرة التقمُّص عادلةٌ جداً. ماذا لو عشت حياةً

صعبة، ولم تسنح لك الفرصة أن تحدث تغييرًا؟ ماذا لو وُلد أحدهم بإعاقه؟ وماذا عن الأطفال الذين يموتون من غير أن يختبروا شيئًا؟ أليس من العدل أن ينال هؤلاء فرصةً أخرى؟ حتى الإنسان السيِّء والخاطئ ألا تظنّ أنّه يستحقّ فرصةً أخرى كي يحسّن أعماله، ويجد الخير الطريق إلى قلبه؟

- فكرة جميلة يا أمل. ولكن من غير العدل أن يحصل الدروز فقط على العدالة عن طريق التقمُّص. ماذا عن الآخرين؟ ماذا عنّا نحن «ستين سنة إذا بنرجع»؟ قال ممازحًا.

- بحسب عقيدتنا، أنتم تتقمّمون أيضًا أستاذ محمود. كلّ البشر يتقمّمون.

- «أنا بتقمّمص وما معي خبر؟» قال ثم ضحك ضحكةً مجلجلة جعلتني أضحك معه لا إراديًا.

- أجل، أنت تتقمّمص. لكننا لا نعذب أنفسنا بإخباركم، لأنكم لا تؤمنون بالتقمّمص وستسخرون منّا.

- عندي سؤال آخر. رگزي معي!

- تفضّل.. أنا أسمعك.

- هل يولد عندكم أطفالٌ يتذكّرون من حيواتهم السابقة أنّهم أتوا من عوائل مسيحيّة أو مسلمة أو بوذيّة أو من أيّ ديانةٍ أخرى؟ علمت أنّ هذا السؤال سيأخذني إلى أماكنٍ في ديني لا أودّ الذهاب إليها؛ لكنني كنت في وضعٍ حرجٍ، وعليّ أن أجيب. بدأت كلامي ممازحة بـ «رگز معي!»

- بحسب عقيدتنا، الدروز يولدون فقط عند الدروز، وباقي

الديانات ممكن أن تولد عند بعضها .

أراد محمود أن يجيب، ولكنه بدأ يضحك بشدة حتى نزلت دموعه . وبعد أن التقط أنفاسه، أكمل :

- يا مولاي العقل! ستكونين بكلّ حيواتك درزيّة؟! وبالعودة إلى مفهوم العدل في دينكم، أليس من العدل أن تجربّي دياناتٍ أخرى؟ أو أن تولدي في سويسرا أو فرنسا أو جبال التبت مثلاً؟ إن كنتِ ستولدين عند دروز يعني أمامك لبنان وسوريا وفلسطين . وأن تنحصر حيواتك كلّها في هذه الخيارات هو أبعد ما يكون عن العدل!

- لا أعرف . أنت تسألني وأنا أجيبك . من أين تعرف جملة «يا مولاي العقل» .

- لي أصحاب دروز، وأسمعهم يستخدمونها حين يتفاجأون أو عند سماع أخبار سيئة .

- لماذا لم تسأل أصحابك الدروز كلّ هذه الأسئلة؟

- لأنني أريد أن أتعرف عليك أنتِ وليس على الدين . يمكنني إيجاد أيّ شيء أريده على الإنترنت، ولكن أن نتعامل مع كلماتٍ وحقائقٍ شيء، وأن نرى كيف أثّرت هذه الكلمات في وجدان وفكر شخص ذكيّ وطموحٍ مثلك شيءٍ آخر . اعذريني إن كنت أزعجتك يا أمل . أنا أنحدر من أقليةٍ شيعيّةٍ في ضيعةٍ في البترون، ولكنني لادينيّ . لهذا أتحدّث بحريّةٍ كاملة عن الأديان وأنقدّها . أتمنّى أن تفهمي هذا .

لم أكن قد تعرّفت إلى شخصٍ لادينيّ من قبل، ولم أسأل

محمود شيئاً عمّا قصده بكونه لادينيّ. ولكنني شعرت بالارتياح حين توقّف عن استجوابي. ثم وقف ووضع يديه في جيبه، وشكرني على وقتي وهمّ بالمغادرة، ولكنه توقّف بعد خطوتين، واستدار ناحيتي:

- ممكن سؤال أخير يا أمل؟

- تفضّل.

- متى باستطاعتك الاطلاع على كتاب الحكمة؟

- حين أطلب ديني من الشيخ وأصبح شيخه.

- هذا يعني أنّه مطلوبٌ منك أن تنتسبي إلى دينٍ لن تعرفي

عنه شيئاً قبل أن تصبحي ملتزمةً به؟

- صحّ.

- هل تقبلين لو أنّ جمعيّة أو مؤسّسة أو أيّ نقابة طلبت منك

الانتساب إليها من غير أن تعرفي كافّة بنودها ومبادئها وعلى ماذا تنصّ؟

- ظننتك ستسأل سؤالاً واحداً! وهذا الثالث، أجبتّه مبتسمة.

- ذكيّة يا أمل. عرفت كيف تهربين بدهاء.

غادر محمود أخيراً، وشعرت بعد أن غاب عن عينيّ أنّه أحدث فوضى في داخلي لم أكن مستعدّة للتعامل معها في تلك الفترة من حياتي، وأنّه عليّ أن أعيد ترتيبها في أقرب وقت، أو أن أكنسها وأخفيها تحت سجادة الإيمان الأعمى خوفاً من تسرّب نمل الشكّ إلى رأسي.

لا أعرف لماذا وافقت على مرافقة محمود للكافتيريا عدّة مرّاتٍ بعد ذلك. لقد كان وجوده وأسئلته يشعرايني بالتوتر، وكأنيّ في مقابلة عملٍ وإن أخفقت في الإجابات سيتمّ رفضي. ربّما أحببت استفزازه لي الذي يوقظ المُدافع في داخلي، يوقظ شخصًا يذود عن أشياء لا أعرف متى تبنّيتها وفي أيّ وقتٍ نسبتها إلى نفسي. يوقظ شخصًا فيّ لم أكن أعرف أنّه موجود، لأنّه لم يسبق لأحدٍ أن عارضه وشكّك في رؤيته للعالم.

ولكنّ بعد لقاءاتٍ عدّة، أصبح محمود يطلب منّي مرافقته إلى أماكن بعيدةٍ مثل فاريّا وجبيل. قال لي يومًا:

– أشعر أنّنا تلاميذ مدرسةٍ في هذا الحرم. لماذا لا تأتين معي لتتناول بعض المشروبات والسّمك المشوي في شاليه استأجرته في جونه؟ لماذا لا نتصرّف كالكبار؟

فهمت برغم سذاجتي أنّ محمود يريد المزيد من هذه «الصدّاقة»، وأنّ اعترافي له بأنني متزوّجة لم يشكّل فارقًا كبيرًا فيما يريده منّي. ولكنّ في عالمي المصمّم من المعادلات الضيّقة وشعوري الدائم بعدم استحقاق أيّ شيءٍ جيّد، لم يكن للرومنسيّة والحبّ أيّ مكان. كما أنّي كنت أشعر أنّ محمود هو الآخر. تمامًا كما كنت أشعر حيال أبي. هو الشخص الذي أريد أن أحافظ على اتّزاني أمامه، وهو الشخص الذي أتنفّس الصعداء حين يغادر. كلّ هذا جعلني أستنتج بفطرتي التي لم تشوّهها التجربة بعد، أنّ شعورنا في وجود من نحبّ لا يمكن أن يكون كذلك. وأنّ قبولي لتناول القهوة مع محمود عدّة مرّاتٍ في كافيتريا الجامعة كان مصدره شعوري بالدونيّة، وظنًا منّي أنّ رفقة

هذا الشخص ذي المنصب الرفيع قد تجعل منِّي شخصًا مقبولًا من قبل الجميع، ومنخرطًا بشكلٍ صحِّيٍّ وكاملٍ في هذه المؤسَّسة الكبيرة. ولكن في الواقع، لم يكن هناك أحد يرفضني أو منشغلٌ بي، ولا كان أحدٌ يعرف أيَّ شيءٍ عن شعوري الداخلي بأنني لا أستحق أن أكون هنا. وهكذا، خضت حربًا نفسيَّةً داخليةً كنت أنا طرفيها وكان الخوف هو السلاح المتبادل، وكان محمود متراسًا يحميني من تلك الأفكار السوداء التي أحملها. كان لا بدَّ أن أواجه نفسي بسذاجتي، وأن أتخلَّى عن صداقة محمود وأكتفي بهزُّ رأسي كتحيَّة صامتةٍ بين غريبيْن حين أمرُ بمحاذاته.

أَقْفَالٌ مَّعْلَقَةٌ عَلَى حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ

اقترابي من انتهاء السنة الجامعيَّة الأولى وأُملي في أن أصبح طالبةً في السنة الجامعيَّة الثانية، أو «سوفومور» - كما يقولها زملائي بلكنتهم الأُميريَّة، أَدخَلَ شيئًا من الفرح البعيد إلى قلبي.

كان السائق فؤاد ينتظرني بنظَّارته السميكة وسيَّارته «الكيا» الحمراء الصغيرة التي تُشبه حَبَّةَ الفراولة في شارع «بليس»، عندما خرجت. ركبت السيَّارة وألقيت التحيَّة على زوجته نور التي تضع ابنها في حضنها. فؤاد هو السائق الذي عيَّنه سالم كي يوصلني إلى الجامعة ويُعيدني إلى البيت، ومرافقة نور له هو الشرط الذي وضعه سالم كي يستلم هذه الوظيفة. ومرافقة الطفل ذي الأعوام الثلاثة لأُمِّه في كلِّ مشوارٍ هو شرط الأمومة. وهكذا، جمعتنا هذه المعادلة وتعوَّدنا على رفقة بعضنا. لاحظت نور أنَّي أُميل إلى الصمت، وأُجيب بكلماتٍ مقتضبةٍ على كلِّ شيء، فكانت تنهر فؤاد في كلِّ مرَّةٍ يُحدِّثني فقط ليتسلَّى أو «ليقوم بواجبه في

تسلّيتي». فيأتي صوت نور التي يبدو على مظهرها أنّها تركت مطبخها للتوّ:

- تركها يا زلمي. تلاميذ هي الجامعة أذكيا بيضلّهم يفكّرو. مش متلنا.

أمّا الطفل، فقد كان يستدير في حضن أمّه بحيث يصبح وجهه مواجهاً لي ويراقبني طول الطريق. فيضحك خجلاً حين تلتقي أعيننا، وأحياناً كان أنفه يسيل فتمدّ أمّه يدها وتمسحه وكأنّها ترى أين أنفه وتحفظ كلّ تفاصيل وجهه. وحين يبكي كانت تُخرج من حقيبتها بسكويت أو تفّاحة أو لعبة، فيصمت فوراً. كنت أراقبهما وأفكّر في صعوبة الأمومة. وما أجمل نور التي تركت ابنتيها في البيت والأعمال المنزليّة المتراكمة لترافق زوجها، لأنّ وجودها أصبح جزءاً من عمله وكسب رزقه. ثم فكّرت بنفسي. لو أنّ الله رزقني طفلاً هل كنت سأصبح مثلها؟ هل يأتي الأطفال بالرضى إلى حيواتنا الفارغة؟ أم أنّ وجودهم يروّضنا فنتخلّى عن أحلامنا التي تُشبه غاباتٍ بممراتٍ مليئةٍ بالشوك والعشب الكثيف، ونرضى بالشتول وأحواض الزرع المرتبة على شرفاتنا؟

وجدت نفسي خائفةً من فكرة الأطفال أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ومعترفةً بعظمة الأمومة التي تطلب منّا أن نتكرّس بكلّيتنا لحيواتٍ أخرى نحن من صنعها. ثم وجدت نفسي أكسر الصمت الذي كان عمره حوالى ثلاثين دقيقةً بجملّة:

- الله يخلّي ولادك يا نور، ويشوفو أيّام حلوة.

فالتفتت لي نور بنصف جسدها، وضحكت حتى بانت كل أسنانها وكأني أخبرتها خبراً رائعاً، ثم بدأت بالدعاء لي ولسالم بأن يرزقنا الله طفلاً :

- الله ما يحرمكم من هالشعور يا حبيتي. رح ضويلكم شمعة ليلة الجمعة بالمقام وأدعيلكم.

ابتسمت لها ولم أكلف نفسي بالنقاش والشرح، لأنها لن تفهم أبداً من أين أتت جملتي، ولن أفهم أبداً هذا الفرح والرضى اللذين وهبتها إياهما الأمومة. كيف لها أن تعرف أنني لا أحسدها، بل أشعر بالاختناق إن تخيلت نفسي مكانها للحظة. كانت هذه العادة قد بدأت معي منذ مدة، وفي كل مرة أرى فيها امرأة حبلى أتخيل نفسي مكانها، وأشعر بثقل بطنها يشدها من خصرها إلى الأرض؛ فأصاب بالذعر وأشيح بنظري عنها. وفي كل مرة أرى امرأة مشغلة بأطفالها أصاب بالحالة نفسها من الهلع المجبولة بالتعاطف. كنت واعيةً بهذه التصورات وبوجودي في مكانٍ يجعلني دائماً أشعر أنني أنانية، ولا أرضى بما ترضى به النساء من حولي.

كانت نهاية الموسم الدراسي الثاني صعبة. تراكمت فيها المشاريع النهائية، وكان كل ما يشغلني هو أن أحصل على معدلاتٍ عالية، حتى أحافظ على مقعدي بالجامعة الأميركية وحتى أحصل على منحةٍ كاملة في العام القادم. ولكنني في هذا الشهر الأخير، شعرت بالتعب وقد غلبني النعاس أكثر من مرة في المحاضرة؛ ووجه لي المحاضر ملاحظة أثناء إحدى حصص سيكولوجيا التعليم، فاعتذرت له وحاولت أن أبقى رأسي مرفوعاً

فيما بقي من الحصّة. وفي طريقي إلى المنزل، استغرقت في نوم عميق في السيّارة مع فؤاد ونور، وتركت ابنيهما يُحدّق في وجهي وأنا نائمة.

قرّرت أن أطيل السهرة كي أنجز بعض الدروس المتراكمة، فشربت المتّة حتى تساعدني على التركيز لما فيها من كافيين، ولكنني لم أتمكن من إبقاء عينيّ مفتوحتين فنمت باكراً. وفي الصباح، حين استيقظت في السادسة على صوت المنبه، كان رأسي ثقيلاً وكأني لم أنم ولو دقيقة. طلبت من سالم أن يبلغ فؤاد أنني لن أذهب إلى الجامعة. قلقت من هذا التغيّر الذي طرأ على صحّتي، والذي بدأ يؤثر على روتيني اليوميّ الذي يقضي أن أستيقظ في السادسة صباحاً وأترك المنزل عند السادسة والنصف، لأعود حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر حيث تنتظرني بعض الواجبات المنزليّة والكثير من الدراسة والمراجعة. ولكنّ الآن أشعر أنّ رأسي يخونني، وأنّي لا أستطيع التركيز، وكلّ ما أريده هو أن أنام ليتوقّف وجع رأسي.

اقترح سالم أن نزور مختبراً في بلدة، «بعقلين» ونقوم ببعض التحاليل. «أظنّ أنّ لديك نقصاً في الحديد»، قال ليطمئنني. ولكنّ في رأسي كانت هناك احتمالات أخرى ذات أنيابٍ مسنّنة. ففكّرت بورم في الدماغ ورحت أتخيّله ملتقاً حول تعاريج دماغي يتغذّى على خلاياه. وشرعت أتخيّل كيف سيواجهني الطبيب بهذه الحقيقة، وكيف سأهوّن الأمر عليه لأنني حقّاً لا أكثرث وأعلم بمرضي مسبقاً. وعندما استفتقت من تخيّلاتي، أدركت كم هو مرعبٌ ألا أقاوم تلك الاحتمالات على الإطلاق، وكأنّ شيئاً ما

بداخلي كان موافقًا على الورم ويرحّب به . شعرت أنّ حياتي بكلّ ما يمكن أن تجلبه ، ستبقى ضئيلةً ، وبأنّي لن أكون يومًا سعيدة .

صرت أقدر صباحات القرية أكثر من السابق منذ صارت الشمس تُشرق وتغيب وأنا في بيروت . ربّما تلزمنّا هذه المسافة عن كلّ ما هو جميلٌ حتى نستطيع أن ندرك جماله ! فكّرت وأنا أحمل القهوة لأشربها على الشرفة المطلّة على الجبال . وفي طريقي إلى الخارج ، أخذت هاتفي وقرّرت أن أتّصل بالمختبر لمعرفة نتائج التحاليل .

مرّة أخرى ، تسخر الحياة منّي . المخاوف التي قلقت بشأنها لم تصبح واقعًا ، والحوارات التي أجريتها في رأسي مع الطبيب الذي سيُخبرني بمرضي لن تتحوّل إلى كلماتٍ مسموعة ، والأمومة التي أغلقت أبوابها ونوافذها بالشمع الأحمر ، وسخّرت كلّ مهاراتي التحليليّة لأستنتج أنّها لا تناسبني ، عادت لتفرض نفسها عليّ وتصبح أمرًا واقعًا .

- مبروك أنتِ حامل ، جاء صوت عامل المختبر عبر الهاتف .
- أرجو التحقق من الاسم يا أستاذ . أنا لست حاملًا . هذا غير معقول .

- أنتِ أمل بو نمر صحّ؟

- نعم .

- وحضرتكِ متزوجة صحّ؟

- نعم .

- أين المستحيل؟ أنا عملت بنفسي على تحاليلك ، وأؤكّد

لكِ أنكِ حامل. بإمكانك إحضار الفحص المنزلي للتأكد.
شكرته بصوتٍ مخنوقٍ وأقفلت السماعة، ثم جلست على
أقرب كرسي لي.

راحت كلماته تتردد في رأسي «مبروك أنتِ حامل». حامل
بعد أن أحرقت جميع الجسور مع الأمومة! حامل بعد أن قرّرت
أنّ الأطفال حيلة ذكيّة لتنسى الأمّهات من كُنَّ قبل أن يصبحن
أمّهات.. النساء بعد الأمومة يصبحن أمّهات فقط، والرجال بعد
الأبوة يبقون رجالاً. يخيفني أن أصبح أمّاً ولا أعود امرأة ولا
أعود طالبة، وأن أتخلّى عن أحلامي كلّها فيما أراقب بطني
ينتفخ. لقد شعرت بالهلع يتسرّب إلى رأسي وصدري، وأصبحت
أنفاسي قصيرة ومتسارعة، ولكنّ صوتاً ما في داخلي كان يقول
«هذه غلطة في التحاليل، ستضحكين على كلّ هذا بعد قليل».
فنهضت مسرعةً ولبست أوّل ما وقعت عليه يدي، وتوجّهت إلى
أقرب صيدليّة لأشتري فحص حملٍ منزليّ.

طلبت الفحص وأنا أتمتم بصوتٍ منخفضٍ، وكأني فتاة
أقامت علاقةً غير شرعيّة مع حبيبها، فمدّني الصيدلانيّة به
وأخبرتني كيف أستخدمه. قطعت المسافة إلى البيت بسرعة كبيرة،
ودخلت إلى الحمّام وأقفلت الباب ورائي. كان عليّ أن أنتظر من
ثلاث إلى خمس دقائق لتظهر النتيجة بعد أن وضعت بضع قطرات
من البول في ثقب صغيرٍ على تلك القطعة البلاستيكيّة البيضاء.
رحت أردّد في رأسي كلام الصيدلانيّة كي لا أنساه:

«خطّين أنت حامل خطّ واحد لستِ حاملاً، خطّين أنت
حامل خطّ واحد لستِ حاملاً...».

كنت في نصف الجملة حين ظهر خطّان أحمران محدّدان وواضحان. أغلقت مقعد المرحاض وجلست فوقه لفترة طويلة. ربّما جلست هناك، لأنّني كنت أعلم أنّ العالم الذي تركته قبل دخولي إلى الحمّام لن يكون هو نفسه بعد خروجي من هنا! أنا الآن أمّ، وهذا سيُعيد جسدي إلى دوّامة التحكّم التي ابتلعتني أكثر من مرّة في السابق. حاولت التحكّم في أنفاسي المتسارعة، ورحت أخطّط كيف سأخبر سالم وأحضّر له خطابًا جديدًا في حال منعني من استكمال تعليمي.

فكّرت بعدها بسالم وحده بمعزلٍ عن أحلامي ومخاوفي والهوّة التي تشكّلت بيني وبين الأمومة. فكّرت في دموعه يوم بكى، لأنّه لن يصبح أبًا فشعرت برغبةٍ في إخباره.

- ألو، سالم عليّ أن أخبرك بشيء.

- طبعًا. سأتي إلى المنزل في المساء ونتكلّم. جاء صوته ممزوجًا بصوت العمّال والمعدّات في المستودع.

- أنا حامل.

صمتٌ طويلٌ من جهة سالم.

- ألو سالم، ما زلت معي؟

- نعم. هل أنت متأكّدة؟

- نعم.

- سأتي إلى المنزل فورًا.

حضر سالم إلى المنزل في أقلّ من ساعة. كان فرحًا كما لم أراه من قبل.

- ارتدي ملابسك، سنذهب لنُخبر أُمِّي وأُمَّكَ.

- ألا يمكننا إخبارهما عبر الهاتف؟

- لا لا، الفرحة كبيرة يجب أن أكون هناك.

كانت حماتي تربط رأسها بقطعة قماشٍ وتعجن الكَبَّةَ بيديها حين وصلنا.

- «أمل عندنا!! شو حنَّ قلبك علينا؟!»، قالت وكأنَّها لم تتوقَّع مجيئي.

- أُمِّي عندي خبريَّة حلوة، قال سالم وهو يقف على يمينها.

- خير بَشْرني.

- أمل حامل.

نظرت إليه وكأنَّها تحاول التأكد من كلامه، ثم رفعت يديها من وعاء الكَبَّة وأخذت تضرب على رأسها غير مصدِّقة «يا مولاي العقل، يا مولاي العقل»، وأخذت تكرِّر هذه العبارة حتى هدأت وباركت لنا. راقبت ردَّ فعلها وكأنَّني ساعي بريد أحضر برقيَّةً ووقف هناك يراقب متلقِّيها بحيادٍ غريب. راقبت الجميع: سالم وفرح عينيَّ، أُمّه ورقصتها المضحكة، أُمِّي ودموعها التي طفحت إلى عينيها حين أخبرناها. ولكن أنا الأمّ، لم يكن هناك شيء يحدث في داخلي.

في اليوم التالي، وخلال زيارة أُمّه لنا، قال سالم إنَّه لم يقطع الأمل يومًا من الإنجاب. واعترف أنَّه كان ينتظر في قرارة نفسه هذا اليوم، وأنَّه قد قطع عهدًا على نفسه بأن يزور كلَّ مقامٍ يعرفه حين يرزقه الله بمولوده الأوَّل.

- انتظر حتى يصل المولود، قالت أمّه التي رُزقت بستّة أطفالٍ من دون أيّ مجهود.

- سندهب مرّةً ثانيةً حين يأتي المولود ونأخذه معنا.
تدخّلت أنا، وقلت:

- لا أستطيع أن أذهب إلى أيّ مكانٍ قبل نهاية الموسم الدراسي. لديّ الكثير من الدروس والمشاريع التي يتوجّب عليّ إنهاؤها.

تبادل سالم وأمّه النظرات، ولم يقولوا شيئاً.

أصبح سالم أكثر تشدّداً بخصوص مشاويري وتنقّلاتي خوفاً منه على سلامة الجنين. فأصبح يُوصلني للجامعة ويُعيدني للمنزل بنفسه. أنهيت الامتحانات وأكملت الفصل الدراسي الثاني بنجاح، من غير أن يلاحظ أحدهم أنّني حامل. كان عليّ بعدها أن أرافق سالم وأمّي وفي بعض الأحيان أمّه في الجولة على المقامات الدرزيّة المعروفة؛ كما زرنا مقاماتٍ غير معروفة، لأنّ سالم قال إنّّه سيزور كلّ مقام عرفه. وعند القيام بوفاء النذر، على الإنسان أن يكون دقيقاً بكلامه.

بدأت رحلة النذور من مقام «الستّ شعوانة» الذي يطلّ على سهل البقاع وجبل الشيخ. طلبنا من أمّي وأبي مرافقتنا، إذ لم تتسنّ لهما فرصة زيارة المقام من قبل لأنّه بعيدٌ عن ضيعتنا. لم أكن قد زرت هذا المقام من قبل أيضاً، لكنّ أبي أخبرني قصّة المرأة الملقّبة بالستّ شعوانة التي كان والدها ملكاً من بني إسرائيل يُسمّى «الحزوري». قرّر هذا الملك أن يسلك طريق التعبّد ويتخلّى عن عرشه وممتلكاته، ولكنّ ابنته رجته أن يأخذها معه ويسمح لها

بالتعبُّد في الكهوف مثله. وبعد أن أخبرها أنَّ هذا الأمر لا يجوز
 لأنها فتاةٌ وجميع العباد رجال، قرَّرت أن تتنكر بزيِّ رجلٍ وتذهب
 معه. عاشت الستُّ شعوانة في الجبال مع العباد بزيِّ رجلٍ،
 وخدمتهم وتعبَّدت معهم في الليل والنهار. وعندما مات والدها،
 استمرَّت في العبادة والعمل. فكانت تذهب إلى السوق لتبيع
 منتوجات العباد. وتقول القصَّة إنَّ ابنة الملك أُعجبت بها ظناً منها
 أنَّها شابٌّ وسيمٌ، وحين تمنَّعت الستُّ شعوانة عن مجاراتها،
 اتَّهمتها بأنَّها تحرَّشت بها وحاولت التعديَّ عليها. لم تُفصح الستُّ
 شعوانة عن هويَّتها حتى تبرَّئ نفسها من التهمة التي ألصقت بها.
 بل صمتت وتمَّ نفيها إلى البقاع، حيث جلست هناك تتعبَّد لساعاتٍ
 وأيام، حيث تحطَّ عليها الطيور ظناً أنَّها جماد. أمضت عمرها
 هناك بين أشجار الصنوبر تناجي ربَّها وتعبده دون أيَّة رغبة في
 الحديث عن أيِّ شيء أو تبرير أيِّ شيء. وعندما لحق بها العباد،
 كان المرض قد داهمها وأسلمها لفراش الموت، فأوصتهم أن
 يشقُّوا ثوبها من أعلى قبل غسلها وتكفينها. وعندما توفَّيت نفَّذ أحد
 العباد وصيَّتها وشقَّ ثوبها من أعلى، فعرف فوراً أنَّها امرأة ودعا
 النساء لغسلها والصلاة على جثمانها. ذاع صيتها منذ ذلك الحين
 وترحَّم عليها البشر، وأقاموا لها مقاماً جانب غابة الصنوبر والنبع،
 وأصبح هذا المقام مزاراً للموحِّدين الدروز.

أخذنا الطريق الخاصَّ الذي يتفرَّع من الخطِّ السريع،
 وراحت السيَّارة تتسلَّق بنا حتى وصلنا إلى ساحةٍ كبيرة يطلُّ عليها
 المقام بقبَّته البيضاء، والكثير من الأشجار الكثيفة. وضعت منديلاً
 على رأسي كما تتطلَّب التقاليد، ودخلنا جميعاً إلى المقام. لم

يكن هذا المكان مختلفاً عن المقامات الأخرى التي زرتها. توزّعنا على الإسفنجات المحيطة بالضريح والمخصّصة للزوّار حتى يجلسوا ويتأمّلوا في صمت. راقبت الجميع في خشوعهم فرأيت أبي يتمتم ويقرأ، وأمّي تُحدّق بعينيهما الراضيتين إلى السجّادة المزركشة، وسالم يغمض عينيه. فكّرت بمشاعرهم وأفكارهم لأنني كنت خالية من المشاعر. كنّا جميعاً هناك من أجل طفلٍ في رَحْمي، لم أكن أشعر بوجوده ولم ينتفخ بطني لأصدّق بوجوده بعد. أظنني كنت في حالةٍ من النكران أو عدم التصديق التي تُشبه الطفو على الظهر لشخصٍ يعلم أنّه لا يُجيد السباحة، وأنّه سيغرق في اللحظة التي يعي بها هذا الأمر. أشعرتني هذه الأفكار بالضيق، وكذلك عدم قدرتي على الخشوع والصلاة، فخرجت إلى الباحة الكبيرة وتركتهم في الداخل.

بعدها، اخترنا شجرةً كبيرةً وأحضرنا عدّة الممتّة والفواكه وجلسنا في ظلّها ننعم بالهواء النقيّ. كنت أحبّ هذا المزيج بين زيارة المقامات والتنزّه عند الدروز. كلّ مقامات الدروز لها أماكن مخصّصة للنزهات والجلسات العائليّة في ظلّ أشجارٍ كثيفة. تعتبر هذه المقامات المتنفس الوحيد للمشايخ الدروز، إذ إنّ الدين يحرمّ عليهم الخروج إلى المطاعم أو المتنزهات العامّة، ويفضّل ألاّ يظهروا بزيّهم في الأماكن العامّة إلّا عند الضرورة.

في طريق العودة، كنت متعبة. ولكنّنا مررنا على مقام مولانا بهاء الدين المعروف بمقام الشريف، والذي يقع في بلدة شارون. اللفت في هذا المقام إلى جانب قناطره الكثيرة وباحته الفسيحة أنّه سيّد تخليداً لذكرى مرور مولانا بهاء الدين من هناك وهو في

طريقه إلى الشام. ما زلت أذكر كم شعرت بالخيبة عندما عرفت هذه الحقيقة.

- أمضينا طفولتنا نقبل حجر ضريح فارغ؟ قلت لأُمِّي مستنكرة.

- الإنسان يحاسب على نيّته. حتى لو قبلت حجراً في الغابة ظناً منك أنّ «نفس منيحة» استراحت فوق هذا الحجر.

- ولكن يا أُمِّي ألا نستطيع أن نفعل نيّتنا الحسنة ونحن في بيوتنا من غير أن نقطع هذه المسافات لنقبل أضرحة فارغة؟

- إسمعي... إن كنت تفكرين بهذه الطريقة، فمن الأفضل ألا تأتي إلى المقامات بعد الآن. المقامات وجدت لتعطي شعوراً بالقرب من الله للمؤمنين بها. إن كان قدومك إلى هنا سيبعدك عن الله، فمن الأفضل أن تبقي قريبة منه في المنزل أو في أيّ مكان يشرح قلبك.

أقنعني كلام أُمِّي، وقررت أنني سأذهب إلى المقامات فقط من أجل النزهة مع عائلتي، وألا أقبل أيّ حجر بعد اليوم حتى عند تقديري للشخص المخلّد كـ الستّ شعوانة التي أعجبت بقصّتها وإصرارها. وعرفت طبعاً أنني يجب أن أحتفظ بهذه الأفكار لنفسى حتى لا ينفر والدي مني، وحتى لا أخرب على سالم إيمانه.

بدأت أشعر بالفراغ مجددًا بعد انتهاء الموسم الدراسي وبداية العطلة الصيفية. ولكنَّ هذا الفراغ لم يمنعني من الانسحاب من محيطي مجددًا لتمضية معظم الوقت في المنزل وحدي. كان هناك الكثير من الأمور التي عليَّ أن أفهمها، والمشاعر المتضاربة التي يجب أن أعرف ماهيتها وأعالجها. نمت تحت المكيف لأكثر من ثماني ساعات في اليوم مع الستائر المنسدلة والسكون التام، أفكر في مستقبلي وفي هذا المولود الذي اختار أن يظهر في حياتي من غير مساعدة الطبِّ، وكأنَّه يحاول أن يقول لي شيئًا. وضعت يدي على بطني الذي ما زال مسطَّحًا.

ماذا تريد أن تقول لي؟ لِمَ اخترتني أنا؟ هل صحيحُ أنَّ الأطفال يختارون أمَّهاتهم؟ إن كانت هذه حقيقةً فهذا سيجعل الأمر أسهل، لأنَّني سأكون خيارك غير الموفَّق، وهذا سيقبَّل من شعوري بالذنب. كم ترعبني فكرة أن لا ذنب لك بكلِّ هذا،

وأنتني عن غير قصدٍ أتيت بك إلى عالمي القاتم! أعتذر لأنني لا أشعر بالفرح حيال قدومك، وكم أتمنّى أن أرمّم ما تهالك من وجداني حتى أحبك كما تستحقّ!

حاول سالم إقناعي بالخروج من المنزل عن طريق إغرائني بالتسوُّق لي وللطفل، أو بزيارة أهلي وأخواتي، ولكنني رفضت وبقيت مستلقيةً بالوضعية نفسها تحت المكيف. ثم جلس إلى جانبي في الغرفة الباردة المظلمة، وقال بصوتٍ يتخلّله الكثير من الحزن:

- أعدك أن أكون زوجًا وأبًا جيّدًا. أرجوك يا أمل، حاولي أن تخرجي نفسك من هذه الحالة. الحياة قد ابتسمت لنا لتوها. وحين أنظر إليك أشعر أنك قد دفنتِ أحدًا تحبّينه للتو!

استدرت صوب الحائط من غير أن أردّ، وشعرت باختناقٍ في حلقي وصدري. انتظر بضع دقائق ثم سمعته يغلق باب البيت خلفه وهو مغادرٌ إلى عمله.

اجترعت الشعور بالذنب حتى أثملت روحي به وجلدت نفسي وأنبتها. ثم قمت بالبحث عن الحالة التي أعاني منها على الإنترنت، فطبعت هذه الكلمات وأنا أشعر بالقرص من نفسي: «أمّهات لا تحبّ أطفالها مرض نفسي». أخذتني نتائج البحث إلى مواضيع أخرى ذات صلة، مثل اكتئاب ما بعد الولادة واكتئاب شهور الحمل الأولى.. وغيرها. وقد أعزى العلم هذه العوارض إلى تغيّر في الهرمونات النسائية التي تؤثر على صحّة المرأة النفسية بشكل مباشر. أعجبتني هذه الإجابات العلميّة، ولكنّ شيئًا ما بداخلي رفض التبرير وأبقى على الشعور بالذنب.

في الشهر الرابع، نمت على سرير المعاينة في عيادة الطّبّ

النسائي، وأخبرني الطبيب أنه سيصوّر الطفل ويخبرنا عن جنسه إذا ما كنّا نرغب بذلك قبل الولادة. أبدى سالم رغبته في معرفة جنس الطفل «طبعًا ما الغاية في الانتظار!». بعدها وضع الطبيب مادةً لزجةً شفافة على بطني فشعرت بالبرودة، وأخذ يمرّر رأس مكنة «الإيكو» فوق بطني وينظر إلى الشاشة الموجودة على الحائط عن شماله. ثم أشار بإصبعه إلى الجنين «أرأيت الرأس هنا؟ أنظري إلى اليدين المرفوعتين على جانبي الرأس!» حاولت جاهدة أن أرى ما يتكلّم عنه، ولكنّ غياب الألوان وكثرة النقاط الرمادية والسوداء جعلت الأمر صعبًا. قال بعدها فجأةً:

– مبروك سترزقان بطفلة!

أعجبني الخبر. كان هناك دائمًا شيءٌ ما في داخلي يميل للأطفال البنات وهدوئهنّ. قام سالم بطلاء غرفة النوم الثانية باللون البنفسجيّ الفاتح، وساعدته في اختيار ستائر تناسب غرف الأطفال. واشترت أمّه جهاز طفلٍ كامل لم أفهم كيفيّة استخدام الكثير من قطعه. غسلت ملابس الطفلة بحسب تعليمات حماتي بمسحوقٍ مخصّصٍ للأطفال، وربّبتها، بينما تتملّكني مشاعر غير مفهومة. لم أستطع إقامة علاقةٍ بين قطع الثياب الصغيرة التي أوَضّبتها والطفلة التي في بطني. كنت في رأسي أوَضّب ثياب طفلٍ سيصل إلينا من مكانٍ بعيدٍ، وليس من داخل جسدي.

تساءلت عمّا إذا كانت النساء اللواتي يتزوّجن بعد قصّة حبّ يشعرن بما أشعر! فكّرت كيف يكون شعور امرأةٍ حملت من رجلٍ مفتونة به وتحبّه. لم أفلح يومًا في خداع نفسي. لقد رأيت الأمور على حقيقتها منذ صغري. كانت صديقاتي يكذبن بشأن الهدايا التي يجلبها آباؤهنّ لأُمَّهاتهنّ والأماكن التي يزرنها، وكنت أعرف

أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَظْهَرِ حَبًّا لَأُمِّي، وَأَنَا جَمِيعًا نَعِيشُ حَيَاتٍ مُتَشَابِهَةً إِلَى حَدِّ التَّطَابُقِ. وَلَكِنِّي كُنْتُ أَصَمْتُ. لَمْ أَبَالِغْ كَذَلِكَ فِي تَقْدِيرِ شَكْلِي أَوْ قُدْرَاتِي، بَلْ كُنْتُ أَرَى كُلَّ شَيْءٍ فِيَّ أَقَلَّ مِمَّا هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ، حَتَّى أَبْقَى نَفْسِي مُتَّصِلَةً بِالْوَاقِعِ. الْوَاقِعُ الَّذِي لَمْ أُنْتَظَرِ مِنْهُ الْكَثِيرَ يَوْمًا. لَقَدْ امْتَدَّتْ هَذِهِ الصَّرَاحَةُ مَعَ نَفْسِي كَخَيْطٍ مِنَ الزَّيْتِ الْمَرَّاقِ إِلَى عِلَاقَتِي بِسَالِمٍ. كُنْتُ فِي قَلْبِي أَعْلَمُ أَنَّي تَزَوَّجْتُ سَالِمَ مِنْ أَجْلِ غَايَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَهُوَ وَافِقٌ عَلَى تِلْكَ الصَّفَقَةِ. ثُمَّ حَاوَلْتُ بَعْدَهَا أَنْ أَصْبِغَ هَذَا الْإِتِّفَاقَ بِشَيْءٍ مِنَ الرُّومَانِسِيَّةِ وَالنَّكْرَانِ، وَلَكِنَّ طَبِيعَتِي الْمَخْتَلِفَةَ تَمَامًا عَنْ طَبِيعَتِهِ كَانَتْ دَائِمًا كَفِيلَةً بِغَسْلِ الصَّبْغَةِ وَإِعَادَتِي إِلَى صَدْقِي مَعَ نَفْسِي.

لَقَدْ اخْتَبَرْتُ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ نَوْعًا جَدِيدًا مِنَ الْأَلَمِ. وَقَدْ سَاعَدَنِي هَذَا الْأَلَمُ فِي الْغُوصِ إِلَى عَوَالِمٍ فِي دَاخِلِي لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ بِوُجُودِهَا. سَاعَدَنِي فِي أَنْ أَرَى غَيْرِي بَعَيْنَ التَّعَاطُفِ وَالرَّحْمَةِ. الْأَلَمُ الَّذِي لَحِقَ بِجَسَدِي وَرُوحِي مِنْ مَحَاوَلَاتِ التَّلْقِيحِ أَقَامَ جِدَارًا بَيْنِي وَبَيْنَ سَالِمٍ كَزَوْجَيْنِ. شَعَرْتُ أَنَّهُ خَذَلَنِي فِي أَوْجَعِ لَحَظَاتِ عَمْرِي، وَتَخَلَّى عَنِّي مِنْ أَجْلِ طِفْلِ لَمْ يَلْتَقِهِ. وَلَكِنْ رَغْمَ هَذَا، كُنْتُ أَرَاهُ بَعَيْنَ التَّعَاطُفِ لَا بَعَيْنَ الْحُبِّ. كُنْتُ أَنْصَفُهُ كَزَوْجَةٍ مِنْ بَابِ الْوَاجِبِ لَيْسَ مِنْ بَابِ الشَّغْفِ. وَهَذِهِ الطِّفْلَةُ الَّتِي أَوْدَّ بِكُلِّ كِيَانِي أَنْ أَكُونَ مُنْصَفَةً بِحَقِّهَا، سَتَرَبَطُنِي بِالرَّجُلِ الَّذِي لَا أَحَبُّ إِلَى الْأَبَدِ. وَعِيِي بِهَذَا كُلَّهُ جَعَلَ نَظْرَتِي لِنَفْسِي تَزْدَادُ سُوءًا، لِأَنَّي لَا أَحَبُّ زَوْجِي وَلَا أَشْعُرُ بِرَابِطٍ بَيْنِي وَبَيْنَ الطِّفْلِ الَّذِي سَيَأْتِي، وَلِأَنَّي مَا زِلْتُ أَسَاوِمُ عَلَى مَشَاعِرِي وَجَسَدِي، وَلِأَنَّي لَنْ أَكُونَ يَوْمًا حَقِيقَةً.

لم تتبقَّ سوى أسابيع قليلة على بداية الموسم الدراسي من السنة الجامعيّة الثانية. بعد أن قمت بالحسابات، تبيّن لي أنّني لن أضع المولود قبل الشهر الأوّل من السنة الجديدة. والفصل الدراسيّ ينتهي في الثاني والعشرين من كانون الأوّل. قرّرت أنّني لن أفوّت الفصل، لأنّه ليس هناك من جدوى في بقائي في المنزل سوى التفكير المتواصل على مدار الساعة، الذي سيودي بي إلى الانقراض على نفسي في نهاية المطاف.

حين فاتحت سالم بالأمر، حاول أن يقنعني بضرورة الراحة الجسديّة للمرأة الحامل. ولكنّي أوضحت له أنّ البقاء في المنزل سيقودني إلى الجنون، وهذا ليس من مصلحة أحد. وافق بعد الكثير من النقاش والأخذ والردّ، ثم ذكّرني بأنّ زيارتنا للمقامات لم تنتهِ بعد، وأنّه من الضروريّ أن نزور مقامًا أخيرًا قبل بداية الفصل، فوافقت على مضض.

أخذنا طريقاً جبلياً متعرّجاً جديداً إلى مقام جديد ليوفي سالم بقيّة نذره قبل أن تولد الطفلة. أصابتنى الالتفاتات الجبليّة وحركة السيّارة بالتوعّك. وضعت رأسي على مسند المقعد، ورحت أراقب أمّي في مرآة السيّارة. لا يبدو من وجهها إلّا عينيّها الهادئتين. أمّي سعيدة بكلّ هذا الاحتفاء بمولودي الأوّل. تعتقد أنّ هذا الأمر يُظهر قيمتي في نظر زوجي وأهله. كانت أمّي، وقبل اقتراب موعد ولادتها، تساعد والدي في تأمين مال القابلة أو المستشفى، عن طريق بيع أعمال الإبرة والمنتجات البلديّة التي تصنعها من زعتر وربّ البندورة والمربّيات. عندما كانت حاملاً بأختي نيرمين لم ترد أن تحمّل أبي أعباءً إضافيّة، فتسلّقت شجرة «الحمّلاس» وهي في الشهر الثامن وقطفتها كلّها وأرسلتها لسوق الخضار، كي تؤمّن ثوباً جديداً تقابل به الأقارب المهنئين، ولتوفّر مبلغاً بسيطاً للمكسّرات التي يستخدمونها لتزيين حلوى المغلي التي تُطبخ احتفالاً بقدوم أيّ مولود جديد.

حين أفكّر بكلّ هذا أشعر بالخزي، لأنني لست سعيدة. وأشعر أنّ معاناتي تافهة أمام الإهمال والتعب اللذين حاصرا أمّي طيلة عمرها. قطع توقّف السيّارة حبل أفكار، فانتبهت إلى أنّنا وصلنا إلى المقام. كان المكان هذه المرّة مختلفاً. لم يكن صاحبه عابر سبيل كالمقام السابق، بل كان مدفوناً هناك بالفعل، ولكنّ تأثيره ما زال حيّاً في كلّ بيت درزيّ.

الأمير السيّد جمال الدين عبد الله التّنوخي المعروف بين الدروز بالسيّد عبد الله، الذي ولد وتوفّي في بلدة عبيه. كان من عائلة حاكمة، ولكنّه تخلّى عن السلطة، وأصبح شيخ عقل الطائفة

الدرزيّة - وهي أعلى سلطة دينيّة عند الدروز. يعتبره الدروز وليًّا كبيرًا، لأنّه قام بشرح كتب الحكمة في أربعة عشر مجلدًا - اقتبس منها الدروز معظم قوانينهم وفقهم. وضع السيّد عبد الله في كتب الشرح قواعد تناولت كلّ مناحي الحياة من الزواج والطلاق، وتربية الأبناء، والإنفاق، والديون، وغيرها. حتى أدقّ تفاصيل الأكل والشرب استحدث لها الأمير قواعد؛ مثل ضرورة أكل الحوامض بعد اللحوم والأطباق الدسمة، واستحباب أكل الحلويّات على معدة فارغة.

وقد قسّم السيّد عبد الله العقلاء أو المشايخ إلى منزلتين: الشُّراح ومستلمي الحكمة، حيث أمر بحرمان الزاني والقاتل من قراءة كتب الحكمة حتى بعد التوبة، وأطلق عليهم اسم الشُّراح. وفرض عليهم أن يكتفوا بقراءة كتب شرح الحكمة كنوع من البعده أو النبذ الذي سيوصمهم ويرافقهم مدى الحياة. كما أوصى الدروز بالتقشّف وترشيد النفقات والتبرّع بما زاد عن حاجاتهم من أموالهم وممتلكاتهم للمحتاجين من العُقّال أو المشايخ، وهي النصيحة التي عمل بها جدّي أبو علي حين باع حقوله، وورّع ثمنها على المشايخ المحتاجين وغير المحتاجين منهم.

لربّما كانت استفاضة السيّد عبد الله في شرح كتب الحكمة وإعطاء الإرشادات بكلّ مناحي الحياة هو ما جعل الدروز يقولون إنّ «باب الدين ضيق»، وإنّ قلة قليلة من العباد فقط يستطيعون تطبيق تعاليم الدين على النحو الصحيح. ولهذا، يحشر المشايخ كلمة «مقصرين» في كثير من حواراتهم للردّ على كلّ إطرأ أو دعوة، وذلك لشعورهم أنّهم مهما تعبّدوا وتقشّفوا سيبقى في

عبادتهم شيء من التقصير. ومن الغريب أنَّ هؤلاء المقصّرين أنفسهم محرومون من الاستمتاع بمعظم مباحج الحياة؛ حتى إنّه يتمّ إبعادهم عن الخلوة لو حضروا زفاف أحد أبنائهم من الجسمانيّين، أو الجُهلّال كما يسمّوننا. ولقد رأيت إرشادات السيّد عبد الله في تصرّفات أبي وأمّي حين كانا يمتنعان عن تناول المأكولات غالية الثمن حين نُحضرها إليهم كهدايا، ويفضّلان أكل بواقي الطعام حتى في العزائم التي يقيمونها لنا، ويطبخون فيها أشهى المأكولات. وحين سألت أمّي عن السبب، قالت «أريد أن أقهر نفسي». وكأنّهما لم يقهرا نفسيهما عندما لم يزورا الشاطئ في حياتهما ولا دور السينما، ولا حضروا أيّ حفلات، ولا صعدوا على متن أيّ طائرة، ولا ارتدوا ملابس جميلة، ولا جلسوا في أيّ مقهى أو مطعم.. كانت النزهة الوحيدة التي يعرفونها هي زيارة المقامات.

أوقف سالم السيّارة في ساحة كبيرة مخصّصة لركن السيّارات تُحيطها الأشجار، تنتهي بسلام عريضة من الحجر الأصفر تؤدّي إلى باحة مليئة بالقناطر الحجرية، حيث يتجلّى مدخل ضريح السيّد عبد الله وضريح ولده. وهناك مبنى أبيض كبير ملاصق للمقام هو «بيت اليتيم الدرزي» الوحيد، وقد ارتبط اسم الميتم بمقام السيّد عبد الله لتجاورهما. صعدنا السلالم الحجرية. وعندما وصلنا إلى الباحة واقتربنا من مدخل المقام، شعرت أنّي لا أريد أن أضع على رأسي قطعة قماش لبسها عشرات النساء قبلي. كان الحمل قد جعل أنفي حسّاسًا، وشعورُ الغثيان قريبٌ منّي طوال الوقت.

- ادخلا أنتما.. سأبقى هنا قليلاً لأتنشق بعض الهواء النقيّ، قلت لسالم وأُمّي.

- لا، غير مقبول! قال سالم بجفاء.

- أشعر بالغثيان يا سالم. أتركني بحالي.. أرجوك.

تدخّلت أُمّي بأسلوبها الدبلوماسيّ المعتاد لحلّ الخلافات:

- لا بأس يا سالم، استوعبها. النساء الحوامل غالباً ما يصرن مزاجيّات، وهذا مسموحٌ لهنّ. يعلم الله ماذا يحدث داخل أجسادهنّ!

غمغم سالم ودخل. ورحت أنا أتمشّي في الساحة الكبيرة المطلّة على البحر. هذه الساحة مخصّصة لنزهات الدروز، وخاصّةً المشايخ حيث يجلسون ويشربون الممتّة ويتسامرون. كنت مستغرقةً في تحليل مشاعري واختلاجاتي حين رأيته واقفاً تحت أحد الأشجار بقامته الطويلة والرفيعة ونظّارته الفضّيّة. أيعقل أن يكون هو؟ لم أره منذ حوالى أربع سنوات، ولم أسمع عنه شيئاً منذ آخر سنةٍ لي في ثانويّة كفر رملا. اقتربت منه محافظّةً على مساحةٍ تسمح لي بالانسحاب في حال لم يكن هو:

- أستاذ خلدون! هتفت حين اتّضحت لي معالمه.

التفت وكأنيّ سحبته من عالمٍ آخر، كان غارقاً فيه، ونظر إلى وجهي:

- أمل. ما هذه الصدفة! ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

أشرت إلى بطني:

- أنا حامل، وزوجي في الداخل مع أُمّي يزور ويوفي النذر.

- هل هذا أوّل طفلٍ لك؟ سأل مستفسراً.

- نعم. ماذا عنك أستاذ خلدون هل لديك أطفال؟

ابتسم ابتسامة ساخرة، وأخذ نفساً طويلاً من السجّارة:

- لم أتزوَّج بعد. أنتظر حبيبتي لتوافق على الزواج بي من غير أن يطلب أهلي يدها من والدها. وأمّي تدور بي على المقامات، وتنتظر حتى يهديني الله وأتوقّف عن حبّها. وبين انتظاريهما، سيضيع شبّابي وستأكل السجائر رئتيّ.

- عذراً على السؤال أستاذ خلدون، ولكن لماذا لا يطلب أهلك حبيبتك للزواج؟

- حبيبتي ليست درزيّة يا أمل. لم أختار أن أحبّها ولا هي اختارت أن تحبّني. حاولت كثيراً أن أبتعد عنها، ولكنني لم أفلح لأنّها حبّ حياتي. اشتريت لها منزلاً جميلاً بتعبي وجنى عمري، ورحت أرجوها كلّ يوم أن تذهب معي لتختار الأثاث الذي يعجبها، ولكنها رفضت وقالت إنّ الشقّة قد لا تكون من نصيبها إن لم يطلبها أهلي من والدها مثل بقيّة الصبايا. قالت لي إنّها تريد أن تتزوَّج بكرامةٍ كباقي الفتيات. ولكن أين كرامة من يخسر حبيبه بسبب عاداتٍ بالية وكلامٍ صديّ؟

وصلت لي حرقه خلدون بطريقةٍ فاجأتني، وشعرت أنّ الدموع ستطفح من عينيّ لو سمحت لنفسني بالبكاء، ولكنني تمالكت نفسي، وقلت له:

- أعلم أنّ الحبّ سينتصر يا خلدون. لا تستسلم، وحاول إقناعها. قلت له محاولةً تخفيف ألمه، ثم سحبت هاتفني من جيبي

وسألته عن رقم هاتفه، وأضفت:

أريد أن نبقي على تواصل، لقد التحقت بالجامعة كما وعدتك، ولي محاولاتي البائسة في كتابة الشعر. سأكون سعيدة لو اطلعت على بعض النصوص.

- طبعًا يا أمل، يفرحني جدًّا وأفتخر بتلاميذي حين يحققون أشياء جميلة.

كنت أودّعه وأهمّ بالعودة إلى مدخل المقام حين سمعت سالم ينادي من بعيد. توجّهت إليه، وحين أصبحت قريبةً منه، سألت بلهجةٍ فظة:

- من هذا الشاب الذي تتحدّثين معه؟

- هذا أستاذ خلدون.

- ألهذا لم تدخلني معنا؟ كي تتحدّثي إلى رجلٍ غريب؟

- قلت لك هذا أستاذ خلدون، وليس رجلًا غريبًا.

- حتى لو كان أستاذ بطّيح! أفضّلين الحديث الفارغ معه على زيارة مقام مقدّس.

- لم أكن أعرف أنّه هنا حين قرّرت ألا أدخل المقام المقدّس! قلت له بعصيّة.

- رأييتِ يا حماتي؟ نحن هنا من أجل حضرتها وهي لم تكلف نفسها عناء الدخول لتبارك الطفل، قال متوجّهًا إلى أمّي.

- أترك أمّي بعيدًا عن مشاكلنا. ماذا تحاول أن تفعل؟ هل تلومها بسبب تصرّفاتني أنا؟ قلت بصوتٍ مرتفع.

- لا، ولكن أريد أن أثبت أنك لست على حق، وأن تصرفك لم يكن يليق بامرأة متزوجة ستصبح أمًا عمًا قريب.

مشيت أمامهما محاولة أن أقطع النقاش وركبت السيارة، فتبعاني وصعدا إلى السيارة. قلت له بعد تردد:

- كلامك جارح وانفعالي، على فكرة. تذكر أنك لست هنا بسببي، لأنني لم أقطع أي نذر على نفسي. أنت من نذر، وأنت من عليه أن يوفي النذر.

- تحصلين على ميدالية ذهبية في النقاش والكلام! قال ساخرًا.

- وأنت أكثر إنسان يحرف ويشوه الحقائق. لم ييدر مني أي تصرف لا يليق بزوجة وأم حين سلّمت على أستاذي.

التزمت أمي الصمت بعد محاولاتها الخجولة في التدخل بيننا، والتي كنّا نتجاهلها ونرفع أصواتنا فوقها.

- اعذرينا حماتي، قال سالم وهو يوجّه كلامه إلى أمي في المرأة.

- بسيطة، جميع المتزوجين يتخاصمون، قالت أمي باقتضاب.

لزمنا الصمت حتى أوصلنا أمي إلى البيت. وحين دعتنا كي نبقى للعشاء أو لشرب المّة، اعتذر سالم من غير أن يستشيرني، وعاد بي إلى البيت في سيارتنا الغارقة في الصمت والنفور.

في الأشهر الأخيرة من الحمل، حاولت قدر المستطاع أن أخبئ بطني بطبقات من الثياب الشتوية السمكة. كنت أمشي

بخطواتٍ متثاقلةٍ في الجامعة بين الطلاب ذوي الخطوات الخفيفة والضحكات العالية. كان كلّ شيءٍ يشدّني إلى الأرض. أفكاري وقلبي وجسدي أيضًا. شغلت نفسي بالدرس، وقبلت العمل على بعض مشاريع لطلاب آخرين مقابل مبالغ جيّدة. وهكذا، كسبت أوّل مالٍ جنيته بنفسني في حياتي. استهواني جدًّا طعم جني المال، وشعرت أنّه عليّ أن أستمّر حتى أدفع الدين المترتب عليّ لأختي نيرمين، وأبقي بعض المال الخاصّ في حوزتي.

زهرةٌ فوق أرضٍ محترقة

أمضيت في المخاض ساعات طويلة، وحين اقترب موعد الولادة، وضع طبيب البنج المورفين في كيس السيروم، ومنذ تلك اللحظة بدأت أغيب عن الوعي. آخر ما رأيته هو يدا الممرضة تضغط على بطني من أعلى والطبيب يقول لها أن تضغط بقوة أكثر. سمعت صوت بكاء طفلٍ وأنا أغيب. وصوتًا نسائيًا يقول لي مبروك الطفلة بخير.

استفتت على يد أمِّي تمسح على رأسي، ولكنني لدقائق لم أدرك أنني أصبحت أمًا. كنّا وحدنا في الغرفة. وعلى يميني كان هناك صندوقٌ زجاجيٌّ صغير يبدو للناظر أن فيه قطعة قماشٍ زهرية. أشارت أمِّي بيدها للصندوق:

- البنوة نائمة، أنظري كم هي جميلة!

- حقًا؟ أحببتها وكأنه من الصعب أن أصدق أن جسدي قادرٌ على أن يكون طفلًا جميلًا.

- سأضعها في حضنك .

- أين سالم يا أمِّي؟ سألت وكأني تذكّرت وجوده للتوّ .

- لقد نمّت حوالى اثنتي عشرة ساعة . كان عليه أن يذهب ليبدّل ثيابه ، ويحضر بعض الحاجيات للطفلة .

- هل رآها؟

- نعم . حين خرج الطبيب من قسم الولادة وأخبره أنّه رُزق بطفلةٍ وأنّك بخير ، وضع يديه على وجهه وأجهش بالبكاء مثل الأطفال . ثم أضافت «ما زال غير مصدّقٍ أنّه رُزق بطفلة» .

وضعت أمِّي الطفلة في حضني . كانت نائمةً ووجهها أحمر ومنتفخ ، ورأسها مكسوٌّ بالشعر الناعم . كانت تُشبه الدمى القطنيّة الطريّة التي كنت ألعب بها وأنا طفلة . نظرت إلى أمِّي ، وقلت «نعم إنّها جميلة» .

دخل سالم الغرفة وكان الفرح يغمر ملامحه . نظر إليّ «الحمد لله على سلامتك يا أمل» ، ثم أعطى الطعام الذي أحضره لأمِّي . حمل الطفلة واقترب ، وجلس إلى جانبي على طرف السرير :

- علينا أن نختار اسمًا من الأسماء التي اقترحناها .

- لا أجد أيّا من تلك الأسماء يناسبها بعد أن تعرّفت عليها .

- ما رأيك حماتي؟

أجابت أمِّي :

- لقد سمّيت بناتي جميعهنّ بنفسِي . الأمّ التي حملت تستحقّ

أن تختار الاسم الذي يعجبها .

- كلامٌ منطقيّ. أنا سأتنحّى إذن، وأترك الخيار لأمل. لكنّ يجب عليها أن تقرّر بسرعة قبل أن يأتي أهلي وأخواتي، وتبدأ الاقتراحات والخلافات فيما بينهم - قال سالم مازحاً.

طلبت من سالم أن يضع الطفلة في حضني. رحت أحدّق في وجهها وأفكر في الأسماء. كنت دائماً أبحث عن المعنى في كلّ اسم، لذلك لم تجذبني الأسماء الأجنبية التي أصبحت رائجة. فكّرت فيما أريده لها من هذه الحياة «سعادة» «فرح» «إيمان»... ثم أدركت أنّ أمنياتنا لا تُقدّم ولا تؤخّر في مصير حياة الآخر. رحت أنظر إليها، ثم تملّكني شعورٌ كبيرٌ بالتعاطف تجاه كائنٍ بهذا الحجم. فلمع اسمٌ في رأسي «رحمة».

- اسمها رحمة، قلت بصوتٍ واثق.

- جميل... تعيش باسمها، قالت أمّي.

- اسمٌ قديم، ولكنّ إن كان يعجبك فلا بأس، قال سالم مبتسماً.

وضعت أمّي رحمة في حضنها في طريقنا إلى البيت، وحمتها بمنديلها من أشعة الشمس المتسرّبة من الشباك. وصلت رحمة إلى بيتنا الكبير البارد وهي نائمة فوق ذراعي أمّي، تنعم بدفء حضنها. لقد أصبح هذا بيتها الآن. قد تحبّ رحمة هذا البيت، قد لا تجده بارداً وفارغاً كما أراه. البيوت في النهاية تصبح امتداداً لما نخبره فيها.

أخبرتني أمّي أنّها ستذهب إلى البيت لتطمئنّ على أبي، وتحضر ملابس أخرى لتقضي الأسبوع عندي. وما إن شعرت أنّ أمّي ستركني حتى دبّ فيّ الرعب.

- حقًا أمي؟ ستذهبن وتركيني أنا ورحمة وحدنا؟
- سأغيب الليلة فقط، وسوف أجهّز لك كل شيءٍ تحتاجينه في غيابي. هذه طفلتك، ستتعلمين كيف تهتمّين بها.
أردت أن أرجوها أن تبقى لليلةٍ أخرى، ولكنني لا أحبّ الإلحاح. وتذكّرت كم تعبّت أمي في المستشفى وكيف نامت ليلتين فوق الكرسيّ، فلم أقل شيئًا. عندما ذهب سالم ليوصل أمي بقيت أنا ورحمة وحدنا في المنزل. لأوّل مرّة، لم يكن هناك ممرّضات وأطباء، لم تكن هناك أمي ويدها اللتان تقلبان الطفل بالرشاقة نفسها التي تقلّب بها رغيف الخبز في الهواء. كنّا هناك وحدنا، أنا بجسدي المتعب وشعري المشعث، وهي بملفّتها الزهرية ورأسها الصغير الذي لا يعرف شيئًا عن وجودي وشوائبه. وقفت أراقبها وهي فوق سريرنا الكبير الذي يجعل حجمها يبدو أصغر. جثوت على الأرض بقربها، وشعرت لأوّل مرّة بوضوح يشبه تهشّم الكريستال، أني منفصلةٌ تمامًا عن هذا الكائن الجميل...

- هل تشعرين بي يا رحمة؟ لو تعلمين حجم الخوف الذي يتملّكني الآن. سامحيني يا صغيرة، لأنّ قلبي لا يغني فرحًا بقدمك. سامحيني لأنني لا أشعر أنني قادرةٌ على أن أعطيك ما تستحقّينه من الحبّ والاهتمام. سامحيني لأنني لم أتعلّم كيف أحبّ نفسي، سامحيني لأنني صمتُ كثيرًا حين كان عليّ أن أتكلّم، ولأنني رسمت صورةً عن نفسي ممّا جرى لي، ونسيت مَنْ كنت قبل كلّ ذلك. هذه أمك يا رحمة بكلّ شوائبها. أليست مفارقةً غريبةً أنني كوّنّت جسدك في داخلي، وأعطيتك اسمًا،

وتألمت أكثر من عشر ساعات حتى أُخرجك مِنِّي . . وبعد كلِّ هذا لا أشعر بشيءٍ سوى الخوف؟ الخوف التهم كلَّ مشاعري وتربّع وحده على قلبي. أخاف أن أحملك، أخاف أن أطعمك من جسدي، أو أن أبقى بمفردي معك في الغرفة نفسها. أشعر أنني غير مؤهلةٍ لشيء. أشعر بالعجز والخزي. سامحيني على كلِّ هذا يا رحمة.

حاولت البكاء لأرتاح؛ لكنَّ الجفاف الذي عصف بدواخلي والتهم حليب ابنتي نشف دموعي أيضًا. ألحّت أمّ سالم عليّ كي أطعم الطفلة من صدري؛ ولكنَّ فكرة أن يكون جسدي هو المسؤول عن تغذيتها كانت تُصيّني بالهلع، فشكرت الله أن حليب صدري شحيح بطبعه، الأمر الذي أخرجني من الموضوع من غير بلبلة.

كان من المتوقَّع أن يبدأ الناس بزيارتنا من أجل التهنئة بالمولود ابتداءً من اليوم السابع بعد الولادة وحتى نهار الأربعين. وبحسب عاداتنا، يجب على المرأة أن تنتظر أربعين يومًا قبل أن تتمكّن من الخروج من المنزل. لقد أقلقتنني هذه الفكرة منذ الصغر، وكنت أنظر إلى المرأة التي وضعت مولودًا نظرة تعاطفٍ وذعر. كيف لا تختنق من الفكرة وحدها؟ كيف تصمد داخل أربعة جدران كلِّ هذه المدة؟

وحين سألت أمِّي عن هذا القانون الغريب، قالت لي:

- «يبقى قبر المرأة مفتوحًا لمدة أربعين يومًا بعد أن تضع مولودها».

كانت تقصد أنَّ المرأة تكون سريعة العطب، وقابلةً لأن تمرض بشدَّة وتموت خلال الفترة التي تلي ولادتها. اليوم أتى دوري، عليَّ أن أسجن نفسي في المنزل كي أتجنَّب الموت. ولكنِّي في اليوم السادس وقبل موعد الزيارات العائليَّة بيوم واحد، شعرت برغبةٍ شديدةٍ في الخروج وقيادة السيَّارة. حاولتُ أمِّي منعي:

- لا تتصرَّفني بعدم مسؤوليَّة. ماذا سأقول لسالم حين يأتي؟

خرجت في اليوم السادس بشعرٍ مبلولٍ وثياب رقيقة. رحت أقود السيَّارة من غير وجهة، وفتحت كلَّ النوافذ. أظنَّ أنَّني كنت أستفزُّ قبري المفتوح وقتها، وكأني أقول له «ابتلعني أيُّها الأبله، ابتلعني وأنا هشةٌ ضعيفة. ستكون هذه فرصتك الذهبيَّة لليل منِّي بلا أدنى مقاومة!»

لم تزرني عمَّتي سليمة من قبل، وهي بطبعها لا تحبُّ الزيارات وتخشى أن تترك بيتها. كانت هذه زيارتها الأولى لي بعد مرور ستِّ سنوات على زواجي. سعدت بقدمها كثيرًا. كانت مشيتها قد أصبحت ثقيلاً، فتميل إلى اليمين وإلى اليسار بشكلٍ ملحوظ وهي تصعد الدرج. حين رأت رحمة بدأت تبكي، ثم وضعتها في حضنها وقبَّلت يديها، وقالت:

- هذه أمِّي. عادت إلى البيت لأراها قبل أن أموت.

- جدَّتي أم علي؟ قلت مستغربة.

- نعم، كنت أعلم أنَّها ستعود. هذه أوَّل فتاة تولد في العائلة بعد وفاة المرحومة أمِّي.

تَدْخُلُ أَبِي قَائِلًا :

- نَتَمَنَّى أَنْ تَكُونَ الْمَرْحُومَةَ جَدَّتِكَ . لَقَدْ كَانَتْ «نَفْسَ مَنِحَةٍ» ، وَهَذِهِ سَتَكُونُ كِرَامَةً لِرَحْمَةٍ .

مَدَّتْ عَمَّتِي سَلِيمَةً يَدَهَا إِلَى دَاخِلِ قَمِيصِهَا ، وَأَخْرَجَتْ مِنْ ثِيَابِهَا بَعْضَ الْمَالِ وَطَاقِيَّةً صُوفِيَّةً غَزَلَتْهَا بِيَدِهَا .

ثُمَّ مَدَّتْ يَدَهَا بَاتِّجَاهِي ، وَقَالَتْ «قَطْعَ بَدِكَ تَأْخِذِيهِمْ . طَلَعُوا مِنْ خَاطِرِي» .

- سَأَقْبِلُ الطَّاقِيَّةَ يَا عَمَّتِي ، وَلَكِنْ أَرْجُوكِ أَنْ تَسْمَحِي لِي أَنْ أُعِيدَ الْمَالَ . أَنْتِ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ رَحْمَةٍ .

- هَذِهِ أُمِّي قَبْلَ أَنْ تَكُونَ ابْنَتِكَ . . لَيْسَ لِي فَضْلٌ فِي هَذَا ، قَالَتْ عَمَّتِي وَهِيَ تَنْظُرُ لِرَحْمَةٍ بَوْرِعٍ وَحَنَانٍ .

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ بَسَاطَةِ عَمَّتِي وَمَحَبَّتِي لَهَا ، إِلَّا أَنَّ كَلَامَهَا عَنْ رَحْمَةِ هَزَنِي . تَذَكَّرْتُ جَدَّتِي أُمَّ عَلِيٍّ وَانْتِظَارَهَا لِعُودَةِ عَمِّي عِمَادٍ مِنْ مَوْتِهِ طَوَالَ تِلْكَ السَّنَوَاتِ ، وَكَيْفَ كَانَتْ تُصَابُ بِالْخِيْبَةِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَلِدُ فِيهَا أُمِّي بِنْتًا وَلَا يَعُودُ ابْنُهَا إِلَى الْبَيْتِ . مَاتَتْ جَدَّتِي وَهِيَ تَنْتَظِرُ عِمَادًا ، وَعَاشَتْ عَمَّتِي سَلِيمَةً بَعْدَ ذَلِكَ تَنْتَظِرُ عُودَةَ جَدَّتِي . عَاشَتْ تَصَارِعُ الْوَقْتَ وَالْخَوْفَ مِنْ سَقُوطِ الْجِدَارِ - الَّذِي كَانَ يَفْصِلُ أَبَوَيْهَا - فَوْقَهَا . لَا أَعْرِفُ لِمَاذَا يَتَنَاقَشُ النِّسَاءُ عَلَى هَذَا الْإِنْتِظَارِ الْمُؤَلِمِ ، وَيَنْذِرُنَ مَا تَبَقَّى مِنْ حَيَاتِهِنَّ وَمَا سَيَأْتِي مِنْ حَيَاةِ الْأَطْفَالِ الْجَدِيدِ لِلْمَاضِي ! لَقَدْ نَذَرْتُ عَمَّتِي سَلِيمَةً ابْنَتِي لِلْمَاضِي ، هَذَا الْمَاضِي الَّذِي لَا يَنْتَهِي بِمَوْتِ الْإِنْسَانِ . هَذَا الْمَاضِي الْمُسْلَحُ بِالْإِيمَانِ ، الْإِيمَانِ الْعَجِيبِ الَّذِي يَعْطِلُ الْمُنْطَقَ وَالْوَاقِعَ وَالزَّمْنَ ،

ويُعيد من نحبهم من القبر في أجسادٍ أخرى .

لقد راقت لي فكرة التقمُّص منذ بدأت جدّتي تنتظر عمّي
عماد أمام باب بيتها كلّ يوم . وبعد سنة على وفاته ، قالت :

- اليوم أصبح عمره سنة ، وقد يكون قد بدأ بأولى خطواته .

وبعد أربع سنوات ، قالت :

- الآن ، أصبح يتكلّم بوضوح .

وبعد ستّ سنوات ، قالت :

- الآن ، لا بدّ أنّه يُخبر أهله عنّي ، وفي يومٍ ما سيطلّ من
تلك البوّابة طفلٌ مع أبويه ، وسيأتي لي ويعانقني ويقول اشتقت
لك يا أمّي سامحيني . . أطلت الغيبة !»

كانت جدّتي تقول تلك الكلمات ، وتغطّي وجهها بالمنديل
وتبكي بحرقة .

هذا لم يكن حال جدّتي فقط ، بل كان حال كلّ أمٍّ درزيّة
فقدت ولدها ، ووقفت أمام الموت مفجوعةً غير قادرةٍ على فهم
ماهيّته ، وكيف تتعامل معه غير مصدّقةٍ أنّها أنجبت طفلاً وربّته
بدموع عينيها ، والآن عليها أن تدفنه وكأنّه لم يكن يومًا . ولكن
على عكس العديد من الأمّهات والزوجات اللواتي «نطق» أطفالهنّ
وتذكّروا أجيالهم السابقة وعادوا ليسألوا عن عائلاتهم بالاسم ،
بقيت أحلام جدّتي وعمّتي سليمة مسألة إيمانٍ يشبه الرجاء من غير
أيّ دليلٍ يدعمه .

وبعد يومين ، زارتنا إحدى قريبات سالم ، وقالت إنّ رحمة
تشبه شقيقتها التي وافتها المنية في عزّ شبابها ، وأضافت أنّها تشعر

أَنَّ ابنتي هي قميصٌ جديد لروح أختها. تجاهلت هذا الحديث. وعندما غادرت، سألت أُمِّي عن الأمر:

- ألا تجدين الأمر مضحكًا يا أُمِّي؟ كيف يُسقط كلّ إنسانٍ فقدانه على هذه الطفلة التي لم يتجاوز عمرها أياّمًا معدودة؟
- يقولون هذا من محبّتهم للطفلة.
- ولكنّ هذا سخيّف وغير منطقيّ.

- هذا إيمانهم وأملهم الوحيد في الاجتماع بمن يحبّون ممّن ذهبوا. أيزعجك أن يعطي وجود رحمة أملًا لهؤلاء المساكين؟
- لا يزعجني هذا الأمر، ولكنّ يزعجني أنّهم يقولون بطريقةٍ ما إنّها تنتمي لهم وليست ابنتي، وإنّها ابنة الماضي وليست ابنة المستقبل.

- ما هذا الكلام؟ ابنتك هي ابنتك في هذا الجيل. قد تكونين أنتِ ابنتها في أجيالٍ قادمة. الأمومة عملٌ شاقٌّ يا أمل، وفي كلّ مرّةٍ تواجهين فيها الصعاب تذكّري أنّ رحمة لها عندك شيءٌ من جيلٍ سابق، ووجودها هنا فرصةٌ كي توفي ما عليك. كوني كريمة مع ابنتك وأعطِها كلّ ما تقدّرين عليه، فيومًا ما ستصبحين أنتِ طفلتها ويكون أمركِ بيدها.

لطالما كانت لأُمِّي طريقةٌ تجعل كلّ ما هو صعب المضغ ينزل بسلاسةٍ في وجداني. أمّا أبي فقد كان على عكسها تمامًا، ففي كلّ مرّةٍ استفسرت منه عن شيءٍ كان تفسيره يجعل أسئلتي تتضاعف ونفوري يزداد. حين سألت أبي إنّ كان الرجل يتقمّص في جسد امرأةٍ والعكس؟ أجاب منفعلًا:

- ما هذا الكلام؟ هل يُعقل أن مولاي العقل كان امرأة؟!
وكان يقصد حمزة بن علي الذي كتب كتاب الحكمة، ولُقّب
بالعقل.

كان لجواب أبي أثرٍ عميقٍ في نفسي. جعلني أشعر أن المرأة
أقلّ من الرجل، وأنّ التقمُّص في جسد امرأة يُعتبر سقطة. لقد
أحببت التقمُّص الذي تكلمت عنه أمِّي. وهو التقمُّص الذي قرأت
عنه لاحقًا في أدب جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وجيدو
كريشنامورتي. هذا التقمُّص الذي يعزّي الأمّهات، ويعطي فرصة
أخرى للمخذولين في بداية جديدة وحياةٍ أخرى أقلّ ألمًا.

لقد أهدتني رحمة أربعين يومًا مع أمِّي. وجودها بجانبني بعد
ست سنوات من زواجي جعلني أدرك كم اشتقت إليها. راقبتها
تعامل رحمة بحنان، تحمّمها وتمسّد جسدها بالزيت، ورحمة
صامته وكأنّها تشعر بالأمان بين يدي أمِّي. وكانت حين تبكي تُرَنِّر
بطنها بالقماش وتهدهد لها حتى تنام.

قبل أن أتمّ الأربعين بيوم واحد، كانت أمِّي تحمّم رحمة وأنا
أقف بجانبها أحاول أن أتعلّم منها كلّ الخطوات قبل أن تتركني
وتذهب. كانت هادئةً على غير عادتها، وحين ألبست رحمة ثيابها
وحضنتها، رأيت دموعًا في عينيها:

- «ابنتك محظوظة يا أمل. كلّنا نحبّها»، ثم أضافت: «الآن
وقد عاملتك حتى أتممت الأربعين، وزوّجتك جميعًا ورأيت
أبناءك، أشعر أنني أتممت واجباتي في هذه الحياة، وأصبحت
جاهزةً لأذهب».

شعرت بحرقٍ في صدري حين سمعت هذه الكلمات :

- ما هذا الكلام يا أمِّي؟ هل ضايقتك أحدنا في شيء؟

- أبدًا. أنا فقط متعبةٌ يا أمل. بعد أن زوّجتك أنت وأخواتك، واطمأنت عليكنّ، صار من الصعب عليّ أن أجد سببًا للبقاء. أحتاج إلى حضن أمّ جديدة تضمّني إليها وتحبّني. أودّ أن أعود طفلةً مثل رحمة بجسدٍ وقلبٍ خاليين من الأوجاع.

أردت ان أبكي وأقول لها أن تتوقّف عن هذا الكلام. أردت أن أقول لها إنني آسفةٌ على وجعها. آسفة، لأنّه ليس في حياتها ما يستحقّ البقاء، وأن لا أحد يحضنها. ولكنني جلست هناك مثل كومةٍ من رماد غير قادرةٍ على الكلام أو الحراك. ربّما كان عليّ أن أنهض وأضمّها وأقبل رأسها، ولكن أيّ من هذا لم يحدث.

لقد أصابني كلام أمِّي في مكانٍ متخلخلٍ في وجداني، لم أكن واعيةً تمامًا بوجوده. لا أعرف متى بدأتُ أشيخُ بوجهي عن حياة أمِّي كما يشيخ الأطفال بوجوههم بعيدًا عن المقابر والجراح المفتوحة! كنت كلّما تقدّمت خطوةً في تلك الحياة التي لا أريدها يتجذّر إحساسي بخذلانها ويصبح أقوى، فأشعر أن حياتي لن تكون سوى تكرارٍ عصريٍّ لحياتها، وأنّ الألم هو ميثاقنا المقدس. كان ألمي اعتذارًا لأُمِّي عن ألمها، وكأنني أقول لها «أنتِ لست وحدك يا أمِّي. أنا أيضًا أتألم. أنا أيضًا لا قابليّة عندي للحياة».

لم يخبرني أحدٌ عن اكتئاب ما بعد الولادة. لم أعرف كيف

أتعامل مع الألم الذي لا يسكن، والذي لا أستطيع أن أعلم أين يتمركز. تخيلته مرّة يتدفّق من رأسي، ومرّة من تحت إبطي، ومرّة أخرى شعرت به كثقبٍ أسود في معدتي يحاول أن يبتلعني. قاومت بشدّة. استيقظت في الليل ككلّ الأمّهات لأعدّ قناني الحليب لطفلي. هدهدتها لساعاتٍ وبكيت أحياناً كثيرة، وهي تبكي بين يديّ وأنا عاجزةٌ عن جعلها تتوقّف. ولكنني بدأت أعود على وجودها وعلى صراعي المستمرّ كي ألبي احتياجاتها. هكذا، اخترت الأمومة. اخترتها كسباقٍ مع طاقتي المتبدّدة، كمحاولاتٍ متكرّرة لتجنّب البكاء، كمقاومةٍ مستمرّةٍ للسقوط على ركبتيّ والصراخ «لم أعد قادرةٌ لينجذني أحدكم».

لم أشارك أحدًا هذه الإحباطات، ولكن بدأت أثار الاكتئاب بالظهور على جسدي. فقدت الوزن الذي كسبته في فترة الحمل، وصرت أنحف ممّا كنت قبل الأمومة. كان الشيء الوحيد الذي يساعطني على رؤية المستقبل وسط كلّ هذا الضباب هو عودتي إلى الدراسة. اضطررت لتفويت فصلٍ كاملٍ من العام الدراسيّ حتى أهتمّ برحمة في شهورها الأولى. الآن، وقد أصبحت في شهرها الثامن، صمّمت على المتابعة. ثم تذكّرت أنّه عليّ أن أهتمّ بأمورٍ كثيرة حتى أحقّق ذلك، فأحضرت قلمًا وورقةً وقرّرت أن أضع خطّة. سأجد دار حضانية جيّدة، وأجري مقابلةً مع العاملات فيها لأطمئنّ على سلامة رحمة. ثم سأسجّل أقلّ عددٍ ممكن من الحصص في الجامعة، وسأختصر حضوري الجامعيّ في يومين أو ثلاثة إذا أمكن. وحين انتهيت من التخطيط، نظرت إلى الورقة وشعرت بالرضى حيال مخطّطي.

لم يوافقني سالم الرأي حين عاد إلى المنزل وفاتحته بالأمر:
- لن أقبل أن يهتّم الغرباء بابنتي يا أمل. أنسيّت ماذا قاسينا
حتى رُزِقنا بطفل؟ وجود رحمة هو أشبه بمعجزة. لن أسلّمها
للغرباء. الله أعلم كيف يعاملون الأطفال خلف الأبواب المغلقة
في الحضانات!

- لماذا تسيء الظنّ بالآخرين يا سالم؟ رحمة لن تكون أوّل
طفلة تدخل الحضانة. أرجوك، لا تصعّب الأمر عليّ. كن
متعاونًا. أنا بحاجةٍ لدعمك!

- سأدعمك في أيّ شيء، ولكنّ لا تطلبي منّي أن أضع
رحمة في حضانة أطفال. هذا مستحيل!

- ماذا عن والدتك؟ أظنّها قادرة على الاهتمام برحمة ليومين
أو ثلاثة في الأسبوع؟

- تعرفين أنّ أمّي امرأةٌ كبيرة في السنّ وجسدها متعب، فهي
غير قادرةٍ على حملها لدقائق، فما بالك بحملها لأيّام.
- هذا يتركني أمام خيارٍ وحيد.

- ما هو؟

- أنا آخذ رحمة لأُمّي لتهتّم بها في غيبتني.

- هذا يعني أنّك ستضطرّين للاستيقاظ في الخامسة صباحًا
حتى تصلي إلى بيروت في الثامنة، هذا لو وافق السائق على تلك
الدورة العجيبة من الشوف إلى عاليه ثم إلى بيروت، قال ساخرًا.

- لماذا لا توصلها أنت إلى أمّي، وأذهب أنا إلى بيروت
مباشرةً من هنا؟ سيكون الأمر أسهل والطريق أقصر.

- أنتِ من يريد التعلُّم يا أمل، لست أنا. أنا عندي الكثير لأقوم به، ودوامي يبدأ في السابعة والنصف صباحًا. على كلِّ منَّا أن يتحمَّل نتيجة اختياراته في الحياة.

- حسنًا، ولكنِّي لن أنتظر السائق فؤاد ولا أيَّ سائقٍ آخر كي يحدِّد مصيري. سأقلِّ ابنتي إلى أمِّي بنفسي، وأقود السيَّارة إلى بيروت بنفسي، قلت بتصميم.

كان هذا الأمر ممنوعًا عليَّ من قبل. وقد حاولت في السابق أن أقنع سالم بالأمر، ولكنه كان يرفض وينتهي الأمر بخناقة بيننا في كلِّ مرَّة. ولكنَّ أظنُّه وصل إلى الدرجة القصوى من المعارضة المسموح بها منطقيًا في محادثة كهذه، فتمهَّل وقال:

- هذا تحدُّ كبير. لا أشجِّعك على إرهابك نفسك وإرهابك طفلتك من أجل أمر كهذا. بإمكان الشهادة أن تنتظر سنةً أخرى! لم أخبره أنَّني أموت من الداخل، وأنَّه لم يعد هناك أيَّ شيءٍ يجلب لي البهجة. لم أخبره أنَّي أفعل هذا كمحاولةٍ أخيرة قبل أن أستسلم للمرض النفسي الذي يتغذَّى على صورتي عن نفسي، ويجعلني أفكِّر في الموت طوال الوقت.

- دعني أقوم بهذا يا سالم.. أرجوك، قلت بتوسُّل.

- حسنًا، هذا قرارك.. وأنا لن أتدخل؛ ولن آتي لنجدتك بعد بضعة أسابيع حين تشتكين من الإرهاق.

أزعجني أن أرمي حمل الاهتمام برحمة على كاهل أمِّي، خاصَّةً أنَّها امرأةٌ عاملة، وتخبز على الصاج ثلاث مرَّاتٍ في الأسبوع إلى جانب المنتوجات الأخرى التي تصنعها للبيع.

أخبرت أمي أنَّ دعمها سيكون الحلّ الوحيد لعودتي إلى الجامعة، فرحّبت بالفكرة كما توقّعت. ثم عرضت عليها مبلغًا من المال بدل أتعابها، وكفرصةٍ لها حتى تأخذ قسطًا من الراحة وتبتعد عن تعب الخبز ورائحة المواقد ودخانها، ولكنّها أبدت انزعاجًا كبيرًا.

- أنتِ تخرجيني بهذا العرض يا أمل. تعامليني كأني موظّفة. رحمة ابنتي أيضًا، وأجري اتّقاضه عن طريق تمضية الوقت معها. من يتقاضى المال ليهتمّ بأولاده؟

- ولكنّ يا أمي، أنا لا أريد أن أزيد من تعبك ومسؤوليّاتك، ثم إنّ عمل الخبز مرهق.

- أجل إنّهُ مرهق، ولكنّها وظيفتي. أنا أخبز منذ عشرين عامًا، ولديّ زبائني الذين لا يأكلون إلّا من خبزي. أحبّ عملي لأنّه يعطيني سببًا لأبقى نشيطّة وبرنامجًا واضحًا لأسبوعي، لهذا لا أتعامل مع وظيفتي بمزاجيّة فأتركها وأعود إليها حين يناسبني الأمر.

كانت رحمة لا تزال نائمةً في المقعد المخصّص لها حين وصلت إلى منزل أمّي في السادسة صباحًا. حملتها، وألقيت نظرةً أخيرةً على حقيبتها لتأكّد أنّني لم أنسَ شيئًا... حفاضات، ثيابًا داخليةً، ثيابًا خارجيّةً، مرايل، علبة حليب البودرة، عدّة رضّاعات... وبعد أن تأكّدت أنّ العدّة كاملة، سلّمتها إلى أمّي وأكملت مشواري إلى الجامعة.

كان التوتّر يسيطر على كلّ عصبٍ في جسدي وأنا متوجّهةً إلى مدينة عاليه لأخذ طريق الشام إلى بيروت. مضى على تعلّمي القيادة أكثر من ستّ سنوات، ولكنني لم أتجرأ على قيادة السيّارة إلى بيروت يومًا. قال سالم إنّ القيادة إلى بيروت صعبة، وإنّ الخطّ السريع لا يُشبه طرقاتنا الهادئة! ولهذا منع عليّ الأمر. هذا كان حال نساء القرى القلائل اللواتي تمكّن من تعلّم قيادة السيّارة، فجميعهنّ ممنوعاتٌ من القيادة إلى بيروت، ولا يجرؤن

على المحاولة. ذهاب المرأة وحدها إلى بيروت خطر، في بيروت مدينة الحرّية والخطيئة والابتعاد عن العيون التي وظيفتها أن تراقب وتحاسب على مدار الساعة. أنا أيضًا انطلت عليّ خدعة عدم قدرتي على القيادة إلى بيروت، حتى وضعتني ظروف حياتي في هذا المأزق الذي أجبرني على كسر حاجز الخوف.

بدأ توتري يزيد عند اقترابي من التقاطع في آخر مدينة «عاليه» لآخذ الطريق السريع الذي ينحدر لمسافة خمسة عشر كيلومترًا قبل أن يصل إلى مرفأ بيروت. ماذا دهاني؟ هل يُعقل أن يُخبرنا الآخر ما نستطيع وما لا نستطيع أن نفعل؟ هل أُصدّق سالم إلى هذا الحدّ من غير أن أختبر قدرتي وأحكم بعد المحاولة؟

بدأت يداي تتعرّقان وأنفاسي تتسارع فيما تنحدر سيّارتي على منحرجات طريق «عاريّا» باتجاه بيروت. لازمت الخطّ الثالث على يمين الطريق حتى أتمكّن من تخفيف سرعتي، فوجدت نفسي محاطةً بالشاحنات البطيئة وروائح عوادمها الكريهة. حين وصلت إلى الجامعة استرخيت بعد أن كانت أعصابي مشدودة، فشعرت أنّ كلّ طاقتي قد استنزفت، وأنّ لديّ رغبةً في الشتم والبكاء. ولكنّي كنت في سباقٍ مع الوقت، وكانت أمامي محاضرةٌ عليّ أن أصل إلى قاعتها خلال عشر دقائق. في المساء، كان عليّ أن أأخذ الطريق نفسه حتى أفلّ ابنتي من بيت أمّي وأعود إلى منزلي. الوقت الذي يستغرقه هذا المشوار لا يقلّ عن ساعتين من القيادة في الصباح وساعتين أخريين في المساء.

لم يمنعني التعب من الاستمرار في هذا البرنامج الشاقّ، ولا استطاع إنجازي في الجامعة أن يوقف الوجد المتنقّل في داخلي.

لقد كنت معلقةً بين عالمين : عالم الجامعة الذي أُنشِئتَ به ، لأنَّه كان آخرَ شيءٍ أردته قبل أن أصبح كلَّ ما لم أطلبه . وعالم الزواج والأمومة الذي كنت أعِي أهميَّة وجودي فيه ، والذي هو في نظر الجميع عالمي الوحيد . داومت على هذا الحال حتى حصلت على منحةٍ كاملة ، ثم على شهادة الليسانس في الأدب الإنكليزي من الجامعة الأميركيَّة . . وكانت رحمة حينها تقترب من السنِّ الذي يسمح لها بدخول المدرسة .

المتربّص داخل غرفتي المظلمة

والآن ماذا؟

ظلّ هذا السؤال يطاردني في الشهر الأخير من الموسم الدراسي الأخير قبل التخرّج. ماذا سأفعل بعد أن أنهي الجامعة؟ بماذا سأشغل نفسي بعد أن يتحقّق الحلم؟ الحلم الذي ساومت على حياتي كلّها لأجله. وقبل أن أتوصّل إلى إجابة عن سؤالتي، بدأ الاكتئاب الذي ظلّ أليفاً لفترة، يتوحّش من جديد. صرت أكثر من النوم والتحديث في السقف لساعات. كانت مشاعري القاتمة تنتقل إلى رأسي على شكل كلمات، فأمدّ جسدي لالتقط قلمًا من جانب السرير، ثم أكتب تلك الكلمات فوق الكرتون المقوّى الموجود أسفل علبة «الكليّنكس». كتبت مرّةً عن كائنٍ بجناحين يخفقان في الظلام، وبجانبه بقعة زيتٍ لا يعلم بوجودها، وأنّ أيّ حركةٍ من جناحيّ هذا الكائن قد تحكم عليه بالموت بعيدًا عن الضوء؛ ثم شعرت أنّ هذا الكائن في أحشائي.

وكتبت عن الطائر الذي صنع لنفسه عشًا في المكيف خارج غرفة نومي. صرت أنتظر عودته، وأتابع، عبر السكون الذي لا يكسره شيء، تحركاته وأكتب عنها.

أخبرت سالم أنني مريضة وأنني بحاجة إلى زيارة الطبيب، وعندما سألني عمًا يؤلمني، فقلت «روحي». ضحك مطوّلًا، وقال:

- أنتِ على ما يرام. عليك فقط أن تخرجي وتذهبي لشراء ثياب جميلة، وستصبحين بأحسن حال.

لم أكن أملك الطاقة لأشرح له، ولا المهارة لأقنعه بشيء لا أعلم ماهيته، وغير قادرة على وضع أصبعي على موطنه، فاستمرّ الألم واستمررنا في نكرانا وتجاهلنا له!

كانت رحمة قد بلغت الثلاث سنوات حين وجدنا مدرسة ذات سمعة جيّدة، تستقبل الأطفال في صفوف الحضّانة ابتداءً من عمر الثالثة، فشعرت ببعض الراحة. كانت رحمة طفلة جميلة ليس في عيني فقط، بل في عيني أيّ شخص غريب يراها. كان وجهها مستديرًا وخدّاهَا منتفخين، وعيناها تميلان إلى الأزرقاق. أمّا شعرها فكان يُشبه شعر الدمى، وينسدل حول وجهها على شكل لفائف ذهبية اللون، وكان الغرباء يبتسمون ويلوّحون لها أينما حلّت. لطالما راقبتها وافتنت بجمالها، وتساءلت كيف لشخص مثلي أن يجلب طفلة بهذا الجمال، وكيف لجسدي الذي يشبه أرضًا محترقة أن يُنبِت زهرةً بنضارة ورقة رحمة!

لم يكن ذهاب رحمة إلى المدرسة أمرًا سهلاً. لقد بكت

وتعلّقت بشيabi ككلّ الأطفال في الأيام الأولى، حين وضعتها في باص المدرسة بين زملائها الصغار. ظننت أنّ البكاء سيتوقّف بعد الأسبوعين الأوّلين، ولكنّ بكاء رحمة استمرّ، وكانت في أحيان كثيرة تواصل بكاءها لساعات في المدرسة ممّا يسبّب لها التقيؤ. كانت معلّمتها تتصل بي وتطلب منّي الحضور لاصطحابها إلى المنزل. لم تتخطّ رحمة قلق الانفصال عنيّ إلّا بعد نهاية الشهر الثالث من العام الدراسي. ولكنّ تصرّفاتنا في المنزل تغيّرت، فراحت تنتظرني عند باب الحمام حين أستحمّ، وحتى إنّ أردت استخدام المرحاض لدقيقة. وأصبحت تأتي إلى سريري في الليل وتجلس في حضني في السيّارة، بعد أن أمضت السنوات الأولى تمام في سرير منفصل، وتجلس في المقعد المخصّص للأطفال في السيّارة.

لا أعرف بأيّ آليّة عجيبة تنتقل طبائعنا إلى أولادنا. ذكرني تعلّق رحمة بي بتعلّقي بأُمّي. وكان كلّ ما بقي في رأسي من ذلك المشهد القديم منديل أُمّي وهو يتعد في النافذة المطلّة على سلّم المدرسة، والعصا الطويلة التي تنهال على جسدي الضعيف بالضرب حتى أتوقّف عن البكاء ومحاولة الهرب. علّمتني العصا أنّني كبرت، وأنّ مكاني لم يعد بجانب أُمّي. فهمت منذ ذاك اليوم أنّ لأُمّي حياتها ومشاعلها، ولي صفّ الروضة ووجوه الأطفال المذعورة ورائحة البول التي تفوح من سراويلهم.

أرعبتني مقارنة طفولتي بطفولة رحمة. لم أكن أريد لها هذا المصير ولا ذاك الانكسار الذي يولّده التعلّق. لا بدّ أنّ التعلّق خلّل جينيّ يجب معالجته. حين أنظر إلى الورياء، لا أرى أنّ

تعلّقي بأُمِّي قد انتهى أمره. أظنّ أنّ معضلة التعلّق والألم الذي نتج عن انفصالي عن أُمِّي أخذ شكلاً آخر. أخذ شكل التماهي مع وجعها. فأنا لم أعد في حاجة لأن أكون إلى جانب أُمِّي، لكنني غير قادرة على فصل نفسي عمّا يحدث لها. أشعر أنّ كلّ ما حدث لها أصابني، وكلّ ما حرّمت منه عذّب روحي. تمنّيت ألا يُصيب رحمة أيّ جزءٍ من هذه المعادلة، ولكنني سأكتشف لاحقاً أنّ التواضع يذيب نصف المخاوف، وأنّه في الحقيقة ليس لنا قولٌ فيما سيحدث وما لن يحدث لأطفالنا. الإنسان وحده من يستوعب - بعد أن ينتهي كلّ شيء - ماذا حدث له فعلاً.

ذهاب رحمة إلى المدرسة أعطاني وقتاً أطول مع نفسي. قرّرت أن أمضيه في ممارسة الرياضة والقراءة وتدوين الأفكار، ولكنّ كلّ المشاريع التي خطّطت لها في المساء كنت أتقاعس عن تنفيذها حين يأتي الصباح. ساعدني السكون المطبق في المنزل، منذ الساعة السابعة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر، أن أراقب انفعالاتي. أن أُميّز الأشياء التي تثير فيّ القلق والأفكار التي تسبّب لي ضيقاً في التنفّس. قرأت قليلاً عن حالتي في الإنترنت، ولكنّ كثرة التشخيصات وتضاربها جعلاني أتخلّى عن البحث. لاحظت أنّ طقّة مفتاح سالم في الباب الخارجي للمنزل تسبّب لي ضربات قلب سريعة، وكذلك صوت دعساته على السلالم. لاحظت أيضاً أنّني لم أعد قادرة على النوم في السرير بجانبه، لأنّه يشخر، ولأنّ أيّ صوتٍ يكسر السكون مهما كان خفيفاً يجعل قلبي يخفق بسرعة، وقد يستغرق الأمر ساعاتٍ لأعود إلى طبيعتي.

اتَّخَذَتْ مِنَ الصَّالُونَ الْكَبِيرِ الَّذِي لَا يَدْخُلُهُ أَحَدٌ مَكَانًا لِي .
وَضَعَتْ فِي الْمُنْتَصَفِ إِسْفَنْجَةً كَبِيرَةً لِلنَّوْمِ وَوَسَادَةً رَقِيقَةً ، وَصَرَتْ
أَنَامَ هُنَاكَ فِي اللَّيْلِ . وَفِي الصَّبَاحِ ، بَعْدَ أَنْ أَضَعَ رَحْمَةً فِي بَاصِ
الْمَدْرَسَةِ أَعُودَ إِلَى إِسْفَنْجَتِي وَأَسْتَلْقِي عَلَيْهَا لِمُدَّةِ سِتِّ سَاعَاتٍ
مُتَوَاصِلَةٍ ، أُحَدِّقُ فِي السَّقْفِ وَالْثَرَيَّا الْكَبِيرَةِ الْمَدْلَّاةِ فَوْقَ رَأْسِي .
قَبْلَ وَصُولِ رَحْمَةٍ بِسَاعَةٍ أَوْ نِصْفِ سَاعَةٍ أحيانًا ، كُنْتُ أَجَرَّ نَفْسِي
إِلَى الْمَطْبَخِ لِأَعِدَّ لَهَا صِنْفًا مِنَ الْأَطْعَمَةِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي تَتَنَاوَلُهَا .
كَانَتْ هَذِهِ السَّاعَةُ هِيَ أَصْعَبُ سَاعَاتِ النَّهَارِ ، وَفِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ،
كُنْتُ مِنْ شِدَّةِ اكْتِنَابِي وَقَلَّةِ حِيلَتِي أَبْكِي ، لِأَنَّنِي غَيْرُ قَادِرَةٍ عَلَى
النَّهْوِضِ وَالدَّخُولِ إِلَى الْمَطْبَخِ ، ثُمَّ أَتَخَيَّلُ وَجْهَ رَحْمَةِ الْجَمِيلِ ،
الطِّفْلَةِ الَّتِي سَتَأْتِي إِلَى أُمِّهَا الْمُسْتَلْقِيَةِ فِي الْمَنْزِلِ كَجَثَّةٍ ، فَأَبْكِي
وَأَجَرَّ نَفْسِي مُجَدِّدًا لِأَحْضُرَ صِنْفًا لَا يَتَطَلَّبُ مَجْهُودًا ، فَأَسْلُقُ لَهَا
الْمَعْكُرُونَةَ أَوْ أَطْبَخُ لَهَا الْأَرْزَ .

وَفِي يَوْمٍ ، كُنْتُ أَفَكِّرُ كَيْفَ أَسْتَجْمَعُ قُوَّتِي لِأَنْهَضَ مِنْ فَوْقِ
الْإِسْفَنْجَةِ لِأَدْخُلَ إِلَى الْمَطْبَخِ ، وَلَكِنَّنِي كُنْتُ أَشْعُرُ بِدَوَارٍ شَدِيدٍ ،
وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِي جَسَدِي يَشُدُّنِي إِلَى الْأَرْضِ ، حَتَّى جَفَوْنِي
كَانَتْ تَسْتَعْصِي عَلَى الْفَتْحِ . كَانَتْ سَتَائِرُ الْمَنْزِلِ مَغْلُقَةً وَأَنَا فِي
الْمَنْزِلِ وَحْدِي ، فَزَحَفْتُ إِلَى الْمَطْبَخِ عَلَى يَدَيَّ وَرَكْبَتَيَّ . فِي
مُنْتَصَفِ طَرِيقِي إِلَى الْمَطْبَخِ ، رَأَيْتُ نَفْسِي مِنْ خَارِجِ جَسَدِي .
لِلْحِظَّةِ ، شَعَرْتُ أَنَّ لِي نَظْرَةَ الطَّائِرِ ، وَرَأَيْتُ نَفْسِي أَزْحَفَ مِثْلَ
حَيَوَانٍ أَلَيْفٍ وَسَطَ هَذَا الْأَثَاثِ الْفَاخِرِ ، فَانْهَرَتْ بِالْبُكَاءِ ، وَعَدَتْ
زَاخِفَةً لِفَرَاشِي دُونَ أَنْ أَجْهُزَ أَيَّ طَعَامٍ . وَبِمَجْرَدِ وَصُولِي إِلَى
هُنَاكَ ، فَتَحَ سَالِمُ بَابِ الصَّالُونَ وَنَظَرَ إِلَيَّ وَأَنَا مُلْقَاةٌ عَلَى

الإسفنجة، فاقترب منّي دون كلام، ونزع سرواله وألقى بنفسه فوقي بعد أن رفع ثيابي وراح يرّجني حتى أشبع رغبته. كنت أتساءل كيف أنّه لم يلاحظ أنّ وضعي النفسيّ يسوء يوماً بعد يوم! كيف لشخصٍ له تكويني نفسه، ويملك مثلي دماغاً وجهازاً عصبيّاً وقلباً أن يكون على هذا القدر من الجهل بما يحدث لي. كيف لا يشعر بأنني لست بخير؟ كان سالم في حالة نكرانٍ تامٍّ بشأن ما أمرّ به، ولم تشفع لي معاناتي، فلم يتوقّف عن مضاجعتي وأنا في تلك الحالة. لقد كان يأخذ حاجته منّي كلّ يوم تقريباً وأنا ملقاةً على ذلك الفراش الإسفنجيّ مثل جثة، ثم ينهض ويرتدي ثيابه ويخرج ليكمل نهاره غافلاً عمّا ترك وراءه من دمار.

ما يؤلمني فعلاً أنّني طوال تلك المدة، كنت أظنّ أنّ هذا من حقّه. لا أعلم كيف توصّلت إلى ذلك الاستنتاج، علماً بأنني لم أتلقَ أيّة محاضرةٍ في هذا الشأن من أهلي أبداً. كيف تسرّب لي شعور الجارية الذي يقول إنّ هذا الرجل يملك جسدي، حتى وأنا غير قادرةٍ على الحراك والاهتمام بابنتي عليّ أن ألبي رغباته؟ كيف يكون حميمياً مع جسدي ولا يشعر بالآلام روحي؟ كيف سأمضي بقيّة حياتي على هذا النحو؟

كلّ هذا جعل احتمالي لنفسي ولجسدي منعدمين. صرت أكره مكاني فوق الإسفنجة، وأهرب إلى السطح لأجلس خلف خزّان المياه وقت الغروب. عند تقاطع الجبلين الكبيرين ناحية الغرب، يبدو جزءٌ صغير من البحر. كان هذا الجزء يعينني كثيراً. كنت أرى لمعان المياه على بعد عشرات الأميال، وأنتظر أن أشعر بخفقان روحي كما شعر غولدموند في رواية هيرمان هيسه

بروحه وهو يراقب لمعان الأسماك من فوق الجسر، بعد أن خسر كل شيء وأصبح مشرّداً. حين نظرت إلى لمعان تلك القطعة الصغيرة من البحر صدّقت غولدموند. ولكن ماذا عن روعي؟ لماذا لا تخفق؟

وقفت على حافة السطح، ورحت أحدّق في الحقل تحت البيت. كنت على ارتفاع ثلاثة طوابق، ولكن الأرض كانت تبدو قريبة. حدّقت في الأتربة والأحجار ثم تخيلتها تغرق في دمي. إن قفرت الآن سأكون قد غادرت في لحظة، أنا اخترتها أمام البحر الذي أحبّ. راق لي أن أهوي من الطابق الثالث بالتزامن مع نزول الشمس في البحر. أغمضت عينيّ وتأهّبت للسقوط الحرّ. أردت أن أفكر بشيء أحبه في طريقي إلى الموت، فلمع وجه رحمة في مخيلتي وكان وجهها يضحك. ابتسمت لها لاإرادياً فلا أحد يستطيع ألا يردّ على ابتسامة طفلٍ بابتسامة. ماذا ستفعل رحمة من غير أمّها؟ من سيمحو صورتني وأنا غارقة في دمي في الحقل من مخيلتها؟ انتشلتني هذه الأسئلة من نفسي، ورمت بي في وجدان فتاةٍ عمرها ثلاث سنوات. ففتحت عينيّ وتراجعت خطوة إلى الوراء.

علمت في تلك اللحظة أنّ فكرة الانتحار أصبحت قريبة منّي، وأنني قد أعود إليها في موجة انفعالٍ لا تسمح للحظة تروّ أو خيالٍ بأن تخترقها. حاولت أن أبعد نفسي عن فكرة الموت بالأشياء التي أحبّها، مثل كتابة الشعر والتنزّه في الغابات المحيطة. رحت أكتب لأقاوم الكآبة واليأس الذي يزحف إلى قلبي، والموت الذي أصبح أحلم به كل ليلة وكأنّه الحبيب.

أنشأت حسابًا في الفايسبوك بناءً على طلب شقيقتي نيرمين، وصرنا نتواصل أكثر من السابق. لم تبدُ لي سعيدة، ولكنني فضّلت ألا أسألها عن السبب، وانتظرت أن تُخبرني متى شعرت بالحاجة إلى البوح. من جملة من ظهروا أمامي على الفايسبوك كان الأستاذ خلدون، فأرسلت له طلب صداقة على الفور، وفرحت عندما اكتشفت أنه يزور الموقع باستمرار. تحدّثت معه وأرسلت له بعض النصوص التي كتبتها. لم أكن أتوقّع أنه سيثني على كتاباتي ويكرّس وقتًا ليحلّلها ويكتب ملاحظاته وأفكاره حولها. ثم بدأ يعطيني نصائح بشأن النشر، ويقترح عليّ دور نشرٍ يعرف أصحابها. ولكنني أخبرته أنّ ما أكتبه لا يستحقّ أكثر من مشاركة مع الأصدقاء، وأنّي لست مؤهّلةً لخطوةٍ من هذا النوع.

في حديثنا التالي، فاجأني بأنّه عرض بعض قصائدي على صديقٍ له يعمل بالنشر، وهذا الصديق وافق على نشر الديوان. ثم عرض أن يقوم بتنقيح الديوان كهديّةٍ منه بصفته أستاذًا في اللغة العربيّة. أثّر بي لطفه وكرمه وكأنّه كان يقول لي «ما زال هناك أشياء جميلة في هذه الحياة». كانت هذه المبادرة الشيء الجميل الوحيد الذي حصل لي تلك السنة.

تولّى الأستاذ خلدون مشروع الديوان، فنقّحه وأرسله إلى دار النشر من أجل المراجعة الأخيرة، ثم طلب منّي الحضور للتوقيع على العقد. اتّفقنا على اللقاء في مقهى في منطقة بعقلين. أخبرت سالم أنّني سأخرج لشراء بعض الحاجيات، لأنّه لن يقبل بمثل هذا اللقاء، وسيدّعي أنّه سيدمرّ سمعته كما أنّه لا يعرف شيئًا عن الديوان.

حين وصلت رأيت خلدون جالسًا على كرسيٍّ في طرف المقهى تُخيم عليه شجرة سنديانٍ كبيرة. كان أمامه فنجان قهوة وقد بدا من بعيدٍ أكبر سنًا ممَّا عهدته، وقد بدأ الشيب يزحف إلى شعره وأصبح ظهره أكثر تقوُّسًا. سلَّمت عليه بلهفة:

- سعيدة لرؤيتك.

- وأنا سعيد بك يا أمل. أظنَّ أنه سيكون لك مستقبلٌ جميل في الكتابة.

- أعرف أنَّك تقول هذا تشجيعًا لي.

- لا يا أمل. أنا متعبٌ من النفاق والمجاملة. أنا أقول هذا لأنَّ هذه هي الحقيقة، ولم أعد أسمح لشيءٍ أن يجبرني على الكذب.

شعرت بانقباضٍ في معدتي عند سماع لهجته، وفهمت أنَّ الأستاذ خلدون ليس بخير. أردت أن أسأله ما به وأن أقول له إنني مستعدَّة لسماعه. أردت أيضًا أن أسأله عن حبيبته، ولكنَّ طبيعتي منعتني من أن أنبش في غرفه المظلمة. فاكتفيت بالقول:

- أنت أصدق إنسانٍ عرفته.

تكلَّمتنا عن التعليم، وكيف أصبح يرى أنَّ مهمَّته في هذه الحياة هي مساعدة الأجيال الصاعدة على إيجاد أصواتهم وتشجيعهم على معرفة ما تتوق إليه أنفسهم، ثم السعي للوصول إلى المكان والبقاء فيه.

- السعادة مثل ضوء الليزر يا أمل.. في كلِّ مرَّة نحاول القبض عليها تفرّ وتستقرّ خارج يدنا! ربَّما علينا أن نصبح نحن

ذلك الضوء الصغير الذي نطاردّه، أو ربّما من الأجدى أن ننسى
أنّ لنا أيادي، ونتوقّف عن محاولة القبض على الأشياء!

توقّف قليلاً، ثم قال فجأةً:

- تعالي نختار عنواناً لديوانك.

- لم أفكّر في الأمر، ولكنّ يسعدني أن تختار عنواناً
باعتبارك عرّاب هذا الديوان.

فكّر قليلاً، ثم قال:

- فليكن.

انتظرتّه أن يكمل جملة، لكنّه لم يفعل.

- فليكن ماذا؟ قلتُ.

- «فليكن» هو العنوان. فليكن أيّ شيءٍ يا أمل.. فليكن
الحبّ، أو الأمل، أو الخلود أو الموت! «فليكن» هي صرخة
الوجود الأولى قبل ما كان أيّ شيء، ولهذا يمكننا أن نصنع منها
أيّ شيء.

- فليكن إذن. أنا موافقة.

كان حديثه غامضاً، وتأويل كلماته يشبه القيادة في الضباب.
خفت أن أرتطم بالمعاني الكامنة وراء ألغازه، وحاولت أن أفكّر
أنّه يمرّ بوقتٍ عصيبٍ، وغداً سيكون حاله أفضل. وقّعت على
الأوراق وودّعت الأستاذ خلدون شاكراً، ووعدني أن يحضر حفل
توقيع ديوان «فليكن» حين يصدر.

حين أنشأنا صفحاتنا على الفايسبوك لم يكن أحدٌ منّا يتخيّل

أنَّ هذه الصفحة ستصبح المكان الذي سيحرِّك مشاعرنا، ويضعنا على قطارٍ مجنونٍ من العواطف صعودًا وهبوطًا! ولم يكن أيُّ منَّا نحن التكنولوجيين الجدد يتخيَّل أنَّنا سنقرأ خبر موت إنسانٍ يعيننا وقد وضع أحدهم خطًّا أسودَّ عريضًا على زاوية صورته مع بعض كلمات الرثاء. في السابق، كان أشخاصٌ آخرون ينقلون لنا خبر موت الأحبَّاء. فنجد من يواسينا ويُقدِّم لنا بعض كلمات العزاء. ولكنَّ حين نواجه الموت ونحن في ملابس النوم جالسين في فراشنا آمنين، يكون لوحشته طعمٌ آخر.

«عزيزي خلدون

فليكن موت.

هذا ما أسفرت عنه صرخة وجودك القصير بيننا. كان يجمعنا حلمٌ واحدٌ وتفصلنا طاولةٌ وفنجانا قهوة. لماذا لم تُخبرني أنَّك كنت تفكِّر في الانتحار أيضًا؟ لماذا لم تبك وتشتم لتغسل قلبك كالصغار؟

هل صحيح يا خلدون أنَّك متَّ من أجل الحبِّ؟

هل بإمكان الحبِّ أن يقتل؟

هل صحيح أنَّ جميعهم خذلوك بمن فيهم حبيبك؟

أخبروني أنَّك اخترت الموت بجانب النهر بعد أن أتممت واجبك، وأنَّهيت دوامك في الثانويَّة. ماذا قال لك النهر حتى أوقفت سيَّارتك، وأخذت البندقيَّة وأطلقت رصاصةً على قلبك؟ هل كنت مثلي مسكونًا بمحنة الجريَّان؟ أنا أجري داخل نفسي يا صديقي. روعي تشبه غزالةً تهول داخل عجلة فأرٍ في قفصٍ

فاخر، تركض من زاويةٍ إلى أخرى لتجد أنَّ جميع الأبواب موصدة. الأنهر بهجة المساجين، وخلاصٌ يُشبه العودة إلى رَحَم الأمّهات.

يا لشجاعتك يا خلدون! قرّرت أن تغادر، لأنَّ هذه الحياة برحابتها لم تكن على مقاس قلبك.. لأنَّ الحبّ الذي كسرك لم يعرف طريقه إلى قلب من ادّعوا أنَّهم قد أحبُّوك!

أفكّر في أمّك الآن. متى سيبدأ موسم انتظارها لك أمام باب بيتكم كي تعود؟ هناك اعتقادٌ شائعٌ أنَّ من يموت قتلاً يتذكّر حياته السابقة وينطق. وأنت؟ إن كان لك أن تختار، هل ستتذكّر هذه الحياة التي بخلت عليك بالمرأة التي أحبيت، وحرمتك منها باسم الله؟

تقبّل اعتذارنا يا خلدون، لأنّك عشت بيننا وتألمت ولم يشعر بألمك أحد. لأنّنا أمّنا الحبّ وكبّلناه وأعلينا عليه الدّين والقبيلة؛ وهكذا، أصبح الطائر تحت رحمة السجّان. لا تليق بك السجون يا صديقي. حلق بعيداً من هنا! لا تتذكّر هذه الحياة ولا تعد! ليس هناك انتماءاتٌ وأوطانٌ لأمثالنا».

شبّان المنطقة الذين وجدوا الجثّة جانب النهر صوّروها وتناقلوا مقاطع الفيديو فيما بينهم. قال بعضهم إنّه «كان من الأشرف له أن يموت في حربٍ دفاعاً عن طائفته»، وقال آخرون «الله لا يقيمه، فقط الكفّار هم من يُزهقون أرواحهم». كانوا يجتمعون كالفئران حول جثّته فيما روحه تحلّق في مكانٍ بعيد!

كانت وفاة خلدون بمثابة صفةٍ لي . مات خلدون وبقي من
حرمه أن يعيش حياته بالطريقة التي تمنّاها . رحل وكأنّه لم يكن
يومًا . بكاه أبواه ، وأقام تلامذته حفلًا تكريميًا لتأبينه ، وأبى
المشايع حضور مأتمه ومن التكرّم على روحه بالرحمة . ولكن لم
يعد يهتمّ خلدون أيّ من هذا الآن ! لم يهتمّ من بكى ومن ندم
ومن شتم ومن ترخّم وهو الذي لم يرحمه أحدٌ في حياته ! كلّ
قوانيننا وأفكارنا وأمنياتنا تصبح بلا قيمةٍ في عالم الأموات . من
أجل ماذا مات خلدون ؟ هل مات من أجل الحبّ ؟ الحبّ نفسه
الذي يُحيي الروح ويُعيد الأموات إلى الحياة ؟ ربّما مات غرقًا
داخل قلبه ولم يقوَ على تحمّل الإعصار الذي تركه وحده يلاطم
الأمواج داخل هذا القلب !

ماذا عنيّ إذن ؟ من أجل ماذا سأموت ؟

أحضرت ورقة وقلمًا ، وجلست لعدّ الأسباب التي ستبرّر

انتحاري، ولكنني لم أتمكن من كتابة سوى كلمة واحدة في القائمة: الألم. هذا الشعور الدائم الذي يملكني وكأنني في مأزق أو في كابوس لا ينتهي، وكأن حياتي فُحَّ أستيقت منه في كل صباح حتى أسقط فيه مجدداً. لكن هذه ليست أسباباً محدّدة وواضحة مثل السبب الذي مات من أجله خلدون. هذه ليست أسباباً واضحة ومقبولة لطلب الطلاق، فما بالي بالموت! تمنيت لو أن لي قصة تستحق الموت مثل قصته كي لا يكون موتي ضيلاً مثل حياتي.

من الصعب أن نستبعد دور القدر في حياتنا، حتى لو كنّا عقلانيّين إلى حدّ بعيد. هناك جوعٌ ما في دواخلنا للمجهول، لاستراق النظر إلى عالم نشعر به ولا نراه. وعندما تأتينا ومضةٌ منه نسارع لكتابة قصيدة، أو نجلس منتشين مثل الأنبياء الذين نزل عليهم الوحي للتوّ. ربّما أتى مفهوم القدر من هناك، من ذلك العالم الذي فيه شيءٌ من السحر والذي يختلف عن حيواتنا المسطّحة والكئيبة! ربّما اخترعنا مفهوم القدر لنصدّق أنّ هناك من يرانا ويعمل لمصلحتنا، وقد نكتفي بأن يرانا نحن الأشباح المرئيّين عن طريق بيولوجيا العين فقط!

وإن كانت يد القدر هذه شيئاً وهمياً فما الذي أعاد سالم إلى بيتنا بعد مقابلتنا الأولى، رغم أنّها لم تسر على ما يرام؟ وما الذي جعلني أوافق على عودته؟ وأيّة معجزة أتت برحمة إلى حياتي بعد أن أصبحت طالبةً في الجامعة؟ لماذا لم أحبل بها قبل ذلك رغم محاولات التلقيح؟

بعد أيّامٍ من موت خلدون، تلقّيت اتّصلاً من الجامعة

الأميركيّة في بيروت. قالت السكرتيرة على الجانب الآخر:

- أوّد التحدّث إلى السيّدة أمل بو نمر.

- تفضّلي.

- انتظري لحظة.. رجاء. رئيس كلّية التعليم يوّد التحدّث

إليك.

خفق قلبي بشدّة وأنا أستمع إلى الموسيقى الكلاسيكيّة فيما
أنتظر أن يرفع الدكتور رفعت السّماء:

- ألو.. أمل هل أنت معي؟ سأل بلهجة فيها الكثير من رفع
الكلفة.

- أهلاً دكتور.

- أريد أن أسألك إن كنت مهتمّة بشهادة ماجستير في التعليم
مدفوعة التكاليف بالكامل مقابل العمل هنا في القسم معنا.

كانت الصدمة أقوى من أجيب بنعم أو لا. فأكمل:

- سأعطيك مهلة للغد لتقرّري. نحتاج إلى مساعدين في هذا
القسم، وقد رشّحك أساتذتك لهذه الشهادة. أنتظر ردّك غدًا..
إلى اللقاء.

- شكرًا لك دكتور. إلى اللقاء.

ماذا تحاول الحياة أن تقول لي؟ ولماذا أتى هذا الاتّصال في
الأسبوع نفسه الذي انتحر فيه خلدون، والذي كتبت فيه لائحة
للأسباب التي ستجعلني أقدم على الانتحار؟ هل هذه رسالة
مستترة من الحياة لي؟ ثم هل أنا قادرة على هذه الخطوة؟ وقبل

أن أكمل السؤال جاء الجواب في رأسي واضحًا: «لا، لست قادرة على ذلك». من الذي أجاب عن سؤالي؟

حاولت أن أشرح أفكاري كما يفعل أساتذة علوم الأحياء. فكّرت بالحواجز جميعها. فكّرت بسالم وبال حرب الجديدة التي سأخوضها معه. ثم فكّرت برحمة وبرنامجها الدراسي. لقد اختلفت الظروف الآن، ولم يعد بمقدوري أن أبقّيها عند أمّي وهي تذهب إلى المدرسة كلّ يوم، ثم فكّرت باكتسابي: كيف لي أن أتحمّل مسؤوليّات طالبة ماجستير وباحثة ومسؤولة عن تنظيم مؤتمرات علميّة وأنا غير قادرة على الاستحمام؟ من أين سأتي بالطاقة لأدخل الحياة من جديد؟

لم أقل شيئًا لسالم حين عاد إلى المنزل في المساء. كانت طاقتي محدودة للغاية، وعرفت بفطرتي أنّني يجب أن أحتفظ بهذه الطاقة لما هو أهمّ من الخناق العقيم معه. في الصباح، وضعت رحمة في باص المدرسة وشربت القهوة مع سالم وكأنّه يوم آخر من الأيام التي سأقضيها وأنا مستلقية على ظهري كالجثث. وعندما غادر سالم، استحمت ولبست ثيابي وتوجّهت إلى بيروت إلى عيادة الطبيب جميل محفوظ في شارع خالد بن الوليد. علمت من منشورٍ على أحد المنتديات التي تدعم المرضى النفسيين وتُجيب على أسئلتهم أنّ هذا الطبيب يستقبل مرضاه في ساعاتٍ محدّدة من النهار ومن غير موعدٍ مسبق.

عرفت من اسم الطبيب على اللافتة - والذي كُتب بخطّ غسل المطر معظم سواده - أنّي وصلت إلى المكان المنشود. تسلّقت درج البناية القديمة المؤلّفة من ثلاثة طوابق بحذرٍ كبير، وضغطت

على الجرس أمام الباب الخشبي للعيادة. استقبلني الدكتور جميل بنفسه. «تفضلي» قال وهو يحمل سيجارة في يده. لم يكن هناك أحد آخر في العيادة. لا موظفة استقبال ولا مرضى آخرون. قطعنا غرفة الانتظار المليئة بالمقاعد الجلدية السوداء، ودخلنا إلى مكتبه ذي الرائحة الغريبة. جلس خلف مكتبه وهو يدخن، وطلب مني الجلوس على الكرسي المقابل له.

- أنت مَحْظُوظَةٌ لأنَّكِ وجدتني هنا. لا أحد يأتي لطبيب نفسي في هذا الوقت المبكر.

نظرت إلى ساعتى فوجدتها تشير إلى التاسعة والنصف. بعد أن ملأ الطبيب ملفي بالاسم الثلاثي وتاريخ الميلاد وتفاصيل أخرى، قال:

- لماذا أنتِ هنا؟

- أريد دواءً للاكتئاب كي أستطيع الاستمرار في حياتي.

- نعم، ولكن كي أعطيك دواءً عليّ أن أعرف ماذا يضايقك؟
قد لا تحتاجين دواءً بعد إخباري!

- أرجوك، دكتور. أنا لست هنا لأتحدّث عن حياتي لأحدٍ بهدف تحليلها. أنا هنا لأنني انتهيت من التحليل والتعليل، ولأنني الآن بحاجةٍ إلى حبة دواء.

- حسنًا، إن كان هذا خيارك فأنا أحترمه، ولكنني على الأقل أريد أن أعرف ما هي العوارض، وأقرّر بنفسي، بصفتي الخبير هنا، إن كنت مكتئبةً وبحاجةٍ إلى دواء - قال بلهجةٍ فوقية.

أخبرته أنني أشعر أنني محاصرةٌ ومكررة. أخبرته عن نوبات

الهلح والأفكار الانتحاريّة والخدر في رأسي، وكيف أمضي أيّامي وأنا مستلقيةً على ظهري لساعاتٍ ولا أقوى على فتح جفوني.. هزّ الطبيب رأسه وهو ينصت لكلامي، ثم قال:

- إن لم يكن قد حصل لك صدمة قويّة في الماضي القريب فأنا أرجّح أنّك تعاني من اكتئابٍ مزمن. وهذا النوع من الاكتئاب قد يخمد لفترةٍ ويعيش مع المرء لسنوات، حتى يحركه حدثٌ ما فتتفعل أعراضه القاسية من جديد.

وصف لي دواءً اسمه «سبيرالكس» لمدة ستّة أشهر، وطلب منّي أن أزوره بعد أسابيع. عندما خرجت من العيادة، كان الوقت ما زال مبكرًا، فذهبت إلى مقهى في «عين المريسة» يُطلّ على البحر وكأني أدعو نفسي إلى اجتماع مصيريّ بعيدًا عن جوّ المنزل وما يرافقه من مشاعرٍ سلبية. أردت أن أستجمع طاقتي لأخبر سالم أنّي قبلت منحة الماجستير من الجامعة الأميركية، وكنت أعلم أنّ شهادتي الدراسيّة الأولى كانت بمثابة الكابوس بالنسبة له، وأنّه استراح وتنفّس الصعداء عندما انتهيت منها وصرت زوجته فقط.

لقد أصبحت أعرف سالم معرفةً عميقة، ليس بسبب الحبّ أو الألفة إنّما لكثرة ما مشيت على رؤوس أصابعي فوق أرضه الوعرة، ولفرط ما تجنّبت انفعالاته. سالم الذي سيعترض حتمًا على جلوسي في هذا المقهى، والذي رفض لسنواتٍ زيارتي لطبيبٍ نفسيّ، والذي يريد إشعارًا بكلّ خطوة أقوم بها، كيف سيرضى بهذا المشروع الجديد الذي لن يكون مجرد دراسة، بل عملاً مدفوع الأجر؟

لقد عرفت منذ الطفولة أنّ المرأة في مأزق. لا أستطيع أن أقفني أثر هذه المعرفة أو أحدد الوقت لاكتسابها، لأنّها معرفة تراكميّة كبرت معي وأصبحت جزءاً منّي، مثلما كبر جسدي وخوفي من أبي. بقيت هذه المعرفة مستترةً في داخلي متنگرةً بي حتى صارت أنا وليس مجرد جزء منّي. ظننت كلّ حياتي أنّ الوضع الطبيعيّ لحياة المرأة هو شعور المأزق، حتى أتى اليوم الذي شعرت فيه بحاجةٍ ملحةٍ للخروج منه. كان عليّ أن أفصل نفسي عن هذه الفكرة وأن أنظر إليها من الخارج، لأدرك أنّ الرجل هو سبب المأزق في حياتي.

ربّما بدأ الأمر منذ الصغر، حين كانت أمّي تحرص على عدم إخبار والدي بشيءٍ عن أخطائنا أنا وأخواتي كي لا يضربنا. فكنا جميعاً نتسرّ على شقاوة بعضنا، وكانت أمّي تتسرّ على معارك أخواتي التي قد تصل إلى إصاباتٍ ظاهرة نضطرّ إلى تبريرها بأعذارٍ مختلقة. وفي حال أرادت واحدةٌ منّا أن تذهب لزيارة صديقاتها في القرية أو للقيام بنزهةٍ معهنّ في البساتين، كنّا نخفي الأمر عن أبي أيضاً. لقد كان يرفض كلّ ما نستسمحه بشأنه من دون أيّ نقاش. كان يرفض فقط لغاية الرفض. وهكذا، أصبحت كلّ أنواع الفرح أو الترفيه تتمّ في الخفاء. وحين كان أبي يعود إلى المنزل فجأةً، ونحن نستمع إلى الموسيقى وندرقص فوق الأسرّة، كنّا نتسابق إلى زرّ الراديو لنطفئه، ونجلس صامتات كأننا كائنات أخرى مختلفة عن تلك التي كانت ترقص فرحاً منذ دقائق. وفي مرّة، اقتنينا قطّةً وعاشت معنا في الخفاء لعدّة أشهر من غير أن يعرف أبي بوجودها، وحين زاد مواؤها وأوشت بنفسها، قامت

قيامته وحملها من عنقها ورماها في مكانٍ بعيد.

عندما تزوّجت أصبح سالم هذا الرجل. لاحظت أنّه عليّ أن أمارس الحذر نفسه في وجوده. كان ينزعج حين أضحك بصوت عالٍ، وينزعج حين أرفع صوت الموسيقى في البيت أو في السيّارة! ومنع عليّ تدخين السجائر أو النرجيلة مع أخواتي وصديقاتي، وحدّد وقت عودتي إلى البيت وعلاقاتي بالأشخاص، وطلب منّي أن أقطع علاقتي بأكثر من امرأة رأى فيها نوعاً واضحاً من «الفرفشة» وحبّ الحياة وغياب التصرّف التقليديّ. وكان يقول عن النساء المتحرّرات إنّهنّ «عاهرات»، ويكرّر قصصاً سمعها عن نساءٍ في قريته من شبّانٍ آخرين دون أن يملك أيّ دليلٍ على كلامه. وحين ألقت نظره بالقول:

- لك زوجة وابنة، كيف تتكلّم عن نساءٍ لا تعرفهنّ بالسوء؟
ألا تخاف أن يبادلك الرجال بالمثل؟

كان يستشيط غضباً، ويردّ:

- تدافعين عن امرأةٍ لا تعرفينها، فقط لتبرهني أنّ زوجك على خطأ. حتى لو كنتُ على خطأ يجب عليكِ التسترُ عليّ.

لم يعرف سالم أنّه في تلك المرحلة من علاقتنا كانت أيّ امرأةٍ في العالم أقرب إليّ منه، وأنّني لا يمكن أن أتسترَ على رجلٍ خاصّةً إذا كان الطرف الآخر في الصراع امرأة. وهكذا، أصبحت أخفي عن سالم كلّ أنواع الفرح. أقابل صديقاتي اللواتي لا يعجبهن في الخفاء، وأدخّن معهنّ النرجيلة ثم نقود السيّارة ونرفع صوت الموسيقى. ومع الوقت، تلاشت ملامح سالم وأبي

في غرف «الممنوع» في رأسي، وأصبح هناك رجلٌ مجهولٌ يسكن
غرفي المظلمة، هو غالبًا بلا هويّة أو وجهٍ محدّد. رجلٌ عليّ أن
أخافه وأحذر منه طوال الوقت؛ لأنّه لا يريدني أن أفرح، ولأنّه
يوجّه أصابع الاتّهام نحوي طوال الوقت. رجلٌ لا يعجبه شيءٌ
مما أفعله، ويتربّص بأخطائي على مدار الساعة.

وحين بدأت أقرأ عن معالجة الجرح النفسي للنساء عن طريق
قصص الجدّات من العصور القديمة، مررت على قصّة عن ثلاث
أخواتٍ جميلاتٍ تعرّفن على رجلٍ غريب الشكل، له لحيّة زرقاء
غامقة مخيفة. أراد صاحب اللحية الزرقاء أن يتزوّج إحداهنّ؛
لكنّ الفتاة الأكبر سنّاً رفضته، وقبلت أصغرهنّ الزواج منه لأجل
ماله وقصره وخيوله. وحين غادرت عائلتها وذهبت للعيش معه في
قصره الفاخر وسط الغابة، قال لها إنّها سيذهب في رحلة صيدٍ
وإنّها تملك كلّ الحرّيّة للتنقّل في جميع غرف ومخازن القصر
باستثناء غرفةٍ وحيدة في القبو. حرّم عليها فتح تلك الغرفة.
أخذت عروسه منه مجموعة المفاتيح ووعدته بأن تحفظ وصيّته.
وما إن غادر البيت حتى دعت أختيّها لقضاء النهار معها. وبعد
نزهتھنّ في الغابة وركوب الخيل، أخبرت أختيّها عمّا قاله زوجها
«ذو اللحية الزرقاء». تحمّست أختاها لدى سماع الخبر وأقنعتاها
بلعب لعبة إيجاد الغرفة الممنوعة. جالت الأخوات الثلاث في
القصر، وفتحن مستودعات الطحين والحبوب والذهب والمال..
وحين وصلن إلى القبو، كان هناك مفتاحٌ صغيرٌ في المجموعة لم
يستخدمه بعد. حملت الزوجة المفتاح الصغير ووضعت في خرم
الباب لتعرف إذا ما كان هذا هو مفتاح الغرفة الممنوعة.

ولدهشتهم، استدار المفتاح وانفتح الباب على جبلٍ من الجماجم والهيكل العظميَّة. صرخت الزوجة وأغلقت الباب بسرعةٍ ووضعت المفتاح في جيبها، ولكنَّ المفتاح بدأ ينزف وغطى ثيابها بالدم. هربت أختها وتركناها لمصيرها. حاولت الزوجة أن توقف نزيف المفتاح بالرماد وبشعر الحصان وبالدموع، لكنَّ النزيف لم يتوقَّف.

عندما عاد «ذو اللحية الزرقاء» من رحلته، علم أنَّ زوجته عصت أوامره، فشدَّها من شعرها وقال لها إنَّ ساعتها قد أتت لتهلك هي أيضًا، لأنَّها لم تنفِّذ تعاليمه.

«لقد أعطيتك حرِّيَّة لتفعلي أيَّ شيءٍ تريدينه، لكنَّك عصيتني وفعلتِ الشيء الوحيد الممنوع عليك»، زمجر وهو يجرُّها من شعرها إلى غرفة الموت.

تقول المعالجة النفسيَّة التي حلَّلت القصَّة إنَّ «ذا اللحية الزرقاء» هو صوت المتربِّص الفطريِّ الموجود في نفس كلِّ امرأة. وكانت تدعو النساء إلى استشفاف رمزيَّة الحرِّيَّة من القصَّة، وتحثَّهنَّ على طرح السؤال الكبير. السؤال الذي نراه بطرف أعيننا ونتمعَّد تجاهله، لأنَّ لا شيء يقدر على إيقاف النزف حين نضع يداً على السؤال.

ذو اللحية الزرقاء أعطى زوجته إحساسًا مزيفًا بأنَّها حُرَّة. كانت حُرَّة لتأكل وتشرب وتلبس ما يحلو لها، ولكنَّها لم تكن حُرَّة لتفهم نفسها لتطرح الأسئلة التي من شأنها فتح الغرف المظلمة في قعر روحها. ثم فكَّرت في نفسي: أين هو السؤال

الذي فتح غرفتي المظلمة؟ ولماذا لا أتجرأ على التحديق في
الظلام القابع داخلها؟ كيف سأتمكّن من الإجابة على سؤالٍ لم
يأت؟ قد لا أملك سؤالاً، ولكن هناك قوّة في داخلي تقول لي إنّ
خلاصي يكمن في قبول عرض الجامعة الأميركية واستكمال
دراستي مهما كانت العواقب. ثم يأتي صوت المتربّص المستوطن
في داخلي ليقول لي «سيهزمك المرض النفسي»، «أنت تعرفين
أنّك غير قادرة على اجتياز مثل تلك الشهادات؛ سيكتشفون زيفك
في الجامعة قريباً، وستجعلين من نفسك أضحوكة»، «ستتميّن لو
أنّك جنّبت نفسك الإحراج وتركت هذه الفرصة لطالبٍ يستطيع أن
يقوم بهذا الدور»، «لا تقبلي!»

جلست هناك أنظر إلى البحر، وأتبع الأصوات المتضاربة في
رأسي: الصوت الذي يتوسّل الحياة، والصوت الآخر الذي
يحاول منعها عني بكلّ الأساليب. شعرت برغبة في الصراخ، في
إسكات الصوتين معاً وكأنّهما طفلان شقيّان تحت رعايتي، شعرت
بأنّني أريد أن أتوسّل إلى كليهما كي يخرسا. ماذا فعلت لأستحقّ
هذا العذاب يا الله؟ هل صحيح ما قاله كارل يونغ عن أنّ البحث
عن الأنا العليا أو الله قد يؤذينا إن لم نكن مستعدّين لتلك
الرحلة؟ أنا نلت نصيبي من الأذى يا الله.. لهذا أخّرت البحث
عني. لذلك أكلّمك وكأنّك صوت آخر من الأصوات المتقاتلة في
رأسي. إن كنت حقيقياً سامحني!

خلال السنوات الأولى التي قضيتها في الجامعة الأميركية،
تعلّمت فنّ التظاهر. في المرّة الأولى التي كان عليّ أن أقدم بها
أحد مشاريعي شفهيّاً أمام كلّ الطلبة، لم أعرف طعم النوم

لأسبوع. كنت أصاب بنوبات هلع وتعرُّقٍ كثيفٍ كلَّما تذكَّرتُ أنَّ الموعد اقترَب. ولكنَّ حين جاء دوري ووقفتُ أمام البروفسور والطلبة تكلمتُ باتِّزانٍ وهدوءٍ، وأجبت عن كلِّ الأسئلة بمهارة. اكتشفتُ من وقتها أنَّ التظاهر هو الجسر الزجاجيَّ المعلَّق فوق وادي خوفي، والذي سينقلني إلى حيث أريد أن أكون. كلَّ ما عليَّ فعله هو ألاَّ أنظر إلى الأسفل، وألاَّ أسمح لتلك الأودية تحت الجسر بجذب نظري إليها مهما علا صوت الريح في قعرها.

تركت المقهى في عين المريسة، وعزمت على التظاهر بأنني واثقةٌ ثقةً تامَّةً بالخطة التالية. حبست أنفاسي حين دخل سالم إلى المنزل. عدت واستجمعت قواي لأواجهه بالواقع الجديد. اقتنصت لحظةً عابرةً في الأمسية، وقلت من غير مقدِّمات:

- آه، سالم. أريد أن أخبرك أنَّه تمَّ قبولي في الجامعة مجددًا لأدرس الماجستير عن طريق منحةٍ مدفوعةٍ بالكامل. أليس هذا رائعًا؟

قلت هذه الكلمات بثقةٍ كدت أخدع نفسي بها، لكنَّ سالم بقي صامتًا للحظات. قلت بخفَّة:

- ألن تبارك لي؟

- لماذا لم تُخبريني أنَّكِ قدَّمت على شهادةٍ جديدة؟ هل أصبحت لك حياةٌ منفصلة لا أعرف ماذا يدور فيها؟

- ببساطة، لأنِّي لم أقدم. لقد تمَّ ترشيحي من قِبَل أساتذتي. وعندما عُرض عليَّ الأمر قبلت. ليس هناك إنسانٌ سويٌّ يرفض فرصةً كهذه!

- ماذا عن رحمة؟

- رحمة كبرت، وأصبح بإمكانها تمضية بقيّة النهار بعد المدرسة عند الدتك في حال تأخّرت. على كلّ حال، سأحاول أن أختار ساعات الحضور والعمل قبل الظهر.

- العمل؟ هل قلت عمل؟

- نعم. سيدفعون تكاليف تعليمي مقابل عملي في القسم.

- أصبحتِ سكرتيرةً الآن؟ هذا الذي كنت أخاف منه، أن تصبح زوجتي سكرتيرةً لرجالٍ غرباء وأنا قادرٌ على توظيف عشر سكرتيرات.

- يا إلهي.. ما أصعب الكلام معك! سأعمل كباحثة وليس سكرتيرة، ثم لماذا تقلّل من شأنِي ومن شأن الآخرين في كلامك؟ لماذا ينتهي كلّ حديثٍ معك بالتناطح؟ قلت بنفاد صبر.

- أتريديني أن أصفّق بعد أن اتّخذتِ حضرتكِ قراراً بالدراسة والعمل من وراء ظهري؟

- لا أريدك أن تفعل شيئاً، ولكنني كنت أتمنّى أن تفرح لي مثل أيّ إنسانٍ يريد الخير والفرح لإنسانٍ آخر يعنيه. أنا لست جاريّتك يا سالم. عليك أن تفهم هذا الأمر. أنا شريكّتك، ولي حياةٌ تخصّني.

قلت هذه الكلمات، وانسحبت من الغرفة كي أقطع عليه الفرصة بالاستمرار في مضايقتي. وحين دخلت إلى غرفة رحمة - كما أفعل في كثير من الأحيان للهروب منه - وأغلقت الباب ورائي، سمحت لنفسِي بالتنفّس والارتجاف. لا أُصدّق أنّ الأمر

مرّ على خير، وأنّه لم يمنعني من قبول المنحة! لا أُصدّق أنّ
تظاهري بالقوّة بدا حقيقياً، وأنّ سالم لم يستطع أن يشمّ رائحة
الخوف التي تفوح من كلّ مسامّ جسمي!

في الحقيقة، لم تكن قوّتي المفتعلة هي التي أسكتت سالم،
ولكنّ الأمر الواقع هو من قام بذلك. أنا الآن لم أعد تلك الفتاة
التي لا تحمل شهادة، والتي سيتمكّن والدها من إعادتها إلى بيت
زوجها مثل شوال الطحين. الآن، أنا امرأة في منتصف
العشرينيّات، خريجة الجامعة الأميركيّة ومرشّحة لشهادة ماجستير
ولديّ عملٌ مدفوع الأجر. لقد انقلب السحر على الساحر، وتغيّر
مكان الحجارة فوق رقعة الشطرنج. هذا ما جعل سالم «يبتلع
الموس» ويصمت، كما يقول بكلماته حين تجبره الظروف على
السكوت.

عناق ذاكرتين

ظننت أنّ عملي الجديد كباحثة وطالبة ماجستير سيساعدني في تحسين صورتني عن نفسي، أو في أسوأ الأحوال سيجعلني أتحمّل هذه النفس من غير أن أمطرها بعبارات التحقير والكره بشكل يوميّ. ولكن، أيّ من هذا لم يحدث. كان الشعور الذي رافقني يوم دخول الجامعة الأميركية لا يزال مستمرّاً. والاعتقاد الخفيّ بأنّني هنا لأنّ جميعهم مخدوعون بي؛ وحالما يكتشفون الأمر سيطرّدونني، كان ما زال يلزمني. لقد تغيّرت كلّ ظروفني، وأنهيت البكالوريا بتفوّق، وحصلت على منحةٍ لدراسة الماجستير وعلى وظيفة.. وما زال ذلك الشعور ثابتاً لم يتغيّر. لم يتطلّب الأمر الكثير من الذكاء لأفهم أنّ المشكلة لا علاقة لها بظروفي الخارجية، ولا بعدد الرجال الذين يحاولون التقرب منّي بشكل يوميّ. كانت المشكلة بعيدةً جدّاً وعميقةً بعمق النوم الذي حظيت به على الفرش الوثيرة للصمت، متجاهلةً حبة الفول التي تبين

لاحقًا أنها حبة بلوط، فنمت وتشعبت أغصانها لتمزق طبقات الصمت وتخرق كياني كأسياخ من حديد.

لم يحمني الصمت كما ظننت، بل كان محاولة للهروب القصير الذي سيلاحقني طويلًا. لقد خسرت مع كل صمتٍ احترامي لنفسِي، وغدّيت ذلك الصوت الذي يحقّرني عبر الاستماع له بشكلٍ يوميّ. «كلّ ما نركّز عليه ينمو» - قرأت هذه العبارة يومًا، وفهمت أنّني لم أكن وفيّةً لشيءٍ بحجم وفائي للصوت الذي يكرهني بداخلي. هذا الصوت الذي يعلم أنّ أحدًا لم يحبّني بحقّ. من أين لشخصٍ لم يتلقَ حبًّا صافيًا أن يشعر بقيمة ذاته؟ وكيف لشخصٍ لم يحبّ حبًّا صافيًا أن يثق بقدرته على فعل أيّ شيءٍ بنجاح؟ أعترف لنفسِي بكلّ الخزي أنّي لم أحبّ أحدًا حبًّا صافيًا. حبّي لأُمِّي يحمل أطنانًا من الوجد والثقل، جعلته يشبه كلّ شيءٍ إلّا الحبّ. وحبّي لابتني اتخذ شكل الشعور بالذنب حتى قبل أن ألتقيها!

حاولت ألا أغوص كثيرًا في دواخلي المظلمة؛ لأنّ مسؤوليتي كانت كبيرة. نجحت بأن أوفّق بين مهامِي الجامعيّة وواجباتي كأُمّ وزوجةٍ إلى حدّ كبير. لم أكن أخرج مع زملائي بعد العمل للعشاء أو لحضور أيّ نشاطٍ ثقافيّ، لأنّ لي طفلةً وزوجًا ينتظراني في البيت على مسافة ساعة ونصف الساعة من الجامعة. وهكذا تعودت أن أقرأ نشرة الأخبار الجامعيّة سريعًا من غير أن أركّز على الفعاليّات التي تحدث في الجامعة من ندواتٍ ثقافيّةٍ وأمسياتٍ شعريّةٍ وحفلاتٍ لموسقيّين كلاسيكيّين وغيرها، كي لا أشعر بالغصّة. كنت أظنّ في أعماقي أنّ الوقت الذي أمضيه في

الجامعة كي أتعلم وأعمل ليس من حقّي، فكيف لي أن أفكر في اقتطاع وقتٍ للترفيه ومواكبة هذا المجتمع المخمليّ؟

لا أعرف إن كنت قد انتبهت قبل ذلك اليوم لمدى أهميّة الاستثناءات. الاستثناء يُشبه منعطفًا قويًا في طريقٍ طويلٍ يمكن للإنسان أن يسلكه وهو مغمض العينين. ربّما احتمال وجود الاستثناء هو الذي يبقينا متيقّظين في الرتبة الممتدّة لحيواتنا! كنت في كليّة التعليم في الغرفة المخصّصة لمساعدتي الباحثين آكل سندويتشي وأتفحص النشرة الإخبارية للجامعة حين قرأت ذلك الاسم الذي أعرفه جيّدًا. كان إعلانًا لمحاضرة بعنوان «صورة المرأة في الأديان» يلي العنوان اسم المحاضر وتفاصيل المكان والزمان. أيعقل أن يكون هو؟ من سيكون سواه؟ هذا الموضوع يشبه اهتماماته جدًّا. لقد رأيتَه للمرّة الأولى في فيديو تمّ نشره في منتدى ثقافيّ للنساء. حين دخلت المنتدى ذاك اليوم كنت عازمةً على توقيف عضويّتي فيه، لأنّ أغلب المنشورات أصبحت أسئلةً عن الطبخ أو مسائل عاطفيّة تشبه مشاغل المراهقات. عندما رأيت إشعارًا من المنتدى دخلت لألغي عضويّتي، وإذا بفيديو يظهر أمامي: «الكاتب حامد عبد السلام يناقش ورطة المرأة العربيّة». راقبته وهو يتكلّم عن التحدّيات التي تواجهها النساء في عالمننا العربيّ. وكيف أنّ تزاوج السلطة الأبويّة والتراث والدين والنظام الاقتصاديّ جعل من تحرّر المرأة من غير أضرارٍ نفسيّة واجتماعيّة ومعنويّة أمرًا شبه مستحيل. كان يتكلّم باندفاع وحرقة وكأنّ القضية تعنيه بشكلٍ مباشر. ثم ناقش فكرةً من كتاب بعنوان «الوجه العاري للمرأة العربيّة» لنوال السعداويّ، فسارعت وكتبت

اسم الكتاب كي أقرأه لاحقاً. وبعد ذلك، اشتريت الكتاب الذي تحدّث عنه، واشتريت روايةً له اكتشفت حين قرأتها أنّها قصّة حياته. من يومها وأنا أتابع كتاباته وأقرأ مقالاته وأشاهد جميع مقابلاته.

«الأربعاء الثالث والعشرين من مارس. الساعة السادسة مساءً. ويست هول أوديتوريوم A»، رحت أكرّر لنفسى هذه التفاصيل. للوهلة الأولى، قلت لنفسى «حتمًا سأذهب!» هذا استثناء، ولمناسبة كهذه وجدت الاستثناءات. سأقول لسالم أيّ شيء. سأقول إنّهُ عليّ أن أعمل حتى وقتٍ متأخّر كي لا أخسر منحتي. سأقنعه. وإذا اعترض على التوقيت المتأخّر سأطلب منه أن يقلّني بنفسه ليكون مطمئنًا.

فكرت في الموضوع مطوّلًا في نهاية الأسبوع، وقرّرت أنّي لن أتحدّث عن الأمر في المنزل قبل الثلاثاء كي أتجنّب أجواء التوتّر والخناق في الأيام القادمة. ثم قرّرت أنّي سأطلب من حامد عبد السلام أن يوقّع نسختي من كتابه، وأنّني سأخبره كم أحبّ أفكاره وكم أنا متفاجئة أنّ هناك رجلًا يتحدّث عن عذابات المرأة وصراعاتها أفضل ممّا يفعل معظم النساء. عشت مع هذه الأفكار طيلة فترة نهاية الأسبوع، وكنت في كلّ يوم أقرأ المزيد عنه، وأشاهد مقابلاتٍ أخرى له بلغاتٍ لا أعرفها، وأقرأ الترجمة. ولكنّ في اليوم الذي سبق المحاضرة، غيّرت رأيي تمامًا. وجدت أنّ تقديري لهذا الإنسان وإعجابي بفكره لا يتوافق مع وقوفي في طابورٍ بين أشخاصٍ توافدوا إلى المحاضرة للمجاملة، أو لإدمانهم حضور الفعاليّات الثقافيّة والتهافت على

لقاء الفنانين والكتاب. طبعًا، لم أستبعد أن يكون هناك قرأً يحبونه، ولكنني كنت متأكدة أن أحداً منهم لم يكن يقدره مثلي. وجودي في هذه المحاضرة سيكون استثناءً. سيكون شيئاً يُخرجني من دائرة المعتاد، شيئاً لم أفعله من قبل وقررت أن أفعله فقط، لأقول لهذا الرجل الغريب إنني ممتنة له. ممتنة له لأنه تحدّث عن معاناة كلّ النساء اللواتي عرفتهنّ. لقد تحدّث عن أوجاع جدّتي وعمّتي سليمة وأمّي وغيرهنّ، وكأنّه قضى حياته بيننا في الجبل. في مجتمعاتنا، فقط حين يتحدّث رجلٌ عن معاناة المرأة تصبح هذه المعاناة حقيقةً. ولكنّ لسببٍ أجهله، شعرت أنّه يجب أن أحافظ على علاقتي مع هذا الإنسان من خلف شاشة، وأنني لن أقف في طابورٍ حتى أقول له كلّ ما كنت أنوي قوله.

في اليوم الموعد، كنت أجلس خلف مكتبي في غرفة الطلبة حين جاءتني فكرةٌ جديدة. لماذا لا أذهب وأستمع له وأنصرف بعدها فوراً من غير أن أطلب أيّ إمضاءٍ أو أقف في أيّ طابور؟ لماذا لا أدخل المحاضرة غير مرئية وأخرج منها غير مرئية، كما أحبّ أن أفعل دائماً؟ راقّت لي الفكرة، وندمت أنّني لم أفتح سالم في الأمر، فقرّرت أن أكلّمه عبر الهاتف وأخبره بأنّي سأتأخّر. اعترض سالم في بادئ الأمر، ووجّه لي الكثير من كلمات اللوم والعبارات المملومة. ولكنني طلبت منه أن يأخذ رحمة، ويذهب إلى أمّي حتى أعود حوالى الساعة التاسعة.

ذهبت إلى المحاضرة وحدي. لم أشأ أن يلهيني أحدٌ عن الاستماع إلى المحاضرة. قد أدفع ثمن هذا الاستثناء على شكل أسبوعٍ كاملٍ من التجهّم في المنزل، لذلك عليّ أن أستفيد قدر

المستطاع وكأنَّ وجودي هنا استثمار. حين وصلت إلى القاعة، اتَّخذت مكانًا بعيدًا في الصفوف الخلفيّة على اليمين. وحين امتلأت المقاعد وحان وقت المحاضرة، خرج أحد الأساتذة وقَدَّم الكاتب حامد عبد السلام بعباراتٍ فيها الكثير من التبجيل. وحين دخل صَفَّق له الجميع. كنت أجلس على بعدٍ لم يسمح لي برؤية ملامحه بوضوح، وهذا ما ساعدني على تركيز كلِّ اهتمامي على كلامه. تحدَّث عن صورة المرأة في الأديان القديمة والأديان الإبراهيميّة، واستشهد بسورٍ وآياتٍ وقصص من جميع الحضارات فبدأ على دراية تامّة بالمجال الذي يتحدَّث فيه. ثم انتقل إلى موضوع حرّيّة المرأة وعلاقتها بحرّيّة الرجل، وقَدَّم تحليلًا عميقًا خلاصته «لو كان الرجل حرًّا لما احتاج أن يفرض وصايته على المرأة». وذكر أنَّ الأديان في حدِّ ذاتها لا تضطهد المرأة، ولكنَّ المؤسَّسات الدينيّة أمّمت فكرة الحبّ وجعلته رهين العادات والتقاليد. فنجحت في إقناع الرجل بضرورة مراقبة المرأة وتقييد حرّيّتها. ثم نجحت في إقناع المرأة نفسها أن تكون جزءًا من آلة القهر، وأن تخاف من نفسها وتشعر بالذنب دائمًا، وأن تورث هذا الشعور لبناتها وأحفادها من بعدها؛ وأنَّ شعور المرأة المزمّن بالذنب وبعدم استحقاقها للحرّيّة هو لبّ المشكلة..

كنت منتشيّة من جمال هذا التحليل وصدقه، وكنت أردّد كلمة «تمامًا» مع كلِّ جملةٍ يقولها، لكنني سمعت رجلين يتهامسان وراء مقعدي «لا بدَّ أنَّه خائفٌ من زوجته»، قال أحدهما ضاحكًا. فأجاب صديقه «قد تكون هي من كتبت له المحاضرة».. وضحكا معًا. أمّا أنا، فقد شعرت بالغثيان وتذكّرت أنَّ استماعي لهذا

الكاتب ليس إلا ساعةً من المتعة الفكرية، وأني بعد ذلك سأعود لعالمي الضيق حيث كل الرجال يتكلمون بهذا المنطق الوضع، وحيث كل محاولات الارتقاء بهم تُترجم إلى مزاح وضحك من أجل الهروب من لحظة الحقيقة. أربني كم يشبه كلام هؤلاء الرجال في أعرق مؤسسة أكاديمية في لبنان كلام رجال القرية - الشباب منهم والكهول. هل هذا يعني أنه ما من أمل؟ أن التعليم والمجتمع المخملي والرفاهية الاقتصادية لن ينقذونا من مستنقع أفكارنا الآسن، وأنه من غير المنطقي أن ألوم شباناً قرويين لم يرتادوا جامعاتٍ في حياتهم على نظرتهم القاصرة للمرأة؟

كنت مستسلمةً لهذه الأفكار حين اختتم حامد محاضرتَه قائلاً «أنا أتكلّم عن حرّية المرأة وسط رجالٍ ونساءٍ يشكّلون النخبة الثقافية في هذا البلد، وحديثي هذا قد يشكّل لهم جرعةً فكريةً وربّما مادةً للنقاش فيما بعد! ولكنني أدرك أن من يحتاج إلى هذه الأفكار بحقّ هنّ النساء اللواتي لا يعلمن بوجود هذه الأماكن، وإن علمن بها لن يتجرّأن على الحلم بارتياها. قد يعتقد البعض منكم أن موضوع حرّية المرأة قضيةً فرعيةً تمثّل رفاهيةً فكريةً في ظلّ الظروف السياسية والاقتصادية الصعبة التي تمرّ بها منطقتنا، ولكنني أقول لكم: الحرّية لا تتجزّأ، وهناك ثلاثة معايير لقياس تقدّم أيّ مجتمع قبل المعايير الاقتصادية، وهي: كيف يتعامل هذا المجتمع مع المرأة، كيف يربّي أطفاله، وكيف يتعامل مع أقلّياته العرقية والدينية».

تجمّع بعض الطلبة حول الكاتب بعد انتهاء المحاضرة، فيما بدأت القاعة تفرّغ شيئاً فشيئاً من الحاضرين. نظرت إليهم من بعيدٍ

وهم يتحدثون ويضحكون بصوتٍ مرتفع. بقيت في مقعدي أراقبهم، وأتمنى لو أنني طبيعياً مثلهم لأذهب إليه وأشكره وأحصل على توقيعه. ولكنَّ عُقدي وكثرة الأصوات المتضاربة في رأسي لن تسمح لي بمثل هذه الفرصة. حملت كتابه الذي اصطحبته معي بين يديّ، وضغطت عليه حتى ابيضَّت رؤوس أصابعي ثم دسسته في حقويتي، نظرت إلى حامد من بعيد نظرةً أخيرة قبل أن أخرج وأضيع تلك الفرصة إلى الأبد.

اضطرت للكذب على سالم، وأخبرته أنّه كان عليّ أن أبقى من أجل محاضرةٍ تمّ تأجيلها، لأنّ البروفسور عنده ظرفٌ طارئ. بدا ممتعضاً، وقال إنّ هذه مشكلة البروفسور، وإنّه لا يريد أن أتعوّد على العودة إلى البيت متأخرة ثم قال: «ما بدّي تاخذي كسرة» - وهو مصطلحٌ يعود إلى الثياب حين تُثنى بشكلٍ خاطئ أثناء الكيّ أو الطيّ ويبقى مكان الثنية أو الكسرة فيها بشكلٍ دائم. جعلتني هذه الجملة أشتعل من الداخل وأنا أتذكّر كلّ الانحناءات والثنيات الخاطئة التي تمّ كيّها وطيّها بداخلي طوال كل هذه السنوات!

- لا أحبّ منطقك وفكرة «أخذ كسرة». أنا لست قطعة قماشٍ ولست حيواناً أليفاً.

- ولكنّ في كلّ مرّةٍ أسمح لك بشيء تطمعين فيما هو أكثر منه. ماذا ستفعلين بعد سنتين؟ أو ثلاث.. ها؟

- تحبّ أن تُشعرنني أنني أتسوّل حرّيتي منك. أليس كذلك؟
أتظنّ أنّ هذا سيجعلني أحبك أكثر، مثلاً؟ أتظنّ أنّ هذا الأمر سيجعلك تحتفظ بي إلى الأبد؟

- إلّا مَ تلمّحين؟

- أَلَمْح لك أن تبدأ بالتفكير المنطقيّ، بل أرجوك وأتوسّل إليك أن تفكّر بشكلٍ منطقيّ!

كان قدومي إلى المنزل والحديث مع سالم بعد سماعي لكلام حامد عبد السلام يشبه السقوط الحرّ من غير مظلة. كنت أودّ لو أستطيع أن آتي إلى المنزل، وأناقش تلك الأفكار مع أحدهم، ولكنّ سالم كان حتمًا سيفقد صوابه لو حدّثته عنها. سالم يظنّ أنّي أكثر امرأة تتمتع بحريّتها، وأكثر امرأة تتحدّى التقاليد بين كلّ نساء الجبل، وأنّه هو أكثر الرجال تساهلاً وتفهمًا.

المفارقة هي أنّ هذا الكلام صحيحٌ إلى حدّ بعيد. لقد كنت وقتها المرأة الوحيدة التي ارتادت المدرسة ثم الجامعة من بيت زوجها، والمرأة الوحيدة التي سُمح لها بقيادة سيّارتها إلى بيروت وفي العودة إلى المنزل متأخرةً في بعض الأحيان. ولكن لو قبلت بهذه المقارنة، سأكون قد سمحت لخيارات الآخرين أن تحدّد حياتي! وهذا أمرٌ خطير. ذكّرني ذلك بكلام حامد عبد السلام في محاضراته من أنّ المجتمع يخدع المرأة أحيانًا بتحسين شروط عبوديّتها ويُسمّى ذلك حرّيّة، وأنّ هذه الخدعة تنطلي على كثيرٍ من النساء. لقد رضيت أمّهاتنا باللاشيء، لذلك تحتم علينا أن نكون ممتنّاتٍ للقليل، وأن نشعر أنّ القليل هو أكثر من حقّنا، وأننا إن لم نقدر القليل سنكون جاحدات. ولكنّ من له الحقّ أن يحدّد ما هو قليلٌ وما هو كثير، حين نتكلّم على الحرّيّة؟ هل هو الزمان أو البقعة الجغرافيّة أو نسبة التعليم، أو المصير الذي رضي به من سبقونا من النساء؟!

هل صحيح أنَّ ما نتوق إليه بكلِّ كيانا يحدث لنا بفعل قانون الجذب؟ أم أنَّ الإنسان يُلهي نفسه بهذه الأفكار كي يتحمَّل قفر حياته؟ ثم ماذا عن المخاوف؟ هناك من يقول إنَّنا نساعد مخاوفنا على التحقق إذا ما ركَّزنا عليها؛ وآخرون يقولون إنَّ توقنا الكبير لشيء ما يجعله يكبر بداخلنا حتى يتحقَّق. لا أعرف إن كان عندي توقُّ لشيءٍ حقيقيٍّ في الحياة. لقد فكَّرت في الشهادة الجامعيَّة منذ الصغر وحقَّقت ما صبوَّت إليه، ولكنني لم أصبح سعيدةً بعدها، ولم أشعر بطعم الانتصار. هل يمكن أن تكون الحياة بهذه الضحالة؟ هل يمكن أن نحلم ونخطِّط ونعمل ونذلِّل الصعاب حتى نقف أمام صرح انتصارنا ظمئين لاعنين الطريق وما تركه من تشوُّهاتٍ على أقدامنا وأرواحنا؟

جميع زملائي يحبُّون يوم الجمعة. ينتظرونه بفارغ الصبر حتى يأتي، ويُطلق سراحهم من غرفهم الضيقة والملفَّات المكدَّسة

والعمل الذي لا ينتهي . كنت أسمعهم يخطّطون لخروجهم مساء الجمعة والسبت ، فيقرّرون السهر في «الجميزة» أو «مار مخايل» أو في حانات الحمرا . لقد توقّفوا عن دعوتي للخروج معهم ، لأنّهم يعرفون أنّ أمل تجمع أغراضها وتُسرع إلى بيتها البعيد بين الجبال عند نهاية الدوام . وقد ظنّ بعضهم أنّ ديني الدرزيّ يُحرّم عليّ السهر ، ولم أشعر بالرغبة في أن أشرح لهم أنّي لست ملتزمة دينيّاً ، وأنّني لا أمتنع عن السهر لسبب دينيّ . ولم أقل لهم أيضاً إنّ ديني يحرم على الملتزمين به كلّ أشكال وألوان الفرح وليس السهر فحسب . أمّا أنا ، فلم أكن أحبّ يوم الجمعة ، لأنّه يعني أنّه عليّ أن أواجه شعوري بالضيق الذي يسكنني وأنا في المنزل ليومين كاملين .

كنت أجمع أغراضي وأستمع لمخطّطات زملائي حين خطر لي أن أتفقد بريدي الإلكترونيّ للمرّة الأخيرة قبل أن أغادر المكتب . وإذا بي أجد رسالةً جديدة في بريدي الإلكترونيّ . كان الإيميل من بروفيسور يعمل في كلّية التعليم حيث أعمل ، ولكنّه ليس من أساتذتي . تفاجأت برسالته نظراً لعلاقتي السطحيّة به وعدم وجود أيّ سببٍ للتواصل . فتحت الرسالة المكتوبة بالإنكليزيّة :

«عزيزتي أمل ،

أكتب لك كي أسألك إن كنت مهتمّة بالتطوُّع لمساعدة الدكتور حامد عبد السلام بمناقشة وضع المرأة الدرزيّة في المجتمع وصورتها في الدّين . اعذرني لأنني أطلب منك هذا بناءً على دينك ، ولكنني لا أعرف درزيّة غيرك في هذا القسم . تذكّري

أَنْتِ لست تحت أيّ ضغطٍ لتقبلي هذا العمل التطوعي، بل أنتِ
حرّةٌ لترفضي من غير أيّ مبرّر. أنتظر ردّك.
تحيّاتي».

حين رأيت اسم حامد عبد السلام، أخذت عيناى تقفزان
فوق السطور، وفقدت قدرتي على التركيز الكامل لأفهم ما يريده
البروفسور منّي. لذلك أخذت نفّساً عميقاً ثم أعدت قراءة الرسالة
وأنا أشعر بَحَدَرٍ في رأسي. أيعقل أن يحدث هذا؟ لقد ظننت
أنني فوّتُ فرصة رؤية هذا الإنسان للأبد حين جبت وغادرت
محاضراته من غير أن أحدثه أو أطلب توقيعه. ماذا عليّ أن أفعل
الآن وقد جاءت فرصة لقائي به إلى صندوقى البريديّ؟ أنا من بين
كلّ الطلاب والباحثين اختارني القدر أن أكون ذات فائدة له.
رحت أفكر إن كنت سأقبل أم لا! ثم صعقت من نفسي ومن أن
فكرة الرفض كانت احتمالاً قائماً. لماذا أرفض لقاءه وأنا لا أكرّ
لهذا الرجل سوى الكثير من الإعجاب والاحترام؟ الأرجح أنني
أميل إلى الرفض، لأنني أفكر أنني غير جديرة برؤيته، ولأنني أظنّ
أنني لن أعرف كيف أجيب على أسئلته وقد أجعل من نفسي
أضحوكة. لقد جعلت نفسي محور الأمر. يا للهول كم هو خطيرٌ
ولعوبٌ هذا الاكتئاب! أنا لست محور الحدث هنا، بل الكاتب
وبحثه هما محور الحدث، وأنا فقط أقدم له مساعدةً بإخباره ما
أعرفه. هذا ليس امتحان IQ وهو لا يعرف أنني موجودة ولا من
أنا أصلاً. خففتُ هذه الأفكار من توتري، ثم قرّرت أنه عليّ أن
أجيبه بالموافقة الآن قبل أن أغير رأبي. وهكذا، سيتعذّر عليّ
الرفض.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى أرسل لي البروفسور إيميلاً آخر يحدّد زمان ومكان لقائي بحامد عبد السلام، ويسألني ما إذا كان الوقت يناسبني. كان عندي يومان كاملان كي أجهّز نفسي لهذا اللقاء، ولكنّ من شدّة معرفتي بنفسي، قرّرت ألا أفكر بالأمر كي أتجنّب بناء جدار من التوتّر قد يؤثّر على أدائي وهدوئي. خطرت لي فكرة أن أعيد قراءة روايته، ولكنني عزفت عنها، لأنني شعرت أنّ فرصة لقائه كإنسانٍ أهمّ من تقريرٍ عن حياته كتبه في وقتٍ ما. ولهذا، قرّرت أن أشغل نفسي بأشياء أخرى لا علاقة لها به حتى أصل إلى اللقاء الموعود نهار الاثنين بعد نهاية دوامي في إحدى غرف الاجتماعات في كليّة التعليم.

لقد حان الوقت إذن، وسأتمكّن من لقاء الرجل العربي الوحيد الذي أعرف، والذي يشعر بمعاناة المرأة ويحلّل أسبابها بجرأةٍ شديدةٍ دون شعارات ودون مجاملة للمجتمع ولا للمرأة نفسها. طرقت الباب ودخلت. كان هناك جالساً خلف طاولةٍ مستديرةٍ تتسع لثمانية أشخاص، ويقلّب مجموعة أوراقٍ أمامه. رفع نظره حين دخلت، ثم حرّك كرسيّه إلى الخلف قليلاً ووقف ليصافحني:

— أهلاً أمل.

— أهلاً بك، قلت بصوتٍ منخفض. وجلست على كرسيّ إلى يساره تاركةً كرسيّاً فارغاً بيننا. بدا أصغر سنّاً ممّا يبدو خلف الشاشة، وملامحه أقلّ حدّةً وفيها شيءٌ من براءة الطفولة. جلست هناك منتظرةً أن يطرح عليّ أسئلةً تخصّ المرأة الدرزيّة، ولكنّه قال:

- كيف حالك؟

لم أكن مستعدةً لهذا السؤال على بساطته . لقد كنت متأهبةً لأجيب عن أسئلةٍ تخصّ جميع النساء . لقد كنت مستعدةً لأن أتكلّم بتدفّقٍ وانفعالٍ عن الآخرين، ولكنّ لم أكن مستعدةً للإجابة عن أيّ سؤالٍ بسيطٍ عنيّ . أقول له إنّني بخير كما يُجيب 99% من البشر . أقول إنّني لست بخير، وهذا ما لا يبحث عنه أيّ شخصٍ يسأل هذا السؤال . لاحظت أنّ إجابتي تتأخّر، وأنّ الوضع سيُصبح حرجاً فقلت له :

- أشعر بأنني أفضل الآن . شكرًا لك . وبعد أن شعرت بغرابةٍ إجابتي، سألته :

- هل تستمتع بإقامتك هنا؟

- نعم، أحبّ بيروت، ولكنّ يا للأسف، إقامتي ستنتهي قريباً . وأكمل :

لا أعرف إن كانت لديك فكرةٌ عن عملي وكتاباتي، ولكنني مهتمّةٌ بوضع المرأة في العالم العربيّ والعوامل التي تُبقي تقدّمها في دائرةٍ مغلقة .

كان يجب أن أخبره أنّني أعلم كلّ هذا، وأنّني من أشدّ المعجبين بفكره، وأنّني قرأت كلّ كتبه واستمعت لكلّ محاضراته أونلاين، ولكنني بقيت صامتةً، وأومأت برأسي كي يُكمل حديثه :

- كلّ ما أعرفه عن الديانة الدرزيّة يأتي من الكتب والمراجع التاريخية، ولكنّ لم تتسنّ لي الفرصة لأطلع على هذه الديانة من خلال شخصٍ من داخل هذا المجتمع .

- أنت تتكلّم مع الإنسان المناسب، لأنّي وُلدت وتربّيت في هذا المجتمع ولم أغادره أبدًا.

- كيف تصفين وضع المرأة في المجتمع الدرزيّ؟ هل تعتبرين أنّ هذا الدين أنصفها؟

أردت أن أكون على قدرٍ عالٍ من التجرّد، لذلك رحت أتكلّم بشموليّة.

- ليس هناك كيانٌ موحدٌ اسمه المجتمع الدرزيّ. على الرّغم من عددنا القليل، إلّا أنّ وضع المرأة يختلف بحسب نسبة الالتزام الدينيّ في العائلة ومكان السكن ونسبة التعليم والوضع الاقتصاديّ عند الأبوين.

ثم أخبرته أنّ المجتمع الدرزيّ منقسمٌ إلى عُقّال وجُهاّال، أو جسمانيّين وروحانيّين، وأنّ الجسمانيّين ليس مطلوبًا منهم ممارسة أيّ شعائر دينيّة، ولكنّ علينا أن نؤمن بالدين (من غير أن نعرف تمامًا ما ينصّ عليه)، وألّا نختار أزواجنا وزوجاتنا من خارج الملة.

- وما هي الشعائر التي يمارسها العقّال؟ هل يصلّون ويصومون؟

- لا. هم يجتمعون للعبادة كلّ يوم خميس في مكانٍ يُسمّى الخلوة، وليس هناك خمس صلواتٍ في النهار، ولا صيام. صمتٌ قليلًا، ثم أكملت:

- الفلسفة من وراء إعفاء المتديّنين من الصلاة والصيام هو تجنّب إحلال هذه الشعائر مكان السعي الحقيقيّ لمعرفة الله. إذا

رَكَزَ الإنسان على الطريق قد يظنّ أنّ الطريق هو المقصد .
وهكذا، شيئًا فشيئًا تأخذ العبادة التي هي من شأن النفس شكلَ
الشعائر والطقوس، ويضلّ الإنسان الطريق .

– فلسفة جميلة، قال حامد وقد ظهر الهدوء التام على
ملامحه . وأردف قائلاً :

– ماذا عن المرأة الملتزمة دينيًا! هل أنصفها الدين؟

– نسميهنّ بالشيخات . ولا أستطيع أن أجزم إن كان الدين
أنصف أيًا من النساء والرجال، ولكنّ ما هو مطلوبٌ منها دينيًا لا
يختلف كثيرًا عمّا هو مطلوبٌ من الرجل . أستطيع أن أقول إنّ
المرأة والرجل متساويان حين يتعلّق الأمر بالواجبات الدينيّة،
كالتعقّف عن الملذّات وعن أكل الحرام .

ثم رحت أخبره عن اللباس المفروض . كيف أنّه على الرجال
المشايع أن يحلقوا رؤوسهم ويربّوا شواربهم، ويلبسوا القمصان
السود ذات الأكمام الطويلة والسرّاويل ذات البحور الواسعة .
وكيف أنّه على النساء أن يلبسن أثوابًا طويلةً سوداء ومناديل بيضاء
كبيرةً يُغطّي طرفٌ منها الجزء الأسفل من الوجه . وهكذا، لا يميّز
الدين بين جسد المرأة وجسد الرجل، بل يطلب من الجنسين
التخلّي عن المظاهر من أجل العبادة . كما شرحت له كيف يحرم
الدين تعدّد الزوجات، وينهى عن الملذّات الجسديّة بجميع
أشكالها للنساء والرجال معًا . وكذلك يأمرنا بالتخلّي عن عالم
المادّة والجاه والسلطة بالانصراف إلى معرفة الله .

– جميل، أمل . . هل تُخبرون الناس بهذه الأمور حين
تبشّرون؟

- ليس عندنا تبشير. نعتقد أنَّ الدعوة أُغلقت منذ حوالى ألف سنة، وأنَّ الدروز لا يزدون ولا ينقصون.

- لم أفهم آخر جملة. هل ممكن أن توضحي من فضلك؟
- أعتذر؛ ظننت أنك تعرف أننا نؤمن بالتقمُّص، وأنا أتكلَّم على هذا الأساس.

- بالطبع، أعرف أنَّ الدروز يؤمنون بتناسخ الأرواح.

- جيّد. الإيمان بالتقمُّص هو ركنٌ أساسيٌّ في الدين الدرزيّ، أو دين التوحيد كما يُسمّيه المشايخ. الإيمان بالتقمُّص يأتي من حسن الظنّ بالله وبسعة رحمته. لهذا، يُعطي الله الإنسان أكثر من فرصةٍ في رحلته للانعقاد، ويسمح له أن يختبر الوجود في عدّة أدوارٍ وفي أكثر من حال.

صمتُ قليلاً، ثم أضفت:

- القميص هو الجسد، والذي يتقمَّص يبدّل قميصه وتبقى روحه نفسها في كلّ الأجيال. الدروز يؤمنون أنَّ الدرزيّ يتقمَّص لدى الدروز. لا يمكن أن نولد عند دياناتٍ أخرى، ولا لدياناتٍ أخرى أن تولد عندنا.

كنت أشعر بعدم الارتياح حين ذكرت حقائق عن ديني، أراها غير منطقية، ولكنني كنت أذكر نفسي أنني هنا من أجل أن أخبره عن الديانة بشكلٍ عام، وليس عن إيماني الشخصي.

- ماذا عنك يا أمل؟

جاء صوته وكأنّه يأتي من داخل رأسي، وكأنّه امتدادٌ لأفكاري. فحبست أنفاسي لأسمع بقية السؤال:

- بصفتك فتاةً جامعيّة لا ترتدين زيّ الدين، أفهم أنكِ نجوتِ من تعاليم الدين وقوانينه الصارمة؟ سأل مستفسراً.

- لقد حصلتُ على تعليم جامعيّ، ولكنني لا أعرف إن كنت قد نجوت! «إنّ تحرُّر المرأة من غير أضرارٍ نفسيّة واجتماعيّة ومعنويّة أمرٌ شبه مستحيل»، قلت مقتبسةً كلامه الذي سمعته في أوّل فيديو رأيته له.

رفع نظره، وحدّق في عينيّ من غير أن يقول أيّ شيء.

دخل بعدها البروفسور الذي نسّق لقاءنا إلى الغرفة مستعجلاً حامد، مذكّراً إيّاه باقتراب موعد العشاء. بعدها، تبادلنا الإيميلات وأخبرني أنّه قد يكتب لي في حال ظهر عنده أيّ أسئلة إضافية. ثم صافحني قائلاً:

- أقدّر تجرّدك وصدقك في الكلام عن موضوع حسّاسٍ كالدين. لقد تشرّفت بلقائك.

- الشرف لي، قلت باقتضاب ثم غادرت.

شعرت بالرضى عن نفسي بعد انتهاء الاجتماع. لا أعرف أين ذهب الشعور بالتوتر، ومن أين جاء كلّ هذا الارتياح! خرجت بعدها إلى الـ «غرين أوغل» Green oval وهو مساحةٌ خضراء كبيرة على شكلٍ بيضاويٍّ أمام الـ «فيسك هول». واستلقيت على العشب تحت الشمس للمرة الأولى. لقد كنت دائماً أتمنّى أن أستلقي على العشب الأخضر كما يفعل بقيّة الطلبة والقطط، ولكنّ تشنّجي الدائم، وشعوري كأنني في العقد الخامس من عمري، وأنّه من غير اللائق أن أتصرّف بعفويّة.. كان دائماً

يمنعني. اليوم، أشعر باسترخاءٍ غير عاديٍّ، وكأنَّ هناك قطعة جليدٍ قديمة في داخلي قد ذابت للتوّ. لا أعرف من أين أتاني ذلك الشعور، ولكنَّه كان جميلًا وعذبًا.

بعد يومين من لقائي بحامد عبد السلام، وجدت رسالةً منه في البريد الإلكترونيَّ يجدد فيها شكره لي، ويسألني ما إذا كانت هناك مقاماتٌ درزيَّةٌ معروفة، وما إذا كان من السهل الوصول إليها. هممت بكتابة ردٍّ يحتوي على قائمةٍ بالمقامات الأساسيّة وعناوينها، ولكنني بدلًا من هذا، كتبت له:

«هل تودُّ أن تزور إحداها معي؟ سأكون مرشدتك السياحيَّة».

لم تمرّ دقائق حتى أرسل إيميلًا آخر:

«طبعًا. يسعدني جدًّا».

ثم اتَّفَقنا على المكان والوقت الذي سنلتقي فيه. وعندما أصبح المشوار واقعًا، شعرت بشيءٍ من الذعر. ماذا دهاني؟ كيف عرضت عليه تلك الفكرة؟ ماذا سأقول لسالم؟ ماذا لو تعرّف عليّ الزوّار في المقام بحكم أن «الدروز سلسلة»، ويتعرّفون على بعضهم بعضًا أينما حلّوا. ثم إنّ السيّارة التي أقودها رباعيّة الدفع، فاقعة اللون، يسهل التعرّف عليها وتلفت النظر بشدّة. ماذا إن رأني أحدهم مع رجلٍ غريب، وأخبر سالم؟

على الرّغم من علمي أنّ الذي أقوم به - على بساطته وبراءته - يُعتبر تخطّيًا للخطوط الحمراء في مجتمعي، إلّا أنّ شيئًا ما بداخلي جعلني أريد التمسك بهذا المشوار بكلّ قوّتي. كلّ ما عليّ فعله الآن هو التقليل من خطورة هذه الرحلة إلى أدنى حدٍّ

ممكن. لقد أمضيت حياتي بين أشخاص غريبين عني في الفكر والروح، لماذا أضيع على نفسي فرصة مرافقة كاتب، أحب أفكاره وأغتني بها؟

قرّرنا أن نذهب إلى المقام نهار الأربعاء، لأنّه كان على حامد أن يغادر بيروت ويعود إلى برلين نهار الخميس. لذلك كتبت إلى البروفسور الذي أعمل معه، وأخبرته أنّه سيتعذّر عليّ المجيء إلى المكتب نهار الأربعاء. ثم بدأت بالبحث عبر الإنترنت عن مكتب لتأجير السيّارات بالقرب من الجامعة كي أركن سيّارتي في الموقف المعتاد في شارع «بليس»، وأذهب إلى مكتب تأجير السيّارات سيرًا على الأقدام لأستأجر سيّارة لنهار واحد. بدوت راضيةً عن مخطّطي، لأنّ السيّارة الغريبة ستموّه هويّتي، كما أنّ السيّارة التي أقودها ليست فعلاً سيّارتي، بل هي إحدى سيّارات العائلة، وتحمل اسم سالم على أوراقها. وإن كنت سأفعل شيئاً أعرف أنّ سالم لا يوافق عليه، فلن أستخدم سيّارة باسمه لهذا الغرض.

جلست متفاجئةً من نفسي بعد أن خطّطت لكلّ شيء. لم أوافق على فكرة الخروج مع رجلٍ من قبل. لقد جلست مع أساتذتي وزملائي في كافيتيريا الجامعة، حيث تشكّل هذه الجلسات جزءاً طبيعياً من الحياة في الجامعة الأميركية. ولكنني رفضت أن أخرج مع طلابٍ أو أساتذة حاولوا التقرب منّي لإعجابهم بي. لم أجد رغبةً أو مبرراً للتعرف على أيّ رجلٍ، لأنني كنت أعني أنني امرأة متزوجة، وكنت في مكانٍ ما في داخلي أرفض الخيانة بشكلٍ قاطع. «الخيانة»، تلك الكلمة المرعبة التي

تنسف كيان المرأة من أساساته، وتنزع عنها كلّ حقوقها وأيّ فرصةٍ للتعاطف معها. لم تكن الخيانة موضوعًا مطروحًا في حياتي؛ فالخيانة بالنسبة لي كانت تعني خيانة أمّي وليس زوجي. لا أفكرّ بسالم قطّ حين يتقرّب منّي أحدهم. ربّما لأنني لا أحبه، أو لأنني خنت نفسي حين تركته يحولّني إلى أداة جنس! ولكنّ ليس لأُمّي ذنبٌ في كلّ هذا. أمّي التي حرّمت من كلّ شيءٍ لا تستحقّ أن تكون ابنتها خائنة. لن أتمكّن من النظر في عينيها إن أصبحت خائنة.

الغريب، أنني لم أفكرّ بأيّ من هذا حين خطّطت للرحلة مع حامد. لطالما رفضت تبني فكرة المجتمع بأنّ أيّ تعاطٍ مع الجنس الآخر يعني علاقةً شخصيّةً وخيانة. نحن أكثر من أجساد، ورحلةٌ مع شخصٍ مثل حامد ستكون حدثًا عظيمًا في حياتي.

كان ينتظرني في ردهة فندق الريفييرا في تمام الساعة التاسعة كما اتّفقنا. وحين رأيّ متّجهًا نحوه، وقف ليصافحني:

- صباح الخير، أمل. هل تودّين شرب القهوة قبل المغادرة؟

- دعنا ننطلق الآن قبل الزحمة، وسنشرب القهوة لاحقًا.

تبعني حامد حتى وصلنا إلى السيّارة الرماديّة الصغيرة التي استأجرتها، فركبناها وانطلقنا في رحلتنا.

- نحن في طريقنا إلى أيّ منطقة؟ سأل حامد.

- إلى نيحا. هل سمعت بها من قبل؟

- لا.

- سنأخذ إحدى أجمل الطرق في لبنان، وسيتسنّى لك أن

تستمتع بمنظر الطبيعة والجبال .

- أحب زيارة الجبال والغابات دائماً، ولكنني في أسفاري أميل إلى السكن في مناطق تطلّ على البحر، قال حامد .

- لقد عشت طوال حياتي بين الجبال . لي معها علاقة شائكة . فهي دليلٌ على الثبات والاستمرار وكذلك على الجمود . في بعض الأحيان، أنظر إليها فيخطف جمالها أنفاسي، وفي أحيانٍ أخرى، أنظر إليها فأشعر أنّها جاثمةٌ فوق صدري، وتمنّني من التنفّس .

صمت حامد طويلاً، ثم قال :

- أنت ترين نفسك في كلتا الحالتين . عندما تكونين سعيدةً تنشغلين بالجمال، وعندما تغيب السعادة تُسقطين هذا الألم على الجبال أيضاً .

كانت السيّارة قد بدأت تسلّقها باتّجاه الشوف من ناحية الدامور، وانكشفت الجبال الخضراء ووديانها المضاءة بأشعة الشمس . فأخذني جمال الطبيعة وكأنّني أراها للمرّة الأولى، ثم طلب منّي حامد أن أوقف السيّارة لدقائق كي يلتقط الصور . ففعلت بكلّ سرور . أكملنا بعدها المشوار إلى نيحا مروراً بدير القمر وبيت الدين، وكنا نتوقّف قليلاً في كلّ بلدة لأشرح له عن أهمّ المعالم السياحيّة . كنت على دراية أنّنا نتوقّف عند قرى درزيّة، وأنّ أحدهم قد يشي بي عند أبي أو زوجي، لكنني لم أترك تلك الأفكار تتسلّل إليّ وتُصيبني بالخوف، واكتفيت بإجراء احترازيّ بسيط وهو إخفاء وجهي خلف نظّارة سوداء كبيرة . كان كلّ ما يهمّني أن يستمتع حامد برحلته مهما كانت العواقب .

ظهرت قبة مقام النبي أيوب البيضاء من بعيد، فيما تتابع
السيارة تسلقها للالتفاتات اللامتناهية للطريق الجبلي. كانت القبة
التي تعتليها نجمة الخمس حدود بألوانها الزاهية تُضيء الجبل
الكبير المكسو بغابات من الأشجار، والتي لا يكسر خضرتها أي
بناء سوى المقام المتربّع بسكون فوق الجبل بقناطره البيضاء وفناءه
الواسع. كان المنظر ساحرًا، وشعرت وكأنني أراه بعيني حامد
وليس بعيني أنا.

– يا لكلّ هذا الجمال!

قال حامد وهو يجول بعينه على المنحدرات المحيطة.

لم يكن في الموقف سوى سيارتين حين ركنت السيارة
وألقيت نظرة خاطفة على بعض المشايخ الذين كانوا يتأملون
جمال الجبال من وراء السور المحيط بالموقف. شعرت بالراحة
حين لم أتعرف على أحد منهم، ولكنني أبقيت نظارتي الشمسية
الكبيرة فوق عيني على سبيل الاحتياط. نادرًا ما كنت أزور
المقامات مع والدي من غير أن نلتقي بأشخاص نعرفهم،
فيتبادلون وأهلي الأحاديث ويصرّون على مشاركة شيء من
طعامهم معنا من أجل «المجاجة» أو جبر خاطر، أو من أجل أن
«تحتّ البركة» لأنّ كلّ من سيأكل من طعامهم هم من المشايخ.

توجّهنا بعدها إلى المدخل، حيث تسلّقنا سلاّم قليلة وعبرنا
القناطر لنصل إلى الفناء الكبير المُحاط بغرفٍ للعبادة. كان هناك
إلى اليمين شيخٌ مسنٌّ يجلس خلف طاولةٍ فوقها عددٌ من المسابح
ورموز الخمس حدود المتّصلة بتعليقات المفاتيح أو القلادات،
وبعض الأشغال اليدوية الأخرى التي لها رمزٌ ديني.

- أهلاً وسهلاً.. تفضّلوا، قال مبتسماً. فابتسمنا له وحيّناه.

ثم عبرنا الفناء الكبير لتسلّق سلّم عريض متوسّط الطول لنصل إلى الضريح، حيث عبرنا قنطرةً من الزجاج الملوّن. على مدخل الضريح، كان هناك شماعةٌ علّق عليها عدد من العباءات والمناديل التي يجب على الزائرات غير الشيوخ ارتداؤها من أجل حرمة المكان. فاخترت عباءةً سوداءً ومنديلاً أبيض، ثم خلعنا أحذيتنا ودخلنا. كان المقام المحاط بفرش عربيّ خالياً، والنسيم الجبليّ يتحرّك في المكان الساكن وكأنّه يراقص ملائكةً غير مرئيّة. فاخترنا ركنًا، وجلسنا على جانبيّ زاويةٍ من زوايا الضريح بمواجهة بعضنا - مع مراعاة المسافة التي يتطلّبها لقاء غربيّين، وتلك التي يتطلّبها وجود رجلٍ وامرأةٍ في مكانٍ دينيّ. جلسنا في صمتٍ مطبق. لم يتناهَ إلى مسامعنا أيّ شيءٍ سوى أصوات بعض العصافير في الغابات المجاورة. بعد دقائق، دخل رجلٌ مسنٌّ وتوجّه إلى الضريح في منتصف الغرفة وقبّله، وراح يتمتم بأدعيةٍ غير مفهومة والدموع تنهمر من عينيه. كان حامد يراقب الرجل باهتمام شديد، كأنّه أحد أقاربه أو أصدقائه، فخلعت نظّارتي الشمسيّة لأراقب التموّجات في عينيه. وبعد أن غادر الرجل، أوماً لي حامد برأسه ففهمت أنّه جاهزٌ ليغادر.

كنّا قد أتممنا الهدف من الزيارة بعد أن دخلنا المقام، ولم أكن أنا قد زرت بقعتي المفضّلة التي من أجلها أحبّ زيارة النبي أيّوب. بعد أن خرجنا، قلت لحامد أن يتبعني فنزلنا بضعة سلالم إلى شمال الضريح لنصل إلى شرفةٍ شاسعةٍ محاطةٍ بسورٍ حديديّ أخضر. تطلّ الشرفة على جبالٍ ذات تشكيلاتٍ عجيبة، وكأنّ يداً

عملاقة قد مرّرت أصابعها عليها فتركت تموجاتٍ صخريةً منقوشةً داخل غاباتٍ مكسوةٍ بالخضار. وقفنا هناك ننظر إليها بدهشة، وكأننا نعاين لوحةً في متحف. جلسنا بعدها على المصطبة الإسمتيّة التي تمتدّ على طول الشرفة.

وبعد فترة من الصمت، قلت لحامد:

- لا أعرف ما هي ممارسات المسلمين حين يزورون الأضرحة، ولكنّ هنا عادةً ما يقبّل الناس الضريح أو السور المحيط به، وقد يشكو البعض همومه ويبكي. وقبل المغادرة، يقوم معظم الزوّار بوضع مبلغ من المال كـ «سمحة نفس» أو صدقة في الصندوق المخصّص للتبرّعات والتي تُستخدم لاحقًا في صيانة المكان والتكفّل بمصاريفه.

- لا أظنّ أنّ الأموال التي يضعها الزائرون تستطيع أن تتكفّل بمصاريف بناءٍ بهذا الحجم وهذا الجمال! أظنّ أنّ العطاء هنا هو مكافأة الدين للمؤمن الذي يشعر برغبة في تقديم شيءٍ ولو قليلٍ ليرضي ربًّا يحبّه كثيرًا. العطاء هو هديّة من الله للمؤمن، وليس العكس.

كنت دائمًا أعرف بسبب طبيعة النساء في حياتي أنّ العطاء يمكن الإنسان عاطفيًا ومعنويًا ويُعطي معنى لحياته، ولكنني لم أنظر أبدًا لصندوق التبرّعات هذه النظرة الجميلة، فاكتميت بأن أومئ برأسي. ثم تابع حامد:

- ولكنك لم تفعلي شيئًا من الأمور التي ذكرتها عن تقبيل الضريح والدعاء.. أرجو ألا يكون وجودي هو السبب، سأل حامد مستفسرًا.

ابتسمت بفتور، وقلت :

- لا . لست السبب . أنا لم أعد متأكّدة من شيء . لقد بدأت الشكوك تراودني منذ مدّةٍ حول أفكار ديني وطقوسه . تلك الأرض الصلبة التي كنت أقف عليها في السابق أصبحت الآن لزجة .
أوماً حامد برأسه وكأنّه يفهم ما أقوله ، فتابعت :

- بدأت شكوكي بالتعجّب من الأشياء الصغيرة . هناك مقام آخر يُدعى مقام الشريف ، كنّا نزوره ونقدّم له النذور طوال حياتنا ، واكتشفت مؤخّراً أنّ صاحب المقام المعنيّ فقط مرّ من هناك واستراح فوق حجرٍ ثم واصل رحلته لبلدٍ آخر . وعلى الأرجح ، فإنّ هذا المقام الجميل أيضاً فيه ضريحٌ فارغ . يقول العراقيّون إنّ جثمان النبي أيّوب في النجف . وهناك مقامٌ معروفٌ له في سلطنة عمان ، وثالث في سوريا ، وآخر في فلسطين . . ثم يأتي الناس إلى هنا لتقبيل الحجارة .

- الإيمان ليس له علاقة بالحقائق أو الوقائع ، يا أمل . الإيمان الذي يحتاج إلى أدلّةٍ ليس إيماناً إنّما فرعٌ آخر من فروع العلم . لا أظنّ أنّ الأشخاص الذين يزورون هذه المقامات يقدّسون الحجارة ، إنّما الفكرة السامية التي بداخلهم عن هذا المكان وعن صاحب المقام . هو تقديسهم لشيءٍ أكبر منهم ، يحتويهم ويعطيهم الأمان . عندنا في القاهرة أيضاً مقامٌ للسيدة زينب ، يأتي إليه الناس من كلّ ربوع مصر ويبكون ويدعون ويقبّلون الضريح تماماً مثلما يفعلون هنا ، ولا يكثرث أحدهم إنّ كانت السيدة زينب مدفونةً بداخل الضريح فعلاً أم لا ، لأنّ السيدة

زينب موجودة في قلوبهم. رأيت المشهد نفسه في اليابان وفي سريلانكا وفي كنائس القديسين في إسبانيا، وعند السكّان الأصليين لأميركا في الغابات. المقام في حد ذاته ليس مقدّساً، ولا حتى الأولياء والصالحين الذين يتضرّع الناس عند أضرحتهم. ولكنّ دموع البشر التي ذُرفت في تلك الأماكن عبر الأجيال وقلوبهم التي تحبّ أهل الخير هي الشيء المقدّس فعلاً.

- لا أظنّ أنّ إرادة الإنسان كافية لجعله يحتفظ بإيمانه. فهو عاجزٌ عن هذا الخيار، مثل عجزه عن الاحتفاظ بعقله أو بالروح في جسده. لا أظنّ أنّ الذين جنّوا قرّروا أن يتخلّوا عن عقولهم في لحظةٍ ما. ومهما قسا الإنسان على نفسه حتى ينحّي الشكّ ويعود للإيمان، فالأمر لا ينجح. أظنّ أنّ هذا الشعور أشبه بالفراشة التي تحطّ على كتفنا متى شاءت وتتركنا متى شاءت.

- صحيح. الإيمان مثل الحبّ تماماً. في اللحظة التي يبدأ فيها الإنسان بالتساؤل إذا كان لا يزال في حالة حبّ، يكون الحبّ قد غادره.

صمت حامد، ثم أكمل:

- والإيمان مثل الحبّ، فهو نداءٌ يكون المؤمن مصدره، ويكون هو المجيب أيضاً. فيتبع هذا النداء الذي لا يقوده إلّا إلى أعماق قلبه. من الصعب أن نسأل العاشق عمّا يحبّ في معشوقه. وإنّ أجاب هذا العاشق بصفةٍ أو ميزةٍ في حبيبهِ فلا يكون يحبّ هذا الحبيب، بل فقط يحبّ تلك الميزة فيه. الحبّ شيءٌ كلّّي لا يخترقه فكر الإنسان المحدود؛ وكذلك حاجتنا للإيمان هي شيءٌ

مبهّم لم يتمكّن العلم ولا الفلسفة من حلّ لغزه.

كان جمال الطبيعة وعذوبة النسمات وكلام حامد يشعروني كأنني في حلم، وأنني سأستفيق قريبًا. كان الحديث بيننا آمنًا، فلم أكن في حاجة أن أتلفت يمينًا ويسارًا وأنا أعبر من فكرة إلى أخرى. بل كنت أنزلق وأبوح وكأنني أتكلّم من مكانٍ بداخلي فُتح للمرة الأولى من دون خوفٍ أو تردّد. لطالما تردّدت في مشاركة أفكارٍ مع الآخرين، لأنّ جميع من حولي يرون هذا التسلّق على سلّم الأفكار والمشاعر مجرد «فذلّكة» و«وجع راس». كان عليّ أن أبقى بينهم على الأرض، وفي أفضل الأحوال على الدرجة الأولى من السلّم، حتى إذا سقطتُ لا أرتطم بأرض الواقع بعنف. سحبني حامد من أفكارٍ بقوله:

- تحرّكين أفكار الإنسان بمهارة الشعراء، يا أمل. كنت أتمنّى أن أقرأ لك شيئًا لو أنّك كاتبة!

لم أخبره أنّ لي محاولةً شعريّة، وأنّ الذي أعطى ديواني اسمًا أزهد روحه، وأنّ لهذا علاقة وطيدة بارتجاج قلبي وإيماني وكياني كلّه.

وقفنا ورحنا نمشي فوق الشرفة، وننظر إلى القرى في أسفل الجبل. كانت البيوت البيضاء منثورةً مثل زهر اللوز على غطاء الأرض الأخضر، وكانت السماء شديدة الزرقة. رأيت شيخّة تتسلّق السلّم متّجهةً إلى المقام، فحيّتنا بإيماءةٍ من رأسها فأومأت برأسي أيضًا. شعرت فجأةً بغصّة، وكأنّ ورقة صفراء قد سقطت على بحيرة السكون في داخلي، وأحدثت دوائر رأيت نفسي

محبوسةً في كلّ واحدةٍ منها. أحببت أن أشارك هذه الفكرة مع حامد، لعلّ هذه المرّة تكون فرصتي الأخيرة لأتحدّث مع أحدٍ بهذا الارتياح، فقلت:

- لا أظنّ أنّي مؤمنة، ولكنني لست حرّة من الإيمان أيضًا. مثلاً، حين أرى شيخخةً في شارع الحمرا في بيروت تتحرّك مشاعري بقوةٍ ويذهب قلبي إليها، ليس لأنّها من ديني، ولكنّ لأنّ كلّ شيخخةٍ هي أمّي في مكانٍ ما في لاوعيي. في تفاصيلها، في تدرّجات منديلها «المكسّر»، في رقة ثوبها الطويل وعينيها المتمرّستين على إيصال كلّ أنواع المشاعر - لأنّ المنديل يخفي بقيّة وجهها. كلّ شيخخةٍ هي أمّي في رحلتها وألمها وصبرها وامتنانها وقدرتها على العطاء.

- جميلٌ هذا التعاطف والتقدير للآخرين، يا أمل. لماذا تحوّلينه في رأسك إلى سجنٍ، وتقولين إنّك لست حرّة منه. - لأنّ ما حرّك مشاعري هو ثوب الشيخة، وليس أيّ شيءٍ آخر.

ثم شعرت أنّ جوابي طفوليّ، فحاولت أن أشرح أكثر:

- الإيمان ليس مجرد فكرةٍ نفتنّع بها، إنّما هو شعورٌ يتسرّب إلى آبار أرواحنا الجوفيّة من كلّ الشقوق التي تسبّبها الحياة لنا، ويستقرّ هناك. يصل الإيمان لنا مع حليب الأمّ ويرتبط بحبنا لكلّ شخصٍ مؤمنٍ في حياتنا وبالتحديد أمّهاتنا، وبكلّ مناسبةٍ دينيّةٍ نجتمع فيها بمن نحبّ. وهكذا، يتمّ بناء وجداننا منذ الصغر على شكل مداميك، فيشكّل من حولنا بكلّ أفراحهم وأحزانهم

وإيمانهم مداميكنا الأولى. وعندما نكبر ونبدأ رحلتنا بالتفكير والنقد، نعي أننا لا نستطيع أن نهدم تلك المداميك الأولى بأثر رجعي بعد أن بنينا فوقها عشرات المداميك الأخرى. لذلك، ستبقى تلك المداميك جزءًا أساسيًا ومهمًا من تركيبتنا الوجدانية.

— لا تنزلي إلى لعبة المصطلحات، يا أمل. ما تُسمّيه بقايا إيمان اسمه تعاطف. إحساسنا بأيّ إنسانٍ هو أسمى درجات الإيمان، ولكن علينا أن نحذر من أن يتحوّل التعاطف إلى سجنٍ حين نتماهى بشكلٍ تامٍّ مع هذا الإنسان وورطته في الحياة. الإيمان هو البحث عن مخرج لا التورط في مأزق. أظنّ أنّ المؤمن يبحث عن معجزةٍ بداخله، لكنّه يُسقطها على ما قام به الأنبياء والقديسون من معجزات. لذلك هو يبكي أمام أضرحتهم. الإيمان في حدّ ذاته معجزة. البكاء معجزة. فتّشي عن معجزتك الخاصّة، وفكّري بها على أنّها إيمان.

أحببت رؤية حامد للحياة وإيجابيّته البعيدة عن التصنّع والادّعاء. كانت كلماته نابعةً من صميم تجربته، لا من كتابٍ ولا من استنباطٍ فلسفيّ. كنت أشعر ونحن نتكلّم أنّنا ننش في رؤوس بعضنا، وكأنّنا نقلّب الأحجار الساكنة على جانبي جدول أفكارنا. فتارةً تطير فراشة وطورًا تلتفّ دودةٌ متدمّرة كانت تودّ أن ترقد في عتمة الفكر لامرئيّة.

قبل أن نركب السيّارة، سألني حامد عن المغارة الصغيرة بجانب موقف السيّارات، وأخبرته أنّها مخصّصةٌ لإضاءة الشمع من أجل النذور. تناول شمعتين من الكيس الموضوع فوق الصخرة وسط المغارة وأعطاني شمعة، ثم أضاء شمعته ووضعها

فوق أحد الشمعدانات. حين لاحظ أنني مرتبكة، قال:

- المؤمن ينتظر أن تُستجاب دعواته، أمّا أنتِ فبإمكانك أن تُضيئي الشمعة وتتمني أمنيةً وكأنك تلعبين لعبة نرد. لا شيء مضمونٌ ولا خيالات كبيرة في الطريق. افعلي هذا!

رفعت الشمعة وأضأتها من شمعته ثم غرستها في الشمعدان، فيما تتردّد كلمات قصيدة الشاعرة «ميريت مالوي» في رأسي بصوتٍ واضح، وكأنّ أحداً يقرأها خلفي في المغارة:

«مهما اتّسعت المسافات

الناس لا تنتهي

إنّها إحدى القصص التي لا يمكن تدوينها

إلاّ عبر عمرٍ من الأبواب المفتوحة

هناك تشبّث بالأمل يقطن خلف الاستسلام

هناك لمّ شملٍ في صدر كلّ منّا

هكذا يحدث أن نكوّن عائلةً مع الغرباء

هكذا نُضيء الشموع

هناك أشخاصٌ يمكنك الاعتماد عليهم

هم حماة الودود

هم شموعٌ تُضاء من بعضها

يمكنهم أن يعلمونا الخلود...»

حين وصلنا إلى بلدة «دير القمر»، كان قد حان موعد الغداء، فاخترت مطعم «قصر المير أمين» للغداء، لأنّه من أشهر

المعالم السياحية وأقدمها في المنطقة. قابلنا عند مدخل القصر الحجريّ الأصفر بركة ماءٍ مستطيلة محاطةً بجدرانٍ مكسوّةٍ بالموزاييك والأحجار الملوّنة. بعدها، أرشدنا النادل إلى طاولتنا المطوّلة على بيت الدين من ناحية وعلى الساحل الجنوبيّ من ناحية أخرى.

طلبنا الطعام، ورحنا نتحدّث عن الشعر والفلسفة. وكنت أحاول أن أدوّن داخل رأسي اسم كلّ فيلسوفٍ يذكره كي أفتّش عنه وأقرأ له لاحقًا. كانت هناك أيضًا لحظات طويلة من الصمت، ينظر فيها حامد ناحية البحر الذي يظهر لنا كخطّ رفيع وسط سحبٍ كثيف.

- هل خطر لك يومًا أنّك تشبه البحر كثيرًا؟ سألته كي ألّكز شروده بكلماتي.

- أحبّ البحر.

- أعرف أنّك تحبّه، وربّما تتماهى معه أيضًا.

- أخبريني المزيد!

- أنت كالبحر. فيك وداعة المياه الساكنة، وكذلك غضب الأعاصير والفيضانات. في داخلك حطامٌ لسفنٍ لم يتمّ العثور عليها، وكنوزٌ مجهولة لم تمسّها يدٌ من قبل. فيك بحّارةٌ ذهبوا في رحلاتٍ ولم يعودوا، لأنّك كنت تكتشف في منتصف الرحلة أنّك لم تعد مهتمًا، فتقتل البحّار وتخطّط لرحلةٍ أخرى. أظنّ أنّك تخلّصت من نسخ كثيرة منك قبل أن تصل إلى هذه النسخة الجميلة، والتي قد لا تكون الأخيرة.

نظر حامد إليّ بتعجب، وابتسم ابتسامة عريضة، وكأنّه فهم أنّ معرفتي به لا تقتصر على هذا اليوم، وأنني لا بدّ أنّي قرأت له وعنه كثيرًا. فقال:

- هذه اللعبة ليست عادلة، ولكنني ما زلت واثقًا من قدرتي على المنافسة. كلّ ما أريد أن أعرفه عنك بإمكانني استخلاصه من شخصك وليس من معلوماتٍ خارجة عنك أو محيطيّة بك.

- أخبرني إذا! قلت مبتسمة.

- أستطيع من خلال النظر إليك وأنت تتكلّمين أن أتعرف على الأمور التي تؤلمك وتلك التي تتركك. حين تنظرين إلى البعيد وأنت تتكلّمين أعرف أنّك تحاولين اختيار كلماتك بدقّة، لأنّ الكلمات شيءٌ حقيقيّ جدًّا بالنسبة لك. وحين تتحدّثين عن شيءٍ يؤلمك تنظرين إلى الأرض وكأنّك تحاولين حماية الآخر من هذا الألم. وحين تشعرين بالضيق تنظرين إلى السماء للحظاتٍ كما تفعل بعض الطيور بعد شرب الماء.

كان يتكلّم، وكنت أهزّ رأسي من غير أن أقول أيّ شيء.

فأكمل:

- ومن صوتك أستطيع أن أحدّد البقع الطريّة أو ما يسمّونه the soft spots في وجدانك. حين تكلمت عن أمك مثلاً تغيّر صوتك، وحين تتكلّمين عن نفسك يتّخذ صوتك نبرة جدّيّة، تشبه النبرة التي تأتي منك وأنت تناقشين مواضيع علميّة أو فلسفيّة. أشعر أنّك تحاولين أن تقبضي على صوتك كسمكة وسط النهر، وكأنّك أمضيت عمراً كاملاً وأنت تبحثين عن هذا الصوت!

- أنت لم تنافسني فقط، ربّما تكون قد ربحت أيضًا.

- والآن، أخبريني. هل وجدت في الطبيعة شيئًا يُشبهك أنتِ؟ سأل حامد.

- لطالما شعرت أنني غيمة. أشبه الغيمة كثيرًا. أشعر أنني موجودةٌ وغير موجودة، وكأنَّ حياتي امتدادٌ لرحلةٍ طويلةٍ لا أعلم متى بدأت. أشعر أنني تكاثفت وهطلت وتسربت إلى أماكن مظلمة. كأنَّ كلَّ الآبار احتجزتني، بينما النهر يتابع جريانه من غير أن يعرف عني شيئًا. أشعر أنني أنساب إلى أماكن لا أريدها طوال الوقت، وأعلم تمامًا أنَّ خيط الماء لا يقدر على محاربة انسيابه.

- هذا شعري يا أمل! ومع ذلك، فلا شيء يستطيع أن يحبس الغيمة، لأنَّها بخفتها تعرف جيدًا طريقها إلى البحر. فالغيمة والبحر هما الشيء نفسه، لكن في أماكن مختلفة، ولقاؤهما قدرٌ محتوم...

رسمت كلماته ابتسامةً كبيرةً وغير معهودة على شفتي، لكنني بدأت أشعر بالتوتر حين اقترب وقت العودة إلى بيروت. لقد انتهى المشوار، إذن وسأعود الآن إلى جفاف حياتي ويعود حامد إلى أسفاره ومحاضراته. لا أستطيع سوى أن أشكر القدر على هذه الساعات المسروقة، ولكنَّ شيئًا ما في داخلي جعل تقبل هذا الوداع صعبًا جدًا.

جاء صوت حامد من خارج رأسي ليوقظني.

- أنا أعرفك جيدًا، لا أدري كيف ولا منذ متى!

- لم أتحدَّث مع أحدٍ بالراحة التي تحدَّثت بها معك. أرجو ألا أكون قد أرهقتك.

- بالعكس تمامًا. لقد استمتعت بحواراتك، وأعلم أنني سأتذكر الكثير منها، ولكن...

- ولكن ماذا؟ سألته.

- لي عندك طلب.

- طبعًا. تفضل..

- لا تكوني قاسيةً على نفسك. أنت لا تتكلمين عن أي شيءٍ بالقسوة التي تتكلمين بها عن نفسك. لقد تنقلتُ بين جميع القارّات، ورأيت رجالًا ونساءً من جميع الثقافات، ولكنني لم ألتقِ بأحدٍ يشبهك. أنتِ شقّافةٌ إلى حدِّ الدهشة، مع ذلك تحيّن أي شخصٍ على التفكير. فيك من اللطف ما يكفي لأمةٍ كاملة، ولكنّ هذا اللطف يتحوّل بمعجزةٍ ما إلى قسوةٍ حين تنظرين إلى نفسك.

شعرت برغبةٍ في البكاء. لم يشعر أحدٌ بي من قبل. لقد أمضيت حياتي وأنا مستكينّةٌ لتحقيري لنفسي، أضع إبهام الخوف كي أهدأ، وأغفو فوق حطامي النفسي. ثم أتى هذا الرجل الغريب ليكون أكثر رأفةً بي من عائلتي وكلّ الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي، وحتى من نفسي. ولكنّ كلّ هذا سينتهي بعد ساعةٍ حين أوصل حامد إلى الفندق، وأخذ الطريق نفسه للعودة إلى المنزل.

فهم حامد أنني تأثرت بكلامه، فصمت لبقية الطريق. وحين وصلنا إلى الفندق، نظر لي قائلاً:

- لقد كانت رحلة العمر. شكرًا على كلّ شيء!

- لو لم تكن مسافرًا في الغد لأخذتك في رحلةٍ أخرى،
قلت له ممازحةً كي أكسر جوَّ الحزن.

- إن كان هناك مشوارٌ آخر معك، قد لا أسافر غدًا!
ضحكنا معًا على نكتته، ثم ترَجَّلنا من السيَّارة وصافحته
متمنيَّةً له رحلةً موفَّقةً.

أوصلت السيَّارة إلى المكتب، وعدت إلى المنزل سالكةً
الطريق نفسه الذي سلكته رفقة حامد منذ ساعة. كان شعور الضيق
الذي يسكنني عادةً حين أعود إلى المنزل قد تضاعف. لا شيء
يهدئني في المنزل سوى أن أحضن رحمة، وأدفن رأسي في
شعرها. وصلت متأخرةً، فسَلَّمني سالم رحمة وعاد إلى الشركة
كي يتمَّ بعض الأعمال. وبعد أن أطعمتها وحَمَّمتها، دخلت معها
إلى غرفتها وبقيت هناك حتى الصباح. سمعت خطوات سالم حين
دخل المنزل، فتظاهرت بالنوم. فتح باب غرفة رحمة، ورآني
نائمةً إلى جانبها، فعاد وأغلق الباب. لم أكن قادرةً على تحمُّل
أيِّ تفاعلٍ لفظيٍّ أو أيِّ اتِّصالٍ جسديٍّ مع سالم. كان الحزن
يغلِّف روحي ويتركني مثل ثمرةٍ في آخر مراحل النضج معلَّقة فوق
غصنٍ يابس. كنت جاهزةً بكلِّيتي للسقوط في أيِّ لحظة. نمت
بعد ساعاتٍ من التقلُّب والأرق من غير أن أعلم أنَّ الصباح
سيحمل لي هديَّةً.

كنت أَسْتَعِدُّ للذهاب إلى الجامعة حين رأيت إشعارًا بوجود
رسالة من حامد على شاشة الهاتف.

«لقد أَجَلَّتْ سفري بسبب عرضك السخيِّ. أظنَّ أنَّه عليك أن
تفي بوعدك الآن».

لم أصدّق عينيّ. كان عليّ أن أستوعب ماذا يحدث على أكثر من بُعد. أوّلاً، أنني سأراه وأمضي معه نهاراً آخر. وثانياً، أنّه أجّل سفره من أجل مشوارٍ معي! هل هذا معقول؟ بالطبع لا. لا بدّ أنّه طرأ عليه عملٌ ما حتى أجّل سفره، وأنّ كلامه في الرسالة مجرد امتدادٍ للنكته. لماذا يؤجّل إنسانٌ كثير المشاغل مثله سفره ليذهب في رحلةٍ مع إنسانةٍ بسيطةٍ مثلي؟!

ثم تذكّرت كلامه. يا إلهي.. لقد فعلتها مجدّداً. حطّمت نفسي مباشرةً، بعد أن تلقّيت خبراً جميلاً وكأنّ هناك جهاز إنذار في داخلي يتمّ تفعيله مع حدوث أيّ شيءٍ جميلٍ ليعطّله. كتبت له بأصابعٍ مرتجفة:

«من حظّي طبعاً. أنا جاهزةٌ في أيّ وقت».

أمضيت نهارى بفرح ممزوج بشيءٍ من التوتر. جلست في بقعتي المفضّلة ساعة الغداء، ورحّت أنظر إلى شارع عين المريسة حيث يوجد الأوتيل الذي يُقيم فيه حامد. تمنّيت لو أنّي دعوته ليمرّ عليّ في الجامعة لنشرب القهوة معاً، ولكن سرعان ما طردت هذه الفكرة من رأسي كمن يطرد ذبابةً بحركةٍ كسولةٍ من يده. لم أشأ أن أتطفّل عليه أو أزعجه، لأنّ خصوصيّة الآخر عندي أولويّة، ولأنّ شعوري بأنّي متطفّلة قد يقتلني!

في المساء، راسلني بكلمةٍ واحدة «غدا؟»

كلمةٌ واحدة من رجلٍ شبه غريب جعلت الغد يبدو كما لم أعرفه يوماً. فجأةً، أصبح الغد مشوّقاً وغامضاً، والطرق التي أقطعها كلّ يومٍ وكأنّها متاهةٌ تلتفّ حول عنقي صارت طرقاً.

سئلتني غداً لساعاتٍ مسروقةٍ من حياتي التي تُشبه رسمةً مطرزةً بدقّةٍ كرسَم الطائر الموجود على وسادة أمّي. ثم ماذا لو لم تكن بعض القطب في مكانها؟ ثم ماذا لو أنّ الطائر الذي ينخفض ليهبط في عشّه هبط في البياض المحيط بالرسمة؟ تمنّيت للحظةٍ لو أنّي لست الطائر العائد إلى العشّ ولست من ينتظر في العشّ، ولست العشّ أيضًا. تمنّيت لو أنّي البياض المحيط بكلّ شيء.

اتّبعَت الخطّة نفسها التي اتّبعَتها في المرّة الأولى. ركنت سيّارتي، استأجرت أخرى، ووضعت نظّارة شمسيّة كبيرة على عينيّ، وانطلقنا في الساعة التاسعة من أمام الفندق.

- أين سنذهب اليوم؟ سألني حامد.

- اخترت لك مكاناً يعنيني هذه المرّة.

- أنا متحمّس، قال بفرح طفوليّ.

- لن أقول شيئاً كي لا تكوّن صورةً فكريّة عن المكان. أريده أن يظهر أمامك بدهشته الأولى، لا أن يحاول التطابق مع صورةٍ مكوّنَةٍ عنه في خيالك.

- لقد تحرّرت من التوقّعات منذ زمنٍ بعيد.

- لا بدّ أنّ التحرّر من التوقّعات عملٌ صعب، ولكنّ التحرّر من الخيال شيءٌ مستحيل.

- قد نتخيّل، وتكون خيالاتنا أجمل ممّا نراه، ولكنّ الإنسان الحاضر في جسمه وقلبه يقدّر الجمال مهما كان بسيطاً، قال مؤكّداً وجهة نظره.

سلكنا الطريق نفسه الذي أخذناه في المرّة الأولى، واستمتعنا

برؤية الجبال نفسها، ولكن هذه المرة كانت وجهتنا بلدة «الباروك». عندما وصلنا إلى الباروك، بدأت بسطات الخضار بالظهور على جانبي الطريق، حيث يجلس أمامها المشايخ لبيع محاصيلهم. كانت أجواء القرى بنقائها وهدوئها تنسينا زحمة بيروت وهواءها الملوّث. الطرقات هنا فارغة ومفتوحة، الوجوه مستريحة ومبتسمة، والجبال تمدّ خضرتها بخشوع وكأنّها رفوف لعرض تحف الله.

واصلت الصعود في اتجاه محمية أرز الباروك، من غير أن أخبر حامد بذلك. كان الجوّ قد ازداد برودةً بسبب الارتفاع عن سطح البحر، ولأنّ أشجار الأرز الكثيفة قد حجبت أشعة الشمس. وقف حامد عند أوّل مجموعة من الأشجار مندهشاً. ساعدنا الوجود القليل للزائرين على التنعم بالصمت والجمال. رحنا نمشي بين الأشجار ونتأمّلها. كان السكون منديلاً أبيض لا يمرّ شيء من غير أن يعلمّ عليه، وكان بإمكاننا أن نسمع صوت خطواتنا فوق التراب، وكذلك صوت أنفاسنا.

كلّ شيء كان يدعو حواسنا جميعها للتيقّظ. صوت الريح في الأشجار يوقظ حرقاً ما في الوجدان. حنينٌ إلى شيء بعيد لا اسم له ولا صورة، حنينٌ لوطني منسيّ يشبه حليب الأمّ ولا دليل على وجوده سوى هذه الوخزة في القلب. كانت روحي جسراً ممتداً بين الجمال والألم، بين الآن وماضي لا أعرف عنه شيئاً، بين البرد الذي أشعر به في عظامي والدفء الخجول الذي يتسرّب مع أشعة الشمس المتسلّلة من بين أغصان الأشجار الفتية!

كنت غارقةً في مشاعري حين لاحظت أنّ حامد أطال وقفته

عند شجرة كهلة، يبلغ قطر جذعها عِدَّة أمتار، ويبلغ عمرها بحسب اللوحة المعدنية المثبتة على عمود جنبها حوالى ثلاثة آلاف عام. لم أشأ أن أقطع على حامد تأملاته، ولكنني رأيته يضع يداً على الشجرة، وأخرى على قلبه وهو مطرق الرأس. تأملته في لحظة الاتصال الجميلة تلك، وإذا بي أرى بعض الدموع تسيل على وجهه. شعرت بانقباضة في قلبي. شيء ما هتف بي أن أذهب إليه. وبغريزة الأمومة، أمسك يديه وأقول له بأن كل شيء سيكون بخير. وصوت آخر قال لي تصرفي برقي، واتركي الرجل مع نفسه. ازداد الوخز في قلبي وبدأت أنفاسي تتسارع، فتركت الأصوات في رأسي وتبعت حدسي. توجهت إليه وبحركة بطيئة جداً وضعت يدي اليمنى على كتفه الأيسر، فرفع رأسه ونظر إلى عيني مبتسماً برغم الدموع التي ما زالت آثارها ظاهرة على وجهه. . ولم نقل شيئاً.

هل يكون هذا هو شعور المؤمن حين يقف إلى جانب ضريح الأولياء ويبكي؟ ربّما هذا التوق الذي نشعر به هو كسرة الخبز الأولى على درب العودة إلى الموطن، رأس الخيط، النداء البعيد الذي لا يسمعه أحدٌ سوانا!

جلسنا بعدها على الأرض مسندين ظهرينا إلى جذع تلك الشجرة بصمت.

- هل حضنت شجرة من قبل؟ سألني حامد.

- لا.

- أن نلمس تلك الشجرة هو أن نتصل بكائنٍ شهد على ثلاثة

آلاف سنة من الحياة. أتدركين المعجزة في ذلك؟ ثلاثة آلاف سنة من مواجهة الحياة بسكونٍ وحفيفٍ واستمرار. أشعر أن تلك الأشجار تلخص سرّ الوجود.

وقفت بعدها، وفتحت ذراعيّ وألقيت بصدري على جذع الشجرة الصلب. فاستدار حامد إلى الجانب الآخر من الشجرة وفعل الشيء نفسه. عانقنا الشجرة لدقيقتين تقريباً مع استمرار شعور الوخز في قلبي. ذلك الوخز الموجع الجميل الذي يذكّرنا أننا لم نفقد القدرة على الشعور نهائياً بعد.

ركبنا السيّارة وتوجّهنا إلى بيروت. لم تعد الأمور إلى طبيعتها بعد أن رأيت دموعه في الغابة. تملّكني شعورٌ بالقلق غير المبرّر على هذا الشخص. شعرت بهشاشته للمرّة الأولى. فجأةً، لم يعد الكاتب المعروف صاحب الأفكار المبهرة؛ بل أصبح مثلي - إنساناً يتعامل مع أوجاعه بوعي فيغرقها متى استطاع، وتتمرّد عليه وتطفو على السطح الهادئ لاتّزانه متى استطاعت. ما أدراني أنّه لن يعاود محاولة الانتحار التي قرأت عنها في روايته! ما زال مشهد وقوفه فوق بحيرة متجمّدة في غربة الشمال عالقاً في رأسي وهو يضرب بقدميه على سطحها، كأنّه يستجدي ماء الحياة أن يبتلعه نحو الموت. كنت متماهية تماماً مع هذا المشهد، وكنت أشعر بكلّ أوجاعه التي جعلته يظنّ أنّ الموت هو الخلاص الوحيد. ما أدراني أنّه شفي من الانتهاك الجسدي الذي حصل له في طفولته؟ وأنّه سينجو من ظلمة نفسه؟

لاحظت أنّ الأفكار بدأت تتسارع في رأسي على نحوٍ مقلق، وأنني صرت عاطفية. كنت قد أنهيت علاجي من الاكتئاب منذ

شهورٍ، ومن يومها وأنا أشعر بالخدر. لم تتسارع أفكارى، ولم تتلاحق أنفاسى بهذا الشكل منذ زمن. وكأني كنت في غيبوبة!
- أظن أنني في طريقي إلى الاكتئاب مجددًا.

خرجت مني هذه الكلمات كما تخرج العطسة من غير قرار، ومن دون أن أضعها في سياق.

- لا أظن أن إنسانةً مثلك قد تكون فريسةً سهلةً للاكتئاب. أرى أن إرادة الحياة لديك قويّة، وأنك قادرةٌ على رؤية الأمور من عدّة زوايا. المكتئب عادةً لا يرى إلّا من زاويةٍ واحدة، وغالبًا ما تكون مظلمة.

- قال الطبيب إنَّ اكتئابي مزمن، لذلك أصبح جزءًا من طبعي. لا أعرف متى توقفت عن كوني أنا، ومتى تسرّب الاكتئاب لي!

- نحن لا نتوقّف عن كوننا أنفسنا مهما حدث لنا. قد تتغيّر تصرّفاتنا طبعًا، وكذلك أفكارنا الواعية منها واللاواعية، ولكنّ جوهر الإنسان يبقى على حاله. جوهرنا هو فرصتنا الوحيدة لرؤية العالم مجددًا للمرّة الأولى. تمامًا، كما حدث الآن في الغابة.
- سعيدةٌ بتفاؤلك، قلت له.

- التفاؤل كلمةٌ متكلّفة وكأني رددتُ فعل على التشاؤم. أنا لا أقاوم الوجد ولا أتجاهله، ولا أنكر أنني أقع تحت سطوته بين الحين والآخر. ولكنني لم أعد أسارع إلى تخدير نفسي بأدوية الاكتئاب، كما كنت أفعل سابقًا.

فهمت أن كلامه موجّه لي؛ وأنّه لاحظ أن مشاعري

تحرّكت، لذلك تذكّرت الاكتئاب مجدّدًا. ندمت على تسرّعي ومشاركة وضعي النفسيّ مع إنسانٍ مرّ بما يكفيه من المعاناة.

- لا أعرف شيئًا عن ظروف حياتك يا أمل، ولا أعتقد أنّ هذا مهمّ. أنا أعرفك أنت، وهذا هو الأهمّ. ومن معرفتي بك، أستطيع أن أقول إنّ هناك شيئًا ما يكبّل روحك ويحجبك عن جوهرك. ابحثي عنه وتعاملي معه.

صمت قليلًا، ثم أضاف.

- أنا لا أقلل من شأن وجعك، ولكنّ هناك شيءٌ ما في داخلي يرفض أن تكوني مكتّبة. ربّما قلقي ورفضي لهذا الأمر لن يغيّرًا شيئًا!

بدأ صوت المتربّص في داخلي يقول لي إنّ مرافقتي أصبحت عبئًا على ضيفي، وإنّه من الأفضل أن أسرع وأوصله إلى الفندق حتى أريحه من رفقتي وسوداويّتي. . وإنّه لا بدّ نادّم لأنّه وافق على هذا المشوار.

- لقد سررت برفقتك اليوم أيضًا، قلت له وقد اقتربنا من الفندق.

- سأسافر مساء غد. هل تقبلين دعوتي غدًا بعد العمل لنزور مكانًا يعنيني أنا هذه المرّة؟ سألني حامد.

- بكلّ سرور. إلى الغد إذن.

عندما عدت إلى المنزل، وجدت سالم ورحمة بانتظاري. حملت ابنتي وقبّلتها، وانصرفت إلى الطبخ والأعمال المنزليّة. ولكن قبل أن أذهب لأضع رحمة في سريرها، قال لي سالم: - لا تنامي جنب رحمة الليلة أيضًا. لا تضيقني عليها سريرها، وهناك سريرٌ كبير يتّسع لك وولي.

خفق قلبي بشدّة عند سماع كلماته، وفهمت أنّه يريدني في سريرهِ هذه الليلة. قرأت لرحمة قصّة ما قبل النوم، وحين نامت بدأت أشعر بأنفاسي تتسارع من جديد. أنفاس قصيرة ومتلاحقة كأنّني أصعد درجًا لامرئيًا ولامتناهيًا. ثم بدأت يداي بالتعرق وكأنّني سأدخل سريرهِ للمرّة الأولى، ثم قرّرت أن أتجاهل كلامه وأتظاهر بالنوم الليلة أيضًا.

استيقظت عند الخامسة صباحًا، ولم أكن قد نمت سوى ساعتين. جهّزت رحمة ووضعتها في باص المدرسة، وانطلقت

إلى الجامعة. ربّما شغلّنتني تلك الرّجّة النفسيّة التي حصلت لي عن موضوع الوداع! استدعيت صوت المنطق ورحت أتحدّث مع نفسي، كما أتحدّث مع ابنتي ذات الستّ سنوات.

«لا يجب أن تحزني. كلّ ما حدث كان جميلًا. ثم ماذا لو بقي هنا؟ أنتِ لن تتمكّني من الذهاب معه في رحلاتٍ ومشاورير طيلة السنة، هذا التصرّف مقبولٌ فقط، لأنّه استثناءٌ ولأنّه موقّت. معرفة أنّ هناك شخصًا بهذه الرقّة هو رحمةٌ بعينها. يجب ألا تكوني جشعةً وتطلبي المزيد. كوني ممتنةً لتلك المشاورير، فقد كنت تحلمين بتوقيعه فوق غلاف كتاب، والآن أصبح صديقك... ربّما».

قرّرت أن أذهب إلى موعدنا الأخير وأنا سعيدة. وحين وصلت إلى الفندق، تصافحنا بلهفة:

- هل أنتِ مستعدّة؟ قال حامد بفرح.

شعرت أنّه أيضًا قرّر أن يبدو سعيدًا.

- مستعدّة ومتحمّسة.

طلب منّي بعدها أن أتوجّه إلى فندق «الموفمبيك» في شارع الروشة، والذي يقع على بُعد أميالٍ قليلةٍ من الفندق الذي يُقيم فيه.

بدأ فضولي يتحرّك. ما الذي يمكن أن يعنيه في فندق الموفمبيك. هل هناك نشاطٌ من نوعٍ ما؟ رحّت أتساءل مع نفسي. وعندما وصلنا إلى المدخل ورفع رجل أمن الفندق القاطعة كي تمرّ السيّارة، طلب منّي حامد أن أكمل نزولي إلى أسفل الطريق. هناك، ركنت السيّارة إلى جانب البحر وترجّلنا، ثم تبعنا حامد

إلى المرسى حيث يصطفّ عددٌ من اليخوت من مختلف الأحجام. وقفت خلفه فيما كان يتحدث إلى الرجل المسؤول عن اليخوت، ويتفق معه على استئجار يخت. وعندما وقع الاختيار على المركب المناسب استدار ناحيتي، وسألني:

- هل تعانين من دوار البحر؟

- لا أعرف. أجب بارتباك.

- سنكون في البحر لمدة ساعة. هل تستطيعين تحمّل الأمر؟

- لم أركب قاربًا من قبل. أقصد... أنني لست قادرة على السباحة، لذلك كنت أتجنّب البحر.

- ليس مطلوبًا منك أن تسبحي، قال مبتسمًا.

ركبنا البحر، وراح اليخت يتهادى وهو يرتطم بالأمواج. بدأت المدينة بجمالها وتشوّهاتها تصغر أمام عيوننا. شعرت أنني في حلم وكأني أرى الحياة من منظرٍ جديدٍ كليًا. شيءٌ من النشوة تسرّب إلى كياني وأنا أراقب الشمس تملأ الأفق بلونها البرتقالي والرياح المتطاير يحطّ على وجهي. كان حامد ينظر إليّ بملامح هادئة وشبه ابتسامةٍ مستقرّة فوق وجهه، وكأنّه يراقب طفلًا يلعب بالماء للمرة الأولى. وحين صرنا بعيدين عن الشاطئ وهدأ الموج، توجّه حامد إلى القبطان وتبادل معه بضع كلمات، فترك القبطان مقعده، ثم استدار حامد ناحيتي، وقال لي:

- الآن، حان دورك كي تقودي أنت المركب.

- أنا؟ لا مستحيل! قلت بلهجةٍ يمتزج فيها الإحراج

والخوف.

- لا مكان للرفض هنا. القبطان سيبقى إلى جانبك. أريدك أن تختبري هذا الشعور!

جلست مكان القبطان في المقعد الجلديّ الأبيض، وأمسكت بالمقود الخشبيّ المستدير، فابتعد حامد وأخذ يلتقط لي الصور وهو يضحك على ارتباكي. ولكنّ الوقت كان يمضي بسرعة، ووقت الوداع يقترب.

كلّ شيء كان يموج ويترنّح. المركب ومشاعري وأفكاري. لا أعرف لماذا اختار حامد البحر لمشوارنا الأخير، ولماذا أشعرني اختياره بالراحة. أكان يحاول الهروب مثلي؟ ممّا كنّا نهرب يومها؟ من أفكارنا؟ من الوقت؟ من التسوّل المنشور على مجد المدينة، والذي يُعيدنا إلى الحاجة القاتلة المتأصلة في كلّ ما فات؟ لقد أتينا أنا وحامد من بيئاتٍ متشابهة، حيث الدين هو سيّد الكلمة والآباء قساةٌ وغاضبون. ذقنا مرارة الانتهاك الجسديّ، ورأينا الفرح يُسلب من أمّهاتنا والمستضعفين حولنا. رأى حامد أمّه تُعَنّف، ويُغتال فرحها بالتدريج أمام عينيه، رأى ضحكاتها تغيب كتلك الشمس التي تسقط عند طرف المحيط، وبعدها عاش عمره يصارع المرض النفسيّ في غربته وحيداً. ورغم كلّ هذا، كان ما زال مصرّاً على مناصرة الضعفاء والمنتهكين. رغم كلّ هذا، أراد أن يُضفي شيئاً من الفرح على كآبتي. هذا التصرف النبيل جدّد أُملي بالخير الموجود في البشر، وجعل وداع حامد أصعب!

عند باب الفندق، قال لي:

- أنا أكره الوداع. . دعينا نتظاهر بأننا سنلتقي غدًا .

- إلى الغد إذن، قلت له مصافحةً .

بقي واقفًا أمام الفندق حتى ركبت سيَّارتي، وغادرت. راح انعكاسه يتلاشى في مرآة السيَّارة وحين غاب الفندق من الخلفيَّة، سمحت لدموعي أن تنهمر. عادت القصيدة نفسها لـ «ميريت مالوي» تتردَّد في رأسي :

«هناك أشخاصٌ لا يمكنهم أن يقولوا وداعًا

وُلدوا بهذه الطريقة

هكذا يموتون

ما يحركهم لا يستهلكهم

ولاؤهم سوف يمزَّق ساعات حائطك»

ألف عام من العزلة

قبل أن يتسنّى لي الاختباء في غرفة رحمة والتظاهر بالنوم، جاء سالم إلى المنزل في وقتٍ أبكر من المعتاد، وقال لي إنه يريد التحدّث إلَيَّ بعد أن أضع رحمة في سريرها. بدأت الأفكار تتلاحق في رأسي حين سمعت تلك الكلمات. ماذا عساه يريد مِنِّي؟ هل يُعقل أن أحدهم قد رآني مع حامد وأخبره بالأمر؟ هل يظنّ أنني خنته؟ هل خنته فعلاً؟ ربّما لو كان يسمح بأن يكون لي أصدقاء من الجنس الآخر، لأخبرته بالأمر. لا، لا أظنّ أنني كنت سأشارك هذا الأمر مع أحد. هذه القصّة تنتمي لي وحدي، ولن تصبح مستنداً ينتظر ختم القبول من رجال القبيلة! هي قصّة أرقّ من أن تمرّ على الممرّات الوعرة لأفكارهم، قصّة تنتمي إلى خفّة الريش وهروبه اللامتناهي مع هبوب كلّ نسمة.. خفّة مندورة للذهاب المستمرّ، للوجع الباقي.

للمرّة الأولى، شعرت أنني مستعدّة للبوح لسالم بكلّ شيء،

للمرّة الأولى، لم أكن خائفةً من المواجهة. أحسست أنّ شراسة ما قد استيقظت في داخلي، تشبه شراسة أنثى الذئب التي قرأت عنها في كتابٍ عن المعالجة النفسيّة للنساء عن طريق إخبارهم بأساطير وقصص الجدّات لتذكيرهنّ بطبيعتهنّ المتوحّشة. كتلك القصّة عن «لا لوبا» المرأة العجوز البدينة التي تعيش في مغارةٍ في الصحراء. كانت لا لوبا تجمع عظام الذئب حتى تشكّل هياكلَ عظميّةً كاملة، وعندما يكتمل الهيكل كانت تغني فوقه. تغني وحدها في صحرائها البعيدة، حتى تكتسي العظام باللحم وتذبّ فيها الحياة، وتحوّل إلى أنثى ذئب. تنتفض أنثى الذئب تلك وتركض، حتى تتحوّل إلى امرأةٍ جميلةٍ وقويّة. يقول الكتاب إنّ «لا لوبا» موجودةٌ داخل كلّ امرأة، بقدرتها على الخلق وشراستها في حماية من تحبّهم؛ في حدسها الذي لا يخطئ وقدرتها الدائمة على إعادة خلق حيواتٍ جديدةٍ من عظام كلّ ما مات بداخلها.

شعرت بقشعريرةٍ تسري على جلدي، ورحت أرتجف وكأنّ حمّى قد أصابتني. ربّما كانت «لا لوبا» تنفض الغبار عن نفسها، وتخرج من مغارة صحرائي لأوّل مرّة! ربّما كنت أموت لكلّ ما كنته من قبل لأولد من جديدٍ امرأةً بصوتٍ، امرأةً لا تجزع من صورة وجهها كلّما مرّت أمام إحدى المرايا.

قرّرت ألاّ أختبئ مثلما فعلت مرارًا. هذا الاختباء يُشعرني أنّني كالفرّان، يؤمّن شيئًا من الراحة لفترةٍ قصيرة، ولكنّ الشعور بالانكسار والذلّ الذي ينجم عنه يحزّ في النفس لأجلٍ غير مسمّى. عندما نامت رحمة، ذهبت إلى سالم في غرفة الجلوس.

– هل أردت محادثتي؟

- نعم. لقد أخذت موعدًا منك، للحقيقة. فأنا نادرًا ما أراك في النهار، وفي الليل، أصبحتُ شبه متأكدٍ أنك تنامين في غرفة رحمة كي تتجنبِي الدخول إلى السرير معي!

- سعيدة، لأنك تطرقت لهذا الحديث معي. في الحقيقة، لديّ ما أقوله لك أيضًا.

- صمتُ قليلًا لأجمع أفكارِي، وأقرّر من أين سأبدأ.

- تفضلي.. قال سالم بتوتُّر.

- أنا أعاني من اكتئاب مزمن، وقد تلقّيت علاجًا لمدة سنة. ولكنني الآن أشعر بأنني على شفير السقوط في الدوامة نفسها مجددًا. لذلك، أنا لست مستعدة لأيّ اتّصالٍ جسديٍّ معك قبل أن أتحمّن، وأعرف إلى أين سيأخذني هذا المرض.

- كيف لم تُخبريني بكلّ هذا. أترين أنّ كلّ ما كنت أتحدّث عنه تحقّق؟ أصبحت لك حياة لا أعرف عنها شيئًا؟! ثم ما هذا الكلام الفارغ؟ أنتِ زوجتي، وسأنام معك متى يحلو لي.

- لقد أخبرتك للتوّ أنني أعاني من اكتئاب، وأنت غضبت لأنني لم أخبرك، ولأنني قرّرت ألا أنام معك وأنا في هذه الحالة. لم تُعِر أيّ اهتمام لوضعي!

- لقد ضحّيت من أجلك يا أمل، كما لم يضحّ رجل، قال سالم محاولًا استجداء تعاطفي.

- لقد ضحّيت لأجلي، وأنا ضحّيت لأجلك.. وتلك التضحية من الطرفين لم تجعل أحدا سعيدًا.

- حين تزوّجنا، ظننت أنّه بدعمي لك كنت أبني عائلة متماسكة.

- كان عليك أن تكون أكثر حكمةً يا سالم . حين يختار الإنسان شجرةً صغيرةً بحجم يده ، يجب أن يعرف كم ستكبر هذه الشجرة قبل أن يضعها في وعاءٍ صغيرٍ يصلح لنبتة ، وحين يشتري سمكةً للأكواريوم عليه أن يتأكد أنها لن تصبح أكبر منه وتختنق ثم تكسره!

- أيعني هذا أأنك الآن أصبحت أكثر علمًا وفهمًا مِنِّي ، وأنِّي لم أعد أصلح لك؟

- لا العلم ولا الفهم يصنعان الحبَّ يا سالم . لو كان الحبُّ موجودًا ، ما كان هناك مقارنةٌ ومنافسةٌ بين الحبيبين .

- هل هذا اعتراف منك بأنك لا تحبِّيني؟

كان عليّ أن أفكر مليًا قبل أن أُجيب على السؤال . أيّ إجابةٍ كانت ستزيد من تعقيد المسألة بيننا . أيّ إجابةٍ كانت حتمًا ستؤدِّي ، إمّا إلى جرح سالم أو لغرقٍ أكثر في الكشبان الرملية لزواجي!

- اسمع يا سالم . . أنت زوجي وأبو ابنتي . ولك عندي كلّ احترام ومودة ، ولكنَّ الحبَّ الذي أتحدّث عنه لا يأتي للمرأة وهي في السادسة عشرة من عمرها . لا يمكن للمرأة أن تحبَّ قبل أن تتعرّف على نفسها .

صَفَّقَ سالم لي بيديه ، وقال ساخرًا :

- الآن ، أصبح بإمكانك أن تظهرِي في البرامج الصباحية على التلفزيون ، وتضحكي على النساء بهذا الكلام .
- هذه قناعاتي . ولا يعنيني أن أقنع بها أحدًا .

تركته، ودخلت إلى غرفة رحمة. كنت أشعر بحزنٍ شديدٍ من أجل كلِّ شيء. من أجل سالم الذي لم أقدر يومًا على حبِّه، من أجل كلِّ الأمور التي ضحَّى بها ولم تُغيِّر الخلل في زواجنا. كان كمن يحمل سطلًا في مكان تحت السقف، بينما تتسرَّب المياه من مكانٍ آخر غير مرئيٍّ بالنسبة إليه. حزنت من أجل رحمة التي لا أعرف مصيرها في زواج كهذا، لأنَّ أمَّها - تمامًا كما مي - لم تكن يومًا سعيدة. حزنت من أجلي أيضًا، أنا التي يطحنني الشعور بالذنب كلَّ يوم. شعورٌ بالذنب لا يتبعه أيُّ اكتفاءٍ أو سعادة.

أردت أن أفكِّر بوضوح، ولكنَّ شعوري بالقوَّة الذي تتخلَّله لحظات انسحاقٍ تامٍّ، جعلني أستخلص أنَّي لست في موقع يسمح لي أن أتخذ قراراتٍ كبيرةً قبل أن أعود للعلاج، وتهدأ دَوَّامة المشاعر في داخلي. ولكنَّ ماذا لو عدت للعلاج والخَدَر من جديد؟ ماذا لو أصبحت وكأني في غيبوبة؟ هل هذا هو الحل؟ وإن كنت أعود متوسِّلةً الخَدَر في كلِّ مرَّةٍ ركلت الحياة في أحشائي، كيف سأكمل هذا العمر؟ لقد مضت أكثر من عشر سنوات على زواجي ولم يتغيَّر شيء، ألن أخذع نفسي إن ظننت أنَّ شيئًا سيتغيَّر في الأيام القادمة؟

أصبح سالم يتردَّد على منزل أمِّي من غير معرفتي؛ يفتح لها قلبه ويخبرها أنَّي أتغيَّر، وأنَّه يشعر بأنَّه يخسرني. فتحاول أمِّي بأسلوبها الدبلوماسيَّ أن تفتح الحديث معي كي يتسنى لها مناقشة الأمر، ولكنني كنت أتصدَّى لمحاولاتها لأنني أعرف جيّدًا أنَّه برغم انفتاح أمِّي على الأفكار الجديدة، إلَّا أنَّ امرأةً بمشوارها وعذاباتها لن ترى أيَّ سببٍ مقنعٍ في رفضي لزوجي الذي لا

يعنّفني ولا يخونني ولا يحرمني من الطعام والشراب.

هذه هي شروط الحياة الكريمة للمرأة في مجتمعي. وأنا خصّيصًا حظيت بما يُشبه تحسين شروط العبوديّة، فسُمح لي بقيادة السيّارة وتحصيل شهادة جامعيّة والعمل الأكاديميّ. كلّ هذه التّضحيات كان من المفترض أن تجعلني سعيدة، أو على الأقلّ غير تعيسة، ولكنّها لم تفعل.

صرت أميل لزيارة الغابات كثيرًا. أتأمّل أصغر الأشياء، وأسكب نفسي في كلّ نبتة. كنت أشعر أحيانًا أنّي قاسيةٌ وغير قابلة لأن يخرقني شيءٌ مثل الورق الأخضر السميك اللّمّاع الذي لا يبتلّ بالماء. في صغري، حين كنت أرافق أمّي إلى عين الضيعة، كانت تضع ورقةً من تلك الأوراق بشكلٍ مقوّسٍ على حافة الحجر، حتى يتحسّن تدفّق المياه وانسكابه في الجرّة بغزارة. هذه الأوراق كانت تُشبه الجسور، تنقل الماء ولا تشرب منه شيئًا. وأحيانًا أخرى، كنت أشعر أنّي مثل النبتة الخجولة shame plant التي يترجم معنى اسمها حرفيًا بـ «نبتة الخزي»، التي تنكمش إذا ما لمسها أيّ شيءٍ مهما كان صغيرًا. تأرّجحت لأسابيع بين الغياب والحضور، بين البكاء والحَدَر، بين القوّة والضعف.

وفي إحدى المرّات، وحين اشتدّ الخناق بيني وبين سالم الذي يصارع «عدم الاكتفاء الجنسيّ»، تركت رحمة في منزل أمّي، ورحت أقود السيّارة من غير مقصد. وإذا بي أجد نفسي أقرب من منطقة الباروك. لم أتردّد حين رأيت المنعطف الذي يؤدّي إلى غابة الأرز. كان قد مضى على غياب حامد عدّة أشهر،

لم يتبادل فيها سوى بضع رسائل تقتصر على السلام وسؤالٍ عن الحال مرفقٍ بها مقالاتٌ عن مواضعٍ قد تهمني أو تهمة!

كانت الغابة على حالها والبرد على حاله، ولكنني كنت وحدي هذه المرة. سلكت الممرّ نفسه، وسمعت صوت تكسّر الأغصان الصغيرة تحت قدمي، فشعرت بقشعريرةٍ تسري في جسدي بدأت عند رقبتني وامتدّت إلى أسفل ظهري، وكأنّها صعقةٌ كهربائية. توجّهت إلى الشجرة الهرمة التي بكى حامد عند جذعها، وجلست هناك. ما الذي أتى بي إلى هنا في هذا البرد؟ الاختلاء بالأشجار أصبح يفوق طاقتي. شيءٌ ما تبدّل في داخلي إلى الأبد منذ احتضنّا تلك الشجرة الهرمة في أقاصي الجبل، وأودعنا صلواتنا الصامتة بين جذعها وصدرينا. من يومها وأنا أشعر أنّني مسؤولةٌ عن تشرّد كلّ العصافير. من يومها وعويل الغابات المحترقة لم يتوقّف في جوفي.

«ماذا زرعت في داخلي؟»

وجدت نفسي أوجّه هذا السؤال إلى حامد، ذلك الرجل الذي مرّ على حياتي برقةٍ نسمةٍ وترك تحت جلدي حطامًا يُشبه مخلفات إعصار. الرجل الذي قد لا أراه مجددًا، ولكنني سأبقى ممتنةً له على إيقاظي من سباتي العميق الذي كان يُشبه الغيبوبة.

كنت، في تلك الفترة، قد شارفت على نهاية رسالة الماجستير، رغم كلّ الضغوط النفسية والهزّات التي كان يمرُّ بها زواجي تحت سطحه الهادئ. شغلت نفسي بكتابة الاستفتاءات والحصول على إذنٍ من اللجان المختصة، وإجراء المقابلات

وكتابة التحليلات، ولكن في نهاية النهار كنت أعود إلى كابوسي .
إلى ترقّب سالم الذي يُثير بي الشفقة والغضب والضيق . كنت
أشعر كأنني أقف على حدّ شفرة، إن ملّت اتّجاه ما يريده سأخسر
نفسي إلى الأبد، وإن ملّت اتّجاه ما أريده أنا، سأتعثر بشعوري
بالأنانيّة والذنب وكلّ أنواع جلد النفس قبل أن أصل إلى
الانفصال .

الانفصال، تلك الكلمة الكبيرة المخيفة التي تجنّبتها كلّ
امرأةٍ أعرفها، وارتعب منها كلّ أبٍ وبنى في وجهها قلاعاً
وحصناً . «البنت ممنوع تطلّق» . كبرت وأنا أسمع هذه الكلمات .
كلّ النساء اقتنعن بهذه الكلمات، وكأنّها كلماتٌ منزلةٌ ومنقوشةٌ
على جبين كلّ امرأةٍ من قبل أن تولد . لو تطلّقتُ لن أصبح مطلّقةً
وحدي، بل سأسحب هذا اللقب على والدي وأخواتي وابنتي،
وعلى أيّ زواجٍ آخر إذا ما تزوّجت مرّةً أخرى . الطلاق يُشبه
الوشم الذي نخّثاره بكامل إرادتنا، ولكنّا نضطرّ إلى رؤيته كلّ يومٍ
لما تبقى من حياتنا .

في أوّل مرّةٍ ذكر فيها سالم الطلاق، كان يستخدمه كورقة
ضغط :

- إلى أين سيذهب بنا زواجٌ بلا علاقةٍ جنسيّةٍ؟ إلى الطلاق؟
أهذا ما تريدينه؟

- ألا ترى خللاً في زواجٍ ينهار بسبب غياب العلاقة
الجنسيّة؟

- لا أرى سبباً للانفصال يا أمل . الأزواج ينفصلون حين

يواجهون مشاكلَ كبيرةً لا أحد يستطيع تخطّئها. ولكن ما هي مشكلتنا؟

كنت أقف في مكانٍ يطلّ على حياةٍ لا تُشبه الحياة التي يطلّ عليها المكان الذي يقف عليه سالم. كنّا نصّف ما نراه ولا يتطابق الوصف. كان كلّ منّا متخماً بمعاناته، ولا أحد يستطيع أن يلتهم معاناة الآخر كي يريحه منها! فأجبته باقتضاب:

- نحن لسنا سعداء يا سالم.

- هل أنا مقصّرٌ معكِ؟

- السعادة ليست خلطةً في مختبرٍ تضيف كلّ المكوّنات لتحصل عليها. كما أنني لا أطمح للسعادة. أنا فقط أريد أن أستعيد حقّي في جسدي. أريد ألاّ تلمسني بعد الآن إلّا إن كنت بكامل استعدادي وتقبّلي للأمر.

- هذا الكلام الهلامي لا ينفع. حدّدي لي وقتاً.

- لا أعرف! أنا أخوض تجربةً شفاءٍ وترميمٍ للنفس، ولا أعرف كم سيستغرق الأمر. وإلحاحك بالطبع لن يساعدي!

- ماذا عن حاجاتي كرجل؟

- اسمع يا سالم.. لقد فكّرت بحاجاتك طوال فترة زواجنا، والآن أنا بحاجةٍ لأفكّر بحاجاتي أنا. لن أقف في طريقك إن أردت أن تخرج مع امرأةٍ أخرى. اعتبرني مربيّة لابنتنا. سأنام في غرفتها، وأهتمّ بدراستها وبالمنزل. اعتبرني خادمة، ولكن أرجوك لا تلمسني من غير إذني بعد اليوم.

- لا أصدّق أنّ امرأةً مثقّفةً مثلك تعرض على زوجها فرصةً

لاقتِراف المعاصي، ولا أُصدِّق أنَّك لا تغارين عليَّ، ولا أُصدِّق أنَّك قرَّرتِ الانفصال والبقاء معي في المنزل نفسه!

- صدَّقني، لقد ارتكبتَ المعاصي في كلِّ مرَّةٍ غصبتني فيها على ممارسة الجنس معك. وإن كنت لا تريدني هنا بشروطي، سأرحل مع رحمة.

- إن رَحلت يا أمل، لن يكون هناك رحمة في حياتك. اعتبري أنَّك قد متَّ منذ اللحظة التي تغادرين فيها هذا المنزل.

- حان لك أن تستفيق من لعب دور الله. لعبت دور الله حين أرغمت جسدي على الحبل الاضطناعي مرَّتين، وكأنَّك أنت المسؤول عن الخلق! والآن، تريد أن تعتبرني في عداد الأموات إن غادرت منزلك. اسمع، الانفصال يعني انفصالي عنك كزوج، أمَّا رحمة فلا شأن لها بالطلاق. سأبقى أمَّها إلى الأبد.

قلت هذه الكلمات بانفعالٍ وبصوتٍ أقرب إلى الصراخ.

حاول بعدها سالم أن يحضنني، ويقبِّلني في لفَّةٍ رومانسيَّةٍ أساء تقديرها، ولكنني أبعدته عني بكلتا يديَّ، وذهبت إلى غرفة رحمة وأقفلت الباب. حضنت ابنتي طوال الليل، وتخيلت كلَّ أنواع الوداع في رأسي، فلم أتمكَّن من النوم حتى الصباح. ثم فكَّرت بالأمر من الناحية العمليَّة. الطلاق يعني العودة إلى منزل والدي.. إلى المربَّع الأوَّل، وكأنَّني لم أغادر بيت أهلي ولم أصبح أمًّا وخريجة الجامعة الأميركيَّة وباحثة. الطلاق يعني undo أو إلغاء تامًّا لكلِّ ما أنجزته. الطلاق يعني التقهقر إلى ما قبل عشر سنوات، يعني العودة إلى الحياة التي هربت منها. الحياة تحت رحمة أبي.

شعرت بانكماشية في أمعائي وغثيانٍ شديدٍ نتيجةً للرفض القاطع لهذا المنطق في أعماقي. لن أعود إلى منزل والديّ مهما كلف الأمر. أعلم أنّ والدي لن يسمح لابنته «المطلّقة» بأن تعيش وحدها، لأنّ شرف العائلة معلّق على جسدها، ولأنّه يخشى بالتحديد من نظرة المشايخ له. أليس لهذا السبب نفسه تخلّص منّي سريعاً وكأنّني جمرَةٌ حين سلّمني إلى رجلٍ واجبه أن يتحمّل الحرائق التي يمكن أن تنجم عني؟ والآن، إن تطلّقت من سالم سيطلب والدي بحقه في الوصاية على الجمرّة من جديد، كي يحمي شرف العائلة وصورته أمام المشايخ. كيف سأسمح لهذا الأمر أن يتكرّر؟

تمنّيت لو أنّ هناك أيّ شخصٍ يساعدني على التفكير، لينتشلني من الدوّامة التي أغرق فيها. شخصٍ محايد. لم يكن لي أصدقاءً بحكم انطوائيتي ومسؤوليّاتي الكثيرة، ولم يكن أحدٌ في محيطي على قدرٍ من الانفتاح المطلوب كي أستشيريه في مسألةٍ حسّاسةٍ مثل الطلاق، ولكنّي تذكّرت شقيقتي نيرمين. لا بدّ أنّ نيرمين ستفهم. لا بدّ أنّ السنوات التي عاشتها في الولايات المتّحدة قد فتحت عينيها ورأسها على الخلل الذي نغرق فيه ونتماهى معه. سأترك لها رسالة، وأطلب منها أن تكلمني بأسرع وقتٍ ممكن.

- آلو أمل.. هل أنت بخير؟

- أهلاً نيرمين. أنا بخير، ولكن عليّ أن أستشيرك في أمر.

- أخبريني ماذا هنالك؟

- أنا أفكر جدّيًا في الطلاق من سالم. وحدك تعلمين كم عانيت لأبقي هذا الزواج قائمًا، ولكنني الآن أشعر أنه عليّ إمّا أن أخسر نفسي أو أن أخسر الزواج.

- ماذا الذي يجعلك تقولين هذا. ماذا حدث بينكما؟

- ما حدث قد حدث بيني وبين نفسي. لم يحدث بيني وبينه. لقد استيقظت يا نيرمين. شيء ما في داخلي استيقظ. ورفض هذا الزواج المبنيّ على كبت مشاعري ومداراة مشاعر سالم. أنا أمقت نفسي، ولا أشعر تجاهه إلّا بالشفقة.

- حسنًا يا أمل، أنا أفهمك. ولكنّ أجيبيني. هل بإمكانك تحمّل الحياة تحت سلطة أبي؟

- لا لا. بالطبع لا. لهذا أكلّمك.

- هل لديك مسكنٌ بديلٌ للإقامة؟

- لا.

- هل لديك سيّارة خاصّة بك كي تتنقّلي؟

- لا.

- ماذا عن التأمين الصحيّ؟ هل لديك تأمينٌ صحيّ؟

- لا.

- هل لديك حسابٌ مصرفيّ.

- أملك أربعمئة دولار في حسابي، ولكنّ دخلي الشهريّ

جيد.

- ولكنّك تعملين بدوامٍ جزئيّ، وتتعاقدن مع الجامعة بشكلٍ

موسميّ.

- أعرف...

- اسمعي يا أمل.. لا أعرف امرأة سعيدة في زواجها. أصلاً السعادة وهم. عيشي مع سالم، واستمتعي بالمال والرفاهية التي بمتناولك وإن أحببت أن تكوني صداقات جانبية كي ترضي مشاعرك قومي بهذا، وستكونين أنت وسالم سعداء. فهمت قصدي؟

- ولكن يا نيرمين، أنا أريد أن أعيش بصدق. هذا كل مطلبي من الحياة. لا أريد مزيداً من الكذب والتحايل. لم أعد أستطيع أن أكمل في هذه الكذبة التي نسميها زواجاً، ثم إنك تطلبين مني أن أكون جاريته، ويكون هو السلطان المنفق عليّ. كيف يختلف هذا عن الدعارة؟

- أنت زوجته ولست عشيقته.

- تلك الورقة عند الشيخ في المحكمة الدرزية تقول إنني زوجته، ولكن رأسي يقول لي إنني جارية ومقينة. أنا أكره نفسي كثيراً، وأعلم أن هذا الكره سيمتد إلى سالم وكل من حولي قريباً إن لم أتصرف.

شكرت نيرمين على اتصالها، ولكنني بعد أن أقفلت الخط، حاولت طرد كل الأفكار التي طرحتها عليّ، والمخاوف التي أيقظتها في رأسي.

حين عاد سالم إلى المنزل في المساء. بدا طبيعياً، وكأن شيئاً لم يحدث ليل أمس. تناول الطعام معنا، وشاهد برامجه على التلفاز بهدوء وصمت. حوالى الساعة الحادية عشرة، تمنى

لي ليلة سعيدة، ودخل للنوم في سريره بينما بقيت أنا مستيقظةً أنجز بعض الأعمال المتعلقة بتعديل النسخة الأخيرة من أطروحة الماجستير.

تفاجأت عندما رأيت سالم واقفاً عند باب غرفة الجلوس حيث أعمل. كان الوقت يقترب من الثالثة فجراً.

- ألن تأتي إلى السرير؟ سألني سالم.

- لدي الكثير لأنجزه. هل أنت بخير؟

- ولكن، غداً نهار السبت. لديك نهاية الأسبوع كلها كي تعملني.

- لا أشعر برغبة في النوم، أجبته باقتضاب.

اقترب سالم مني وبقي واقفاً. رفعت رأسي لأنظر إليه وهو يتكلم.

- هل ستصبحين زوجتي مجدداً ابتداءً من هذه الليلة أم تفضّلين الطلاق؟

- لا أستطيع أن أعذك بأنني سأصبح زوجتك مجدداً بالمعنى الذي تقصده. قلت لك إن وضعي النفسي لا يسمح لي بأيّ تقاربٍ جسديٍّ بيننا. قلت وأنا أحاول تصنع الهدوء.

- وضعك النفسي يسمح لك بالعمل في النهار وبكتابة أطروحة بالليل، ولا يسمح لك بتقبلي في السرير؟

- أجل.

- أنا مصرٌّ على أن تعودتي زوجتي الليلة.

- سأترك البيت في الصباح إذن، أجبته بنفاد صبر.

- لا. إن كنتِ ستذهبين. عليكِ أن تذهبي الآن؟

- إنها الثالثة فجرًا.

- أعرف.

بدا لي سالم وكأنه تحت تأثير مخدرٍ ما، وكأنَّ صوتًا آخر يتكلَّم من خلاله. كانت لحظاتٍ تشبه أفلام الخيال العلميّ، شعرت فيها وكأننا نقف على مفاصلٍ متحرّكةٍ وسط فضاءٍ فارغ، وأننا نتوازن فوقها ونحن نتكلَّم كي لا نسقط في فراغ الفضاء اللامتناهي. كنت أنظر إليه غير مصدّقةٍ أنّه يتحدث عن الطلاق بهذا الهدوء. تلك الكلمة التي كانت تثير سُخْطه، وتجعله يصرخ ويرفض ويتمرّد. فهمت أنّ هذه هي فرصتي للذهاب. ربّما تكون فرصتي الوحيدة. لا بدّ أنّ سالم خيرني بين الرحيل أو الدخول إلى سريره في الثالثة صباحًا كي يحاصرني في الزاوية لأرضخ. هو طبعًا لا يتوقّع من امرأةٍ مثلي أن تترك المنزل في الثالثة صباحًا!

توجّهت إلى غرفة النوم، خلعت البيجاما ووضعتها في شنطة ظهري، ثم ارتديت ثيابي ودست بنطالًا إضافيًا وكنزةً وبعض ثيابي الداخليّة في الحقيبة الصغيرة نفسها، ثم عدت إلى غرفة الشتاء ووضعت اللابتوب وكلّ أوراقٍ داخل الحقيبة، ونظرت باتجاه الباب المغلق لغرفة رحمة. قلت في قلبي «أعدكِ أننا سنلتقي قريبًا يا حبيبتي». كنت أعرف أنّ دخولي إلى غرفة رحمة سيصيّني بالانهيار، وسيجعلني أراجع عن قراري.

- هل أتصل بسائق الشركة كي يوصلك إلى منزل أهلك؟ قال

سالم بنوع من التحدي وهو لا يزال مستمرًا في لعبته غير مصدقٍ
أنِّي سأرحل.

ولكنني نظرت إليه مطوّلًا ، وقلت له :

- منذ هذه اللحظة ، لم يعد لك القول في المكان الذي
سأذهب إليه . منذ الآن القرار لي .

وقفت في مدخل المبنى ، أنتظر سيّارة التاكسي التي طلبتها
هاتفياً عبر مكتب لخدمات التوصيل يعمل على مدار أربع وعشرين
ساعة . وعندما انعكس ضوء سيّارة الأجرة على زجاج باب
المدخل ، نهضت عن السّلم وأغلقت ورائي باب البيت لآخر مرّة .

- كورنيش عين المريسة من فضلك ، قلت باقتضاب .

- أيّ فندق؟ سأل السائق .

- فقط الكورنيش . ليس هناك من فندق .

كان رأسي يشبه كومبيوتر معطّلاً ، تفتح فيه عشرات النوافذ
في آنٍ واحدٍ ولا يستجيب لأيّ أوامر منّي . راحت الأفكار
تتلاحق وتتنافس ، فلا تدوم أيّ فكرةٍ منها أكثر من بضعة ثوان .
فكّرت في كلّ شيء ، ولكنني نجحت في أن أبقى رحمة خارج
رأسي . عرفت أنّ أيّ تسرّب لطيفها سيقلب لي نوبة بكاءٍ حادّةٍ
أو انهياراً عصبياً . ولكنني الآن بلا مأوى . عليّ أن أحافظ على
توازني حتى أجد مكاناً يؤويني لأنام ، لأستحمّ ، لأبكي .

طلبت من سائق التاكسي أن يوقف السيّارة في عين المريسة
بمواجهة ال «غرين فيلد» في الجامعة الأميركية . وحين نزلت من
السيّارة وسرت بضعة خطوات ، شعرت أنّني أسير في الهواء ،

وكأنَّ هناك طبقة هواءٍ لامرئيةً بين حذائي الرياضيِّ ورصيف الكورنيش. من أين أتتني هذه الخفَّة وسط أعاصيري الداخليَّة؟

كان برد تشرين الأوَّل قد اشتدَّ والوقت يقترب من الفجر. اخترت مقعدًا هناك بمواجهة البحر، وجلست بانتظار ظهور خيوط الشمس الأولى. شعرت أنَّني نهرٌ تخلَّى عن مجراه وأغرق الحقول المحيطة. كان الفلاحون في قريتي يستفيقون على خراب طوفان النهر، فيتفقَّدون حقولهم وهم يولولون ويستغفرون الله. أمَّا أنا فكنت أسعد لحرِّيَّة النهر وللأعشاب البريَّة التي تنبت في الظلِّ ولا تشرب إلَّا من رطوبة الهواء. غدًا، سيستفيق أهلي على خرابي أنا. سيسكنهم سوء الظنِّ. ربَّما يتَّهموني أنَّني هربت مع أحدهم، فيولولون ويستغفرون الله. وحين تذكَّرت أهلي وسيل الاتِّصالات الذي سأتلقَّاه حالما يأتي الصباح وينتشر الخبر، بحثت عن هاتفي ووضعتَه على وضعيَّة الطيران.

أكره أن أشغل بال أمِّي. تلك المسكينة التي تُحاسب من المجتمع والدين على كلِّ قرارٍ تأخذه أيَّ واحدةٍ مِنَّا. ولكنَّ عليَّ أن أحمي نفسي. إن سمحت لهم باختراقي الآن سيهزمونني. لا أريد العودة إلى ذلك المكان، وإن أُجبرت على العودة أُفضِّل أن أعود في تابوتٍ وليس سيرًا على الأقدام.

ثم فكَّرت في حامد. الرجل الحكيم الوحيد الذي قابلته في حياتي. أيَّ نصيحةٍ كان سيقدمها لي وأنا هنا معلَّقةٌ بين حياتين: حياةٌ عشتها بأكملها تحت سلطة أحدهم، وحياةٌ أنتظر عند بابها على مقعدٍ خشبيٍّ باردٍ في عين المريسة، ولا أعرف عنها شيئًا. راقبت شروق الشمس وأنا عند البحر لأوَّل مرَّةٍ في حياتي. سكون

الشوارع، حركة الأمواج الرتيبة، وألوان الفجر الأولى كلّها كانت أشياء تبعث على النشوة والبكاء معًا. ملأت رثتيّ بهواء البحر النظيف، ووقفت لأفتش عن مقهى مفتوح لأتناول شيئًا من الطعام قبل أن أبدأ في رحلة التفتيش عن مسكن.

كانت دائرة بحثي عن مسكنٍ تقتصر على منطقة «الحمرا» على مقربةٍ من مكان عملي في الجامعة الأميركية. رحت أجوب الشوارع، وأتصل بالأرقام المكتوبة على الإعلانات الملتصقة على الجدران، ولكن معظم العروض كانت لسكنٍ مشترك. وهذا يعني أنني سأشارك شقّةً مع صبايا أخريات، أو أن أشارك غرفةً مع فتاةٍ أخرى. لم تكن الفكرة سيئة، ولكنني الآن احتاج أن أكون وحدي كي أصفّي رأسي، وأستوعب كلّ ما حصل. أحتاج مساحةً آمنة كي أنهار بسلام.

عند الظهيرة، وقبل أن أستسلم لليأس ويغلبني التعب، وجدت إعلانًا على مبنى في شارع عبد العزيز على بعد حوالي كيلومتر من الجامعة الأميركية؛ وحين ضغطت على الجرس المخصّص لإدارة المبنى ردّ عليّ رجلٌ، وطلب منّي أن أصعد إلى مكتبه. قال لي الرجل الأربعينيّ حين وصلت إلى مكتبه إنه يؤجّر «استوديو». وحين سألته عن معنى الكلمة، أوضح لي أنّ الاستوديو هو غرفةٌ واحدة مفروشة، فيها سريرٌ ومطبخٌ وكنبة. فرحت بهذا الاحتمال الذي لم أكن أعرف عنه شيئًا من قبل. ولكن حين وصلنا إلى مناقشة ثمن الإيجار صُدمت بالمبلغ المطلوب. كان عليّ أن أوقع عقد إيجارٍ لسنةٍ على الأقلّ، وأدفع 950 دولارًا أميركيًا في الشهر. كما طلب مستندًا أو دليلًا على كوني موظّف.

أحببت الغرفة كثيراً. كانت واسعة وحديثة، ولها باب خارجي مثل باب أي بيت، ولكنها كانت تشكّل جزءاً من طابقٍ مقسّم إلى غرفٍ بالحجم نفسه. ثلاثة أيّام كانت تفصلنا عن بداية شهر تشرين الثاني. أخبرت المسؤول أنّي بحاجةٍ إلى استلام الغرفة اليوم، وأنّه بإمكانني أن أدفع أربعمئة دولار فقط على أن أسدّد بقيّة المبلغ في أوّل الشهر. تردّد الرجل قبل أن يوافق، ولكنني أريته بطاقتي الجامعيّة، وأخبرته أنّي موظّفة في الجامعة الأميركيّة، وأنّني أمرّ بظروفٍ صعبة.. فقبل، لكنّه أجلّ توقيع الأوراق إلى حين استلامه كامل المبلغ.

وحين استلمت المفتاح وأغلقت الباب على نفسي، ركعت على الأرض وانفجرت بالبكاء. كنت كمن يحمل البحر في داخله طوال النهار. سمحت لنفسي أن أفكّر بابنتي التي استيقظت ولم تجد أمّها في المنزل: «سامحيني يا رحمة، أعرف أنّي لا أستحقّ السماح، ولكنّ قلب الأطفال لا يعرف سوى الرحمة والحب».

كان قد فات أكثر من ثلاثين ساعة على آخر مرّة نمت فيها، فاستلقيت على السرير بكامل ملابسي، ونمت حتى المغيب. لم يكن عليّ ترك الغرفة ومواجهة العالم قبل صباح الإثنين، حتى يحين موعد دوامي في الجامعة. لذلك أبقيت هاتفي مغلقاً، واكتفيت بشراء بعض الحاجيات الضروريّة من متجرٍ صغيرٍ تحت المبنى.

حين فتحت الهاتف صباح الإثنين، كنت في طريقي إلى العمل سيراً على الأقدام. وصلت عشرات الرسائل من أخواتي وأُمّي. كانت أُمّي ترجوني أن أردّ عليها، لأطمئنّها على حالي. وفي الرسالة الأخيرة، كتبت:

«والدك يرحّب بك في المنزل. ويعدك أنّه لن يجبرك على العودة إلى بيت سالم، وأنّه لن يحرمك من العمل، ولكن لا يجوز أن تعيشي إلّا معنا. هذا آخر كلام عنده».

فطلبت رقم أمّي بيدين مرتعشتين:

- آلو.. أمّي.

- أين أنت؟ جميعنا قلقون عليك.

- أين رحمة يا أمّي؟ هل تعرفين عنها شيئاً؟

- لقد أتى بها سالم إلى هنا نهار السبت وأخذها الأحد، لأنّ عليها أن تذهب إلى المدرسة.

- ماذا قلتَ لها؟ هل سألتك عني؟

- لم تكفّ عن الشكوى والصراخ، فقلت لها إنّك رحلت بسبب كثرة تذمُّرها وبكائها، حتى تكفّ عن الصراخ.

- كيف تقولين لها ذلك؟ لماذا تُحمّلين رحمة ما لا ذنب لها فيه. لقد كسرتموني يا أمّي، أرجوكم ألاّ تفعلوا هذا بها! ما زلت ألوم نفسي على تعاستك كلّ يوم. لماذا مرّرت إلى رحمة الرسالة نفسها؟ متى ستنتهي هذه اللعنة، ونكفّ عن تمرير مآسينا إلى بناتنا؟ لم أتوقّع هذا منك يا أمّي. لم أتوقّع منك أنتِ بالذات!

كنت قد وصلت إلى شارع «بليس»، فأغلقت الهاتف، وانفجرت بالبكاء وأنا ألقي برأسي على السياج الحديدي للجامعة، وإذا بسيّدة عجوز محجّبة تربّت على كتفي، وتقول لي:

- «الله يقويكي يا بنتي، ما في شي بيدوم»، وراحت تمسّد على رأسي وتدعو لي بالصبر والهداية.

قلت لها وسط بكائي :

- ادعيلي يا تينا .

كنت مجروحةً ومشرّدةً وضعيفةً، فطلبت منها أن تصلي من أجلي . لم أكن أعرف شيئاً عن دينها، ولم يكن لي الحقّ بأن أوّمن بأيّ دينٍ غير ديني . ولكنّ بهذه الكلمات كنت أطلب منها أن تحبّني وتتعاطف معي . أنا التي كنت غارقةً في كرهني لنفسي وإمعاني في تحقيرها، تسوّلت الحبّ من امرأةٍ عجوزٍ، لن أنسى لمستها الدافئة في ذلك الصباح البارد ما حييت .

ربّما أدركت في تلك اللحظة أنّ هذا هو «ميثاق النساء» الحقيقيّ . ميثاقٌ من التضامن والفهم والوجع لم يخطّه أحدٌ في كتاب، ولم يفرضه أحدٌ على النساء . ميثاقٌ يجعلنا نتواصل ونتربط على بُعدٍ آخر . بُعدٍ لا علاقة له بالدين والثقافة والجغرافيا . نحن متّصلاتٌ كجذور أشجار السنديان العتيقة التي تمتدّ لعشرات الأميال وتتعانق تحت سطح الأرض . شيءٌ ما يتحرّك في المرأة حين ترى امرأةً أخرى تعاني، شيءٌ ما يوقظ أنثى الذئب المتوحّشة في أعماقها فيستيقظ تعاطفها وتحرّك أمومتها، حتى لو لم تكن قد أنجبت من قبل . أحبّ أن أحافظ على هذا الاعتقاد حتى بعد أن رأيت نساءً ضلّلن الطريق إلى هذا السرّ في دواخلهنّ، وتماهين مع الذكوريّة وتبنّين أفكارها المتسلّطة .

ترك المنزل لم يكن سوى خطوة أولى في سلسلة من الإجراءات التي يجب أن تنجز قبل حصولي على الطلاق. وكلّ هذا طبعاً كان يوجب عليّ أن أكون في منزل والدي، كي ألتقي أشخاصاً من قبل سالم لتتفق على الطلاق بالتراضي، أو لتعيين موعد جلسات المحكمة. عدم إتمام الطلاق بالتراضي قد يعني سنواتٍ من التقاضي والمماطلة والتأجيل. كنت أستبعد أن يوافق سالم على الطلاق لأسباب كثيرة، ولكن لم يكن هناك مفرّ من ذلك اللقاء. أجّلت الموعد لعشرة أيّام كي أستعدّ نفسيّاً لمواجهة أبي. كان عليّ أن أبدو بكامل قوّتي وإصراري حين أتحدّث معه. لم أرد أن أبدو ضعيفاً، فيضعني في مقعد الاتّهام، وينصب لي محاكمةً يتمّ على إثرها إجباري على حياةٍ لا أريدها. كما أنّ هذا التأجيل أسعفني لأنّه جعل والديّ يتساءلان عمّا إذا كانا سيريانني مجدّداً. هذا الوقت هذب توقّعاتهما تجاه قراراتي.

حين صعدت إلى سيارّة التاكسي أريت السائق الخريطة،
وقلت له «قرية عينصورة».

أخذ شعورٌ بالخفقان يتحرّك بمعدتي، وكأنّ طائرًا ما عالقًا
في الداخل ويحاول الخروج. تذكّرت طائر «بوكوفسكي» الأزرق.
الطائر الممنوع من الخروج إلّا في الليل حين ينام الجميع. الطائر
الذي رغم كلّ شيءٍ ما زال يغني. ولكنّ لا شيءٍ في داخلي يشي
بالحياة اليوم. لقد عشت في ألمٍ مستقرّ لسنوات، ثم وثبتُ وثبةً
إلى المجهول، فأصابني بالرضوض وأيقظت كلّ وجعٍ كان نائمًا
في داخلي.

حين أصبحنا على مقربةٍ من القرية، بدأت أمارس تمارين
تنفّسٍ كي تساعدني على الاسترخاء. كنت شاحبةً، والوزن الذي
خسرته في الأسابيع الماضية جعل وجهي الشديد الاستدارة يبدو
أنحف. «تحلّي بالقوّة يا أمل. أرجوكِ تماسكي لهذا اليوم فقط،
وبعد ذلك انهاري في غرفتكِ بسلام. ولكنّ الآن تماسكي حتى
تعبري هذه الهوّة السحيقة على حبل التظاهر الرفيع!»

كان من المفترض أن يصل أقرباء سالم بعد نصف ساعة.
فوجدت أبي مرتديًا لباسه الرسميّ منتظرًا الضيوف. حين وصلت
هَبّ واقفًا، وسلّم عليّ مصافحًا مع قبلتين على الوجه كما يفعل
دائمًا. عانقتني أمّي، ولكنها لم تُطل النظر إلى عينيّ. لم أتعمد
يومًا أن ألاحظ هذه التغيّرات الطفيفة التي تظهر على تصرّفات
أمّي حين تكون الأجواء مريكةً أو غير مريحة. كنّا جميعًا نحاول
تجنّب حجم الحدث، ولكنّني كنت أعني أنّ الوقت يمرّ، وأنّني

بعد أقلّ من نصف ساعةٍ سأواجه أشخاصًا غرباء من قبل سالم،
لذلك عليّ أن أحسم الأمر مع أهلي قبل أن يوافقوا على أيّ مهلةٍ
جديدةٍ من أجل مراجعةٍ قراري.

ما زلت لا أدري من أين أتتني القوّة لأقول تلك الكلمات
لأبي! لا أعرف إنّ كنت أنا من قالها أو أنّ صوتًا آخر تحدّث من
خلالي! كان الجوّ بيني وبينه هشًّا كفقاعةٍ من الجليد الرقيق.
فنظرت إليه وهو يجلس قبالي على المقعد، وقلت:

- أنتَ لم تُشعرني يومًا أنّك والدي يا أبي! هل تقبل أن
تكون والدي لليوم فقط؟ أنا بحاجةٍ إليك.

رأيت ذقن أبي تهتزُّ عند سماعه هذه الكلمات. حاول أن
يتكلّم، ولكنّ الدموع غلبته، فنظر إلى الأرض ليستجمع هيئته من
جديد، ثم قال بصوتٍ منخفض:

- أنا لم أعد أريد من هذه الحياة إلاّ السرّ، وأن تكونوا
بخير.

صمتَ قليلًا، ثم قال: لقد قرأت في ديوانك عبارةً تقول
«الحبّ هو أن نتجاذب كرة النار لا أن نتقاذفها»، ثم راح يدمع
من جديد.

احتجت بعض الوقت لأستوعب ماذا يحدث. كان الأمر
أشبه بالشهود على معجزة. أبي بجبروته وقسوته تحوّل أمامي مرّةً
واحدة إلى إنسانٍ رقيقٍ يقرأ كتاباتي ويقتبس منها. لقد أتيت إلى
هنا مستعدّة لكلّ أنواع العراك والمجادلة والابتزاز العاطفيّ، ولكنّ
الحياة أرّنتني أنّ الآخر غير منفصلٍ عني تمامًا، مهما كان حجم

اختلافاتنا. وأنه حين تبلغ معاناتنا أقصاها ونأخذ منها موقفًا واضحًا، يتفتّح سرُّ ما في حيواتنا، كما تتفتّح ورود الليل بعيدًا عن عيوننا وإدراكنا المحدود، بمعزلٍ عن حساباتنا الضيقة لمعادلات الكون الفسيح!

ولكن قبل أن تغلبنى العواطف، أخبرت أبي بأساسيات طلباتي:

- أبي، اترك الكلام لي حين يأتي الضيوف. لا أريد مهلةً للتفكير، والعودة إلى سالم ليست مطروحةً عندي، كما أنني مستعدةٌ لتولّي حضانة رحمة بمفردي دون نفقةٍ منه.

وحالما انتهيت من كلامي، وصل والد سالم وأخوه وقريبهم المحامي.

- ما هي طلباتك يا أمل؟ سأل عمّي أبو سالم بلطف.

- طلبي هو الانفصال الودّي عن سالم.

- ألنّ تُعيدني النظر في قرارك؟

- لقد انفصلتُ وجدانيًا وعاطفيًا عن سالم منذ عدّة سنوات. هذا الانفصال ليس إلّا متمّمًا.

- حسنًا. ماذا عن حقوقك؟ هل ما زلتِ تحتفظين بنسخةٍ من عقد «الصدق»؟

- لا أعرف. ولكنني لا أريد أيّ شيء. حقّي هو أن أختار. وبهذا الاختيار وصلتُ لي كلّ حقوقي.

قال المحامي:

- بارك الله فيكِ. أنتِ ابنة أصول. بما أنَّ موضوع الحقوق محلول، سنتحدّث عن حضانة الطفلة. إن قبلتَ بمنح سالم حضانة الطفلة ورؤيتها يوميّن أو ثلاثة في الأسبوع، سيقبل سالم بالطلاق بالتراضي، ونهني الأمر عند كاتب العدل اليوم. ولكنّ إن أردتِ أنتِ حضانة رحمة سنضطرُّ للذهاب إلى المحكمة.

ثم بدأ يتكلّم عن القوانين الصارمة التي يجب أن أتقيّد بها إذا ما سُمح لي بتولّي حضانة رحمة، مثل ضرورة تواجدي معها طوال الوقت، وعدم السماح لطرفٍ ثانٍ في مساعدتي في تربيتها، كما ينبغي عليّ إيجادُ مسكنٍ لي بالقرب من مدرستها، وتنفيذ أيّ شرطٍ يريده والدها، مثل سقوط الحضانة عني في حال زواجي مرّةً أخرى.

ثم قال والد سالم:

- أنتِ ورحمة كنتما كلّ شيءٍ بالنسبة لسالم. الزواج قسمة ونصيب، وأنتما قُدّر لكما الانفصال، ولكنّ لا تأخذي رحمة أيضًا. أنتِ تعرفين أنّ بيتها ومدرستها وحياتها كلّها في ذلك المكان، لا تقلبي عالمها رأسًا على عقب. ثم إنّ بإمكانكِ رؤيتها أثناء كلّ الفرص والعطل الرسمية.

كنت أعلم في قرارة نفسي أنّ انتزاع رحمة من سالم سيقضي عليه تمامًا، وكنت أدرك أيضًا أنّ احتمال سكن رحمة معي في غرفةٍ في الحمرا أمرٌ مستحيل، لن يقبل به أحد. هذا يعني أنّني سأعود للقرية مجددًا وقد أضطرّ لترك عملي والعيش على نفقةٍ من سالم. ولكنّي لم أكافح وأتعلّم وأتوظّف كي أعيش حياةً كتلك من جديد.

قلت بعد فترةٍ من الصمت :

- حسنًا . سأتخلّى عن حضانة رحمة ، ما دمت سأراها ثلاثة أيّامٍ في الأسبوع ، وخلال كلّ العطل وفي فصل الصيف .

وقّعنا الأوراق في النهار نفسه عند كاتب العدل ، وحين عدت إلى منزل والدي كان موضوع السكن ما زال معلقًا . لم يفتحني أبي في الأمر ، ولم أطرح الموضوع أيضًا . ولكنّ كان عليّ أن أعود إلى بيروت من أجل الدوام في اليوم التالي . فجلست أمام والدي ، وقلت له :

- أنا حريصةٌ على سمعتك أمام المشايخ . وأعلم أنّ المشايخ سيحاسبونك على خياراتي رغم أنّني راشدة ، وعلى مشارف الثلاثين . لذلك سأقول للجميع إنني أعيش مع شقيقتي في بلدة عرمون ، لأنّ عرمون قريبةٌ من مكان عملي في بيروت . ولكّنتي في الحقيقة استأجرت غرفةً في مباني السكن الجامعيّ حيث أعمل .

- حسنًا . الله يستر عليك ، ويبعد عنك ولاد الحرام !

قال أبي وهو مطرق الرأس ، فودّعته وودّعت أمّي وشكرتهما على كلّ شيء ، ثم انطلقت إلى مسكني في بيروت .

عند هذه المرحلة ، أدركت أنّ معاركي مع الخارج انتهت ، وبقيت حربٌ من نوع آخر قائمةٌ في داخلي . هل اتّخذت القرار الصحيح ؟ هل استخدمت قوّتي التي ادّخرتها لتحرير نفسي من الحصار ، ولم أَدافع عن حقّي في حضانة ابنتي بالشراسة نفسها ؟ لقد وقّعنا على اتّفاقيّة فسخ الزواج ، واقتسمنا أيّام رحمة فيما بيننا . ولكنّ من سأل رحمة عن مصيرها ومشاعرها ؟ من استشارها

في اقتلاعها من حضن أمّها بين ليلةٍ وضحاها؟

سمحت لتلك الأفكار أن تسحقني. سمحت للمتربّص الذي في داخلي، والذي كان يأتي في الماضي على هيئة صوت رجل، أن يأخذ صوتي هذه المرّة. لقد غاب الرجل وبقي المتربّص يختبئ خلف صوت أمّي تارةً، وخلف صوت ابنتي أحيانًا أخرى. ولكنّ في معظم الأوقات كان له صوتي. صوتي المنحاز الذي يعرف كلّ شيءٍ عني؛ فيتفنّن في نكش الدود من أرض وجداني، ونبش كلّ الجثث المتحلّلة التي تجنّبُ التعاطي معها في السابق.

أيّامٌ قليلةٌ تفصلني عن لقاء رحمة. لم أكن قد ابتعدت عن ابنتي لأكثر من ليلةٍ واحدة من قبل. والآن، نحن نقترّب من أسبوعين كاملين من الانقطاع التام عن بعضنا بعضًا. عليّ أن أرّم نفسي وأستجمع قوّتي حتى أحافظ على تماسكي أمامها. أخاف أن أتخيّل مشهد الدموع في عينيها، والأسئلة التي قد تطرحها عليّ.

بكيت حتى غلبني النعاس، ولكنّي استفتقت على صوت رحمة يناديني «ماما.. ماما»، فقفزت من السرير وقبل أن أعي أين أنا، رحت أركض باتجاه الباب. وحين استوعبت أنّه كان حلمًا، حاولت الإصغاء مجددًا ليؤكّد لي سكون الليل أنّ صوت ابنتي كان يأتي من داخلي. تكرّرت هذه الحادثة، وتكرّر صحوي وقفزي من السرير. لكنّ بعد فترةٍ، فهمت الخدعة، وصرت أردّ عليها في قلبي وأنا مستلقيةٌ في السرير: «أمّك تسمعك يا رحمة وتشعر بك. تصبحين على خير يا حبيبتى».

كنت أنتظر موعد لقائي الأول مع رحمة بفارغ الصبر. أردت أن أبدو بخير، وأن أحافظ على هدوئي وشيء من الفرح المصطنع. فذهبت إلى أقرب محلّ لعب أطفال، وحاولت اختيار هديّة لرحمة. وبعد أن جلت بنظري على كلّ الرفوف، لم أجد ما يلفت انتباهي إلّا علبةً مكتوبٌ عليها «اصنع دميّتك بنفسك». وحين التقطت العلبة، تبين لي أنّها لعبةٌ قماشيةٌ يقوم الأطفال بحياكتها بأنفسهم، فاشتريتها. وصلت إلى منزل والدي قبل أن تصل رحمة، وحين وصلت ركضت تجاهي فاتحةً ذراعَيْها وهي تضحك «ماماااا!». فحضنتها وقبّلتها، وأخبرتها كم اشتقت لها! وبعد أن قدّمت لها اللعبة، جلسنا إلى جانب بعضنا بعضاً نفصّل ونقيس ونقطّب.

كنّا نحيك الأشياء معاً، وبعد أن أنهينا تقطيب الدمية، رحنا نصنع لها غطاءً من عدّة قطع من القماش. كانت الحياكة وكأنّها هي الغاية وليست سبيلاً لصنع الأشياء. كنّا نُحيك ونحن صامتان. أقصّ لها خيطاً أو أمرّره بخرم الإبرة عندما تعجز عن ذلك، ونتبادل كلماتٍ قليلة. أظنّنا كنّا بحاجةٍ إلى إعادة لصق الأجزاء في دواخلنا بعدما مرّقنا الخوف والغياب! كنّا بحاجةٍ إلى شدّ الأشياء شدّاً وثيقاً كي ننفي ونقاوم التداعي الحاصل في دواخلنا وفي حياتنا.

كان حضور رحمة مؤلماً مثل غيابها. يا للعوالم المحشورة في الإنسان! لم أكن أتصوّر يوماً أنّ الطفلة التي أعرف كلّ مسامّ جسدها، تركيبة جملها، الكلمات الجديدة التي تظراً على لغتها، الحروف غير المتمكّنة من لفظها، الوجبات التي تتناولها في

النهار، والزاوية التي تفضّلها من البطّانية.. أن تتحوّل إثر حدث واحد إلى كيانٍ غامضٍ ومخيفٍ كهضبةٍ خضراءٍ تمشي فوقها الغزلان بتكاسل ويرقد في قلبها بركان.

كان يحدث الكثير حين أنظر إلى عينيك يا صغيرتي. تلك النظرة التي تمتدّ بين أعيننا كسلكٍ مكهربٍ تحت المطر، النظرة اللزجة الحادة التي تعترف وتمتنع وترتبك وتبتسم وتحبّ بصخب، وشراسة، وخوفٍ واستفسار. كيف لكلّ هذا أن تحمله نظرة؟ وكيف للغةٍ كاملةٍ أن تبذلّ الحروف خائبةً لتصف نظرة طفلة؟ كثيرٌ جدًّا كلّ هذا يا رحمة! كثيرٌ عليك، كثيرٌ عليّ، كثيرٌ على الطفولة وعلى إدراكي أنّ طفولتك انتهت في عمر السابعة!

مرّ اليوم الأوّل بصمتٍ لا يشبه السلام، وبقي لنا يومان وليلةً سويًا قبل أن يحين موعد الوداع ثانيةً. في الصباح، أعددت لها وجبتها المفضّلة، وقرّرت أن آخذها في نزهة. ولكنّ كان لا بدّ أن يأتي الانفجار، ويختار البركان أن يتخلّص من غليانه. كان لا بدّ من تطاير شظايا الغزلان المتكاسلة في سماء صراخ رحمة.

«لماذا رحلت يا ماما وتركتني؟ ألن تأتي إلى غرفتي بعد الآن؟ لن نخرج أنا وأنت وأبي معًا بعد اليوم؟

ماذا حدث يا ماما؟ أرجوك أن تعودتي يا ماما. أنا أتألم كثيرًا»، قالت رحمة باكية.

حضنتها وبكينا معًا. شعرت أنّ كلّ التفاسير ستكون قاصرةً، وأنّ كلّ تبريرٍ تافه. ولكنني استجمعت قوّتي، وأخبرتها أنّها ستكون معي لثلاثة أيّام في الأسبوع، ومع والدها لأربعة أيّام.

ففردت أصابعها الصغيرة، بحيث بقيت ثلاث أصابع مستقيمة على يدها اليمنى، وأربع على يدها اليسرى.

- ولكن لماذا أبقى مع أبي أكثر؟

- بسبب المدرسة يا حبيبتي. سيذهب جدك علي كل يوم جمعة ليجلبك لي بعد أن تأتي من المدرسة. وفي العطلات الطويلة، ستبقين معي لأيام كثيرة جدًا.

في الساعات الأخيرة قبل مغادرة رحمة، جلست فوق ركبتني بوجه أصفر وذعر واضح في عينيها. رحنا نراقب الساعة وهي تسألني كل خمس دقائق:

«هل اقترب موعد المغادرة؟»

طبعْتُ قبلَةً على جبينها، وطمأنتها بهدوءٍ أنه ما زال لدينا مَتَسَعٌ من الوقت. كان الوقت شديد الثقل في الساعة الأخيرة وأنا أراقبها ترزح تحت ثقل الدقائق المتسرِّبة ببطءٍ لا يعرف الرحمة. قلت لها بصوتٍ هادئ:

- اعتني بنفسك واهتمي بدروسك. في الأسبوع المقبل، سأخذك في نزهة رائعة وسنشترى الكثير من الألعاب.

- هل بإمكاننا أن نحيك ثانية؟

- طبعًا!

أومأت برأسها، لكنني كنت أعرف أن لا شيء يشغل فكرها سوى لحظة الانسلاخ. اللحظة التي ستذهب باكيةً، وأقف أنا بوجعي وصلواتي عاجزةً عن تخفيف آلامها، وتقبُّل المنطق

الملتوي الذي يرغمني على التظاهر أمامها بأنني أقبل غيابها
بأعصابٍ فولاذية.

كانت وظيفتي هي أن أتماسك لأستوعب ألمها وأحتوي
انفعالاتها. هممت بكتابة مجموعة رسائل لها حتى تقرأها حين
تكبر، ولكنني عدلت عن الفكرة، لأنني أعرف أن قلبي مليء
بالمرايا المكسورة، ولأن الأشياء الحادة لا يجب أن تكون
بمتناول الأطفال وإن كان ذلك فوق الورق.

كنت أنتظر عطلة نهاية الأسبوع حتى أرى رحمة من جديد. أنهيت عملي في الجامعة يوم الجمعة، وقبل أن أغادر، وجدت على مكثبي دعوةً لمؤتمر دولي، سيقام في الجامعة الأميركية، كُتب عليها «الدروز: احتفالاً بألف عام من التنوع، المكان: كوليدج هول أوديتوريوم ب، الزمان: 20 - 21 تشرين الثاني 2018». على قدر سعادتي باهتمام الجامعة بالدروز، لم أعر هذا المؤتمر أيَّ اهتمام. فكَّرت في الحصار الذي عشته طويلاً باسم هذا الدين. وبحصارٍ فرضه غيري على نفسه على مدار ألف سنة باسم الدين ذاته. هل انتصرت على ألف عام من العزلة والاستتار حين غادرت بيت سالم عند الفجر؟ أم أنَّ هذه المعركة لم يكن فيها منتصر؟ هل أنا الآن حرة؟ أم أنني حرةٌ مع إيقاف التنفيذ إلى حين يستفيق أبي من لطفه، أو يعرف المشايخ أنني أعيش وحدي في بيروت؟ وكيف سيكون مصير ابنتي مع هذا الدين؟ هل ستكون

أوفر حظًا منِّي أم أنَّ مستقبلها سيكون مرهونًا بأبيها الذي لو قرَّر أن يستلم دينه ويصبح شيخًا سيمنعها من الدراسة ورقص الباليه ويحجب عنها الحياة؟

طردت هذه الأسئلة والمخاوف من رأسي بسرعة، ورحت أحضّر أشياءي وأستعدّ لرحلتي إلى الجبل كي أرى رحمة، وأمضي معها يوميّن وليلتين. أمضينا الليلة جانب الموقد في القرية وكنا فرحتين. شاهدنا بعدها الرسوم المتحرّكة، وضحكنا حتى غلبها النعاس ونامت في حضني. في الصباح، أخرجت من حقيبتها فستانًا لرقص الباليه أحمر اللون، وأخبرتني أنّها أحضرته من المدرسة خصيصًا لي كي أراه، كأنّها استنتجت أنّي لن أذهب إلى مدرستها في أيّ وقتٍ قريبٍ ولن أعرف كيف تبدو مثل باليرينا صغيرة.

– ما أجمله! هل تودّين أن نذهب إلى المصوّر ونلتقط لك صورًا وأنّ تتردينه؟

لمعت عينها ووافقت على الفور.

بعد جلسة التصوير، قلقت من هدوء رحمة الذي لم أعهده فيها من قبل. ولكنني أقنعت نفسي أنّها متعبة، وبأنّ أيّ تحليلٍ دراميّ منِّي سيكون مجرد إسقاط! أكملنا بعدها الرحلة إلى عرمون حتى نقضي الليلة عند أختي أسمهان. في طريقنا إلى هناك، كان كلام رحمة قليلًا، ولكنّ كلّما تحدّثت كانت توجّه لي الأسئلة.

– ماما، لِمَ تقودين هذه السيّارة القديمة؟

– هذه عربة جدّك. سأشتري سيّارة صغيرةً قريبًا.

– لِمَ لا تستخدمين عربتكِ المركونة في المنزل. ماما، لا

أحد يقود عربتك. لماذا لا تأخذينها؟

- لا أحتاجها يا حبيبتى. لاحقاً، سأشتري سيارةً أخرى.

أطلّ رأسها الصغير من المقعد الخلفي، وألقت به على كتفي. ثم راحت عيناها تجولان على لافتات الطرقات والإعلانات.. وصمتٌ لا يشبه وجودها الصاخب يسيطر على الجو.

عندما اقتربنا من الوصول، تكلمت مجدداً:

- ماما، هل أستطيع أن أسألك سؤالاً؟

- طبعاً حبيبتى، بإمكانك أن تسأليني أيّ شيء؟

- أين تنامين في الأيام التي لا نكون فيها سوياً؟ عندما أفكر فيك لا أعرف كيف وأين تكونين؟

- عندي غرفةٌ جميلة في الجامعة حيث أعمل. يوماً ما سأخذك لتزوريها.

بعد أن وصلنا إلى منزل شقيقتي وتناولنا العشاء، رحنا نلعب سوياً. كان هناك شعورٌ يُشبه التحرك حول صخرة كبيرة في منتصف غرفة صغيرة. كنّا نجد طريقنا إلى بعضنا، نتحدث، نرسم، ونلعب أحياناً، ولكننا كنّا نفعل كلّ ذلك في الزوايا والمساحات الضيقة حول الصخرة. كان قلبانا ثقيلين، وكان هناك الكثير من الوجع في صدرينا. ولكن بقي كلّ شيء في عداد المخاوف والتأويلات قبل أن يأتي المساء ويغلبها النعاس ونحن نشاهد وثائقاً عن الحيوانات. لم تمضِ عدّة دقائق حتى استفاقت والتفتت ناحيتي، وبدأت بنوبة بكاءٍ هستيريٍّ. بكت لساعةٍ كاملة.

سمعت صمتها يتكسر كالأواح زجاج في مبنى فارغ. سمعت كل ما لم تقله. حملتها ودخلنا إلى غرفةٍ أخرى كي أعطيها مساحةً من الحرية كي تفتح قلبها:

- ما بك يا حبيبتى؟

- أريد أن أذهب من هنا.

- أنا هنا بجانبك، ومكان المنزل لن يشكّل فرقاً.

ولكنّ بكاءها استمرّ، وكذلك محاولاتي لتهدئتها!

- أخبريني ممّ تخافين؟ ما الذي يقلقك؟ شاركتني أفكارك..

ولكنّها رفضت أن تقول أيّ شيء، واكتفت بالبكاء وبكلمة

«ما بعرف».

حاولت أن أخبرها قصّةً، واستسلمت لرغبتها في العودة إلى منزل والدي في القرية، ولكنّ القرار بالعودة لم يخفّف من توترها. فعرضتُ عليها في محاولةٍ أخيرةٍ يائسة أن آخذها إلى البحر.

- أتذهبين معي للبحر، سنمشي على الكورنيش ونشمّ هواءً

منعشاً؟

وافقت بإيماءةٍ من رأسها، وخفت صوت البكاء. كان الوقت

يقترّب من منتصف الليل، ولكنّنا ذهبنا على أيّ حال.

كانت هذه تجربتي الأولى معها في بيروت بعد منتصف

الليل. ما الذي كان ليأتي بنا إلى هنا في هذا الوقت المتأخّر لو

أنّنا ما زلنا نعيش حياةً طبيعيّةً، ونخلد إلى النوم في سريرها

الزهريّ عند الساعة الثامنة من كلّ ليلة! جلست إلى جانبي في

السيّارة بشكلٍ مستقيم وكأنّها لا تمتّ بصلّةٍ للطفلة التي كانت قبل أسابيع قليلة، والتي كانت أينما حلّت تملأ المكان بالحركة واللعب بكلّ شيء يقع تحت يدها.

كنت أراقب اتّساع عينيها تحت أضواء الشوارع. كلّ شيء كان جديداً عليها، المباني الشاهقة في منطقة الروشة، الطائرات التي تهبط وتقلع على ارتفاع قليل، والموسيقى المتسرّبة من المقاهي، الأطفال الذين يبيعون الورود حُفاهاً وهم يضحكون ويرقصون. كان لديها الكثير من الأسئلة، ولكنّها كانت منهكةً ومنشغلةً بالتلقّي.

كان كلّ شيءٍ في هذه الرحلة جديداً عليّ. لم أكن تحت أيّ ظرفٍ سأتخيّل رحلةً معها إلى كورنيش المنارة في هذا الوقت! وجدنا مكاناً لركن السيّارة وترجّلنا. كنّا صامتتين وكان صوت الموج مرتفعاً. خلعت معطفي وألبستها إيّاه، فوصل إلى ركبتيها.

– ماما.. ستشعرين بالبرد، أريدك ان تحتفظي به!

– اطمئني يا حبيبتي، أنا لا أشعر بالبرد، وأحبّ أن أراك مرتديةً ملابسٍ.

مشينا بصمت، نراقب الأمواج والطائرات. مرّ بعض الأشخاص مع كلابهم ومرّ آخرون مع حبيباتهم، وكنت أمسك بيدها ونمشي. لا أعرف لماذا اصطحبتها إلى تلك البقعة بالذات. المكان الذي أمضي فيه أوقات طويلة كلّ يوم، أمشي وأدخّن وأبكي، وأفكّر بها وبكلّ ما يؤلمني. كان يجب أن أبقى المكان آمناً، لأنني سأتي إلى هنا بعد أقلّ من ثمانٍ وأربعين ساعة، وستكون رحمة بعيدةً عني.

أظنني لست قادرةً على إبقاء مساحاتٍ منفصلة في حياتي .
ليس بعد الآن . كلّ شيءٍ يتداخل في نهاية الأمر ، كلّ شيءٍ
يمتزج ، يتوق ليصبح لوناً واحداً ليزوب في الكينونة نفسها . كينونة
الحبّ والقبول . صرت أقبل الألم والفرح بالامتنان نفسه ، أستمتع
بنشوة الانعتاق وبتعاملي مع القيود التي اخترتها بالمقدار نفسه .
وها أنا أحضر طفلتي بكلّ وجعها ووجعي إلى المكان الذي
أهرب إليه للاغتسال من كلّ شيء .

إنّها مرحلةٌ جديدة يا صغيرتي . سيّسع الأفق بشكلٍ مخيف .
سيعبر البحر من خلال قلبك الصغير لأعوام . ستسكنك حيرة
الأعاصير لأعوامٍ أخرى وسوف تصادقن الموج وتتعلمين أن
تستخدمي الملح العالق في حلقك لتلغقي جراحك . . . ولكن بعد
ذلك ستصبحين بخير ، ولن يكسرك أيّ شيءٍ ولا أيّ غياب .

كنت أقول هذه الكلمات في رأسي وأنا أراقب رحمة تشرب
كوب الشوكولاتة الساخنة ، وتراقب بعينها خطوات المارّة . وبينما
نهمّ بالمغادرة ، أمسكت رحمة يدي ، وقالت :

– ماما ، إيمتي بيوقف الوجع ؟

أصابني سؤالها كالصاعقة . كيف يجد سؤالٌ كهذا طريقه إلى
طفلةٍ في سنّ السابعة ؟ ومن أين آتي بجوابٍ لهذا السؤال ؟ فعلت
ما ستفعله أيّ أمّ في الموقف نفسه : حضنتها ، وقلت لها بصوتٍ
يتصنّع الثبات :

– كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام يا حبيبتي .

رحلة العودة من الاحتمالات

كانت الأمور تزداد هدوءًا من أسبوع إلى آخر، والغليان الذي كان يسكننا جميعًا كان قد وجد طريقة إلى خارجنا عن طريق التعمُّد وتجاهل حجم الحدث في بعض الأحيان. أجبرني هذا الطلاق على إعادة بناء علاقتي مع والديّ. شعرت وكأنّني وجدت أبي من جديد. صرت أحبّ وجوده بيننا، بعد أن كنت أنكمش حين أسمع صوت خطواته في المنزل. أصبحت أستمتع بمراقبته هو ورحمة في ليالي الشتاء متقاربين، متّكئين بجانب الموقد، يشاهدان أفلام الأطفال ويضحكان. من كان يظنّ أنّني سأشعر بنوع من الأمومة تجاه أبي الذي شارف على السبعين؟ أبي القاسي الجبّار الذي لم يكن يعنيه شيءٌ سوى سمعته بين المشايخ، ولم يكن يحرك مشاعره سوى ذكر الأولياء وعذاباتهم.

أمّا أمّي، ولسبب أجهله، فقد أصبحت علاقتي بها أكثر تعقيدًا. أبدت أمّي دعمًا كبيرًا لي بعد الطلاق. فقد حمّنتني من

ألسنة الجيران وفضولهم. كانت تتصدى للمتطفلين الذين يطرحون الأسئلة عن طلاقي بجفاءٍ واقتصاب.

«الطلاق قسمة ونصيب مثل الزواج تمامًا. استنكارنا للطلاق يعتبر اعتراضًا على مشيئة الله»، كانت تقول لكل من يسأل.

كما كانت تتفانى في الاهتمام بي وبرحمة حين تأتي لزيارتها في نهاية الأسبوع. فقد خصّصت لنا غرفةً واشترت لها أثاثًا جديدًا، وكانت تطهو لنا أطباقنا المفضّلة، وتتفرّغ لخدمتنا كليًا. ولكن رغم هذا الروتين ومرور شهورٍ على طلاقي، إلّا أنّ عقدة ما تشكّلت بيننا منذ ساعة الطلاق وبقيت قائمة.

لقد نقبتُ عن جذور تلك العقدة لأيّام وليال. قمت بمسح دقيقٍ للمواقف والأحداث، ولم أجد هناك شيئًا. استحضرت الماضي البعيد والقريب وحاولت أن أربط وأحلّ، ولكنني كنت أخرج فارغة اليدين. لقد سامحت أمّي لإخبارها رحمة أنني رحلت بسبب كثرة صراخها. لقد كنّا في وضعٍ يُشبه الحرب، وفي الحرب يلجأ الإنسان إلى أسوأ الطرق كي ينقذ الوضع. كانت أمّي تريدني أن أعود لبيت سالم من أجل رحمة، فاستخدمت تحميلها المسؤولية لإخضاعني. وأنا سامحتها على هذا.

ثم انتبعت إلى أنّ شعوري بالذنب تجاه أمّي كان ينمو في ظلّ انتصاراتي الصغيرة كفطرٍ مسموم. ربّما كنت أشعر بالذنب لأنّه أصبح لوالديّ ابنةٌ مطلّقةٌ، بعد أن كان يحسدهم القريب والبعيد على الشباب «الأوادم» الذين تزوّجوا بناتهم! ربّما كنت أشعر بالذنب، لأنّ فراق سالم كان مريعًا على أمّي! لقد كانت

تحبه جدًا، وتعتبره هو وجاد كأبنائها الذين لم ترزق بهم. لقد بكت أمي لأيام على فراق سالم بعد أن ودَّعها وقال لها «استروا ما شفتوا منّا»، قبل أن يغادر بيتنا للمرة الأخيرة.

ولكن كان هناك ما هو أعمق من تلك التفاصيل. كان هناك انسلاخٌ جديدٌ عن أمي. انسلاخٌ يجبرني على وضع حدٍّ للتماهي مع شخصها. لقد تماهيت مع شخصية أمي وحرمانها وحزنها طوال حياتي، واعتبرت ألمها فضيلةً وكذلك سكوتها وانكسارها. أمّا الآن، وقد فُكَّ قيدي ومع خطواتي الأولى تجاه شيءٍ يشبه الحياة، تنبَّهت إلى حقيقة مفزعة: لقد خنت أمي. ميثاق الألم الذي كان يجمعنا سينحلّ للمرة الأولى. يبدو أنني سامحت والدي، ولكنني لم أسامح نفسي، لأنَّ أمي بقيت عالقةً في ألمها وخرجت أنا إلى عالمٍ فيه الكثير من الحرِّية، وشيءٍ من احتمال الراحة والفرح.

كنت على صعيدٍ آخر قد بدأت أستعيد توازني المهني والأكاديمي. أنهيت شهادة الماجستير بنجاح، وحصلت على وظيفة بدوام كامل كمساعدة باحثٍ في مركز عصام فارس في الجامعة الأميركية أيضًا. لم تمضِ أسابيع على طلاقي حتى عادت أختي نيرمين إلى طبيعتها الداعمة لي منذ صغري. كانت تتصل بي مرَّة كلَّ أسبوعٍ كي تسأل عن أحوالي، وما إذا كنت بحاجةٍ لدعم ماديٍّ. ولكنني كنت مكثفياً بالمال الذي أحصل عليه، وعداً بالإيجار الباهظ لم تكن الحياة التي أعيشها تتطلب الكثير من المصاريف.

وفي إحدى الليالي، وبعد مرور سبعة أشهر على طلاقي، رنَّ

هاتفني الساعة الرابعة فجراً، فاستفتت مذعورة. ذهبت أفكاري مباشرةً إلى رحمة. ربّما حصل لها مكروهٌ والاتّصال يحمل خبراً سيّئاً. كلّ هذا دار في رأسي في الثواني القليلة قبل أن أمسك بالهاتف، وأنظر إلى شاشته لأرى أنّ الرقم من خارج لبنان. وبينما أنا أفكّر توقّف الرنين. ثم وصلت رسالة «It's Jad. Please pick up»

تقول الرسالة «أنا جاد. رجاءً ارفعي السّاعة».

فسارعت إلى الردّ حين رنّ هاتفني ثانيةً.

- ألو.. جاد. ماذا هنالك؟ هل نيرمين بخير؟

- لا ليست بخير. لم أخبرها أنّي أكلمك، ولكنني لم أعد أعرف ماذا أفعل. أنا أشعر بالعجز التام، قال جاد بصوتٍ يطغى عليه اليأس والتردّد.

- لا أفهم عمّا تتكلّم. هل يمكنك أن توضح أكثر. لقد أفلقتني كثيراً. ما بها نيرمين؟

- لقد أُصِبتَ بانْهيارٍ عصبِيّ منذ مدّة، ومنعتني أن أخبر أحداً. ولكنّها شُفيت وكان كلّ شيءٍ على ما يرام حتى اضطربت مجدّداً. فهي لم تنم ولم تأكل شيئاً منذ يومين. كما أنّها تتكلّم عن أشياء غريبة! تقول إنّها ستدخل النار، وإنّها تريد أن تصبح شيخخةً مثل والدتها.

- ولكنّ ماذا حدث بينكما؟ هل تعرّضت لصدمةٍ عاطفيّةٍ من نوعٍ ما؟ عذراً على السؤال، ولكن هل خنتها؟

- مستحيل يا أمل. نيرمين هي أجمل شيء في حياتي
يستحيل أن أخونها أو أسيء إليها.

- كيف يمكنني أن أساعدك إن كنت لن تصارحها بأنك
أخبرتني؟

- كان عليّ أن أخبر أحداً، لأنني عاجزٌ تماماً أمام ألمها.
سأقنعها أن تكلمك حين أعود إلى المنزل.

أخذتني الأفكار إلى أسوأ الاحتمالات، وحاولت بالمنطق أن
أعود لآتزانِي كي أكون حاضرةً بكاملِي حين تحدّثني في الهاتف.
ولكنني لم أتمكّن من النوم حتى الصباح. قبل الساعة بقليل، رنَّ
هاتفي مجدداً. ركضت إليه وفتحت الخطّ بقلْبٍ شديد الخفقان:

- أهلاً نيرمين. كيف حالك حبيبتي؟

- أنا لست بخير. أنا لا أستحقّ أن أكون بخير. أنا حامل،
وجاد لا يعرف شيئاً عن الأمر.

فهمت على الفور أنّ نيرمين ليست بكامل وعيها، ولا بدّ أنّها
ارتكبت خطأً فادحاً، وحملت من علاقةٍ غير شرعيّة! ولكن كان
عليّ أن أتماسك.

- ليس هناك إنسان معصوم من الخطأ يا نيرمين. جميعنا
معرّضون للخطأ في أيّ لحظة. وكلّ شيءٍ قابلٌ للإصلاح. هل
أخبرت والد الطفل؟

- لا؛ جاد لا يعرف شيئاً عن الموضوع.

- أقصد والد الطفل، وليس جاد.

- جاد هو والد الطفل.

بدأت عشرات علامات الاستفهام تتصاعد في رأسي،
وتمنعتني من التفكير بوضوح.. ولكن كان عليّ أن أحافظ على
هدوئي، وأذكر نفسي أنني أتكلّم مع إنسانة في وسط انهيارٍ
عصبيّ. فرحت أكلّمها كما أكلّم رحمة ابنتي.

- حسنًا.. حبيبتي. ليس عليك أن تقولي له شيئًا قبل أن
تكوني مستعدةً للأمر. أنا هنا بجانبك. أنا وجاد نجبكِ.

- لن أخبر جاد لأنني لن أحتفظ بالطفل. الأمر سيحطّم
قلبه.

- ولكنّ جاد متفهّم إلى أبعد الحدود. أنا متأكّدة أنّه سيحترم
قراركِ ويدعمكِ. لقد دعمكِ طيلة خمس عشرة سنة من الزواج،
كنتِ فيها مصمّمةً على عدم الإنجاب.

- أتظنّ ذلك؟

- بل أنا متأكّدة. ثم ليس باستطاعتكِ وأنتِ في هذه الحالة
النفسيّة أن تخوضي تجربة إجهاضٍ بمفردكِ. أنتِ بحاجةٍ إلى دعمٍ
عاطفيٍّ، وبحاجةٍ إلى من يقلّكِ إلى الطبيب ويُعيدكِ إلى المنزل.
جاد هو زوجكِ، وهو أيضًا كلّ أهلك في غربتك.

- حسنًا.. سأخبره الليلة.

- أنا بجانبكِ وداعمة لكِ في كلّ قراراتكِ. كلّمني متى
احتجت لي.

- حسنًا، شكرًا.

حين أنهينا المكالمة، علمت أنّ هناك إعصارًا جديدًا يلوح

في الأفق. فكَّرت في أمِّي على الفور. ورحت أدعو الله بخجل من لم يتذكَّر أن يتواصل مع صديقه لسنواتٍ إلا حين احتاج شيئًا. لطفك ورحمتك يا ربّ. أمِّي لم تعد تحتل مصائب جديدة، ولا جاد يستحقّ هذا العذاب. ألطف بنا يا كريم. انتشل أختي من ضيقها، واهدها يا أرحم الراحمين، قلت بتضرُّع.

ولكنّ الأمور ازدادت تعقيدًا بسرعةٍ خياليّة. فأرسل لي جاد رسالةً يُخبرني أنّه سيُجري معي مكالمةً هو ونيرمين، وأنَّهما سوف يضعانني على مكبّر الصوت لاستشارتي بموضوع الإجهاض بما أنِّي الشخص الوحيد في العائلة الحائز على ثقة نيرمين الكاملة. ولمّا حان الموعد، أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أستقبل الاتصال:

- ألو.. أمل، أنا ونيرمين هنا نسلم عليك ونقبلك. جاء صوت جاد فيه شيءٌ من المرح المفتعل، وكأنّه أمُّ تُلهي طفلها - الذي تعرّض وسقط للتوّ - عن جراحه.

- اشتقت لكما أيُّها الثنائي الجميل.

- أخبرتني نيرمين أنّها حامل، ففرحت. ثم أخبرتني أنّها لا تستطيع الاحتفاظ بهذا الحمل. وقبل أن أعطي الحقّ لنفسي بأن أحزن، رأيت أنّ هذا الحمل قد أصابها بخللٍ هرمونيّ كبير، وأثّر على توازنها، فقرّرت أنّ أحترم حقّها في جسدها وفي حماية صحتّها النفسيّة. سأكون سعيدًا لو أنجبت طفلًا من زوجتي وحبّ حياتي، ولكنني أرفض أن أخسر فرحتها وسلامها الداخلي من أجل أيّ شيء، لذلك سأترك الأمر لها - قال جاد هذه الكلمات وكأنّه يُلقي محاضرة.

- أَرَأَيْتِ يَا نِيرْمِينِ! قُلْتُ لَكَ إِنَّ جَادَ لَنْ يَخَيَّبَ ظَنُّكَ. أَنْتِ رَائِعٌ يَا جَادَ.

- وَلَكِنِّي سَأَصْبِحُ قَاتِلَةً، قَالَتْ نِيرْمِينُ بَاقْتِضَابٍ، وَلَا يَزَالُ عَدَمُ الْإِتِّزَانِ وَاضِحًا فِي صَوْتِهَا.

- هَذَا مَوْضُوعٌ آخَرُ يَا نِيرْمِينِ. مَوْضُوعٌ جَدَلِيٌّ وَمَعْقَدٌ. لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقَرِّرَ عَنْكَ بِشَأْنِهِ.

صَمْتُنَا جَمِيعًا. فَأَكْمَلْتُ:

- هُنَاكَ أُمَّهَاتٌ يُصَبْنَ بِاِكْتِتَابٍ مَا بَعْدَ الْوِلَادَةِ، فَيُضْطَرُّنَ إِلَى التَّخَلِّيِّ عَنِ أَطْفَالِهِنَّ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ مَنَعًا لِأَذْيَةِ الْأَطْفَالِ. الْبَطْلُ مَهْمٌ، وَلَكِنْ أَنْتِ أَهْمٌ. خُذِي الْوَقْتَ الَّذِي تَحْتَاجِيهِ لَتَقَرَّرِي.

- وَلَكِنْ... أَنَا خَائِفَةٌ مِنَ الْآخِرَةِ. مِنْ أَنْ أَكُونَ كَافِرَةً. لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ الْمَزِيدَ الْآنَ... قَالَتْ نِيرْمِينُ بَتَرْدُدٍ.

- تَقْصِدِينَ فِي حَالِ الْإِجْهَاضِ؟ سَأَلْتُهَا مُسْتَوْضِحَةً.

- لَا أَسْتَطِيعُ... لَيْسَ الْآنَ.

قَالَتْ نِيرْمِينُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْغَامِضَةُ، وَصَمْتَتْ. فَهَمَّتْ أَنَّهَا تَرِيدُ مُحَادَثَتِي عَلَى انْفِرَادٍ. فَشَكَرْتُ جَادَ عَلَى دَعْمِهِ، وَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ صَبُورًا حَتَّى تَمُرَّ هَذِهِ الْمَحْنَةُ. فَشَكَرَنِي بِدَوْرِهِ وَأَنْهَى الْإِتِّصَالَ.

وَلَكِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَتَوَقَّفْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، وَبَدَأَ الْإِعْصَارُ يَقْتَرِبُ أَكْثَرَ لِيَلْتَهُمْ فِي طَرِيقِهِ كُلِّ أَمَلٍ جَدِيدٍ بِإِعَادَةِ الْأُمُورِ إِلَى مَجْرَاهَا فِي حَيَاةِ جَادَ وَنِيرْمِينِ. كَلَّمَنِي جَادُ فِي الْهَاتِفِ بَعْدَ يَوْمَيْنِ عَلَى آخِرِ اتِّصَالٍ لَنَا، وَأَخْبَرَنِي وَسْطَ دُمُوعِهِ أَنَّ نِيرْمِينُ تَرَكْتَ الْمَنْزَلَ،

وذهبت لتسكن عند صديقتها، وأنه قبل ذلك قطع تذاكر للعودة إلى بيروت نزولاً عند رغبتها، وأن طائرتهما بعد ثلاثة أيام. رجاني جاد ألا أخبر أبوي، ولا أيّ مخلوقٍ عن عودتهما إلى بيروت لأنّهما غير مستعدّين لمقابلة أحدٍ قبل أن يحدّدا مصيرهما، فوعده. حاولت أن أستفسر منه عن مكان إقامتهما المحتمل، ولكنّ الضياع بدا واضحاً عليه، فدوّنت عندي موعد الوصول، ووعده أنني سأكون في المطار ساعة وصولهما.

لم أكن قد تعافيت من انفصالي وتفصيله المؤلمة. ولكنّ هذا لم يمنعني من إيجاد طاقةٍ في داخلي كي أساعد أختي في ورطتها. طاقةٍ على شكل قوّة. قوّة تولد عندما تظهر الحاجة إليها، وكأنّها نبعٌ يبدأ بالتدفّق حين يتّجه إليه شخصٌ عطش، ويفتح يديه في انتظار الماء. لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بأُمّي وأبي وبالإعصار الذي قد يصل إليهما قريباً، بقدرتهما على تحمّل المزيد في أقلّ من سنة، وبمدى استعدادهما لسيلٍ من التساؤلات من أهل القرية والمشايخ وكلّ من كان ينظر لأبي بعين الحسد.

احتفظت بسرّ جاد، وتوجّهت إلى المطار لانتظار طائرتهما التي من المفترض أن تصل عند الساعة والرّبع من نهار الأربعاء. شعرت بشيءٍ من الغثيان بسبب التوتّر والصُّور التي رسمتها في رأسي عن الحالة التي سأستقبل بها أختي. ماذا عساه أن يكون حدث لها؟ هل تعاني من مرضٍ وتخفي الأمر عنّا؟ هل هناك وجهٌ آخر لجاد لا أعرف عنه شيئاً؟ هل فقدت عقلها؟ ثم هزّزت رأسي محاولةً طرد هذه الأفكار، ورحت أنتظر.

لاح شكلهما من بعيد. فمشيت نحوهما بسرعة، وفتحت ذراعيَّ لأستقبل نيرمين. لاحظت منذ النظرة الأولى أنَّها فقدت الكثير من الوزن. كانت تلف بَطَانِيَّةَ حمراء صغيرةً حول كتفيها، وتنظر حولها بعينين غائرتين يملأهما الذعر. أمَّا جاد، فكان يجرّ عربةً محمَّلةً بالكثير من الحقائب، وقد ظهرت على وجهه آثار التعب نتيجة لقلَّة النوم وشدَّة القلق. بعد الاطمئنان على حالهما، أخبرتهما في السيَّارة التي استأجرتها لهذه المهمَّة أنَّني أعيش في غرفة.

- لم يتسنَّ لنا أن نتحدَّث عن تفاصيل الإقامة على الهاتف، ولكنني أستطيع أن أستضيف نيرمين في غرفتي، على أن نجد لك مكانًا قريبًا لتبقى فيه.

وجَّهت كلامي إلى جاد الذي يجلس في المقعد الخلفي، ويحدِّق إلى خارج زجاج السيَّارة بعينين غائبتين.

- أجل. أيّ مكان.. هذا غير مهمّ، أجب باقتضابٍ، فيما لزم نيرمين الصمت.

وحين وصلنا إلى غرفتي، وكدَّسنا حقائب نيرمين في إحدى الزوايا. ارتأيت أن نتناول العشاء في أحد المطاعم المحيطة. خيم صمتٌ غير مريح على الجميع أثناء العشاء. حاولت أن أسأل جاد عن عمله، وأحدَّث نيرمين بشأن أشياء متفرّقة، ولكنَّهما كانا يُجيبان بكلمةٍ أو اثنتين. كانا وكأنَّهما عائدان للتو من حرب، وما زالت أهوالها ظاهرةً في عيونهما. بعد العشاء، وجدنا غرفةً لجاد في فندق «غولدن تولىب» في الحمرا، على بُعد أمتارٍ من مسكني. وعدنا أنا ونيرمين إلى الغرفة.

مشينا إلى غرفتي بصمت. كنت خائفةً من الانفراد بها، من اللحظة التي ستكشف لي عن عمق إصابتها، من الأشياء التي يمكن أن تفصح لي عنها. كنت خائفةً عليها، وغير واثقة من قدرتي على احتمال المزيد من المفاجآت والمآسي. حين وصلنا إلى غرفتي وأغلقتنا الباب، نظرت نيرمين في عدسة الباب وحين تأكدت أننا وحدنا وليس هناك أحدٌ يسترُقُّ السمع، قالت بذعر:

- على جاد أن يعود إلى أميركا حالاً. سأبدأ بمعاملات الطلاق حالما أنتهي من الإجهاض، ولكن لا أريد أن يعرف أحدٌ أنني هنا.

حينها تيقّنت أنّ نيرمين ليست بكامل وعيها، بسبب غياب التماسك في جملها وانعدام المنطق، رحت أستنطقها بهدوء:

- ما الذي يزعجك في جاد؟ هل آذاك؟

- لا. أخاف أن أغيّر رأبي وأعود إليه. لا تسمح لي بالعودة إليه، حتى لو أصررت على ذلك. أنا الآن بكامل وعيي، وإن قلت لك أنني أريد العودة إليه أكون قد أصبحت مغيبةً من جديد.

- هل هناك سببٌ معيّن لانفصالك عنه؟ أنا أدم خيارك بالكامل، ولكنني أحاول أن أفهم فقط.

- السبب أنني أريد أن أخلّص نفسي. أنا لست كافرة. سأتوب. أعدك أنني سأتوب.. ثم راحت تبكي.

- هل أنت متأكدة أنّ الطفل ابن جاد.

- طبعاً؛ لم أعاشر رجلاً آخر، ولكن جاد خدعني.

- هل خالك؟

- لا . خدعني . كلهم خدعوني .

- كيف خدعوك؟

- كلهم .. جاد . أم جاد . والعميد أيضًا . كلهم خدعوني ،
وقالوا لي إنه درزيّ .

- أتكلمين عن جاد؟

- أجل .

- ولكنّ جاد درزيّ ، وكلنا نعرف ذلك .

- لا . والده يذهب إلى الكنيسة . وهو لا يعرف شيئاً عن
الدروز . لا يعاشرون العرب والدروز . لا أحد يدخل بيتنا سوى
الأميركان . كلهم مسيحيّون . هذا يعني أنّ طفلي مسيحيّ . هذا
يعني أنّي سأدخل النار . كيف أخلص نفسي ؟ ماذا أفعل يا الله ؟

أردت أن أقول لنيرمين أنّه لا أساس لمخاوفها ، أنّه من
الطبيعيّ لوالد جاد أن يزور الكنيسة ، لأنّ والدته مسيحيّة ، وأننا
نعرف هذا منذ البداية . وأنّ المشايخ وافقوا على الأمر لأنّ الأب
عند الدروز هو من يحدّد دين المولود . أردت أن أشاركها
معتقداتي الشخصية . أن أعترف لها أنّ كلّ هذه القوانين باطلة ،
وأنّه ، حتى لو كان جاد مسيحيّ الأمّ والأب ، فهذا لا يغيّر شيئاً
في كونه إنساناً رائعاً وزوجاً نادراً . ولكنّ كلّ هذه الكلمات لم
تكن ستجدي نفعا في ظلّ سقوط شقيقتي في قبضة البارانونيا
الدينيّة ، واستسلامها لمخاوف تركتها تنمو في غرف لاوعيتها
المظلمة طوال سنوات اغترابها .

استمررت على هذا الحال حتى الصباح. تطلب السماح من ربّها وتتضرّع، ثم تناجيه قائلةً إنّها لم تكن تعلم، وإنّها الآن ثابت، وسوف تتخلّى عن الدنيا بمالها وجمالها لتتفرّغ لعبادة الله. كنت أراها تفقد صوابها أمام عينيّ ولم يكن بيدي حيلة. أوجعني حالها. تلك المرأة التي تقدّم لها أكثر من خمسين رجلاً. المرأة التي تجرّأت على أن تحلم أحلاماً كبيرةً وتحقّقها. كانت تمدّ صنّارتها من عليائها وتضطاد بدل الأسماك كنوزاً وكواكب. حقّقت نجاحاً بعملها في الصحافة في أميركا، وصنعت لنفسها اسمًا في عالم الترجمة، وسافرت إلى عشرات الدول! وفجأةً، أصبحت إنساناً آخر، إنساناً لا يوافق على كلّ ما حدث في ماضيه، إنساناً يتنكّر لكلّ ما كان عليه طيلة حياته!

رضخت عند طلبهما، وساعدتهما أن يجدا طبيباً يقوم بالإجهاض في عيادته الخاصّة. فذهبنا إلى العيادة في الثامنة صباحاً، حيث وقّع جاد بعض الأوراق وهو يحاول جاهداً ألاّ تنهمر الدموع من عينيه، ثم دخل إلى نيرمين المستلقية في ثوب أبيض فوق سرير العمليّات. كانت ترتجف وأسنانها تصطكّ. أمسك يديها الباردتين، وقال لها:

– ستكونين بخير. أنا سأكون في الخارج طوال الوقت.

وقفت عند الباب أراقبهما في تلك اللحظة الموجعة. قبل جاد رأس نيرمين، وخرج. أومأت لي بيدها، فاقتربت منها:

– أرجو الله أنني أقوم بالشيء الصحيح. أحبّ هذا الطفل يا أمل. سامحني يا حبيبي.

وضعت يدها على بطنها، وانهارت بالبكاء.

- ما زال هناك فرصة يا نيرمين.. أرجوكِ فكري.

- فرصة لماذا؟ فرصة لأدخل الجحيم وأبقى فيه إلى الأبد؟ فرصة لأكون أنا السبب في ولادة طفل غير درزيٍّ من رَحَم درزيّة؟ أتعرفين أنّه ما زال بإمكانني أن أخلّص نفسي إذا تخلّصت من الطفل؟ هذه هي فرصتي. يقبلون توبة شخص تزوّج من خارج الطائفة في حال انفصل عن شريكه من غير أن ينجب، ولكن من ينجب من غير درزيٍّ يذهب مباشرةً إلى الجحيم. حتى ابني يا أمل.. ابني سيكون كافرًا أيضًا وسيدخل الجحيم. لا أريد لصغيري أن يدخل الجحيم.. وراحت تبكي من جديد.

فهمت أنّ ما يحدث داخل رأس أختي أكبر بكثير من التباسٍ يمكن حلّه بمجموعة نصائح وأفكارٍ منطقيّة. إنّ خوفًا ما بقي مختبئًا في داخلها لأعوام، وراح يتغذى على روحها كالعلاقة الطفيليّة ويكبر. خوف يذكّرني بخوف جدّتي من المخابرات الإسرائيليّة، وخوف عمّتي سليمة من سقوط الجدار عليها. مسّدت على رأسها وهي تبكي وترتجف، حتى تمكّن منها المخدّر وغابت عن الوعي.

خرجت لأجد جاد في غرفة الانتظار يُلقي رأسه على راحتيه، ويبكي بصمت. جلست إلى جانبه، ووضعت ذراعي حوله. فراد بكاؤه. وعندما هدأ نظر لي، وقال:

- منذ أقلّ من شهر، كنت أعيش حياةً زوجيّةً سعيدة، ثم أخبرتني زوجتي أنّها حامل ففرحت وأردت أن أجهّز غرفةً للطفل

في بيتنا، لكنّها قرّرت الإجهاض، فداريت جرحي ورضخت. ولكنّها مصرّة على الطلاق أيضًا. لقد خسرت طفلي وزوجتي في شهر واحد من غير أن أعرف السبب! لا أعرف أين أخطأت، ولماذا أصبحت تكرهني فجأة. أتعرفين يا أمل أنّي نذرت نفسي لسعادة نيرمين. لقد انتقلت بين الولايات نزولًا عند رغبتها، بعث المنزل والفرش ثلاث مرّات. ومع كلّ انتقال، كنت أضطرّ لتغيير عملي وأصدقائي وحياتي كلّها. كلّ هذا لم يجعلها سعيدة. لقد كان حلمي أن أكون أبا، ولكنني احترمت رغبتها بعدم الإنجاب لخمسَ عشرَ عامًا. والآن سترحل. وطفلي سيموت.

ثم راح يبكي من جديد. شعرت أنّ حلقي سينفجر، فحضنته وبكينا معًا.

خرجت نيرمين بسلام - جسديًا على الأقلّ - من عمليّة الإجهاض. كنت قد ذكرت لجاد أنّها غير مؤهّلة لمناقشة أيّ موضوع، وغير قادرة على التفاعل مع الأفكار بمنطق، ففهم الأمر. ثم اصطحبناها إلى غرفتي لترتاح. ولكنّ قبل أن يذهب جاد ليرتاح في الفندق، أخبرتهما أنّ عليّ أن أغادر إلى القرية لرؤية رحمة. ودعوت جاد ليبقى في غرفتي كي يعتني بنيرمين، وكي نتجنّب أيّ انهياراتٍ أخرى قد تحصل لها وهي بمفردها. ولكنّ عندما سمعت نيرمين هذه الكلمات، صرخت بي:

- لا. لن تتركيني هنا وحدي.

- لن تكوني وحدك. جاد هنا إلى جانبك.

- لا أريد أن أبقى وحدي مع جاد. أريد أن أذهب معك.

- ممتاز، وأنا اشتقت لوالديك كثيرًا، قال جاد مبتسمًا،
محاولًا التظاهر بتجاهل رفض نيرمين للبقاء معه.
ولكنَّ نيرمين قالت فجأةً:

- جاد لا. لن تذهب معنا. أنت ستبقى هنا.

- لماذا؟ لماذا غير مسموح لي بالذهاب لوداع والديك
اللذين أحَبَّهما بقدر حُبِّي لأهلي؟ ماذا فعلت أنا يا نيرمين لأستحقَّ
كلَّ هذا الرفض والغموض؟ أخبريني.

وحين شعرت أنَّ صوته بدأ يرتجف، وأنَّه سيبدأ بالبكاء،
وضعت يدي على ذراعه، وطلبت منه أن يكلمني خارج الغرفة.

- رجاءً يا جاد.. تماسك. أقسم لك أنَّها ليست بكامل
وعيها. كلَّ ما يخرج من فمها لا يمتُّ للمنطق بصلة. أرجوك، لا
تجعل إنسانةً ضائعةً تحدِّد مشاعرك تجاه نفسك. أنت رائع، ولم
ترتكب أيَّ خطأ.

جفَّف دمعَتَيْن بكُمِّه، وقال لي إنَّه سيعود إلى الفندق. وعندما
غادر، بدأت نيرمين بكشف المزيد من مخاوفها:

- لن أسمح له أن يذهب كي يسلمَّ على أمِّي ويعانقها «على
ذمَّتِي». لا أريد لها أن تقترف إثماً بسببي.

- جاد هو محرم أمِّي يا نيرمين. هل ستزايدين على المشايخ
في أمور الدين؟

- هذا في السابق. حين كان درزيًا.

- كفى يا نيرمين. كلامك غير منطقيّ ويثير السخط. ثم كيف
تريدين طلب الطلاق إن أرسلت جاد مباشرةً من بيروت إلى
أميركا؟ كيف سيوقَّع على أوراق فسخ الزواج؟

- لا أعرف. سيوكلّ أحدًا.

- من؟ أنت تعرفين أنّه ليس لجاد أيّ أقارب أو أصحاب هنا. من تريدينه أن يوكلّ؟ وكيف تريدان إبقاءه في فندقٍ طوال تلك المدة. الطلاق قد يستغرق عدّة أشهر.

صمتت نيرمين، ثم قالت:

- سيكتب توكيلًا لأبي.

- حسنًا. هذا يعني أنّه يجب أن يرى والديّ ويسلم عليهما، حتى يذهب مع أبي بعدها إلى كاتب العدل ليوقع على التوكيل.

- صحيح. ولكنّ أنت وحدك تستطيعين إنقاذ الموقف يا أمل.

- كيف؟

- قبل أن نصل، عليك أن تتركينا في السيّارة ثم تدخل إلى المنزل، وتقولين لأُمّي ألاّ تعانق جاد. ولكنّ لا تقولي لها السبب.

وضعت راحتيّ حول رأسي وكأني أنوي سحقه. لقد بدأ شيءٌ من الغضب يتسرّب إليّ، وتعاطفي مع جاد كان يجعل صبري تجاهها يقلّ.

- نيرمين.. استفيقي. أبي وأُمّي لا يعلمان أنّكما هنا. أتريدنني أن أدخل عليهما وأخبرهما أنّكما في سيّارتي، وأطلب من أُمّي ألاّ تحضن جاد أو تصافحه من غير سبب، وكأنّ هذا تصرفٌ طبيعيّ؟ عاجلاً أم آجلاً سيعرفان أنّكما هنا من أجل الانفصال.

- إن أخبرت أمي أن جاد ليس درزيًا ستظن أنني كافرة، لأن الله لا يقدر مصيرًا كهذا على الأخيار. أنا خائفة من نظرة أهلي لي وخائفة من الجحيم. ماذا لو أنني حقًا كافرة!؟

ثم راحت ترتجف من جديد، فندمت على انفعالي وعلى مطالبتها بالتفكير بمنطق وهي تركب قطار الخوف المجنون الذي يواصل انزلاقه إلى جحيم نفسها، فيبدو العالم من نافذته على شكل صورة كبيرة ومشوّهة.

تحدثت إلى أمي في الهاتف قبل انطلاقنا إلى القرية. أخبرتها أن نيرمين هنا، وشرحت لها وضعها باقتضاب طالبة منها أن تتسلح بالصبر والإيمان، وأن تتظاهر أمام نيرمين أن كل شيء طبيعي. كما طلبت منها أن تطلع أبي على الوضع.

حين وصلنا، لم يعلق أحدٌ على نحافة نيرمين ومشيتها التي تشي بحالتها، والهالات السود حول عينيها. حضناها بعد غياب سنوات، وراحا يتحدثان إليها بحذر، متجنبين الاندفاع الذي كانا يقابلانها به في الماضي. طلبت نيرمين من أمي أن تعد لها مكانًا للنوم في غرفة الجلوس العربية الملاصقة لضريح جدّي، والتي تغطي جدرانها صور مشايخ أجلاء من الطائفة الدرزية.

رقدت نيرمين في تلك الغرفة منذ ساعة وصولها. وحين تأكدنا أنها نامت، راحت أمي تستنطقني.

- ماذا دهى أختك؟ أخبريني أرجوك؟

- نيرمين أصيبت بانهيار عصبي. وكل أفكارها مضطربة. لذلك، لا أريدك أن تقلقي بشأن أي شيء تسمعيه منها.

- كيف أساعدها؟

- فقط أحبِّها يا أمِّي. هذا ما تفعلينه مع الغرباء. ولا توجَّهي لها أيَّ سؤال. أقول لكِ هذا رغم إدراكي بأنَّك لن تسألها عن أيِّ شيء.

- أنا لا أحبُّ الأسئلة، ولا أظنُّ أنَّه من حقِّ أحدٍ أن يخرق خصوصيَّة الآخر بسؤال.. ولكنني قلقةٌ عليها جدًّا.

- نيرمين متَّجهةٌ للدين بشكلٍ مفاجئ. اتلي عليها بعض العظات، وعلمِّها بعض الأشعار الدينيَّة. قد يُريحها الأمر.

في المساء، وبعد أن نامت نيرمين، جلست مع والديَّ وأخبرتَهُما أنَّ جاد هنا، وأنَّ نيرمين مصرَّةٌ على الطلاق. أخذ أبي يتمتم في نفسه، ثم قال بانكسار:

- ليس للمؤمن سوى الرضى والتسليم لمشيئة ربِّ العالمين.

أمَّا أمِّي، فرأيت الدموع تموج في عينيها، ثم سألتني:

- ماذا فعل جاد؟ أين هو الآن؟

فأمسكت يدها، وقلت لها:

- لا شيء ممَّا سأقوله سيبدو منطقيًّا، ولكن أرجوكِ أن تسمعيَني جيّدًا. جاد لم يفعل شيئًا. ولكنَّ نيرمين مصرَّةٌ على الطلاق، كما أنَّها ترفض رفضًا قاطعًا أن يأتي جاد إلى هنا. جاد لا يريد أن يُغضبها وهي في هذا الوضع.

- هل هذا يعني أنَّني لن أودِّعه؟ قالت أمِّي هذه الكلمات، وسحبت منديلها لتغطِّي الدموع التي تدرجت على خديها.

وقد كان ليرمين ما أرادت. بعد أقلّ من أسبوع، التقى أبي وجاد عند كاتب العدل في مدينة «عاليه»، ووقَّعا على توكيلٍ يسمح لأبي أن يوقَّع بالنيابة عن جاد كافة المستندات القانونية المطلوبة لإتمام الطلاق. وغادر جاد بيروت لآخر مرّة، وفي قلبه أملٌ أن تحدث معجزةٌ ما، وتجعل نيرمين تغيّر رأيها في المهلة التي يحددها القاضي والتي عادةً ما تكون بين ثلاثة وستّة أشهر.

لقد كان لطلاق نيرمين وجاد والظروف المحيطة به مفعولٌ قاسٍ على أرواحنا جميعًا. رأينا جاد يتحمّل نفور نيرمين وظلمها له، ورأيناها تهوي من عليائها وتفقد اتزانها والسيطرة على أفكارها. كلّ هذا كان موجعًا. كلّ هذا جعلني أُعيد النظر في مفهوم الحبّ والحرية والأمان والاستقرار...

لم يتسنَّ لجاد وداع نيرمين التي أمضى خمسة عشر عامًا من عمره يحمل لها القهوة إلى السرير. ولا هي ودَّعت الرجل الذي أحبَّته وآمنت بالحياة بسببه. لقد كان الوداع هزيلًا، لا يُشبه قصّتهما الصاخبة. افترقا كأنَّهما شخصان جمعتهما علاقةٌ عابرة. لم يتسنَّ لجاد أن يخطّط للوداع، ولا أن يختار آخر كلمةٍ سيقولها لها. لم يتسنَّ له أن يقول لأُمِّي وأبي وهو يغادر بيتنا للمرّة الأخيرة «استروا ما شفتوا منّا». غادر مثل سحابة. وكأنَّه لم يكن يومًا.

حين عدت إلى غرفتي، كان قد تبقّى لجاد ليلةٌ واحدة في بيروت. طلبت منه أن يقبل دعوتي على العشاء، فقبل. كان قلبي مثقلًا بالحزن وأهوال ما رأيته من قدرة الإنسان على تدمير نفسه ومن حوله، ولكنني اصطنعت شيئًا من الخفّة كي أساعد جاد على

تخْطِي تلك الساعات الأخيرة. جلسنا بجانب البحر في قهوة «المنارة بالاس»، ورحنا نراقب تكسّر الأمواج على حواجزها الإسمتيّة.

- أنا آسفٌ على كلّ شيءٍ يا جاد. آسفٌ من كلّ قلبي. قلت بانكسار، وكأنيّ أعذر له عما حدث لأختي وما بدّر منها!

- ليس عليك أن تعتذري. الحياة تحدث لنا جميعاً. وقد حدثت لي مرّةً على شكل حبّ عظيم. ليس هناك من ضمانٍ ولا من عقدٍ مبرم بيننا وبين الحياة يعدنا بأننا سنكون بخير طوال الوقت، وأنّ كلّ شيءٍ سيبقى على ما يرام.

- لست عاتباً على نيرمين؟

- نيرمين لم تؤذني بقدر ما آذت نفسها. كيف أعتب عليها؟ صمت، ثم أكمل:

- نيرمين انتهكت جسدها وخسرت طفلها، ثم أدارت ظهرها للحياة، وتركت أميركا بكلّ فرصها كي تعود إلى قريةٍ نائيةٍ، وتعيش هناك وترتدي لباس المشايخ. كيف أحاسبها على ما فعلته بي بعد ذلك؟

- قد تكون هذه سعادتها! ما أدرانا..!

- سأكون من أكثر الناس فرحاً إن وجدت نيرمين سعادتها في أيّ شيء، حتى لو كان ذلك يعني زواجها من رجلٍ آخر.

أعجبت بنبله، وشعرت بشيءٍ من الاطمئنان عليه، لأنّ الحقد لم يتملّك من قلبه. حاولنا بعدها أن نمضي بقيّة الوقت بالتحدّث عن أشياءٍ مسليّة. وحين انتهت الأمسية، حضنته وبكينا.. ثم

تعاهدنا على أن نبقي أخوةً كما كنّا طوال تلك السنوات. وقبل أن أرحل، دسّ جاد في يدي رسالةً ورقيةً مكتوبةً بالإنجليزية، وطلب منّي أن أقرأها لاحقًا، وأنها ستخفف من حزني.

«أختي أمل؛

ليس هناك من مستحيل. هناك حدودٌ للتضحيات التي نقدّمها في سبيل هذا المستحيل، والحدود نحن من يقرّرها. خبرت التضحية بأضيق أنفاقها وأكثر أوديتها عمقًا. أقدمت على التضحية كإقدام الطحين على الماء. وهبت نفسي للحبّ ليشكّلني كما يشاء، ليزيدني أو يُنقص منّي. صرخت «نعم» كي أتغلّب على كلّ أفاعي وزواحف التردّد والرفض. كلّما أتاني الحبّ باختبار كنت أصرخ بملء جوارحي «نعم»، وأقفز. القفز الذي يراه الجميع فعل انتحار، أصبح عندي فعل حبّ واستسلام. صرت أقفز ولا أشعر بالوجع. لن أكذب وأقول إنّ الوجع لم يعد هناك. بل هو حاضرٌ بشدّة، ولكنّ فهمي له، تقبّله، وإجلالسه في صدر دار روحي جعله أليفًا ورقيقًا. أحيانًا، أشعر أنّ الوجع يربّت على كتفي، ويقول لي إنّني محظوظ، لأنّني لم أكن لأختبر الحياة بهذا العمق لو لم يكونني الألم.

لنعد للتضحية. نعم ضحّيت بكلّ ما هو أنا. بكلّ كياني المؤلّف من أفكارٍ ونظريّاتٍ ومعتقداتٍ وتراكماتٍ اجتماعيّةٍ ونفسيّة. تجرّأت على الاقتراب من هذا الكيان ونسفته. أتعلمين كم هو خطيرٌ ألاّ يبقى منك شيء؟ أن تشعرني وكأنّك إناءٌ زجاجيٌّ فارغٌ وشفّاف؟ هل تدركين كم تكونين عرضةً للضياع وقابلهً للعطب؟ ولكنّك أيضًا ستكونين حرّة. لا شيء لتدافعي عنه. لا

شيء يثير حنقك. فأنت لا تنتمين إلى فكرة أو مدرسة أو مبدأ. أنت حرة وتستطيعين أن تهبي نفسك للحب.

أعدت فكّ وتركيب نفسي مئات المرات بما يناسب الحب، ولكن لا تحزني من أجلي يا أمل، فأنا لا أرى نفسي ضحية. أظنّ أنّه خللٌ فظيعٌ في اللغة أن يرتبط فعل التضحية بكلمة «ضحية». أنا ضحيت لأسمو، لأكون، لأنتصر، لأتحرّر. لا تقلقي عليّ.. أنا لست ضحية. أنا عاشق».

إهداءً منفصل

لك
في صمتك
وبوحك
ونزفك
لصدقك وندرتك،
لالتقائنا
كقطرتي مطرٍ
تسابقان على زجاج نافذةٍ
لتنصهرا في لحظةٍ
بعنف اصطدام الكواكب
وسلاسة التحام الغيوم،
لكلّ هذا...
أكتب.

نافذة على حديقة الله

كنت رغم كلّ ما حدث، ما زلت واعيةً بضرورة التركيز على رحلة شفائي. تناوبت في تلك السنة على حمل أحزان جميع أفراد عائلتي. حشرت نفسي في وجدان كلّ منهم، وتركت الشعور بالوجع يحملني إلى أعماق الأماكن وأكثرها ظلمة. فكّرت بانكسار أبي وأمي والحمل الثقيل لطلاق ابنتيهما في أقلّ من سنة، بشقيقتي التي هزمتها مخاوفها، فنذرت نفسها للدين بعقد كتبه الخوف لا الحبّ، بابنتي رحمة التي تعيش بعيداً عن أمّها، وبكلّ احتمالات الحزن في وجدانها، بجاد الذي خسر كلّ شيء وانسحب من حياتنا بهدوءٍ ونبلٍ مستغنياً عن ضجيج المنّ والعتب. . ولكنّ بعد مدّة، بدأت أتساءل عن جدوى كلّ ذلك! هل هذا التماهي مع وجعهم يجعلهم يتألّمون أقلّ؟ ثم ماذا عن وجعي أنا؟ أنا مثلهم جميعاً قد نلت نصيبي من الألم، وكان عليّ أن أتعامل معه بنفسه. لماذا لا أستطيع الاقتناع بهذا الأمر؟

لم أكن قد ألفت خفة الحرّية بعد، اكتشفت هذا الأمر حين واجهت نفسي بتهرّبي من الخروج مع زميلاتي بعد العمل. كانت المنطقة المحيطة بمسكني مقصدًا لمحبيّ السهر. ولذلك، كانت زميلتاي تلحّان عليّ كي أذهب للقائهما في أحد المقاهي القريبة سيرًا على الأقدام. ولكنّ شيئًا ما في داخلي كان يعتبر هذه اللقاءات رفاهيّة لا أستحقّها. كان هناك صوتٌ يقول لي «أنتِ لم تتركي بيتك وابنتك كي تمرّحي وتسهرى مع صديقاتك». استكنت لهذا التوبيخ لمدّة طويلة، وأتيت بعشرات الحجج لصديقاتي ولنفسي كي أتجنّب السهرات وأعياد الميلاد والذهاب للشواطئ. وفي يوم، تذكّرت كلام حامد عبد السلام عن استحالة تحرّر المرأة من دون أضرارٍ نفسيّة واجتماعيّة. هل أنا فعلاً حرّة؟ وإن كنت حرّة بتصرفاتي ظاهريًا، ماذا عن الصوت الذي يسوقني؟ من زرعه في داخلي وراهن على أنّني سأرعاه وأحافظ على مشاعره، وكأنّه الجزء الحقيقيّ مني؟ أكون هو نفسه الصوت الذي استوطن في كيان أختي نيرمين، وأعادها إلى المربع الأوّل متنكرًا باسم الحرّية؟ لقد تركت بيتي بإرادتي، وغادرت نيرمين أميركا بإرادتها. ولكنّا ذهبنا باتّجاهين متعاكسين تمامًا. أين هي الحرّية إذًا؟ وهل نحن أحرارٌ فعلاً؟

تمنّيت لو أنّني أستطيع مناقشة هذه القضايا مع حامد، ولكن على الرّغم من أنّ تواصلنا لم ينقطع كليًا إلّا أنّ طبيعة العلاقة المقتصرة على تبادل المقالات عبر البريد الإلكترونيّ لم تعد شخصيّة كما كانت حين التقينا في بيروت. أظنّه سيفرح من أجلي إن علم أنّني لم أستكن للاكتئاب وأدويته من جديد، وأنّني

استعدت جسدي وما تبقي من روعي من زواجٍ أذبل كلّ براعم الحياة في داخلي من غير قصد.

في المساء، حين أنهيت كتاب «اعترافات» للكاتب الروسي ليو تولستوي، صعقني التشابه الكبير بين رحلته ورحلة حامد عبد السلام. رحلة من التآرجح بين الشك والإيمان، بين اليقين وانعدامه، وفي التحوّل الأخير إلى حالة من الطفو تشبه تأرجح لوح من الخشب وسط محيطٍ شاسع، أو مثل خفة زهرة «دانديليون» تقف شامخةً بقطنها الهشّ في سهلٍ مفتوح على الريح. كلاهما قرّر في النهاية أنّه لا يحتاج إلى مرسة ولا إلى جذورٍ من أيّ نوع. تردّدت للحظة قبل أن أفتح البريد الإلكترونيّ، وأرفق الكتاب مع كلمتين فقط: «كم يشبهك»، وأرسله إلى حامد.

بعد بضع دقائق وقبل أن أغلق اللابتوب وأذهب إلى النوم، ارتفع إشعارٌ من زاوية الشاشة يقول إنّي تلقّيت رسالةً جديدة. حين رأيت اسم حامد فتحتها بسرعةٍ لأجد كلمتين فقط: «كيف حالك؟». نظرت طويلاً إلى هاتين الكلمتين. عادةً حين يرسل أحدنا الآخر لا يأتي الردّ مباشرةً، بل بعد مدّة حين يظهر لأحدنا شيءٌ يريد مشاركته. ولكنّ هاتين الكلمتين «كيف حالك» وحدهما من دون أيّ ملفّ مرفقٍ كانتا شخصيتين بشدّة. شعرت وكأنّهما شعاع لا يزر يخرقني، ويمرّ عبر كلّ طبقاتي «كيف حالي؟» سألت نفسي وكأنّني التقيتني للتوّ. شعرت أنّ حامد حقاً يريد أن يعرف كيف حالي، وأنّ هذا الكلام ليس في سياق المجاملة أو «المحادثة الصغيرة» لأنّه لم يكن هناك من محادثةٍ أو سياق. كانت

هناك كلمتان واضحتان قابلتان للتشريح والتأويل، وقابلتان للتبسيط التامّ الذي يمكن أن يكتفي بكلمة «بخير» كردّ.

لم أكن أعرف ليلتها أنّ ردّي سيُفضي إلى محادثة، وأنّ محادثة ستُفضي إلى عشرات المحادثات، وأنّ كلمتين بصدق صلاة مؤمن وببساطة سؤال «كيف حالك؟» ستكونان بدايةً لعلاقة ستفتّح على مهلّ، وتُغيّر كلّ ما عرفناه عن الحياة والحبّ والألم.

في طفولتي، لم يكن الحبّ موجوداً خارج التلفاز. لم يكن أحدٌ يتكلّم عن الحبّ، ولا كان الزواج يتمّ نتيجةً لعلاقة حبّ، ولا كانت موضة «حبّ الذات» رائجةً في عصري. كانت كلمة حبّ تمرّ مروراً خاطفاً في همس أمّي وخالاتي حين كنّ يتكلّمن عن أشخاص - من النساء تحديداً - قاموا بتصرّفات «سيئة»، أو حين تتزيّن فتياتٌ صغيراتٌ في السنّ كنت أسمع أنّهنّ «غير صالحاتٍ سوى للحبّ والانحراف وفساد سمعة آبائهنّ». هكذا قدّم لي الحبّ ككلمةٍ أخرى في لائحة شتائم وخطرٍ وشيكٍ الحدوث.

وفي السنوات الثلاث عشرة لزواجي، فشلتُ في تهجين حبّ من اختلافاتنا بين رفوف المكتبة أو تحت الشراشف الزوجيّة. ولا كان ممكناً لصفقة أبرمتها مراهقةً مع تاجرٍ أن تنتج حبّاً. لذلك عشت راضخةً لمصيري أسوةً بكلّ النساء اللواتي لم يختبرن الحبّ ولم يحبّهنّ أحد.

لم أنظر لنفسي من قبلُ على أنّي أنانيّة أو محبّة لذاتي، بل عانيت من كرهٍ لنفسي واشمئزازي منها طوال حياتي. ولكن هل

جعلني هذا غير أنانيّة؟ الأنانيّة هي الانشغال بالنفس لدرجة يغيب معها العالم الخارجي! وأنا انشغلت بنفسي، بالضيق الذي سكنني لسنوات، وبالألم الذي يغيّر شكله وطبيعته باستمرارٍ مثل جرثومةٍ في مختبر، حتى غاب العالم الخارجي وغاب معه من حولي بمن فيهم ابنتي. والآن، بعد أن خرجت من الورطة التي عشت فيها لسنوات، بدأ العالم يستفيق خارجي من جديد. يستفيق كما هو وليس بصورته الملوّية التي شوّهتها لتُطابق عالمي الداخلي. تقول الروائيّة والفيلسوفة آيريس مردوك «إنّ الحبّ هو الإدراك الصعب بأنّ هناك شيئاً آخر حقيقياً غير ذواتنا». الحبّ إذن هو من يُعيد الصورة المشوّهة إلى طبيعتها، الحبّ إذن هو الطريق إلى حقيقة الآخر. بدأ كلّ ذلك يتحوّل من كلام فلسفيّ جميل إلى واقع حين استفاقت أمومةً جديدةً داخلي لأوّل مرّة. لقد أهدتني رحمة الأمومة منذ حوالى تسع سنوات، ولكنّ أهداني الانفصال أمومةً بطعم آخر ولونٍ آخر.

في البداية، ظننت أنّ الشعور بالذنب تجاه رحمة هو ما جعلني مولعةً بها، ولكنّ مع الوقت وحين تفتّحت أمومتي أكثر، فهمت أنّ الشعور بالذنب لا يمكن أن يولد عطاءً بهذا التدفّق، لأنّه خللٌ وليس فضيلة. ما جعل أمومتي تزهر هو الحبّ الذي أصبح بمتناولي حين تنحّى الصراع، وأدركتُ وجودَ حقيقة الآخر. لم تعد رحمة طفلةً تابعة لي ولوالدها، لم تعد ثمرة زواج لم ينجح، بل أصبحت روحاً مستقلّةً وعالمًا مدهشًا من الطفولة، والفهم الفوريّ الذي لا يتخلّله التحليل، فهمٌ فطريٌّ حرٌّ لم تدنّسه الأدلجة والعادات.

كنت أناقش كلّ هذه الأفكار مع حامد، ونغرق في أحاديث فلسفيّة لساعاتٍ عن الحبّ والحرّيّة وصورة النفس وأشباحها الخفيّة. لقد أراني حامد العبرة من الألم حين شاركني كلّ ما عاشه، وفتح لي قلبه مثل طفلٍ يصارح أمّه بإخفاقاته. تعامل مع آلامي بخبرة من تعلّم ألاّ يلمس جرحاً مفتوحاً، وبخفّة من تعود أن يحتفظ بحفنة رملٍ من غير أن يقبض عليها. وفي أيّام كثيرة، كان يصمت. فيترك لي الصمت مشرّعاً كي أهتدي إلى ليله سالكةً ممّرات الحنين، مجتازةً حواجز الغياب. وفي أيّام أخرى، كنت أنا أصمت. فأدرك أمام عجزني عن الكلام أنّ هذا الصمت هو أقصى درجات الحنين، وأنّ كلمة «اشتقتك» هي أدناها.

أصابنا الحبّ من دون خيارٍ أو قرار. دخل إلى قلوبنا كدخول الحلم إلى نومنا. أقبل علينا كالموج الذي لا يتكوّن إلّا حين يشرف على تكسّره الحتميّ عند الشواطئ. كنت أعرف أنّي أحبه، وكانت لهفته وحرصه على التواصل معي كلّ يوم يشيان بحبه لي، ولكنّني لم أتجرأ على الوصول إلى هذا الاستنتاج. أنا البنت القرويّة البسيطة التي ذاقت الويلات لتحظى بخيارٍ آخر لحياتها، وهو الكاتب الحرّ الذي لا تنتهي عنده الاختيارات.. ما الذي سيجده عندي؟!

لم نتوقّف عن التواصل اليوميّ لشهور. ولكنّ حين مرّ يومان من غير أن يصلني من حامد أيّ شيء، تقافزت الأفكار السلبية مثل الشياطين في رأسي. خفت على سلامته وعلى صحّته النفسيّة. ماذا لو أصابه عارضٌ آخر من العوارض النفسيّة التي كانت تُصيبه في السابق، ودخل المستشفى؟ ماذا لو أصابه مكروه؟

ماذا لو ضايقته وأبعدته عني من غير أن أعي ذلك؟ لم أكن أعلم
أنَّ غيابه سِيلْقِي بي في دوامةٍ من الضياع، ويحرمني من النوم
لليلتين متتاليتين.

ولكنْ بعد يومين من غياب حامد، وصلتني منه رسالة في
البريد الإلكتروني أجابت على كلِّ أسئلتي.
«عزيزتي أمل...

المطارات لا تعبأ بدموع المودعين ولا بزهور المستقبلين. لم
أختبر قبل وداعك البكاء في المطارات. كان السفر بالنسبة إليَّ
موتًا صغيرًا أو نفقًا بين قبرين. كان الطيران مجرد هدنة قصيرة مع
هذه الأرض التي تتكئ على وجودي بكلِّ ما أوتيَتْ من قسوة،
وتحجب عنه الهواء والألوان.. كنت أسافر بين القارَّات نكائية في
البشر والحدود والتجارب، وتحايلًا على انحناءات الزمن وبطش
الجاذبيَّة. كنت أسافر من أجل السفر لا من أجل وجهة أو غاية.
قبلك، كانت كلَّ الغايات متاهاتٍ أختبئ فيها من اللاغاية، وكلَّ
الأوطان جحور أرانب أختبئ فيها من مَضِيَّة الانتماء. والآن،
أرى أنَّ سلامي النفسي مرهونٌ بطائرة تنقلني إلى أيِّ مكانٍ أنتِ
فيه.

قبل أن نلتقي، كنت أطفو فوق بحر الحياة باستسلام من
ضاق ذرعًا بسكونه وصموده بلا هدف. كنت في حالة اللاسلم
واللاحرب التي قابلتني عند مفترق طرقها، وكاد يخفت بداخلي
آخر صوتٍ يناجي الحياة. ولكنْ حين أمضينا تلك الساعات
سويًا، حين قلت لي في ثاني لقاءٍ لنا «أنت تشبه البحر»، تغيَّر كلُّ

شيء. كان من المفترض أن تفاجئني كلمة (بحر) كنعن لوجودي. لم أكن أرى نفسي بحرًا، بل جبل ثلج يستعير وجوده من برودة بحر الحياة من ناحية، ويتغذى البحر على عجزه وعلى موته البطيء من ناحية أخرى.

لم تفاجئني كلمة (بحر) بل كلمة (أنت). لطالما كانت تقلقني، بل تُخيفني هذه الـ (أنت). كنت أشعر أنني حفنة من رمالٍ أحكم عليها قبضتي بالصمت، لكنّها تنفرط من بين أصابعي في كلِّ مرّة يخاطبني أحدهم بـ (أنت). كان يرعيني الفارق بين أناي التي يقصدها أو يتوقّعها من يخاطبني، وأناي المختنقة تحت ردم الكلمات والخبرات والإخفاقات. فابتكرت طريقة لحماية هشاستي. صنعت من رمالي بورتريهاتٍ موقّنة للإجابة على كلِّ (أنت) بحسب توقّعات صاحبها... كنت أظنّ أنني أحمي نفسي بهذا الطفو، ولكنني كنت في الحقيقة أنكرها وأحقّرها بهذا التشظّي والتنقّل بين الاندثار والتلّون.

ولكنّ حين خرجت هذه الحروف الثلاثة من بين شفّتيك أنت، كان لها وقع السحر، وكأنّها مطرقة نحّاتٍ يُعيد بها نحت ملامحي من جديد. أزاح وجودي كلّ تراب الحزن والوجع والهروب عن نفسه، وتجلّى لك نقيًا واضحًا كوليّد لم يطأ الحياة ولم تطأه الحياة من قبل، ولكنّه محمّلٌ بذاكرةٍ عمرها آلاف السنين... لم يكن لدى الطفل خيارًا إلّا أن يركض نحوكِ ويعانقكِ. ولكنني لم أكن أعرف شيئًا عن ظروفكِ، ولا مدى استعدادكِ لرحلةٍ إلى المجهول في قاربي الواهي.

بعد ثاني لقاءٍ لنا حاولت أن أفهم ماذا يحدث في داخلي،

أن أُحلّل مشاعري التي تحرّكت لامرأةٍ التقيتها للتوّ، ولا أعرف عنها الكثير. أقنعت نفسي أنني أتوهم، وبأنّ مشاعري هي نتيجة طبيعة لقاءاتنا الخاطفة، ولكن منذ ذلك الوقت، لم تغيبني عن ذاكرتي يوماً واحداً. وبعد أن علمت بكلّ ما كان في حياتك، وكلّ التحوّلات التي حصلت بعد لقائنا، أدركت أنّ الحبّ كان رفيقنا منذ البداية. وأنّ هذا الحبّ الذي رفعني إلى السماء في الأشهر الماضية قادرٌ أيضاً أن يهبط بي إلى الجحيم، وأنّ الحبّ والخوف على من نحبّ توأمان لا ينفصلان.

أجلس منذ يومين كطائرٍ يتكوّر فوق حنجرتة الدامية، لكنّه يواصل الغناء. أشعر بوحدةٍ لم أختبرها من قبل، ويفترسني خوفٌ لا أقوى على مقاومته. أخاف أن تبخل علينا الحياة بلقاءٍ جديد، وأخشى أنّ كلّ ما صار هو مجرد حلم عابرٍ أو قصّة رومانسيّة قصيرة تصلح لذكريات الشيخوخة، لكنّها لا تصلح أن تكون بداية عمرٍ جديد. أخاف عليك من عودتك إلى الأسوار نفسها التي كانت تحجب النور عن روحكِ الجميلة. أخاف عليك من الطرق الجبلية وتعرّجاتها. أخاف عليك من نظرات مَنْ حولكِ وهم يبحثون في عينيك عن مسكّناتٍ لمخاوفهم، ومن الذعر في عيون صغيرتك حين تشغلين عنها بالتفكير فيّ. أخاف عليك من صوتكِ حين يخذلك، ومن قلبكِ حين يفيض فلا تجددين مجرى لفيضانه.

بعد أن قرأت رسالة حامد عدّة مرّات وتركتها لتختمر في وجداني، كتبت له:

«عزيزي حامد...»

لا أظنّ أنّ لقاءنا حدث صدفةً. من الصعب أن أتخيّل أنّ هذا اللقاء لم يكن مقدّرًا منذ البداية، أو ربّما منذ حيواتٍ سابقة. حين التقينا، كنت أقف على مفترق طرق، أراقب الممرّات لساعاتٍ، وأتخيّل الأهوال في نهاية كلّ منها. ولكنّ في آخر النهار، كنت أجزع وأجري إلى جُحري للاختباء في المكان المسؤول عن ألمي. شيءٌ ما في حديثك، في طاقتك، سرٌّ ما في التقائنا أزاح الحجر من فوق بذرة القوّة المدفونة في داخلي. كان لقاءنا بمثابة ارتطام كوكبين. ارتطام حوّلني إلى عالم تتساقط من سمائه النيازك وتلمع بين نجومه الشهب. سرٌّ ما فيك أيقظ قداسة الأنوثة في ذاكرة كلّ خليةٍ من خلايا رأسي وجسدي.

أنا أيضًا بكيت حين ودّعتك، ولكنّني لم أسمح لنفسي بتأويل مشاعري تجاهك حينها. كنت أظنّ أنّ القلب مثل الجسد يؤمّم ويكتب وسط قائمة الأشياء الأخرى في عقد الزواج، ولكنّني كنت مخطئة. الآن أعرف أنّي أحببتك منذ البداية، وأنّ الحبّ لا يعترف بتبريراتنا، ولا ينتظر إذنًا من أحدٍ حين يختار أن يحطّ على قلوبنا الباهتة مثل فراشةٍ زاهية الألوان.

لم أنسَ شيئًا من أحاديثنا الأولى. ما زلت أذكر قلبي في انبهاره الأوّل حين راح يُسقط الصّدفة عن ظهره على مهلٍ، وينظر إلى البياض مبهورًا بعينٍ واحدة. ما زال بكائك في تلك الغابة يفتح نوافذي على مدن الجليد. هناك وسط أشجار الأرز حيث ائتمنّا الطبيعة على أرواحنا، حيث وضعت قلبك على كفّ إعصارٍ ووضعتُ أنا قلبي في صدر دوّامة... منذ ذلك اليوم، شيءٌ ما في داخلي تغيّر إلى الأبد. من يومها وأنا أشعر بكلّ ولادةٍ تحدث

وكلّ إجهاض. ظننت أنّ تلك هي حيلة الكلمات، فتمنّيت لو أنّك أهديتني كتابًا يلخّص فلسفتك في الحياة كي أعيد قراءته مرارًا. ولكنّ كان عليّ أن أدرك أنّ رجلاً بسخائك لا يحبّ عن طريق الأفكار، وأنّه كان لا بدّ لك أن تحملني إلى جذورك وتغرسني في نواة الأرض. كان عليّ أن أدرك أنّ حبّك هو أمومة لعالمٍ بأكمله، وأنّ مصيري سيكون أبدًا مصير أمّهات».

بدأت الأمور تتطوّر بسرعةٍ بعد تبادل الرسائل. لم تقتصر التطوّرات على علاقتنا وكثافة تواصلنا فقط، بل استمرّت بخفق دواخلنا وإيقاظ كلّ ما كان ساكنًا. كان لبعض أيّامي طعم الحبّ الخالص، بحيث شعرت أنّني أخفّ المخلوقات وأوفرها حظًا. وكان لأيّام أخرى طعم الخوف الغامض الذي يتعدّر عليّ تحديد طبيعته أو مصدره.

كنّا نتواصل بشكلٍ يوميّ، ولكنّ سرعان ما شعرنا أنّ الكلمات لم تعد تشفع بشوقنا، وأنّ لا شيء سيسكّن آلامنا سوى اللقاء. لذلك قرّر حامد أن يُنهي ما بين يديه ويأتي لزيارتي في بيروت. مرّت الأيام على مهلّ. كنت فيها منشغلةً بالفرح والترقب. إنّها مرحلةٌ جديدةٌ لكلّينا، هذه المرّة لن ألتقي حامد البروفسور والكاتب، بل سألتقي حبيبي. من الصعب أن أصدّق أنّ قلبي الذي عرف الأسى وتماهى معه لسنواتٍ هو نفسه قادرٌ على كلّ هذا الفرح.

وقفت أراقب لوحة وصول الطائرات في المطار. وفجأةً، ظهرت النقطة الخضراء الكبيرة بجانب رقم رحلته لتقول لي إنّ طائرته وصلت. راح خليطٌ غريبٌ من مشاعر الفرح واللهفة

والارتباك يموج في صدري. كيف سأستقبله؟ ماذا يفعل عاشقان
أحبًا بعضهما بعضًا من بعيد؟ كيف يُصبح شكل هذه المعادلة حين
نطرح منها المسافة؟ هل يصافحني؟ هل يحضنني؟ وماذا عن
خجلي وارتبائي؟ هل أنجح في إخفائهما؟ مضى نصف ساعة وأنا
غارقة في أفكاري، أمشي ذهابًا وإيابًا مراقبةً من بين رؤوس
المستقبلين الباب الذي من المنتظر أن يخرج منه حامد. وإذا بيد
تستريح على كتفي. جزعت لجزء من الثانية، وحين استدرت كان
هو بعينه الهادئتين وابتسامته العذبة. ومن غير أن أعرف من بادر
بالقرب، وجدت نفسي أعانقه بذراع يلتف حول ظهره فيما
تخلّصت يدي الأخرى من حقيبتني، فأفلتتها وتركتها تسقط إلى
الأرض كي تجعل العناق كاملاً. عانقته وكأني أعانق نفسي للمرة
الأولى. عانقني وكأنه أخيرًا وجد وطنًا يستريح فيه.

قضينا الأيام الأولى في بيروت، حيث استأجر حامد شقةً في
منطقة الروشة لمدة شهرٍ كامل. خلافًا لتوقعاتي المستندة إلى
طبيعتي الخجولة والانطوائية، كانت لقاءاتنا خاليةً من التوتر
والارتباك الذي يطرأ على العشاق في بداية مشوارهم. كانت أشبه
بخفة الأحلام وسلاسة التحام الغيوم في فصل الربيع. كانت
الساعات تمرّ كأنها دقائق، وحين يأتي المساء ويحين موعد
عودتي إلى المنزل، كان قلبانا يثقلان، ونشعر بصعوبة الانسلاخ
عن بعضنا وكأننا وُجدنا لنمضي كلّ ساعةٍ في حياتنا سويًا.
رَسَّخت تلك اللقاءات شعورنا بأننا نعرف بعضنا من قبل، وأخذتنا
إلى أحاديثٍ طويلةٍ عن تناسخ الأرواح والنظريات المحيطة
بالتقمُّص.

مضت الأيام الخمسة الأولى بسرعة، وحن وقت زيارة
رحمة في القرية.

- هل يعني هذا أنني لن أراك غداً؟ سألني حامد مستفسراً.

- ولا بعد غد.. قلت وكأني أعذر له.

- سأشتاق لك كثيراً، همس وهو يقترب مني ويحضنني.

- يصعب عليّ أنك هنا في بيروت، وأني سأحرم من قربك

ليومين كاملين!

- وجود شخصين في حياتك يحتاجان إلى حبك بهذا القدر

هو هدية لك ولهما. لرحمة حق عليك أيضاً.

بعد السنة الأولى من مغادرتي للمنزل، راحت علاقتي برحمة تأخذ منحى آخر. كانت قد تعوّدت على فكرة الزيارات وتصالحت معها، حتى صارت تضمّني وتودّعني بكامل رضاها حين تنتهي زيارتها ويحين موعد المغادرة. أصبحنا نمضي وقتنا في نشاطاتٍ لم أكن أحلم أنّني سأمارسها مع ابنتي يومًا. صرنا نستمتع بالرسم سويًا، والتنزّه إلى جانب النهر حيث نقوم بجمع أوراق الأشجار اليابسة كي نقوم بالأعمال اليدويّة. كما تعوّدنا على الخوض في أحاديثٍ طويلة. صارت رحمة تطلّعنني على كلّ الأفكار التي تدور في رأسها والأسئلة التي تنتج عنها. وكنت أُجيبها كأنّني أتكلّم مع إنسانٍ راشد، بصدقٍ وبساطةٍ يناسبان أعوامها التسعة.

- لماذا أشعر أنّك الأقرب إلى جدّتي نبيلة من بين خالاتي جميعهنّ؟ سألتني رحمة في إحدى نزهاتنا ونحن نقرب من النهر.

- ربّما لأنّني أراها! ولا أقصد أنّي أراها بعيوني. أنا أقدر

تعبها، ومشاعرها، وأرى ما يؤلمها وما لا تقوله... كما أنني لا أريد منها شيئاً سوى أن تكون سعيدة. لا أظنّ أنّها تدين لنا بالاهتمام والرعاية فقط لأنّها أمّي، بل هي تفعل هذا كرمًا منها.

- نعم أظنّ أنني أفهم. هل لهذه الأفكار اسمٌ؟ سألتني رحمة وهي تلتقط ورقةً يابسةً من الأرض.

- بعض الأشخاص يقولون إنّ هذا حبٌّ غير مشروط unconditional love. الإنسان الذي حصل على هذا الحبّ ولو من شخصٍ واحدٍ يكون محظوظًا.

- يعني أنا محظوظة؟ قالت وهي ترفع الورقة إلى عينها وتنظر لي من خلال ثقوبها.

- أتمنّى ذلك يا حبيبتي. إن كنت تشعرين بأنّك حصلت عليه فأنتِ طبعًا محظوظة.

- أنتِ أيضًا ستحصلين عليه ماما، قالت بعد أن رمت الورقة في النهر، وراحت تراقبها تبتعد عنّا متأرجحةً على المياه الجارية.

- ما هو؟ سألتها.

- هذا الحبّ. سيحبّك رجلٌ ما. وستتزوجين مثل سندريلّا.

قالت وهي تبسم.

- أنتِ تحبّيني، وهذا يكفيني.

حين انتهت زيارة رحمة، رجعتُ إلى بيروت مسرعةً يقودني الشوق وتملاً قلبي الالهفة. وصلت إلى مسكني في الساعة السادسة مساءً، ولكنني لم أشأ أن أنتظر إلى اليوم التالي كي أقابل حامد.

فراسلته :

- هل تقبل دعوتي لشرب القهوة؟

التقينا بعدها بنصف ساعة واحتسينا القهوة على الكورنيش ونحن نراقب البحر وما تبقى من ألوان الغروب. لقد كنّا نختبر بهجة وجودنا سوياً دون قيود الوقت. نستمتع بحرّية الحمام الذي يطير في دوائر فوق مباني بيروت موقناً أنّ السماء ستكون هنا في الغد أيضاً، وأنه وُجد من أجل التحليق المستمرّ.

أمضينا معظم وقتنا في ذلك الشهر في المنزل. نطهو سوياً ونستمع إلى الموسيقى ونضحك، متنعمين بالقرب من بعضنا بعضاً. وبدلاً من مقامات الأولياء التي زرتها في أوّل لقاءٍ لنا، قمنا بزيارة أضرحة كتّابنا المفضّلين. فقصدنا بشريّ ومتحف جبران خليل جبران، واستمتعنا بجمال وادي قنوبين المقدّس. وخصّصنا نهاراً لزيارة بلدة بسكتنا مسقط رأس الكاتب ميخائيل نعيمة الذي اتّفقنا على حبّه والتأثّر بكتاباتهِ. اخترنا نهاراً مشمساً وقصدنا ضريحه في «الشخروب» على سفح جبل صنيّ، حيث كانت بقايا الثلوج تبدو كأوشحة بيضاء منسدلة على الجبال. هناك، استقبلنا تمثالٌ كبيرٌ لميخائيل نعيمة، وقد نُحت من صخرة من صخور الشخروب. يظهر الكاتب وهو يسند رأسه بيده، ويتأمّل الحياة وما وراءها بسكونٍ وسلام. لقد أحبّ ميخائيل نعيمة المكان وصخوره، وأمضى آخر سنوات حياته معتكفاً هنا متأملاً في «الذات الأوسع» حتى تحوّل إلى صخرة من صخور الشخروب.

كانت الأيام تتوالى سريعاً، وموعد وداعنا الثاني يقترب. حاولت أن أخفي عن حامد قلقي من لحظة الوداع، ومن

المجهول الذي سيلقي بظلاله علينا من جديد. والآن ماذا؟ كيف سأتحمل وجع الفطام، وأعود لاختبار ضآلة الحياة بعد أن دخلت السعادة من أوسع أبوابها؟

حاولت أن أخفي حزني عبر التركيز على شعوري بالامتنان بعد هذا الشهر من اللقاءات المكثفة، التي رَممت قلوبنا وضَحَّت الحياة في أوردتنا. حاولت أن أذكر نفسي أنَّ الحبَّ حرِّيَّة، وأنَّ حُبِّي له لا يعطيني الحقَّ بسؤاله عن موعدنا القادم... عمَّا إذا كان سيعود مجددًا. ولكنَّ مع اقتراب موعد المغادرة، لاحظت أنَّ الشعور بالضيق بدأ يظهر على حامد أيضًا.

قبل موعد طائرته بيوم، جلسنا على شرفة منزله ساعة الغروب، ورحنا نحدِّق في البحر لنتجنَّب الحديث عن قلوبنا الثقيلة. بعد فترة من الصمت التام، نظر لي وقال:

- لا أريد أن أغادر. كلَّ شيءٍ في كياني يرفض هذا الوداع. لقد عشت طوال عمري منتظرًا هذا الحبَّ. والآن، بعد سنواتٍ من الخَدَر والغربة وجدته. قل لي كيف أتقبَّل هذا الفراق؟
- أتمنَّى لو يتوقَّف الوقت لنبقى سويًا. أنا أيضًا أتألم، ولكنني لم أشأ أن أشغل بالك.

صمتنا من جديد، وقبل أن يختفي آخرُ جزءٍ من قرص الشمس، تكلم حامد مجددًا:

- تزوجيني، وغادري معي إلى ألمانيا.
اتَّسعت عينا من شدَّة الدهشة. هل سمعته بشكلٍ واضح؟ هل أهلوس؟ هل قال تزوجيني؟ وقبل أن أستفيق وأجيب. أكمل:

- إن كنا لن نمضي كلَّ يومٍ سويًّا من الآن حتى نهاية عمري،
فلا أعرف إن كان أيَّ شيءٍ آخرٍ يستحقُّ الحياة!

غادرت مقعدي واقتربت منه، وحضنته والدموع تموج في
عيني.

- لقاءك كان أعظم ما حدث لي في حياتي. وقربك الدائم
سيهديني حياةً أخرى، ولكنني لا أستطيع أن أترك لبنان قبل أن
تكبر رحمة، وتصبح قادرةً على تفهّم غيابي.

- إذا سألني أنا في لبنان.

- حقًا؟ ولكن ماذا عن عملك وارتباطاتك. ألا تريد أن تفكر
قليلاً قبل اتخاذ قرارٍ كبيرٍ كهذا؟

- لقد قرّرت أن أتزوّجك وأن أقضي عمري كلّ معك. أيّ
قرارٍ خلاف ذلك لا يهمّ. أيّ مكانٍ سأكون فيه معك هو وطني.
ومن حسن الحظّ فأنا كاتب، وأستطيع أن أعمل من أيّ مكان.

تعانقنا بصمت لعدّة دقائق، شعرت فيها بأنّ قلبي يركب
إحدى الأمواج التي ننظر إليها، وبأنّ البحر بكلّ جبروته مستلقٍ
عند أقدامنا مثل قطّ وديع، وبأنّ الحياة رغم كلّ شيءٍ ما زالت
جميلة.

حين قرّرنا أن نتزوّج ونمضي ما تبقى من أعمارنا سويًّا، لم
نعر شأنًا لأيّ من الاعتبارات التي يمكن أن تعيق هذا الزواج.
كان حامد على علم بأنّ خلفيتي الدينيّة تمنع على الدروز الزواج
من خارج دينهم، بل إنّ أيّ زواج من هذا النوع يعتبر خيانه
عظمى للدين ورسالته والمجتمع الدرزيّ ككلّ. لهذه الأسباب

ولأسباب تتعلق بحضانتني الجزئية لابنتي، ولحماية أهلي من مجتمع المشايخ، قرّرنا أن نُبقي زواجنا سرّيّاً. كما اتّفقنا أن يكون الزواج مدنيّاً كي لا أضطرّ إلى تبني قوانين دين آخر، لا أعرف عنه شيئاً. وهكذا، بدأت رحلتنا في تجميع الأوراق المطلوبة للزواج، والبحث عن عشٍّ زوجيّة صغير في منطقة قريبة من بيروت.

كنّا ثملين بالفرح والحلم حين بدأت بعض العراقيل تظهر في طريقنا. بعد أن راسل حامد الجهات المعنية في ألمانيا كي يستعلم عن المستندات المطلوبة للزواج، تبّين لنا أنّ أحد المستندات المطلوبة يجب أن يصدر عن مختار ضيعتي ويحمل توقيع، وتصديق وزارتي الخارجيّة والداخليّة. يكفل هذا المستند أنّني غير متزوّجة ويُسمّى «شهادة عزوبيّة». حاولنا أن نستعيض عن شهادة العزوبيّة بوثيقة طلاق، ولكنّ الجهة المعنية رفضت الأمر، وأصرّت على استلام المستندات المطلوبة كاملةً قبل إرسال موافقة وموعدٍ للزواج.

لقد وضعني هذا الأمر في ورطة، وأشعرني بالضيق. وعندما شعر حامد أنّني لست على ما يرام، سألني عن السبب.

– هل هناك ما يشغل بالك؟

– الورقة المطلوبة منّي قد تكشف نيّتي بالزواج. لقد أصبح مخاتير البلدات يعرفون أنّ هذا المستند لا يُستخدم إلّا لغرض الزواج في الخارج.

– ولكنّ المختار وظيفته أن يخدمك. ليس من شأنه أن يسأل عن استخدامك للمستند.

- أعرف، ولكنّ ضيعتي صغيرة. وفي كلّ مرّة أزور فيها المختار يُخبرني وهو يلحق الطوابع عن كلّ معاملات أهل الضيعة الذين مرّوا قبلي في ذلك النهار. كما أنّه صديقٌ مقربٌ لأبي.

- أهمّ شيءٍ ألاّ يمسّك أيّ ضررٍ بسبب زواجنا.

- لن يكون هناك ضررٌ إلّا النبذ والابتزاز النفسي والاجتماعي المعهود لو علم أحدٌ بهذا الزواج. كلّ ما يعنيني هو ألاّ يقطع أحدٌ عليّ الطريق إلى ابنتي مرّةً أخرى.

تذكّرت شقيقتي نيرمين وأنا أشرح له هذه التفاصيل، وكيف حملتُ هذا الخوف كبذرةٍ بداخلها إلى قارّةٍ أخرى، ونسيته في عتمة نفسها حيث كبر في الظلّ من غير أن تنتبه له حتى توحّش وافترسها.

- لا تقلقي حبيتي. عندي حلٌّ آخر!

- حقّاً؟ ما هو؟

- بإمكاننا أن نتزوَّج في الدنمارك. الزواج هناك لا يتطلّب أكثر من جواز سفرٍ ووثيقة طلاق. كما أنّ الدنمارك تابعةٌ للاتّحاد الأوروبي، وهكذا لن نجد صعوبةً في تسجيل الزواج لاحقاً في ألمانيا.

- أنا موافقة، قلت له بفرح.

عندما حان موعد زيارتي للقريّة هذه المرّة كنت مخطوبة. كان عليّ أن أحفظ بالفرح لنفسي، أن أحرص على ألاّ يتسرّب منه شيءٌ إلى الخارج. كنت مدركةً كم تتمنّى أمّي أن أفرح، ولكنّ كان عليّ أن أحصر احتمالات فرحي في الدوائر الضيّقة

التي رسموها لي كي يشاركوني هذا الفرح ويباركوه. بل إنَّ هذا الحدث الكبير، وبالرَّغم من أنَّه خلق نوعًا من الازدواجية الخارجيّة في حياتي، لم ينقص من شعوري بالفرح وبسلام لم أختبره من قبل. سلام لا تتخلَّله أيّ علامة استفهام أو تردُّد.

أخبرت أمِّي وأبي أنني سأسافر في رحلة عملٍ لمُدَّة شهر، وأنَّ هذا مهمٌّ لمستقبلي المهني. كنت قد جهَّزت نفسي لمواجهة أبي من جديد في حال اعترض على سفري، ولكنَّه اكتفى بطرح عدد من الأسئلة، وطلب منِّي أن أنتبه لسلامتي وأراسلهم باستمرار. شعرت بالغصَّة لأنِّي كذبت على أمِّي. لم تفصلني عن أمِّي أيَّة حواجز منذ كنت طفلة. لقد تماهيت معها رغم القهر والألم، فكيف يكون الحبُّ هو المسؤول عن أوَّل جدارٍ ينتصب بيننا؟

لقد كذبت من أجل حماية مشاعرهم بالمقام الأوَّل. ومن أجل حمايتهم من القوانين الصارمة التي تُحيط بحياتهم، والتي يمتدُّ تأثيرها إلى حياة أبنائهم جميعًا. لقد عاش أبي طيلة حياته في هذه القرية حيث تفرَّغ للعمل الشاقَّ وعبادة ربِّه. تمرَّن على الطاعة حتى نسي من كان قبل ذلك، وحتى أصبح كلَّ تساؤلٍ بمثابة خطيئة بالنسبة له. رغم إدراكي لكلِّ هذا، كنت أرفض بعد هذا العمر أن أهزَّ عالمه وأهدم سمعته أمام المشايخ. أنا لا أريد أن أدمِّر عالمه الصغير، ولكنَّ لم أدرك قبل اليوم أنَّ معتقداته والقوانين المحيطة بها كانت قادرةً على تدمير عالمي للمرَّة الثانية. من أجل هذا كلِّه، فضَّلت أن أعيش سعادتي في صمت، وأترك له ذلك العالم الصغير آمنًا.

كان وداع رحمة هو الأصعب. لم أبتعد عن ابنتي لمدة شهر كامل من قبل. الآن، وبعد أن استقرّ وضعنا العاطفيّ وحافظنا على برنامج أسبوعيّ للقائنا لمدة سنتين، أتى هذا الغياب ليحدث شيئاً من الفوضى في وجداننا، وينقر على مواطن الضعف في قلبينا. ولكن بعد أن جلسنا سوياً، وحسبنا على أصابعنا الأيام التي سنضيّعها على نفسنا بسبب السفر ووعدتها أن أعوضها لها حين أعود، ودّعني دون دموع، وكتبت لي لائحة بالأشياء التي تريدني أن أشتريها لها.

حين وصلت إلى بيروت، عدت العروس التي تتحضرّ لزواجها من فارس أحلامها، وعادت إلى قلبي الخفة والفرح. كان حامد بانتظاري وقد أعدّ لي عشاءً مفاجئاً، وطهى كلّ أطباقه بنفسه. احتفلنا بالردّ الذي وصل من مكتب الزواج في الدنمارك، والذي حدّد لنا الموعد والبلدية التي سيتمّ فيها الزواج بعد أسبوعٍ من اليوم.

- غداً، سنشتري لك ثوب الزفاف! قال حامد وهو يرفع كأسه.

- ثوب زفاف؟ ولكن لن يكون هناك زفاف.

- سيكون هناك «عروسة»، قال بلهجته المصرية.

- سيكون هذا رائعاً للصور التذكارية، قلت بفرح.

وبعد ساعات من التفتيش على فستانٍ مناسب، قصدنا مصمماً مشهوراً في منطقة جونية، فشعرت عندما دخلت أنني سأجد طلبي في هذا المكان. قابلتنا سيّدة خمسينيّة بشوشة الوجه.

- أهلاً بالعروس. أخبريني عن فستان أحلامك، وأنا سأجده لك.

- في الحقيقة، أنا أحبّ البساطة في الفساتين، كما أفَضِّلُ ألا يكون ثَقِيلاً كي أتمكّن من وضعه في حقيبة السفر.

- كم هذا رومانسيّ! ستتزوَّجان في الخارج؟ لا بدّ أنكما ستتزوَّجان في باريس، قالت موجهةً كلامها إلى حامد.

- في الدنمارك، قال حامد.

وبعد أن تبادلّا بضع جُمل، نظرت إليّ السيّدة، وقالت متفاجئة:

- خطيبك مصري! قالت وكأنّها حلّت لغزًا مهمًّا للتوّ.

- أجل وأنا لبنانيّة. أليس جميلًا هذا التنوّع؟ أجبتها بلطف.

وبعد أن وقع اختيارنا على الفستان المناسب وجلسنا قبالة مكتب السيّدة كي تكتب لنا وصلاً بثمانه، طلبت اسمي الكامل.

- أمل بو نمر.

وبعد أن لفظتُ اسمي، رفعت السيّدة نظرها من على دفتر الوصولات:

- أنتِ درزيّة! أليس كذلك؟ أعزّ أصدقائي دروز من عائلة بو نمر. ألقي بهم كلّ أحد.

- أجل، درزيّة.. قلت وقد خفت صوتي.

ثم نظرت السيّدة إلى حامد، وقالت ممازحة:

- كيف أقنعتها أن تتزوَّج بك؟ أتعرف كم من الصعب أن

تتزوج درزيّة برجلٍ غير درزيّ! لا بدّ أنّها تحبّك كثيرًا.
- أنا متأكّد من ذلك، قال حامد مبتسمًا وهو ينظر إلى عينيّ.
وبعد أن أعطتني الوصل، قلت لها بنبرةٍ يتخلّلها شيءٌ من
المرح:

- الآن، سأطلب منك أن تنسي كلّياً أنّ أمل الدرزيّة وخطيبها
المصريّ كانا هنا. وألاً تذكرني اسمي أمام أصدقائك الدروز.
فضحكنا جميعًا وصافحناها، وغادرنا. لقد كان هذا الحدث
على بساطته ينبئنا بطبيعة حياة الاستتار التي سنعيشها في هذا
البلد. فهمنا أنّه علينا أن نكون حذرين بشأن إطلاع الآخرين على
علاقتنا، لأنّ أيّ وشايةٍ قد تهزّ عالمي وعالم أهلي، وقد يصيب
الردم المتأثّي عن هذه الاهتزازات عالم رحمة أيضًا.

قبل سفرنا بليلةٍ واحدة، انتابني شيءٌ من القلق حرمني من
النوم طوال الليل. كان يبدو عليّ الإرهاق في طريقنا إلى المطار.
وحين وصلنا إلى المطار وانهينا من الإجراءات، توجّهنا لاحتساء
القهوة في الكافيتيريا، سألني حامد:

- هل أنتِ بخير؟

- أظنّ ذلك، قلت له بصوتٍ لا يغيب عنه الحزن.

وضع ذراعه خلف ظهري وألقى رأسي على كتفه. وحين
شعرت بفيض حنانه يُغرق شطآن روحي، انتابتنني رغبةٌ في
التلاشي، ثم قلت لإراديّا وكأنّ شيئًا ما دفع الكلمات إلى خارج
فمي:

- أظنّ أنّي أكره نفسي.

وبعد أن اكتشفت فظاعة هذه الجملة، انتظرت أن يقول لي شيئًا، إلاَّ أنَّه بقي صامتًا واكتفى بالتمسيد على ذراعي.

حين أخذنا مقاعدنا في الطائرة، وبعد أن أعلن الكابتن عبر مكبّر الصوت أنَّ الطائرة ستقلع خلال دقائق، نظر إليَّ حامد، وقال:

- يؤلمني جدًّا أن تكرهي نفسك. هذا الكره أصابني في قلبي مثل سهم حادٍّ قبل أن يصل إليك. لم يحبّني أحد مثلما أحببتني أنت. كيف لا يكون لك نصيبٌ من كلّ الحبّ الذي تستطيعين إعطاءه؟

شعرت برغبةٍ في البكاء، فأشحت بوجهي عنه واستدّرت إلى نافذة الطائرة المستديرة.

- سنتزوَّج غدًا. وبعدها سنذهب في شهر عسلٍ، لم أخبركِ عنه شيئًا لأنني أردت أن يكون مفاجأة. قد تكون هناك أسبابٌ للحزن في قلبك، ولكن هناك أسبابٌ كثيرةٌ للفرح أيضًا. فقط تذكّري أنني أحبك في جميع حالاتك.

أغمضت عينيَّ وهو يتكلّم، ورحت أتشبّث بصوته. كنت أسمع كلّ كلمةٍ من كلماته، ولكنّ صوته كان الحبل الذي أتمسّك به، ويشدّني من البئر المظلم التي سقطت فيه. ما لبث أن أنهى حامد كلامه حتى أقلعت الطائرة.

قرّرت أن أغتنم فرصة الألم هذه، وأنكش في الجرح المفتوح قبل أن يندمل. أردت أن أُلقي نظرةً على عمق البئر الذي أواظب على السقوط فيها مرارًا وتكرارًا، فأدركت أنَّ أفضل

طريقةً لفعل ذلك هو أن أتكلّم مع نفسي فوق الورق. فتحت الدُّرج في غرفة الفندق الإسكندنافيّ وأخرجت ورقةً وقلمًا، ورحت أكتب رسالةً لنفسي من الجناح المخصّص للعُرسان في الطابق الثامن عشر، ومدينة كوبنهاغن مستلقيةً بضبابها وهدوئها تحت النوافذ العملاقة للفندق.

«عزيزتي أمل

غداً ستزوّجين الرجل الذي تحبّينه. وعلى الرغم من امتنانك، فإنّ هناك شعورًا آخر يُثقل قلبك وينغصّ عليك سعادتك. تشعرين أنّه عليك أن تصارحيه بالحقيقة. بأنّ تقولي له إنّك لا تستحقّينه، وبأنّ عليه أن يُعيد النظر في هذا الزواج قبل أن يندم.

شيءٌ ما حدث في حياتك وترك أثره على تقديرك لنفسك. قد لا تستطيعين تذكره كحدث، لأنّه حصل بشكلٍ تدريجيّ وخفيّ مثلما يكتسب الحجر لزوجه تحت قطرات الماء التي لم تنقطع عنه لسنوات. في معظم الأوقات، تشعرين بأنّك عبءٌ على الآخرين، وأنّه ليس باستطاعتك أن تقدّمي لهم الكثير. لهذا، ينتابك شعورٌ بالارتباك والخزي حين يُظهر لك أحدُ الكثير من الحبّ والكرم.

لقد رضيتِ بتسويةٍ مشبوهة طوال تلك السنوات. أوهموكِ قبل ثلاثة عشر عامًا بأنّك أنتِ صاحبة القرار، ولكنّهم تركوا لكِ احتمالاتٍ قليلةً فوق لائحةٍ لم تكتبي منها حرفًا. فاخترتِ الرجل الأقلّ أذيةً، المنزل الأكثر أمانًا، السجن الذي يوفّر مساحةً أوسع. وبعد ذلك، أخبروكِ أنّكِ وحدكِ المسؤولة عن تلك

القرارات، وأنَّ عدم تقديرِكَ لهذه النعم يجعل منك جاحدة. ولكنَّ في الحقيقة، أنتِ لم تختاري شيئًا، ولم تمتلكي رفاهيَّة الاختيار يومًا.

أعرف كلَّ شيءٍ عن كوابيسك أيضًا. الكوابيس التي تأخذك إلى بيتك القديم، وتضعك في مواجهةٍ مع زوجك السابق. أعرف أنَّك تعاقبين نفسك بالعودة إلى هناك. تعودين لأنَّ جزءًا منك ما زال عالقًا في غرف الماضي المظلمة، حيث كنتِ تفتقدين الصوت والشجاعة والكرامة.

اليوم ولأوَّل مرَّة، أنتِ لا تساومين. بل غدًا ستنزويجين أعظم رجلٍ عرفته في حياتك، حبيبك، وصديقك الأقرب. أعرف أنَّ هذا الواقع أكبر من أن يتحمَّله قلبك الذي لم يعرف السعادة التامة، ولكنَّ عليك أن تصدِّقي أنَّك تستحقِّين هذا الحبِّ. عليك أن تقنعي أنَّك تمتلكين حياتك وجسدك كي تقنعي الآخرين بذلك. عليك أن تصدِّقي أنَّك تستحقِّين الحياة كي تجدي القوَّة لاستعادتها من جديد. عليك أن تكوني سعيدةً لأجل حبيبك. قد لا تكونين معصومةً من الخطأ، ولكنَّ لا بدَّ أنَّك اتَّخذت الخطوات الصحيحة كي تصلي إلى هذا الحبِّ».

بعد أن كتبت هذه الرسالة لنفسِي، أدركت أنَّني لن أتمكَّن أبدًا من أن أُخرس هذا المتربِّص ولا أن أمحوه من حياتي، لأنَّه أيضًا ينتمي إلى المداميك الأولى التي شكَّلت وجداني، والتي بنيت فوقها المداميك الأخرى لحياتي. كلَّ ما أستطيع أن أفعله هو أن أعترف بوجوده، وأتوقَّف عن الخوف أو الهروب منه، وأن أعامله كقطِّ هائجٍ أُمسِّد فروته وأضع له القليل من الطعام تحت

سريري، ليهدأ ويدعني بسلام.

شعرت بخفة بعد كتابتي الرسالة، وكأنني شخّصت المرض ولم يتبقّ لي سوى معالجته. لطالما سمعت أنّ التشخيص هو نصف العلاج، والدليل على ذلك هو شعوري بهذه الخفة المفاجئة. في الصباح، استيقظنا باكراً للذهاب إلى مبنى بلدية «فريدركسبيرج» حيث سيقوم عمدة المدينة بعقد قرانا، والذي سيتبيّن لنا لاحقاً أنّها امرأة. ارتديت فستان الزفاف وصففت شعري، ووضعت مكياجاً خفيفاً، وحين نظرت إلى المرأة شعرت أنّي جميلة، فابتسمت.

أقلّنا السائق الذي كان ينتظرنا في ردهة الفندق إلى مبنى البلدية، وحين وصلنا سجّلنا اسمينا، ورحنا ننتظر على المقعد المواجه لنافورة المياه في الحديقة. كان كلّ شيء من حولنا هادئاً ومسالماً. بارك لنا بعض المارة، وعرض آخرون علينا التقاط صورنا معاً. لم يكن زفافنا هذا يُشبه شيئاً من حفلات الزفاف التي عرفناها في بلادنا. لم يكن هناك أهلٌ وأصحابٌ ومدعوون ولا طبل وزمر ولا موائد طعام. كنّا وحدنا بوجودنا الممتلئ، وبسعادةٍ مكتملةٍ لا ينقصها شيء.

عندما حان الموعد، دخلنا إلى المبنى، وقادنا أحد المساعدين إلى القاعة التي يتمّ فيها عقد القران. ولكنّ قبل أن ندخل سألنا المساعد عن أسماء الأشخاص الذين سيشهدون على الزواج، فنظرنا أنا وحامد إلى بعضنا بارتباك. فنحن لا نعرف أحداً في هذه المدينة. ولكنّ سرعان ما لاحظ المساعد ارتباكنا، وقال لنا إنّه بإمكانه أن يؤمّن لنا شاهدين من موظفي البلدية بكلّ

سرور، ففرحنا. وبعدها دخلنا إلى القاعة، وجلسنا على كرسيين كبيرين أمام العمدة - كانت امرأة أربعينية ذات ملامح لطيفة. بدأت كلامها بسؤالنا عن اسمينا والمباركة لنا، ثم طلبت منا أن نقف، وراحت تقرأ علينا عبارات جميلة عن الزواج ومعناه، ثم سألت كلاً منا إن كان يقبل بالآخر شريكاً له في السراء والضراء، في الصحة والمرض... فوافقنا. وحين أعلنت أننا أصبحنا زوجين، تعانقنا وسالت دموع الفرح على وجهينا.

في المساء، ذهبنا للعشاء في المطعم، حيث حجز حامد طاولةً للاحتفال بزواجنا. وقبل تقديم الطعام، سحب من جيبه ظرفاً ووضع أمامي قائلًا «هذه هدية الزفاف». أخذت الظرف، وحين فتحته وجدت تذاكر رحلة بحرية لعشرة أيام على متن باخرة تُبحر من مدينة «نيس» الفرنسية، وتمرّ على أشهر مدن جنوب فرنسا أو المنطقة المعروفة بـ Cote d'Azur.

- هذا كثير يا حبيبي! لا أحتاج سوى قربك كي أكون سعيدة.
- حين بدأت قصّتنا، قطعت على نفسي عهدًا بأن أريك العالم كله. هذه فقط محطّتنا الأولى.

لا أعرف إن كنت أستطيع القول إنَّ هذا هو أسعد يوم في حياتي. فالحياة هي مجموعة أحداثٍ لا يظهر فيها حدثٌ إلّا نتيجةً لبذرةٍ زرعها الحدث الذي سبقه. ما الذي أوصلني إلى هنا؟ هل هو زوجي الأوّل الذي أيقظ في نفسي الرغبة في كسر القيود؟ أم مشواري الذي ذهبته خلسةً إلى الجامعة الأميركية، حيث التقيت حامد بعد سنوات؟ هل هي مغادرتي للمنزل الزوجي والقفز

نحو المجهول بعد منتصف الليل؟ وهل لقدرتي على تلقّي الفرح
أن تتشكّل لولا كلّ الألم الذي اختبرته؟ هل تلك الأحداث
مجتمعةً صنعت سعادتي اليوم؟ أم أنّ توقي إلى حبّ بهذا الحجم
كان المحرّك لكلّ خطوةٍ سابقةٍ في حياتي؟

في المساء، استلقيت إلى جانب حامد في سريرنا، ورحت
أحدّق بسقف الغرفة. بدأ صدى كلمات قصيدةٍ لم أكتبها يتردّد في
رأسي. لقد كتبت لحامد الكثير من القصائد، ولكنّ كانت هذه
أوّل مرّة تصيبنني حمّى الكتابة وأنا إلى جانبه. فغادرت السرير،
وجلست أمام الطاولة حيث كتبت رسالةً لنفسي في الأمس،
ورحت أكتب...

لأنّ البحر كان بعيداً
ولم أكن قد لمست مركباً من قبل،
ولأنّ هروبي مهما بلغت شدّته
كان ينتهي بالنوم أو توسّله،
أصبح التحديق بالسقف مركبي.

حفظت عن طريق الهروب
خرائط الرطوبة في سقف كلّ بيتٍ سكنته
الأضواء المستديرة في أسقف الحافلات
والبيضاء المستطيلة في قاعات المحاضرات.
بحثت عن الطريق إلى الله

في خطوط أسقف عيادات الطبّ النسائي
وعن حضنه في أضواء أسقف غرف العمليّات

حين وجدتك توقّفت عن الهرب
ولكن بقي التحديق في السقف عادةً أليفة
منزوعة الحرقّة . . .

في آخر مرّة استلقيت جنبك
رحت أحّدق بالزهور الصغيرة الناتئة
التي تُزيّن السقف فوق سريرنا
كانت حجريّةً وبيضاء
وكانت أنفاسك عبيرها
حدّقت بها كثيرًا حتى أصبحت
جزءًا من قلبي
وأصبح التحديق في السقف
نافذةً على حديقة الله .

غادرنا إلى باريس بعد يومين . وهناك أمضينا أسبوعًا في اكتشاف المدينة سيرًا على الأقدام ، والاستمتاع بالمأكولات ومعارض الفنانين والنزهات بجانب نهر السين . وعندما حان موعد الرحلة البحرية ، ركبنا طائرةً إلى مدينة «نيس» ، ومن هناك أبحرنا إلى مدينة «كان» حيث تسكَّعنا طوال النهار ورقصنا على أنغام الموسيقيين الذين يعزفون في الشوارع . وفي اليوم الثاني ، أبحرنا إلى مدينة «سانت تروبيز» فتسلَّقنا أعلى قلعةٍ فيها ، وراقبنا المغيب ونحن متعانقان . وحين وصلنا إلى مدينة «باندول» ، أدهشنا جمال ميناء الصيَّادين المرصَّع بالقوارب الملونة ، فوقعنا في حبِّ ذلك المكان الذي يشبهنا ببساطته وهدوئه . وبعد يوم كاملٍ من الإبحار ، وصلت الباخرة إلى «مارسيليا» . ومن هناك ، ذهبنا على متن باصٍ في رحلةٍ إلى قرية «كاسيس» الغارقة بين الجبال ببيوتها الملونة الصغيرة ومينائها الذي تموج بخليط الألوان المتسرَّب من الانعكاسات .

أثناء الإبحار بين المدن، كنّا نطارد بعضنا بعضاً بين طوابق الباخرة كالأطفال، فنمرّ على المطاعم والبارات لتناول شيء من الطعام ثم نأخذ كأسَي بيرة ونصعد بهما إلى سطح الباخرة لنستمع بمشهد الغروب وبخفّة الإبحار. عند انتهاء الرحلة، كنّا جاهزين للعودة إلى المنزل الذي اختاره حامد وجهّزه في بيروت.

أقمنا في بيروت لثلاث سنوات، كان حامد يمارس خلالها مهنة الكتابة من المنزل، بينما واصلت عملي في مجال الأبحاث في الجامعة الأميركية. كنت أرافقه إلى ألمانيا عند صدور كتابٍ جديدٍ له، فيصحبني معه إلى المحاضرات حيث أجلس بين الحضور مستمتعةً بالنظر إليه والاستماع إلى صوته وهو يتكلّم الألمانية التي بدأت أتعلّمها. أمّا علاقتي برحمة فكانت قد توطّدت خلال تلك السنوات. أصبح الرابط الذي يجمعنا أكثر صلابَةً، ويتخلّل علاقتنا الكثير من الفهم والاحتواء. حافظتُ على زيارتي الأسبوعيّة لها في القرية، وفي عطلة الصيف، كنت أصحبها إلى البحر لنمضي عدّة ليالٍ في شاليهات الشمال، فنسهر حتى ساعات الفجر الأولى نلهو ونضحك ونخوض أحياناً في أحاديث عميقة عن الحياة والسعادة والحريّة.

كلّ هذا كان يحصل في حياتين منفصلتين.. حياةٍ أعيشها مع حامد بحقيقتي الكاملة كزوجةٍ وحبّية، وحياةٍ أخرى أعيشها مع والديّ وابنتي وأكون فيها الابنة والأمّ والمرأة العاملة فقط. تمنّيت لو أنّني أستطيع أن أطلع ابنتي على حقيقة الحياة التي أعيشها، ولكنني عدلت عن الفكرة كي لا أرهق كاهلها الطريّ بثقل أسرار الكبار. إنّ أعلمتها، عليّ أن أطلب منها أن تحرس السرّ جيّداً

حتى من زلّة اللسان! أمّا أمّي، فوددت لو أخبرها لأريحها من قلقها الدائم عليّ.

- حين أشعر بتوَعُكٍ صَحِّي أفكّر بك يا أمل. أنت وحيدة في بيروت. ماذا لو حدث لك شيء؟ ماذا لو أصابك مكروه وأنت في غرفتك ولم يعلم بك أحد؟ لقد مضى على انفصالك أكثر من أربع سنوات، لماذا لا تجددين ابن حلالٍ يردّ عاك ويفهمك؟ يحقّ لك البدء من جديد.

غالبًا ما كانت تقول أمّي هذه الكلمات بحرقة، فأطمئنها بما تيسّر من الكلام، وأصمت.

ليتّك تعلمين يا أمّي كم أنا سعيدة! ليتني أستطيع أن أفرح قلبك وأخبرك أنّ الحياة وهبتني إنسانًا يحبّني كما تحبّيني تمامًا. كم أتمنّى أن أقول: أنا في أيّد أمينة يا أمّي!

لقد تمسّكنا أنا وحامد بالسكن في بيروت على الرّغم من افتقارها للرفاهية والقوانين التي أدركنا لها ظهرنا في برلين. كان وجودنا معًا يشبه وظيفة المفصل، وكلّ شيءٍ آخر في حياتنا كان بابًا دوارًا، قد يفتح على مكانٍ ويغلق على مكانٍ آخر. لقد بقيت في بيروت من أجل رحمة، وبقي حامد هنا من أجلي.. حتى كان الرابع من آب من سنة 2020، وقدّر لأحداث الخارج أن تغيّر مسار حياتنا! لقد انفجر مرفأ بيروت، وحوّل حياة آلاف المواطنين ووجدانهم إلى حطام. انفجرت بيروت مثل امرأةٍ أمضت خمسين عامًا في كبت مشاعرهما لتبصقها مرّة واحدة في انفجارٍ كلّفها أرواح أبنائها. انفجار بيروت كان هزيمةً للجمال

والحياة والأدب. هزيمةً واجهت اللبنانيين مع أنفسهم، وجعلتهم يُدركون أنَّهم أخفقوا منذ البداية، منذ أخاطوا جراحهم على أنسجتها الملوثة متغنين بجمال الغرز، متظاهرين أنَّ الحرب الأهلية قد انتهت. انفجر ميناء بيروت بعد أن مررت عليه أنا وحامد بسيَّارتنا بعشرين دقيقة فقط. عشرين دقيقة فصلتنا عن الموت الذي أصاب المئات وشرَّد الآلاف.

لم يكن انفجار المرفأ الذي حطَّم نوافذ بيتنا كافياً حتى نغادر بيروت، ولكنَّ عندما امتدَّت ألسنة وباء كورونا إلى لبنان وفصلت أنابيب الإنعاش عمَّا تبقي من مؤسَّساته واقتصاده، صارت الحياة أصعب. ما لبثت بعد ذلك أن تدهورت العملة، وفقدت 90 في المئة من قيمتها، فأصبح تأمين مقوَّمات الحياة الأساسية في غاية الصعوبة حتى لمن هم ميسورو الحال. اخترنا أنا وحامد الانتظار الطويل على محطَّات تعبئة الوقود، وجلسنا في بيتنا لأيَّام من دون كهرباء ولا مصدرًا بديلاً للطاقة، وواكبنا انقطاع الكثير من المواد الغذائية. كما كثرت حوادث قطع الطرق والسرقة والعنف.. فصرت أخاف على سلامة حامد، ويخاف هو على سلامتي.

كنت في تلك الأثناء قد بدأت أتقبَّل فكرة الهجرة، وعملت على نصيحة حامد في التفتيش عن جامعة في ألمانيا لألتحق بأحد برامج الدكتوراه. وبعد أن أكملت جمع الأوراق وأرسلت الإيميل، أقنعت نفسي أنَّي بهذه الطريقة أترك الأمر للقدر.

اغتنمت كلَّ فرصة لأذكر الأمر أمام أمِّي ورحمة. كان عليَّ أن أمهِّد لمفاجأة قد أجدها في بريدي الإلكتروني في أيِّ لحظة. لذلك، رحت أخبر رحمة عن جمال برلين، وأرسم لها خططًا

للمستقبل البعيد حيث ستزور هي أيضًا برلين وتمضي معي عطلة الصيف، ولكنها كانت تقاوم الفكرة بقولها «سأكون قد كبرت حين تذهبين».

ولكنّ مقاومة ابنتي للفكرة لم تمنعها أن تصبح واقعًا. بعد شهرٍ من مراسلتي للجامعة، جاءت الموافقة لترسم لنا دربًا جديدًا ورحلةً أخرى. كان الجانب المنطقيّ منّي مستعدًا لهذه الفكرة، ولكنّ قلبي بدأ ينتحب. لقد أصبحت رحمة في الثانية عشرة من عمرها، وأصبح لها أصدقاء ونشاطاتٌ وحياةٌ خاصّةٌ بها، ولكنّ شيئًا ما في داخلي كان يجعلني أنقلب على نفسي في كلّ مرّة أفكر بالرحيل، شيئًا ما يُعيدني للبداية، حين تركت المنزل واستفاقت رحمة في الصباح على عالمٍ لم أعد جزءًا ثابتًا فيه.

بقيت أسابيع قليلة على وجودي في بيروت، وكان لا بدّ لي أن أنهي الكثير من الأعمال المعلّقة على الصعيد الوجداني والعمليّ. فكّرت بأُمّي دون انقطاع، بحرقتها وهي تقول لي إنّها تتمنّى لو أبدأ من جديد، ولو أنّ هناك من يحبّني ويهتمّ بي! تذكّرت الرابط الذي يجمع النساء مثلما تتعانق جذور الأشجار العتيقة على بعد مئات الأميال تحت سطح الأرض. تذكّرت كلّ النساء اللواتي شعرن بضعفي في لحظاتٍ معيّنة، فدعمني بكلمةٍ أو ابتسامَةٍ أو حضن. لماذا لا أجدّد يقيني بهذا الرابط غير المرئيّ؟ لم لا أتبع الجذور حتى أصل إلى الجذر الذي ينمو من قلب أُمّي؟ لماذا لا أقول لها إنّني سعيدةٌ من غير أن أستخدم الكلمات؟ لماذا أشكّ للحظةٍ أنّها ستفرح لفرحي؟

بقيت لساعاتٍ مستيقظةً أتقلّب في السرير، وأغازل تلك

الأفكار حتى اجتاحت رأسي. وعندما استيقظ حامد، قلت له مثل أمّ تُحدّث طفلها:

- هل تذهب معي في مشوار؟
 - إلى أين؟
 - إلى قريتي. أريدك أن تلتقي أمي.
 - ماذا؟ لا بدّ أنّك تمزحين، قال مبتسمًا.
 - لا. أنا أعرف كم أنت متشوّق لرؤيتها، وأنّك تحبّها من غير أن تلتقيها.
 - طبعًا أحبّها. هي السبب في وجودك. ولكننا أخفينا أمر زواجنا كي نحميها! ماذا حدث الآن؟
 - لم يحدث شيء. لن أقول لها إنّك زوجي. سأجعلها تتوصّل للاستنتاج الذي يُعجبها. أنا بهذه الزيارة أقدم لها حفنة من قطع «الليغو» lego، وأترك لها الخيار في بناء أيّ جوابٍ يرضيها.
 - هل أنت متأكّدة يا أمل؟ أتمنّى أن ألتقيها، ولكنني لا أريد أن أجرح مشاعرهما ولا أن أعرضك للوم.
 - سأتأكّد أنّ أبي ليس في المنزل حين نزورها.
- نمت هذه الفكرة في رأسي كما تنمو الطحالب فوق جذوع الأشجار في فصل الربيع. وقبل أن أرحل بأسبوع، هاتفتم أمي وقلت لها إنّني سأحضر ضيفًا إلى بيتنا، وإنّني أفضل ألا يكون والدي في المنزل. لم يكن هذا الطلب غريبًا على أمي، لأنّها تعلم أنّ أبي لا يمانع زيارة أيّ من معارفنا وأصدقائنا، ولكنّها أيضًا تعلم أنّه في حضور أبي يولد شعورٌ بالتكلّف وعدم الارتياح.

- أهلاً وسهلاً، حبيبتي. هذا منزلِك يا أمل. أشعر بالسوء حين تستأذنيني لدعوة أصدقائك إلى المنزل، قالت أمِّي عبر الهاتف.

- الله يديمكم ماما. سنمرُّ سريعاً لشرب القهوة. ضيفي يحبّ الطبيعة ومهتمٌ بقرى جبل لبنان.
- أنا بانتظاركما غداً صباحاً.

شعرت بخليطٍ من الرهبة والحماس وأنا أستعدّ لمشواري مع حامد إلى القرية. أخيراً، سيجتمعان في غرفةٍ واحدة. المرأة التي جاءت بي إلى الحياة، والرجل الذي أهداني إيّاها. المرأة التي حملتُ وجعها لسنواتٍ حتى أثمر، والرجل الذي كان له النصيب في هذا الثمر. كان حامد وأمِّي يتقاطعان في وجداني في عشرات الأماكن، وقد التقيا لمرّاتٍ ومرّاتٍ بطرقٍ لن يعرفا عنها شيئاً. والآن، كلّ هذا سيأخذ بُعداً مرثياً. سيلتقيان في الحقيقة!

حدثٌ بحجم لقاء أمِّي وحامد خطف البريق من زيارته لقريتي والدخول إلى المنزل الذي وُلدت وتربّيت فيه لأوّل مرّة. كلّ شيءٍ كان أشبه بالحلم. أخذت سيّارتنا تتسلّق الجبال، وراح حامد يراقب الطبيعة بصمت.

- كان من الصعب ألا تكوني شاعرة. امرأةٌ بإحساسك وطبيعةٌ بهذا الجمال كان لا بدّ أن يخلقا شاعرة! قال حامد وهو يتأمّل الجبال والطرق المفتوحة أمامنا.

- سنصل بعد عشرين دقيقة. هل تشعر بالتوتر؟ سألت حامد وأنا أُمسك يده.

- أبدأ، حبيتي. أنا أثق بكلّ خطواتك وقراراتك.

كانت الساعة قد اقتربت من الحادية عشرة حين وصلنا. ركنت السيّارة، وشعرت بشيءٍ من الراحة حين لاحظت أنّ سيّارة أبي ليست في مكانها. مشيت باتجاه المنزل ومشى حامد بجانبني.

استقبلتنا أمّي في الفناء المُحاط بأحواض الزهور، وكانت قد وضعت «الستحة» فوق فمها، فلم يظهر من وجهها سوى عينيها وخديّها. وبعد أن سلّمت على حامد من غير مصافحةٍ ورَحّبت به، أخذتني في حضنها ودعتنا لدخول إلى غرفة الضيوف.

جلسنا أنا وحامد على مقعدين منفصلين، وجلست هي قبالتنا على مقعدٍ ثالثٍ. . ونظرت إلى حامد.

- أهلاً بك. . تشرفنا بزيارتك.

- أشكرك. لقد سمعت الكثير عنك من أمل.

نظرت لي لثوانٍ، وابتسمت:

- ضيوف أمل وأحبّاءها هم أحبّائي أيضاً، قالت برزانتها المعتادة.

- ماما، حامد يعرف الكثير عن ثقافتنا. . كما إنّهُ يحبّ شرب «المثّة».

- حقاً؟ هل المثّة منتشرة في مصر؟ قالت وقد استنتجت أنّه مصريٌّ من لكتبته.

- لا. أنا أعيش في ألمانيا، وهناك أجدها في محلّات السوريين والأرجنتينيين.

صفت أُمِّي بعد هذا التصريح وصمتت لفترةٍ طويلة، تبادلنا أنا وحامد جرّاءها نظراتٍ فيها شيءٌ من الارتباك والقلق. هل يمكن أن تكون قد ربطت بين الخيوط؟ هل اكتشفت الأمر؟ وقبل أن تسحبني تساؤلاتي إلى مكانٍ مخيف، قالت أُمِّي:

- لن أقبل أن تشربوا القهوة إن كان ضيفك من محبّي «المتّة». القهوة مشروبٌ سريع وغالبًا ما نُقدّمه للغرباء، قالت أُمِّي هذه الكلمات وغادرت غرفة الضيوف لتجهّز عدّة «المتّة» وملحقاتها في المطبخ.

تبعتهَا لأقدّم لها المساعدة، وأستنبط منها المزيد. ولكنّها لم تقل شيئًا.

جلسنا سوياً، وتكلّمنا عن أشياء متفرّقة.. ثم طلبتُ منها أن تُحدّث حامد عن عملها في صناعة المنتجات البلديّة والخبز منذ أكثر من ثلاثة عقود.

- هذا عمل متواضع، يا أمل. أنا لا أملك مؤسّسة كي أتكلّم عن إنجازاتي. أنا أعمل من مطبخي كي أنسى العالم القائم خارج المطبخ.

- ولكنّ ما تفعلينه عظيم. خيارك يعرفُ عنك. حين تُخبرني أمل عن عملك لا أسمع أنّك صانعة خبز، بل أسمع أنّك امرأةٌ نزيهة، حرّة، ومستقلّة - قال حامد باندفاع.

- لا قيمة لحياة الإنسان إن لم يكن نزيهاً وحرّاً، قالت أُمِّي هذه الكلمات وهي تنظر في عينيّ. وكأنّها تقول لي إنّها فهمت بأنّي حرّةٌ أيضاً، وبأنّ هذه الزيارة ليست إلّا امتداداً لتوقها للحرية التي لم تتمكّن من تحقيقها.

شربنا المّة وأمضينا أكثر من ساعة هناك، رافقتنا بعدها أمّي إلى الباب لوداعنا. وقبل أن نذهب نظرت إلينا، وقالت:
- اعتنيا بنفسيكما.

وفي حركةٍ تلقائيّة، مدّت أمّي يدها وسلّمت على حامد وابتسمت له ابتسامةً تحمل الكثير من المحبّة، وكانت هذه أوّل مرّة في حياتها تصافح رجلاً ليس محرّمها. شعرت أنّها فهمت كم يعني هذا الرجل بالنسبة لي، وكم أرادت أن تُبارك ارتباطنا دون أن تتورّط في لعبة الكلمات.. ثم عانقتني طويلاً لتجعلني أفهم أنّها سعيدة لسعادتي، وأنّ سعادتي أهمّ عندها من أيّ اعتبارٍ آخر.
- سأزورك في الأسبوع القادم لأودّع رحمة وأبي ونيرمين، قلت لها ملوّحةً.

شعرت أنّ حملاً ثقيلاً قد تنحّى عن كاهلي حين قدّمت حامد إلى أمّي. والآن، لم يتبقّ سوى وداع ابنتي رحمة. عليّ أن أستجمع كامل قوّتي كي أبقى قويّة أمامها، كي أمدها باليقين والاحتواء اللذين اعتادت أن تجدهما حين تلجأ إلى حضني. أمضيت آخر يومين معها ونحن نحاول تجنّب الحديث عن الوداع. اخترت توتراً داخلياً لم أختبره منذ الأسابيع الأولى لطلاقي قبل أربع سنوات. رحمة ابنة السبع سنوات التي تركتها نائمة حين غادرت، لم تعد موجودة في الواقع، ولكنّها ما زالت حيّة في وجداني. ما زالت تزورني في أحلامي، وتنزلق معي إلى أحلك دهاليز نفسي. في اليوم الأخير مع رحمة ذات الاثني عشر عاماً، كانت ترافقنا نسخة قديمة منها تمشي بمحاذاتها بطيفها الحزين الشاحب وعينيها المليئتين بالذعر.

- ما رأيك بأن نذهب في نزهةٍ إلى النهر؟ قلت لرحمة بشيءٍ من المرح المفتعل.

- حسنًا.. ردّت رحمة باقتضاب.

فمشينا باتجاه النهر حيث نحّب أن نتنزّه عادةً. وبعد فترة من الصمت، سألتني:

- كم شهرًا ستغيين هذه المرّة؟

- حوالى خمسة أشهر.

عدنا للصمت مجددًا، ورحنا نراقب النهر الذي يملأ المكان بخبره. تمنّيت لو يمضي الوقت بسرعة حتى نتوّدع، وأريحها وأريح نفسي من عذاب الانتظار هذا. ولكنّ صوتًا ما في داخلي، صوت المرأة المتوحّشة استفاق واستفاقت معه رغبتى بحمايتها واجتراع ألمها دفعةً واحدة.

- أنا أعرف أنّك تتألّمين يا رحمة.. وأنا أتألّم أيضًا.

عندما سمعت تلك الكلمات، غطّت رحمة وجهها بكفّيتها وبدأت تبكي. عانقتها وجلسنا تحت الأشجار، وبكىنا معًا لوقتٍ طويل. وعندما هدأت، تكلمت معها من جديد:

- أعرف أنّك أصبحت كبيرة، ولكنّ أريدك أن تجلسي فوق ركبتي كي نتحدّث كما كنّا نفعل وأنّك صغيرة.

وحين جلست فوق ركبتي، قلت لها:

- أنا أمّك يا رحمة. وهذا الرباط المقدّس الذي يجمعنا لا يمكن أن تُغيّر فيه المسافة شيئًا. أنا أمّك، وسأبقى أمّك إلى الأبد. كما أنّك ستصبحين راشدةً بعد سنواتٍ قليلة، وستأتين

لزيارتي أو للعيش معي إنَّ أنتِ اخترت ذلك. سيكون لكِ نافذة على عالم آخر. عالم أوسع من عالمنا هذا. . أعدك يا حبيبتي.

- هل يمكنني أن أتصل بك عن طريق الفيديو؟

- طبعًا حبيبتي! الآن وقد أصبح لديك هاتفك الخاص، بإمكاننا التواصل كلَّ يوم.

وضعت ذراعي حول كتفيها وبدأنا بالسير باتجاه المنزل، وطيف رحمة ذات السنوات السبع يقف عند النهر ويراقبنا مبتعدتين.

بكيّ طوال طريقي إلى بيروت. وحين وصلت إلى المنزل، عانقني حامد دون أن يطرح أيّ أسئلة. في صباح اليوم التالي، وبعد أن حزمنا حقائبنا وتوجَّهنا إلى المطار، لاحظ حامد أنَّ قلبي ما زال ثقيلًا فوضع يده على كتفي، وقال لي:

- أكتب ليها يا أمل. أخبريها كلَّ شيء. يومًا ما ستقرأ وتفهم.

فمدت يدي إلى الحقيبة، وأخرجت قلماً وورقة:

«عزيزتي رحمة

سألتني بعد مغادرتي المنزل بأسابيع، متى يتوقَّف الألم؟

ماذا كنت سأقول لأعوامكِ السبعة يا صغيرتي، كي لا أخدش وجه الطفولة. أخبركِ بالحقيقة؟ أقول لعينيك الدامعتين أنَّ الألم لن يتوقَّف أبداً؟

الوجع لن يتوقَّف يا صغيرة، ولكنَّه سيَتَّخذ أشكالاً أخرى، وسوف تصبحين غير قادرةٍ على تمييزه. قد ترقصين رقصةً بفستانٍ

أسود أو أبيض، وتُبكين العيون والقلوب معًا، وستفرحين لذلك، لكنك لن تُدركي لحظتها أن هذا هو الألم نفسه.

قد ترسمين لوحةً أو تكتبين قصيدةً، وسيكون الوجد هو صاحب التوقيع. وقد لا تفعلين شيئًا من هذا. قد تعيشين حياةً عاديةً وتحضنين أطفالك ذات يوم بحبٍّ قويٍّ ونقيٍّ وشرسٍ، وسوف يكون الوجد هو عصب ذراعَيْكِ!

وقد تجلسين يومًا ما في مكانٍ ما، ويجلس طفلك في مكانٍ آخر، وقد تكتبين له كما أكتب لك الآن كلامًا جميلًا ومؤلمًا عن الحبِّ وعوالمه وأشكاله، وستدركين لحظتها أن الوجد لن يغيب. قد يكون الألم فنًّا، ولكنَّ الحبَّ هو تحفته المكتملة. الحبُّ الذي تنبأت لي به منذ سنوات بجانب النهر تحقَّق، ولكنَّ الفرق بيني وبين سندريلَّا هو أنني لم أعد بحاجةٍ لأستعير حقيقةً شخصٍ آخر كي أنال الحبَّ. الحبُّ يا صغيرتي جعلني حقيقةً وحظَّم كلَّ الأساطير التي كانت تحجبني عن الحياة. قلبك الصغير كان يعلم ما لا سبيل لنا إلى معرفته عن طريق التحليل والتعليل. علمت منذ البداية أنَّ الحبَّ هو مصير كلِّ من آمن به. وقبل أن تفهمي معنى كلمة إيمان، آمنت بحبِّي لك. الحبُّ هو ما يحدث لنا قبل أن نجد مصطلحاتٍ جاهزةً لنسكبه في قوالبها.

أتدركين صعوبة أن أكتب لك، مع علمي الكامل أنك تحتاجين إلى ستِّ سنوات على الأقلَّ لتفهمي الأبعاد القريبة لكلماتي؟ أيعقل أن تنتهي صلاحية الآلام أيضًا ويُبطل مفعولها؟ أم أنَّ الفهم سيأتي متأخرًا عن الألم بستِّ سنوات، ويصبح مفعول جرعتي الشرِّية منتهى الصلاحية؟

بي من التواضع ما يجعلني أدرك أنني لا أستطيع إنقاذك من
هذا الوجد ولكنني أعرف يا صغيرتي أن هذه المعاناة بالذات هي
جوهر الحياة وسرّها الأكثر قداسة. هذه المعاناة هي الخيط الرفيع
الذي سيوصلك إلى قلبك حين تكبرين. فالكبار يا صغيرة يفقدون
قلوبهم في زحمة الأشياء في دواخلهم. يكبر الجسد ويزداد القلب
تيهاً في عتمة النفس. . ولكنني سأهيك هذا الخيط، وسأذكرك
دائماً أن في الجانب الآخر منه، في الجانب البعيد، سيكون
قلبك، وأن في قلبك ستجدين الله والحبّ والحقيقة. . . احتفظي
بهذا الخيط يا حبيبتي، ولكن لا تجرحي به إصبعك من الآن إلى
حينها!

telegram @yasmeenbook

